مكتبة

أرنالدور أندريداسون
ARNALDUR INDRIÐASON

عملية نابليون

NAPÓLEONSSKJÖLIN

OPERATION NAPOLEON

مكتبة رواية ٧٨٤

بيعت 14 مليون نسخة من رواياته وترجمت إلى 40 لغة عالمية

THAQAFA ثقافة للنشر والتوزيع ذ.م.م
Publishing & Distribution L.L.C.
الإمارات U.A.E.

عملية نابليون

NAPÓLEONSSKJÖLIN

OPERATION NAPOLEON

مكتبة | 784
سُر مَن قرأ

إهداء لـ..

من قالت أن

أندريداسون

هو الأفضل

Pamela

عنوان الأصل الأيسلندي **Napóleonsskjölin**
عنوان النسخة الإنجليزية **Operation Napoleon**
حقوق الترجمة العربية مرخّص بها قانونياً من الناشر
Published by agreement with: Forlagid Publishing
Bræoraborgarstig 7, 101 Reykjavik Iceland
بمقتضى الاتفاق الخطي الموقّع بينه وبين ثقافة للنشر والتوزيع، ذ.م.م.
Copyright © 1999 Arnaldur Indriðason
This Book has been translated with a financial support from:
ICELANDIC LITERATURE CENTER
Arabic Copyright © 2020 by THAQAFA Publishing & Distribution L.L.C.

الطبعة الأولى: كانون الثاني/يناير 2021 م - 1442 هـ

ردمك 978-9948-25-792-9

مكتبة ٢٠٢١ ١٢ ٢٨
t.me/t_pdf

THAQAFA ثقافة
للنشر والتوزيع ذ.م.م.
Publishing & Distribution L.L.C.
الإمارات U.A.E.
كابتال تاور، مركز أبو ظبي للمعارض ADNEC
ص.ب: 27977، أبو ظبي، الإمارات العربية المتحدة
هاتف: 6766700 (2-971+) فاكس: 6766972 (2-971+)
بيروت هاتف: 786233 (1-961+) فاكس: 786230 (1-961+)
بريد إلكتروني: smartd_1@eim.ae

إن دار ثقافة للنشر والتوزيع غير مسؤولة عن آراء وأفكار المؤلف، وتعبّر الآراء الواردة في هذا الكتاب عن آرائه وليس بالضرورة عن آراء الدار.

تصميم الغلاف: **علي القهوجي**

التنضيد وفرز الألوان: **أبجد غرافيكس**، بيروت - هاتف 785107 (1-961+)
الطباعة: **مطابع الدار العربية للعلوم**، بيروت - هاتف 786233 (1-961+)

عملية نابليون

NAPÓLEONSSKJÖLIN

OPERATION NAPOLEON

رواية

مكتبة | 784
سُر مَن قرأ

أرنالدور أندريداسون

ARNALDUR INDRIĐASON

ترجمة
نهى حسن

مراجعة وتحرير
مركز التعريب والبرمجة

THAQAFA ثقافة
للنشر والتوزيع ذ.م.م.
Publishing & Distribution L.L.C.
الإمارات
U.A.E.

1945

مكتبة
t.me/t_pdf

حشـدت الريـاحُ الثائرة السـحبَ الدكناء، واهتاجـت عاصفة ثلجيّة على النهر المتجمّد.

لم يستطع رؤية أيّ شيء أمامه، كما لم يستطع التعرّف إلّا إلى البوصلة التي في يده، وبات الرجوع أمراً يصعب تحقيقه وحتّى لو أراد ذلك، لم يكن هناك ما يدفعه إلى العودة إليه. لفحت الرياح العاصفة وجهه، ووخزت ببردها جلده، وهي تقذفه بنُدَف صلبة وباردة من كلّ اتجاه، وسرعان ما تراكم الثلج وشكّل طبقة سميكة على ثيابه، وفي كلّ خطوة كانت ساقاه تغوصان في الثلج حتّى الركبتين، حتّى بات فاقداً لكلّ إحساس بالمكان والزمان، ولم يعد يدري كم استغرق من الوقت وهو يمشـي، فهو لا يزال مختفياً في غياهب الظلام الدامس تماماً كما بدأ رحلته، ولم يستطع أن يميّز إن كان الوقت نهاراً أم ليلاً، وكلّ ما كان يعرفه هو أنّه بات في الرمق الأخير، فتقدّم خطوات قليلة متلاحقة دفعة واحدة ثمّ استراح، ثمّ تابع المشي بخطوات وئيدة ليستريح بعدها حتّى شعر أنّ سطوة التعب والإرهاق أقوى من محاولات متابعة مسيره.

لقـد نجـا مـن الحطـام بأعجوبة، بينما لم يحالف الحـظّ الآخرين، ارتفع صوت مدوٍّ، فكانت الطائرة قد جرفت سطح النهر المتجمّد بعد أن انفجر أحد محركيْها، ثم اختفى فجأة عندما تحطّم جناح الطائرة وغاب في عباب العتمة المثقلة بالثلوج، وفي غضون لحظات انتُزع جناح الطائرة الآخر وسـط وابل من الشـرارات، وانزلق هيكلها الذي خسـر جناحيه على الجليد مثل صاروخ الطربيد.

كان الطيّـار، ومعـه ثلاثـة آخـرون، متشـبّثين بمقاعدهـم عندما سـقطت

الطائـرة، وعنـد ظهـور أولى علامات العُطل الذي أصاب الطائرة، نهض اثنان من الركاّب عن مقعديهما، وقد تملكتهما مشـاعر الهلع، وأصابتهما نوبة من الهيستيريا، وحاولا اقتحام مقصورة الطيّار، إلّا أنّ هول الحادثة كان أقوى من أن يتحمّلا ارتطام جسديهما بالسقف ليرتدّا نحو الجدران قبل أن يُقذفا أمامه وهو منبطح على الأرض لتتحطّم عظامهما في مؤخّرة الطائرة حيث أُسكتت صرخاتهما.

انجرف الحطام على النهر الجليديّ مخلّفاً وراءه كتلاً من الثلج والجليد وقد هدأ هيجانه تدريجيّاً إلى أن ساد الصمت الذي لم تخترقه سوى لعلعة الرياح في الأرجاء.

وحده بين الركّاب، كان مصمّماً على أن يتغلّب على العاصفة العاتية والبرد القارس في حين فضّل الآخرون الانتظار، على أمل أن تهدأ العاصفة تدريجيّاً معتقدين أنّ البقاء معاً يوفّر لهم الحماية، وكان يتعذّر عليهم ردعه، فلم يرد أن يتكبّد عناء الاحتجاز في الطائرة، ولم يكن ليتحمّل أن تصبح كفناً له، وبمساعدتهم أعدّ نفسه قدر المستطاع للرحلة، ولكنّه لم يكن قد سار طويلاً في هذه الظروف القاهرة حتّى تبيّن أنّه كان من الأجدى له أن يبقى داخل الطائرة مع الآخرين، ولكن ّالأوان كان قد فات.

فكّر لحظات قبل أن يحاول أن يتوجّه إلى الجنوب الشرقيّ، إذ إنّه قبل تحطّم الطائرة كان قد لمح أنواراً كما لو أنّها تنبعث من بيوت، في تلك الأثناء اتّخذ طريقه الذي اعتقد أنّه الاتّجاه الصحيح، والبرد ينخر عظامه، ويُثقل الثلج خطواته أكثر فأكثر، وخلافاً لكلّ التوقّعات، ازدادت العاصفة عتوّاً وشدّةً، ما جعله يواجه قدره وهو يقاوم بكّل ما أُوتي من قوّة، ثمّ بدأت قواه تخور مع كلّ خطوة يخطوها إلى الأمام.

تقاذفته أفكار سوداء جعلته يفكّر في المخاطر المحدقة بالآخرين الذين ظلّوا هناك في الطائرة، فعندما غادر المكان كان الثلج قد بدأ يغمر الحطام

والشرخ الذي نتج عنه على سطح الجليد أخذ يتجمّد على نحو سريع، وعلى الرغم من القناديل التي بحوزتهم، إلّا أنّ المآزق ستعرف طريقها إليهم، لأنّ زيت القناديل لم يكن ليكفيهم لوقت طويل، والبرد على ضفّة ذلك النهر الجليديّ كان أقسى من أن يتحمّله أيّ كائن بشريّ.

إذا ما تركوا باب الطائرة مفتوحاً، فإنّ الحجرة سيغمرها الثلج، ولعلّهم على الأرجح محتجزون في الداخل، إنّهم يعلمون حقّ المعرفة أنّهم سوف يتجمّدون ويموتون سواء أبقوا في الطائرة أم غامروا ومشوا على الجليد، لقد بحثوا في الاحتمالات المحدودة وأخبرهم بأنّه لا يستطيع ألّا يحرّك ساكناً بانتظار موته، ففضّل خوض معركة الجليد، وبينما كانت تتجمهر الأفكار في رأسه تفتّتت سلسلة الحقيبة المربوطة حول معصمه والتي كانت تبطئ حركته، فلم يعد يمسك بالقبضة بل ترك الحقيبة تتدلّى من سلسلتها التي جرحت معصمه، ولكنّه تجاوز مرحلة الاكتراث لإصاباته ولم يعد يشعر إلّا بالخدر.

لقد سمعاها قبل أن تعبر فوقهما بكثير، متّجهة غرباً، تخترق العاصفة الهوجاء، ولكن عندما نظرا إلى الأعلى لم يريا سوى ظلمة الشتاء ونُدَفٍ لاسعة تنثرها الرياح، كان هذا قبل الساعة الحادية عشرة ليلاً، حينها عرفا أنّها طائرة، وهذا ما بات مألوفاً بعد أن نشطت بعد الحرب الحركة الجوّيّة في المنطقة، إذ كان لدى البريطانيّين قاعدة في هورتنافيورد، لذلك أصبحا يعرفان معظم المركبات الجويّة البريطانيّة والأميركيّة من خلال صوت محرّكاتها، ولكن لم يسبق لهما أن سمعا صوتاً قويّاً كهذا من قبل، ولم يسبق أن كان صوت الهدير قريباً منهما إلى هذه الدرجة، كما لو أنّ الطائرة تتوجّه مباشرة نحو مزرعتهما.

في الحال توجّها إلى عتبة الباب، ووقفا هناك إلى أن بلغ هدير المحرّك أوجه، فارتفع هذا الصوت الذي صمّ آذانهما وخفت تدريجيّاً باتّجاه النهر الجليديّ، وللحظات قليلة، كان من الممكن أن يلمحا هيكلها الداكن في

السماء، ولكن سرعان ما اختفى في الظلام، ومقدّمتها المرتفعة بدت وكأنّها تحاول أن تخفّف من ارتفاعها، هدأ صوت الهدير تدريجيّاً باتّجاه النهر إلى أن اختفى تماماً، فخطرت لهما الفكرة نفسها، وأدركا أنّ الطائرة منخفضة جدّاً وهي على وشك التحطّم، وفي هذا الجوّ المرعب كان وضوح الرؤية ضبابيّاً، ولكن لا شكّ في أنّ النهر الجليديّ سوف يبتلعها في غضون دقائق، حتّى ولو كانت مرتفعة عن سطح الأرض فسوف يكون قد فات الأوان لأنّ الغطاء الجليديّ كان قريباً جدّاً منها.

تسمّرا أمام العتبة لدقائق بعد تلاشي صوت الضجيج، وهما يمعنان النظر في عباب الظلمة ويصغيان إلى صوت العاصفة، ولكن لا خيال يُلحظ ولا صوت يُسمع، فعادا إلى الداخل، تخامرهما مشاعر الريبة والحيرة، فلم يتمكّنا من إعلام السلطات بما حلّ بالطائرة، إذ إنّ الهاتف كان معطّلاً كما هو شائع دائماً عند هبوب العواصف، فانقطعت الخطوط بعد أن هبّت عاصفة سابقة، ولم يتمكّن العمّال من إعادة توصيلها، لأنّ عاصفة أخرى أسوأ من سابقتها هبّت لتوّها، وقبل أن يخلدا إلى سريريهما، تباحثا في إمكان الذهاب إلى مدينة هوفن في هورتنافيورد على صهوتي حصانيهما للإبلاغ عن سقوط الطائرة عندما تهدأ العاصفة.

لم تتحسّن الأحوال الجوّيّة إلّا بعد مرور أربعة أيّام، فتمكّن حينها الأخوان من الانطلاق إلى هوفن عبر منحدرات عميقة جعلت تقدّمهما بطيئاً، فكانا يعيشان وحدهما في المزرعة، بعد أن مات والداهما، ولم يكن أيّ منهما متزوّجاً، وفي أثناء القيام برحلة صعبة أنهكت جسديهما كان لا بدّ لهما من الاستراحة، فتوقفّا في مزرعتين وقضيا ليلتهما في المزرعة الثانية حيث سردا قصّة الطائرة، وعبّرا عن خوفهما على مصير ركّابها، بيد أنّ المزارعين الآخرين لم يسمعوا شيئاً عن سقوطها.

عندما وصل الأخوان إلى هوفن أبلغا مدير المنطقة عن الطائرة المنكوبة،

فتواصل فوراً مع سلطات ريكيافيك وأعلمهم أنّ طائرة كانت قد شوهدت جنوب النهر المتجمّد فاتنويوكل، وثمّة شكوك حول تحطّمها على الجليد، وكلّ الرحلات الجوّيّة في سماء آيسلندا وشمال الأطلسيّ كانت مرصودة من قبل المراقبة الجوّيّة في قاعدة الجيش الأميركيّ في ريكيافيك، ولكنّهم لم يكونوا على دراية بأيّة طائرة يمكن أن تكون قد حلّقت في المنطقة في ذلك الوقت، كما دلّت الأحوال الجوّيّة على أنّ الحركة كانت في حدّها الأدنى.

وفي ذلك اليوم، وصلت لاحقاً برقية من القيادة العامّة للجيش الأميركيّ إلى مكتب مدير منطقة هوفن، مفادها أنّ الجيش سيتولّى التحقيق في هذه القضية فوراً، وسيقوم بإرسال فريق إنقاذ إلى النهر الجليديّ، أمّا السكّان المحلّيّون فكانت القضيّة قد أغلقت بالنسبة إليهم، كما منع الجيش مرور أي عابر على ذلك النهر المتجمّد في المنطقة التي اعتقد أنّ الطائرة سقطت فيها وذلك من دون إعطاء أيّ توضيحات.

بعد مرور أربعة أيّام جلبت مدينة هوفن اثنتي عشرة آلية نقل عسكرية محمّلة بمئتي جنديّ، لم يكونوا قادرين على استخدام مهبط الطائرات في هورتنافيورد لأنّه كان مغلقاً خلال أشدّ أشهر الشتاء وطأة، وقد انقطعت هوفن عن العاصمة في الجهة الغربيّة عبر أنهار سكيادارا غير المجسّرة، وكان على بعثة الاستطلاع أن تجوب البلاد باستخدام ناقلات ذات ستّ عجلات مجهّزة بسلاسل الثلج تتّجه نحو الشمال أوّلاً ثم إلى الجنوب على طول إيست فيورد للوصول إلى هوفن، الرحلة إلى الشمال كانت شاقّة حيث لم يختلف الطريق الرئيسيّ كثيراً عن طريق ترابيّ، وكان على عناصر بعثة الاستطلاع أن يحفروا طريقهم عبر المنحدرات القاسية على طول الطريق عبر الصحراء الشرقيّة لمودرودالسوريفي.

كانت القوّات عبارة عن جنود تابعين لفوج المشاة العاشر وكتيبة مدفعيّة الميدان السادسة والأربعين بقيادة الجنرال تشارلز إتش بونستيل، قائد قوّات

الاحتلال الأميركيّة، وكان بعض العناصر قد شاركوا في تمرينات الشتاء في النهر الجليديّ إيريكسيوكل في السنة المنصرمة، ولكن في الميدان لم يكن سوى القليل منهم من تدرّب على التزلّج.

قاد الاستطلاع الكولونيل ميلر بذاته، حيث أقام رجاله معسكراً خارج هوفن تماماً في ثكنات مبنيّة من قبل قوّات الاحتلال البريطانيّة في بداية الحرب، وشقّوا طريقهم إلى النهر الجليديّ، وبحلول الوقت الذي وصل فيه الجنود إلى مزرعة الأخوين، كانت قد انقضت تقريباً عشرة أيّام منذ أن سُمع هدير الطائرة المتحطّمة، وأثلجت خلالها من دون هوادة. وقد أقام الجنود قاعدتهم في المزرعة، بعد أن وافق الأخوان على أن يكونا مرشديهم إلى الغطاء الجليديّ، لم يتحدّثا الإنكليزيّة ولكن توليفةً من الإيماءات والإشارات كانت كافية لإرشاد ميلر ورجاله إلى مكان سقوط الطائرة، مع تنبيهه بأنّ هناك فرصة ضئيلة لإيجادها على النهر الجليديّ أو بالقرب منه في أعماق ثلوج الشتاء.

قالا وهما يهزّان رأسيهما: «فاتنويوكل أكبر نهر جليديّ في أوروبا، والبحث عنها كالبحث عن إبرة في كومة قشّ».

لقد فهم الكولونيل ميلر إيماءاتهما ولكنّه تجاهلها غير مدركٍ أنّ الثلج الذي أزال كلّ معالم تحطّم الطائرة لم يصبّ في مصلحتهم، وعلى الرغم من صعوبة الطريق، كان هناك مسار سالك يودي إلى النهر الجليديّ من مزرعة الأخوين، وفي ظلّ هذه الظروف جرت العمليّة بسلاسة.

في أيّام الشتاء القصيرة، تظهر الشمس فقط من الساعة الحادية عشرة صباحاً وحتّى الساعة الخامسة والنصف من بعد الظهر، لذا فقد كان وقت البحث قصيراً. صفّ الكولونيل ميلر رجاله في صفوف منتظمة، وسرعان ما اكتشف الأخوان أنّه لم يسبق لمعظمهم أن وطئت أقدامهم نهراً جليديّاً من قبل، وأنّ خبرتهم في الاستطلاعات الشتويّة ضئيلة، فأرشدا الجنود بأمان

عبر التشـقّقات والأخاديد، ولـم يطل الوقت حتّى أقام الجنود معسـكرهم في منخفض على حافة النهر الجليديّ، على ارتفاع حوالي 1100 متر فوق سطح البحر.

أمضت قوات ميلر ثلاثة أسـابيع وهي تمشّـط منحدرات النهر الجليديّ ومنطقـة بمسـاحة خمسـة كيلومتـرات مربّع مـن الغطاء الجليـديّ ذاته، وكان الجنود محظوظين بهدوء العواصف الثلجيّة وصفاء الجوّ معظم الوقت، وهذا ما سمح لهم بتنسيق بحثهم جيّداً وتقسيم مهامهم، فمجموعة منهم بحثت في سفوح الجبال بعد أن خيّمت قرب المزرعة، بينما خيّمت المجموعة الأخرى قرب النهر الجليديّ وصقلت الجليد على مدار النهار، وعند حلول الظلام في المساء، يجتمع الجنود مجدّداً في معسكر القاعدة في المزرعة حيث يتناولون الطعام ويغنّون أغانيَ يعرفها الأخوان من خلال الراديو، ثم لا يلبثون أن يُؤثروا الخلـود إلـى الراحـة استعداداً ليوم شـاقّ آخر، وكانوا يـأوون إلى خيم جبليّة بريطانيّـة متينـة الصنـع مكوّنة من طبقتين من القمـاش، ويلتفّون للدفـء حول مواقد وقناديل، وهم يتدثّرون بمعاطفهم الجلديّة الثقيلة التي تصل إلى تحت ركبهـم وكان لهـا قلنسـوة ذات إطـار من الفراء، ويضعـون في أيديهم قفّازات سميكة مصنوعة من الصوف الآيسلندي السميك.

لـم يُعثـر علـى أيّ أثـر للطائـرة فـي رحلـة البحـث الأولـى التـي تولّـى مسـؤوليّتها الكولونيـل ميلـر، وكان الأخـوان قد وجدا طـوق العجلة الأماميّة علـى بعـد كيلومتريـن عند الغطاء الجليديّ حيث كان الجليد مصقولاً في كلّ الاتجاهـات، ولـم يكـن هناك أيّ دليل على أنّ طائرة قد تحطّمت أو تعرّضت لهبوط اضطراريّ في تلك المنطقة، ورجّح الأخوان فرضيّة ابتلاع الطائرة - إذا سقطت في هذا القسم - من قبل النهر الجليديّ بعد أن غطّاها الثلج.

كان الكولونيل ميلر مهووسـاً في بحثه عن الطائرة، وبدا كمَن لا يشـعر بالتعـب، فحـاز علـى إعجاب الأخوين اللذين عاملاه بودّ واحترام شـديدين،

وحرصا على أن يساعداه من دون تردّد، فاستشارهما ميلر باستمرار لمعرفتهما بالمنطقة، ونشأت بينهم صداقة متينة، ولكن في نهاية المطاف، وبعد أن تعثّرت بعثة الاستطلاع مرّتين بسبب الطقس القارس والجليديّ، أجبر الكولونيل على التخلّي عن بحثه، وفي أثناء العاصفة الثانية، كانت الخيم والمعدّات الأخرى قد دُفنت تحت الثلج وفُقدت إلى الأبد، ولكنّ بعثة الاستطلاع تلك كانت مصدر حيرة للأخوين لا سيّما من جانبين اثنين.

ذات يوم، رأى الأخوان ميلر وحيداً في الإسطبل الذي يجاور الحظيرة وزريبة الأبقار، فأخذاه على حين غرّة وهو يقف إلى جانب أحد الخيول في حجيرته، ممسّداً ناصيته، فكان الكولونيل الصنديد الذي لفتت شجاعته وسلطته على رجاله نظرهما، يبدو وقد فرغت حيلته فانزوى للبكاء حاضناً رأس الحصان وقد شاهدا كتفيه تهتزّان، وعندما تنحنح أحدهما، أجفل ميلر ونظر نحوهما، فرأيا دموعه المنسابة على خدّيه الملوّثين، ولكنّ الكولونيل كان سريعاً في السيطرة على نفسه فجفّف وجهه متظاهراً أنّ شيئاً لم يحدث، كثيراً ما تباحث الأخوان في شأن ميلر، ولم يسألاه مطلقاً عن عمره، ولكنّهما تكهّنا أنّه لا يتجاوز الخمسة والعشرين عاماً.

قال ميلر بلغته: «هذا حيوان جميل»، فلم يفهما كلامه واعتقدا أنّه مشتاق إلى وطنه، إلّا أن الحادثة علقت في ذهنيهما.

الأمر الآخر الذي أثار حيرة الأخوين العجلة بحدّ ذاتها، فقد كان لديهما متّسع من الوقت ليتفحّصاها قبل أن يجدهما الكولونيل ميلر ويصادرها، كان إطار العجلة قد انتزع عنها، ولم يبقَ سوى الطوق الأعزل متدلّياً من جهاز الهبوط المحطّم.

بعد ذلك ولوقت طويل، تساءلا عن حقيقة الحروف المنقوشة على طوق العجلة بلغة لا يفهمانها.

كروبشتال

1999

مكتبة
t.me/t_pdf

1

غرفة التحكّم، المبنى 312، واشنطن العاصمة، الأربعاء 27 كانون الثاني

لم يكن المبنى بعيداً عن الكابيتول في واشنطن، كان في الأصل مستودعاً، وخضع إلى تعديل دقيق لتقيم فيه إحدى منظّمات العاصمة السرّيّة العديدة، ولم تُوفّر الكلفة من أجل التعديل أكان من الداخل أم من الخارج، ودارت الحواسيب العملاقة صباحاً ومساءً مستقبلة معلومات مرسلة من الفضاء، بعد أن جُمعت صور أقمار صناعيّة تابعة لجهاز الاستخبارات العسكريّة في قاعدة بيانات، وهناك كانت المعلومات تعالج، وتحلّل، وتفهرس، ويصدر الإنذار إذا ما ظهر أيّ شيء غير نظاميّ.

في الوثائق الرسميّة، كان المستودع معروفاً بالمبنى 312 فقط، ولكنّ المنظّمة التي ضمّها أدّت دوراً جوهريّاً في البرنامج الدفاعيّ الأميركيّ خلال الحرب الباردة، وقد تأسّست بعد عام 1960خلال أشدّ فترة شكّ وريبة متبادلين بين الدول، وكان هدفها الرئيسيّ تحليل صور تجسّسية ملتقطة للاتّحاد السوفياتيّ والصين وكوبا، وأيّ شعب آخر يُصنف عدوّاً للولايات المتّحدة الأميركيّة. وبعد انتهاء الحرب الباردة تضمّن دورها مراقبة قواعد إرهابيّة في الشرق الأوسط والنزاعات في دول البلقان، كما تحكّمت المنظمة

بثمانية أقمار صناعيّة تقع على مدارات تتراوح من 800 كيلومتر إلى 1100 كيلومتر فوق سطح الأرض.

كان مدير المنظّمة الجنرال فيتاوتاس كار وقد وقف في تلك اللحظة أمام شاشة مراقبة شغلت مساحة جدار بكامله في قاعة التحكّم الواقعة في الطابق الأوّل، وهو يحدّق بإمعان إلى دفعة صور كانت قد جذبت انتباهه. وكان الجوّ منعشاً في الغرفة بسبب مراوح الوحدات الحاسوبيّة الاثنتي عشرة التي هدرت من دون توقّف في قسم مطوّق، وقد وقف حارسان مسلّحان أمام الباب، وكانت القاعة مقسّمة بواسطة أربعة صفوف طويلة من شاشات وامضة ولوحات تحكّم.

لم يمضِ على يوم مولد كار السبعين الكثير، وكان يجدر به أن يتقاعد، ولكن قد مدّدت المنظّمة له بشكل خاصّ. يبلغ طوله تقريباً ستّة أقدام ونصف، ورغم تقدّمه في السنّ إلّا أنّه منتصب القامة غير محنيّ، قضى حياته وهو يعمل بصفته جنديّاً، فخدم في كوريا، وأدار العمليّات التابعة للمنظّمة بصفته أحد أكثر رؤسائها حيويّة، وكان يرتدي ملابس مدنيّة، بذلة رسميّة داكنة ذات صدريّة. وها هو يقف أمام شاشة المراقبة المتموضعة على الجدار والمنعكسة على نظّارته مركّزاً بعينين ثاقبتين على الشاشتين الواقعتين في أعلى اليسار.

كان على إحدى الشاشات صور من أرشيف المنظّمة الذي يحفظ عشرات الملايين من صور الأقمار الصناعيّة الملتقطة عبر العقود الأربعة الأخيرة، أمّا الشاشة الأخرى فعرضت صوراً جديدة.

الصورتان اللتان كان يتفحصّهما فيتاوتاس كانتا لقسم صغير من النهر الجليديّ فاتنويوكل الآيسلنديّ الجنوبيّ الشرقيّ. إحداهما ملتقطة منذ سنة، والأخرى في وقت مبكر من ذلك اليوم، لم يكن هناك شيء ملحوظ في الصورة القديمة سوى الامتداد الأبيض النقيّ الاعتياديّ للغطاء الجليديّ الذي لا يتخلّله سوى التشقّقات الغريبة، ولكن في أسفل الصورة الجديدة في الزاوية

اليسرى كان ثمّة علامة صغيرة واضحة، إلّا أنّ الصورة كانت رديئة ومغبشة، ولكن عندما عُدّلت أصبحت دقيقة وصافية، إذ طلب كار توضيحاً للتفاصيل، وبعد تضخيم الصورة توضّحت لتملأ العلامة السوداء فيها الشاشة بأكملها.

سأل كار الرجل في غرفة التحكّم حين كان يكبّر الصور: «مَن لدينا في كيفلافيك؟».

أجابه: «ليس لدينا أحد في كيفلافيك سيّدي».

فكّر كار في ذلك.

قال: «أحضر لي راتوف»، وأضاف قائلاً: «من المستحسن ألّا يكون هذا بلاغاً خاطئاً آخر».

قال الرجل الآخر وهو يمسك بالهاتف: «لدينا معدّات أقمار صناعيّة أكثر تطوّراً هذه الأيّام سيّدي».

«لم نحظَ بصورة واضحة كهذه للنهر الجليديّ من قبل، كم شخصاً يعلم بالصور الجديدة؟».

«فقط فرقة المراقبة الثامنة، وهذا يعني ثلاثة أشخاص وأنت وأنا بالطبع».

«هل يعلمون بالحالة؟».

«لا سيّدي، لم يظهروا أيّ اهتمام بالصور».

قال كار قبل أن يغادر القاعة: «أبقِ الأمر كذلك».

مشى في الرواق الطويل إلى مكتبه، وأغلق الباب خلفه، وكان الضوء يومض على شاشة هاتفه.

قال صوت مجهول: «إنّ راتوف على الخطّ الثاني»، قطّب كار حاجبيه وضغط على الزرّ.

سأل كار من دون تمهيد: «كم من الوقت يستغرق وصولك إلى كيفلافيك؟».

استعلم صوت عبر الهاتف: «ما هي كيفلافيك، سيّدي؟».

أجاب كار: «قاعدتنا في آيسلندا».

«آيسلندا؟ يمكنني أن أكون هناك مساء غد، لماذا، ما الذي يجري؟».

«لقد استلمنا صورة واضحة لأكبر نهر جليديّ في البلاد، ويبدو أنّه يعيد لنا شيئاً أضعناه منذ عدّة سنوات، ونحتاج إلى رجل في كيفلافيك ليدير العمليّة، وستأخذ معك مجموعتين سرّيّتين من القوّات الخاصّة، وستختار معدّاتك التي ستحتاج إليها بنفسك، وسمِّ الرحلة بتمرين روتينيّ، ويمكنك إرسال سكّان المنطقة إلى مسؤول الدفاع إذا لم يكونوا متعاونين، وسوف أتحدّث إليه، وسأعقد اجتماعاً مع الحكومة الآيسلنديّة لأقدّم لهم توضيحاً، حيث إنّ القاعدة العسكريّة هناك مسألة حسّاسة، وسيتولّى إيمانويل ويسون سفارتنا في ريكيافيك، وسوف يتحدّث بصفته ناطقاً رسميّاً، وستتلقّى معلومات أكثر دقّة وأنت في طريقك».

«أعتقد أنّها عمليّة سرّيّة، أليس كذلك سيّدي؟».

«لم أكن لأتّصل بك لو لم تكن كذلك».

«كيفلافايك، أتذكّر الآن، ألم يكن هناك محاولة عقيمة في العام 67؟».

«لدينا أقمار صناعيّة أفضل هذه الأيّام».

«هل الإحداثيّات هي نفسها؟».

قال كار: «لا، إنّه موقع جديد، فالنهر الجليديّ اللعين يستمرّ بالحراك»، ثم قطع المحادثة من دون وداع.

أبدى راتوف انزعاجه من تصرّف كار إلّا أنّه نهض وتوجّه إلى خزانة زجاجيّة كبيرة، وفتح بابها متناولاً مفتاحين صغيرين، وقلّبهما في راحة يده، فكان أحدهما أكبر من الآخر بشكل طفيف، ولكنّهما كانا مشغولين بعناية، ومصمّمين لثقبي قفل ضيّقين، ثم أعادهما إلى الخزانة.

مرّت سنوات عدّة منذ أن تفحّص كار العجلة، فأخرجها في هذه الأثناء، وتحسّسها براحتيه، وأعاد قراءة النقش.

كروبشتال، هذا وحده أكّد الهبوط الاضطراريّ، وقد تناسب صنعه مع نوع الطائرة وحجمها، وسنة التصنيع والحمولة، فالعجلة برهان على أنّها كانت على النهر الجليديّ، وبعد كلّ هذه السنوات، عثر عليها أخيراً.

امسح الكود .. انضم إلى مكتبة

2

وزارة الخارجية، ريكيافيك، الخميس في 28 كانون الثاني، بعد الظهر

أغمضت كريستين عينيها، وشعرت بالصداع يؤلم رأسها.

كانت هذه المرّة الثالثة التي دخل فيها الرجل إلى مكتبها، وتهجّم عليها قائلاً كلاماً لاذعاً ضدّ الوزارة، وموجّهاً لومه إليهم لخداعه، وفي الحادثتين السابقتين، حاول أن يهدّدها متوعّداً بأنّه إن لم يحصل على تعويضه الذي خسره بسبب خطأ ارتكبته الوزارة، فسوف يرفع قضيّته إلى المحكمة. وفي ذلك الوقت استمعت مرّتين إلى هجومه العنيف، وقد حاولت جاهدة أن تتمالك نفسها وتردّ عليه بوضوح وبموضوعيّة، ولكنّه لم يبدُ أنّه سمع كلمة ممّا قالته، وجلس في مكتبها يخوض في سلسلة الاتّهامات ذاتها.

خمنت أنّ عمره في الأربعين تقريباً، أي أكبر منها بحوالى عشر سنوات، وأدركت أنّ فرق العمر هذا كما يبدو برّر له التعالي عليها في مكتبها، مستخفّاً بها، فنعتها بعبارات مثل فتاة مثلك، ولم يحاول إخفاء ازدرائه لها في حين لم تستطع أن تحدّد إن كان الأمر بسبب إثم ارتكبته كونها امرأة أو محامية.

اسمه رونولفور زوفاناسون، ذو لحيّة مشذّبة، وشعر أسود كثيف أملس مسرّح إلى الخلف، يرتدي بذلة داكنة ذات صدريّة، وسلسلة فضّيّة صغيرة

معلّقة بساعة يخرجها من جيبه بين الحين والآخر فيمسكها بأصابعه الطويلة والنحيفة، ويفتحها بغرور كما لو أنّ ليس لديه الوقت ليضيّعه على «هذا السخف»، كما وصفه بنفسه.

اعتقدت أنّه محقّ بشأن السخف، فهو كان يبيع قطع معدّات لروسيا، وسانده كلّ من الوزارة ومجلس التجارة الآيسلنديّ في إبرام عقود العمل.

كان قد أرسل في طلب أربع وحدات إلى مورمانسك وكامتشاتكا، ولم يكن قد حصل ولا حتّى على روبل واحد في المقابل، وقد ادّعى أنّ محامي الوزارة الذي لم يعد يعمل لديها قد اقترح عليه أن يصدّر الوحدات ويطلب ثمنها لاحقاً من أجل تمهيد الطريق لمزيد من العقود.

وتسبب تصرّفه هذا بضياع بضائعه التي تزيد قيمتها على ثلاثة ملايين كرونر في روسيا، وقد حاول تعقّبها ولكن بلا جدوى، فلجأ حينها إلى دعم مجلس التجارة، وغرفة التجارة التابعة لوزارة الخارجيّة، كما لجأ إلى كلّ طرف آخر له علاقة بقضيّته، وسأل بإصرار في اجتماعاته مع كريستين: «أيّ نوع من الاستشاريّين الأغبياء توظّف هذه الوزارة؟».

تواصلت مع المحامي الذي لم يستطع تذكّر النصيحة التي قدّمها له، فحذرها بأنّ هذا الرجل كان قد هدّده ذات مرّة.

فقالت له في لقائهما الأوّل: «لا بدّ من أنك لاحظت أنّ التعامل مع روسيا في هذه الأيّام أمر محفوف بالمخاطر». وأشارت إلى أنّه على الرغم من سعي الوزارة إلى مساعدة الشركات الآيسلنديّة في إبرام صفقات، إلّا أنّ الخطورة دائماً كانت تكمن في الشركات بحدّ ذاتها.

لقد أعربت الوزارة عن أسفها لما حدث، وكانت لتساعده برحابة صدر في إبرام عقود مع المشترين الروس عبر السفارة في موسكو، ولكن إن لم يستطع تحصيل مستحقّاته، فليس في وسع الوزارة فعل أيّ شيء له، وقد كرّرت هذه الرسالة مستخدمة كلمات جديدة في اجتماعهما التالي، وفي

المرّة الثالثة، كان يجلس أمامها وتعلو وجهه تعابير الغضب والانفعال، وتلك السلسلة الفضّيّة الرنّانة في جيب صدريّته، وقد استغرق اجتماعهما حتّى وقتٍ متأخرٍ، فكانت تريد العودة إلى المنزل.

قال: «لن تفلتوا من هذه القضيّة بسهولة، فأنتم تورّطون الناس في التعامل مع المافيا الروسيّة، ومن الواضح أنّكم تأخذون الرشاوى منها، وما الذي أعرفه أنا؟ المرء يسمع أموراً كثيرة، وأريد استرداد مالي، وإذا لم أستردّه...». لقد حفظت وعيده عن ظهر قلب لذلك قرّرت أن تختصر الأمر.

لم يكن لديها الوقت لذلك.

قالت بهدوء: «نحن آسفون بالطبع لخسارة أموالك بعد التعامل مع روسيا، ولكنّها ليست مشكلتنا، ونحن لا نتّخذ القرارات عن الناس وإنّما الأمر يعود إليهم ليقدّروا الموقف بحسب ما تقتضيه مصالحهم، وإذا كنت مغفّلاً جدّاً لتصدّر بضائع قيمتها عشرات الملايين من دون أيّة ضمانات، فأنت أحمق أكثر بكثير ممّا تبدو عليه، وأنا أطلب منك الآن أن تغادر مكتبي من فضلك، وألّا تضايقني في المستقبل بأيّ هراء حول ما تعتقد أنّه مسؤوليّة الوزارة».

نظر إليها بدهشة، وكلمتا مغفل وأحمق تتردّدان في ذهنه، ففتح فاه ليقول شيئاً، ولكنّها قاطعته فوراً.

«الآن أخرج من فضلك»، فرأت ملامح الغضب مرتسمة على وجهه.

وقف ببطء من غير أن يشيح بنظراته عنها، وفجأة فقد السيطرة على نفسه، فحمل الكرسيّ الذي كان جالساً عليه قبل أن يقذفه خلفه على الجدار.

وصرخ: «هذا لم ينتهِ بعد، سنلتقي مجدّداً، ونرى من هو الأحمق بيننا، إنّها مؤامرة، مؤامرة، وستعانون بسببها».

قالت وكأنّها تتحدّث مع طفل ذي ستّ سنوات: «حسناً، حسناً، عزيزي، هيا اذهب الآن».

علمت أنّها كانت تستفزّه، لكنّها لم تستطع مقاومة ذلك.

صرخ: «انتبهي لنفسك، لا تعتقدي أنّك تستطيعين التحدّث إليّ بهذه الطريقة ويمرّ الأمر من دون عقاب!» واتّجه إلى الباب وصفقه صفقةً قويّة اهتزّت لها الجدران.

تجمّع موظفو الوزارة أمام مكتبها بعد سماعهم صوت ارتطام الكرسي بالحائط، وصراخ الرجل، الذي شاهدوه يخرج من المكتب، وظهرت خلفه كريستين وهي تقف أمام الباب.

قالت كريستين لزملائها بهدوء: «كلّ شيء على ما يرام» وأضافت: «لديه مشاكل معقّدة»، ثمّ أغلقت الباب بعناية.

شعرت برعشة تعتري جسدها، ولكي تهدأ وتخفّف من وطأة الموقف جلست خلف مكتبها بهدوء حتّى تمالكت أعصابها، وخطر لها أنّها لم تتعلّم كيف تتعامل مع هؤلاء الأشخاص في كلّيّة الحقوق.

كانت كريستين ناعمة وداكنة البشرة، ذات شعر أسود قصير، وتنمّ ملامح وجهها النحيل عن القوّة، أمّا عيناها فكانتا بنّيتين حادّتين تلمعان إصراراً وثقةً بالنفس، وقد ذاع صيتها بشدة حزمها وصلابتها، وكانت معروفة في الوزارة بأنّها لا تتسامح مع المغفّلين.

رنّ الهاتف فكان المتّصل أخاها، وشعر فوراً بتوتّرها.

سألها: «هل كلّ شيء على ما يرام؟».

«نعم، لا شيء مهمّ، كنت في اجتماع مع رجل فظّ منذ قليل، وللحظة اعتقدت أنّه سيرميني بكرسيّ، وكلّ ما عدا ذلك يعدّ جيّداً».

«يرمي كرسيّاً؟ مع أيّ نوع من المختلّين تتعاملين؟!».

«المافيا الروسيّة، كما قيل لي، وكما يبدو أنّها نوع من المؤامرة، كيف أحوالك أنت؟».

«كلّ شيء عظيم، اشتريت هذا الهاتف للتوّ، هل يبدو صوتي واضحاً؟».

«لا يختلف عن العادة».

قال ساخراً: «لا يختلف عن العادة، هل تعلمين أين أنا الآن؟».

«لا، أين؟».

«خارج أكوريري مباشرة، إن الفريق في طريقه إلى فاتنويوكل».

«فاتنويوكل؟ في منتصف الشتاء؟».

«إنّه تمرين شتويّ، لقد سبق وقلت لك هذا، وسوف نصل إلى النهر الجليديّ غداً، وحينها سأتكلّم معك مجدّداً، ولكن عليك أن تخبريني كيف يبدو صوت الهاتف»، وأردف قائلاً: «إنّه واضح أليس كذلك؟».

«ممتاز، ابقَ مع الجماعة، أتسمعني؟ ولا تحاول أن تتصرّف بتهوّر».

«بالطبع، أتعلمين كلفته، سبعة آلاف كرونر؟».

«ما هو؟».

«الهاتف، له نظام اتّصال أن أم تي للمكالمات البعيدة».

«أن أم تي؟ ما الذي تخطّط له؟ انتهينا من ذلك».

«لا داعي لأن تقولي أنت...»

مكتبة
t.me/t_pdf

أنهت المكالمة.

كان إلياس أخوها الأصغر منها بعشر سنوات، منغمساً منذ الأزل في هوايات متعدّدة وغالباً ما تكون نشاطاته خارجيّة وأحياناً تتضمّن السفر إلى مناطق داخليّة غير مأهولة، ففي أحد الأعوام، كانت هوايته الصيد، وحينها ملأ ثلاجتها بلحم الإوزّ والرنة، وفي سنة أخرى، كانت القفز بالمظلّات، وألحّ عليها أنّ تقفز معه، ولكنّه لم يفلح في اقناعها، وفي السنة الثالثة، كانت التجذيف بواسطة القوارب، ثم القيام برحلات في الجيب على المرتفعات، أو رحلات التزلّج على الأنهار الجليديّة، أو ركوب الزلّاجات على الجليد، أو رحلات استكشافيّة، أو سمِّها ما شئت.

كان عضواً في فريق إنقاذ ريكيافيك الأرض جوّيّ، وكان شراء هاتف نقّال بسبعة آلاف كرونر من الأمور المتوقّعة منه لهوسه بالتكنولوجيا، وأمّا

سيّارته الجيب فتشبه مهبطاً للطائرات.

في هذا المجال، لا يمكن أن يكون الأخ والأخت مختلفين أكثر من ذلك.

عند حلول الشتاء، كانت غريزتها تدفعها إلى أن تدخل في سبات شتويّ، ولا تخرج حتّى الربيع، لم تحبّ المرتفعات قطّ، وتجنّبت السفر إلى كلّ مناطق آيسلندا في أثناء الشتاء، وإذا ذهبت في عطلة صيفيّة فإنها تقتصر على البلاد المحيطيّة، وتقيم في فنادقها.

بشكل عام، كانت تسافر خارج البلاد إلى الولايات المتّحدة حيث درست، أو لندن حيث كان لها أصدقاء، وفي بعض الأحيان خلال أشدّ أيّام الشتاء الآيسلنديّ وحشة كانت تمضي إجازة لمدّة أسبوع في مكان دافئ، إذ كرهت البرد والظلمة وكان لديها استعداد لأن تعاني من الاكتئاب خلال الأشهر المظلمة، فعندما تشرق الشمس عند الحادية عشرة صباحاً، وتلوح في الأفق لتغرب بعد خمس ساعات قصيرة فقط ولا سيّما في هذا الوقت من السنة، يطغى عليها الشعور بالاختناق والضيق لتبدو وكأنّها محتجزة على جزيرة صغيرة واقعة في أقصى شمال المحيط الأطلسيّ، منعزلة في سجن بارد ومظلم.

بغضّ النظر عن اختلافاتهما، كان الأخ والأخت على وفاق تامّ، وكانا الولدين الوحيدين لأبويهما، وعلى الرغم من أنّ فارق العمر بينهما يبلغ عشر سنوات، إلّا أنّ هذا الفارق جعلهما مقرّبين جدّاً من بعضهما، لقد عمل في مرآب في ريكيافيك، محوّلاً سيّارات الجيب إلى مركبات لعبور الطرق الوعرة، أمّا هي فمحامية ولديها شهادة في القانون الدوليّ من جامعة كاليفورنيا، وهي تعمل في الوزارة منذ سنتين، وكانت سعيدة باستثمار دراستها في عملها.

لحسن الحظّ، حوادث كهذه كانت هي الاستثناء.

لطالما أخذ حذره على النهر الجليديّ، وهذا ما فكّرت فيه كريستين

فـي أثنـاء عودتهـا إلى المنزل، وذكـرى لقائها برونولفور لــم تفارقها، وعندما كانت تمرّ في شـارع لوغافيغور حيث يقع مركز ريكيافيك، وهي في طريقها إلـى منزلهـا الواقـع في توماسـاراغي في الطرف الغربيّ من المدينة، سـاورها الإحساس المزعج بأنّها مراقبة، فلم يسبق لها أن شعرت بذلك، وأقنعت نفسها بـأنّ هـذا بسـبب تأثيـر تلـك الحادثة في نفسـها، فتلفّتت حولها، ولم ترَ شـيئاً يجعلها تقلق بشـأنه، فسـخرت من نفسـها لكونها متوتّرة جدّاً، ولكنّ الشـعور بالخوف ظلّ يرافقها، وفكّرت في أنّه لم يسبق لأحد أن اتّهمها بقبول رشاوى من المافيا الروسيّة.

3

مطار كيفلافيك، آيسلندا، الخميس 28 كانون الثاني، الساعة الثامنة بتوقيت غرينيتش

حطّت طائرة النقل سي 17 التابعة للجيش الأميركيّ في مطار كيفلافيك حوالي الساعة الثامنة مساء، وكان الطقس بارداً حيث بلغت الحرارة بضع درجات تحت الصفر، ولكنّ النشرة الجوّيّة تنبّأت بارتفاع في درجات الحرارة مع تساقط الثلوج، وهبط هيكل الطائرة النفّاثة الضخم في ظلمة الشتاء عند نهاية المدرج السابع المخصّص حصراً لاستخدام قاعدة حلف الناتو في مرسى ميدنيشيدي، كان موقعاً نائياً ومنعزلاً وسط المنطقة الواقعة على القمّة العليا الغربيّة لشبه جزيرة ريكجينز، حيث تلفحها الرياح العاتية المتواصل هبوبها من دون انقطاع، وتتجرّد من الغطاء النباتيّ، وبالكاد تصلح للاستيطان البشريّ، كما انتشرت في المكان مرائب كبيرة وصغيرة بالإضافة إلى ثكنات، ومخازن وصالة سينما ومقرّ إداريّ.

كانت محطّة الملاحة الجوّيّة مقرّاً لرحلات الاستطلاع أيّام الحرب الباردة، ولكن في تلك الأيّام كانت نشاطاتها قد تقلّصت جداً.

حالما حطّت الطائرة على المدرج انفتح الباب الخلفيّ ليخرج عبره موكب من العاملين الذين شرعوا على الفور في مهمّة تفريغ زلّاجات قويّة، ومركبات

جليد مجنزرة، ومعدّات تزلّج، وكلّ العتاد اللازم للتزلّج على الجليد.

بعد خمس عشرة دقيقة من هبوط الطائرة غادرت الناقلة الأولى مطار كيفلافيك مع حمولتها سالكة أوتوستراد ريكجينز وطريق آيسلندا الجنوبيّ للوصول إلى فاتنويوكل.

كانت الناقلة نموذجاً ألمانياً، ونوعها مرسيدس بينز، تأشيرتها الوحيدة هي لوحات الترخيص الآيسلنديّة، لم تكن تختلف عن أيّة شاحنة أو مقطورة تجوب شوارع المدينة، وكانت مثلها لا تجذب أيّ انتباه، وقد ركنت أربع شاحنات من نماذج مختلفة عند طائرة السي 17 في نهاية المدرج. وغادرت كل واحدة منها مطار كيفلافيك بفارق نصف ساعة عن الأخرى لتندمج بسلاسة مع حركة النقل المدنيّ.

ركب راتوف مدير العمليّة، في الشاحنة الأخيرة، وفي المطار استقبله قائد قاعدة الجيش الأميركيّ في ميدنيشيدي، وهو برتبة أدميرال، والذي بُلّغ بوصول راتوف، وأمر بتزويده بمركبات ناقلة من دون استفسارات. نُفي الأدميرال إلى هذا الموقع البعيد بعد تورّطه في فضيحة اختلاس واسع النطاق للمعدّات من قاعدة في فلوردا، وكونه يعي مخاطر تدخّله تجنّب الخوض في التفاصيل، ولكنّه بذل جهداً لضبط فضوله، بعد أن انتشرت شائعات حول حالة الاضطراب التي حدثت في أواخر الستينيّات، ونظراً إلى المعدّات الهائلة التي عُرضت أمامه، كان واضحاً أنّ التاريخ يعيد نفسه، وأنّه تمّ التخطيط للقيام برحلة أخرى إلى النهر الجليديّ.

قال الأدميرال وهو يقف إلى جانب راتوف ويراقب تفريغ المعدّات: «ألا تريد الاستعانة بمروحيّاتنا؟ لدينا أربع منها من نوع بايف هوك في فيلقنا، إنّها تستطيع تحريك الجبال».

كان راتوف في العقد السادس من عمره، أشيب السالفين وذا قوام قصير ونحيل، وكانت عيناه صغيرتين وسوداوين تقريباً، يرتدي بذلة شتويّة، وينتعل

حذاء لتسلّق الجبال، ولكنّه لم يجب عن سؤاله كما أنّه لم يرمقه بأيّ نظرة.

قال بحزم: «أمّن لنا فقط ما نريده، وابقَ بعيداً»، ثمّ غادر.

خلال اليومين السابقين وبعد اكتشاف العلامة التي ظهرت على صور الأقمار الصناعيّة، لم يتهاون كار مع الجميع، فقد كان مقرّراً للسي 17 بأن تظلّ في وضع التأهّب في مطار كيفلافيك إلى حين إنجاز المهمّة، وكان هيكلها الضخم محمياً نهاراً وليلاً من قبل ثمانية حرّاس مسلّحين. استقلّ الجنرال إيمانويل ويسون الطائرة مع فريق مؤلّف من عشرة أشخاص من قوّات الدلتا سيعملون تحت إشرافه، وقد أوفدوا إلى ريكيافيك ومعهم أوامر بأن يبسطوا سيطرتهم على السفارة، وقد أُعطي السفير وموظّفوه المباشرون إجازة من دون توضيح الأسباب ومدّة الإجازة.

بدأ الثلج يتساقط ندفاً كثيفة استقرّت كغطاء سميك على جنوب البلاد وشرقها معيقة ماسحات الزجاج الأماميّة للشاحنات من إزالتها، وكان هناك ازدحام سيّارات شديد على الطريق من ريكيافيك إلى بلدة هفيراغيرديأند سيلفوس الصغيرة، ولكن ما لبثت أن أصبحت الطريق خالية، فحافظت المركبات على مسافة ثابتة بين بعضها وهي تسير في الضباب الكثيف والثلج يتساقط بغزارة، فتجاوزت قرى هيلا وهفولسفولر ذات الأراضي المنبسطة ثم فيكيميردال، حيث تجمّع الثلج في أسفل نهرها الجليديّ، وإلى الشرق كانت مستوطنة كيركجوبايجاركلاوستور فوق جسور رمال سكيادارا، وكان هناك سهل رسوبيّ جليديّ واسع يتقاطع مع أنهار جليديّة معرضة في بعض الأوقات لفيضانات مفاجئة ومدمّرة يسبّبها ثوران في الغطاء الجليديّ الداخليّ، وإلى يسارهم، أخفى الظلام جبالاً وأنهاراً جليديّة وأراضي بور داخليّة، وإلى يمينهم وخلف الرمال يكمن ساحل الأطلسيّ الخالي من الموانئ.

لم يلحظهم أحد، إذ كان نقل البضائع أمراً شائعاً في الريف في غياب السكّك الحديدية، فكانت تنقل البضائع بمختلف أنواعها وتشحن عبر الطرق

البرّيـة، بواسـطة الآلات الزراعيّة، كنقل المـؤن الغذائيّة، والوقود الموجّه إلى المزارع والقرى النائية.

تضمّنـت توجيهـات راتـوف بيانـاً مفصّـلاً حـول العمليّـة العسـكريّة في 1967حيث توجّهت أضخم بعثة استطلاع للبحث في فاتنويوكل مجبرين على أن يجوبوا البلاد سالكين طرقاً ترابيّة وعرة، متّجهين إلى الشمال أوّلاً، قاصدين الغطاء الجليديّ من الشرق، وقد كان صرف الانتباه عنهم أمراً صعباً في تلك الأثناء، وفي النهاية، اضطرّوا إلى أن يلجأوا إلى اتّخاذ إجراءات مشدّدة.

تابـع رجـال راتـوف سـيرهم تحت جنح الظلام، وعلـى الرغم من الثلج المتراكم، إلّا أنّ الطرق كانت قد عُبّدت ويسهل سلوكها، لقد قطع الواحد تلو الآخر المنطقة السياحية المشهورة سكافتافيل قاصدين هورتنافيورد في الشرق، ومـرّوا عبـر الطريـق الضيّق للأراضي المنخفضة لأوريفي، وسودورسـفايت، وميـرار بيـن النهـر الجليـديّ والبحر، وقبل وصولهم إلى بلـدة هوفن انعطفوا يسـاراً خـارج الطريـق المحيطـيّ، وسـاروا فـي المـزارع الواقعة أسـفل النهر الجليـديّ، ثـمّ توقّفـوا عند مزرعة الأخوين، وعند وصول شـاحنة راتوف كان الجنـود منهمكيـن في تفريغ الناقـلات الأخرى، وكانت الزلّاجات الأولى قد أصبحت في طريقها إلى الغطاء الجليديّ.

وقف المزارع أمام باب منزله يراقب القوّات في أثناء عملها، فقد سـبق له أن رأى مثل هذا المشهد، وعلى الرغم من أنّه لا يعرف راتوف الذي كان يتوجّـه نحـوه عبـر الثلج المتسـاقط بكثافة، إلّا أنّـه كان قد قابل آخرين أمثاله. عاش المزارع جون بمفرده في المزرعة بعد وفاة أخيه منذ عدّة سنوات.

سـأل بالآيسـلنديّة وهو يصافح راتوف: «تجرون عمليّة أخرى على النهر الجليـديّ؟». كان يعـرف كلمـات قليلـة بالإنكليزيّـة ولقـد فهمهـا أفضل ممّا اسـتطاع أن يتكلّـم بهـا، ومـع ذلـك احتاجـوا إلـى المترجم الـذي زوّدتهم به القاعدة، وكان رجلاً مستقرّاً في آيسلندا منذ عدّة سنوات.

ابتسم راتوف لجون، وأزاحا الثلج ثمّ دخلا إلى المنزل الدافئ المرتّب وجلسا في غرفة الجلوس، كان راتوف يرتدي بذلته البيضاء، والمترجم يرتدي معطفاً، أمّا المزارع فارتدى قميصاً أحمر، وجينزاً بالياً، وجوارب صوفيّة، وكان قد بلغ الثمانين من العمر تقريباً، رأسه أصلع تماماً، ووجهه تغطّيه التجاعيد، ولكنّه نشيط ومنتصب القامة، ومتّزن عقليّاً وجسديّاً، حالما جلس الرجلان على مقعديهما عرض عليهما قهوة مرّة، وحفنة من التبغ الخام قدّمها بكفّه فرفضها كلّ من راتوف ومترجمه لعدم معرفتهما ماهيّتها.

يعلم جون أنّها المرّة الثالثة التي يقوم فيها الجيش برحلة استطلاع إلى النهر الجليديّ إذا احتُسبت محاولة ميلر في نهاية الحرب، ومع ذلك ولفترة من الوقت ظلّ الكولونيل يقوم بزيارتهما بمفرده خلال عدّة سنوات، ويقيم معهما، وذات مرّة مكث أسبوعين أو ثلاثة في أثناء تفحّصه الغطاء الجليديّ بواسطة جهاز كشف معدنيّ صغير قبل أن يعود مجدّداً إلى الولايات المتّحدة الأميركيّة. وكانت علاقته بالأخوين تقوم على الصداقة، ولكن عندما سألا أعضاء من بعثة 1967 الاستطلاعيّة عن ميلر عرفا أنّه مات. وكانت هذه أكبر بعثة رآها جون حتّى ذلك الوقت، وكما في السابق كان الأخوان يعملان بمثابة مرشدين للجيش ويدلّان الجنود عبر سفوح الجبال على الغطاء الجليديّ، وقد عرفا أنّ جزءاً من الطائرة المحطّمة قد ظهر في صورة قمر صناعيّ، حينها كان الجيش قد توقّف عن استخدام طائرات التجسّس، ومع مرور الوقت، كان الأخوان على دراية برحلات الاستطلاع الجوّيّة ولكنّ الدوريّات في تلك المنطقة كانت قد توقّفت فجأة بعد استخدام التكنولوجيا الجديدة.

كثيراً ما تساءل الأخوان عن سبب اهتمام الأميركيّين المفرط بالطائرة الألمانيّة لدرجة أنّهم راقبوا النهر الجليديّ من الفضاء، وتأهّبوا في المزرعة كلّما اعتقدوا بأنّ الحطام قد انبثق من الجليد، لقد عاهدا الكولونيل ميلر بألّا يكشفا عن الغاية الحقيقيّة من الاستطلاع لجيرانهما، أو لسواهم، وقد طلب

منهما أن يعتبرا النشاط الذي يقوم به تدريبات عسكريّة في حال انتاب أهالي المنطقة الفضول، وهذا ما حصل. ولكن على الصعيد الشخصيّ، خامرت الجميع الريبة والشكّ في نظريات غير محتملة الحدوث، فربما كانت الطائرة محمّلة بذهب اليهود، أو بالألماس، أو تحف فنّيّة نهبها النازيّون من كلّ أنحاء أوروبا، وربما كان هناك جنرال ذو مرتبة عالية على متنها، أو سلاح سرّيّ من أسلحة الحرب الفتّاكة، ولكن كائناً ما كان، فالجيش الأميركيّ كان حريصاً جدّاً على وضع يده عليه، من دون لفت الانتباه إلى حقيقة الأمر، وفي كلّ مرة كانت تظهر علامة سوداء على صورهم كانت السلطات العسكريّة تغرق في دائرة التوتّر، وهذا ما شغل الرجل المسنّ.

سأل جون: «ماذا رأيتم هذه المرّة؟»، وراقب المترجم وهو يترجم سؤاله لراتوف.

قال المترجم ناقلاً إجابة راتوف: «نعتقد أنّنا حدّدنا موقعها أخيراً من خلال أقمار صناعيّة أكثر تطوّراً».

ردّد جون: «أجل، أقمار صناعيّة متطوّرة»، وأردف: «هل تعلم ما تحتويه الطائرة؟ وما سبب استماتة جماعتك للعثور عليها؟».

أجابه راتوف: «ليس لديّ أيّ فكرة، لقد كلّفت بمهمّة محدّدة، ولا علاقة لي بما تحويه أو ما مصدرها، فالمسؤولية التي تقع على عاتقي تحتّم عليّ تنفيذ الأوامر حرفيّاً».

تفحّص جون راتوف فشعر بأنّه عميل يختلف عن ميلر اللطيف، فهو يبدو فظّاً وسيّئ الطباع، والخبث يظهر على ملامح وجهه، كما لمح نفاد صبره، ومزاجه المتقلّب الكامن وراء سلوكه الهادئ الذي يظهره.

تابع جون: «حسناً، لم أكن لأتفاجأ إذا عثرتم على الحطام، لا سيّما بعد الموجة الأشدّ حرارة منذ عام 1960 تقريباً، والتي أذابت معظم الجليد في هذه المنطقة».

قـال لـه راتـوف: «وفقـاً لصورنـا إنّ المقدّمة ظاهرة فـوق الجليد، ولدينا الإحداثيّات، ولا ينبغي أن يستغرق ذلك منّا وقتاً طويلاً».

قـال جـون بعـد أن أخـذ نشـقة قويّة مـن التبغ الخـام: «إذاً أنتـم تعلمون المكان الذي يجب أن تبحثوا فيه»، حفّز التبغ الخام رغبة شـديدة في عطس غير المدخّنين، فلطالما اعتُبر التدخين عادة سيّئة من قبل الكثيرين، وما يُسحب من النيكوتين يعدّ قويّاً وهو يعادل أضرار تدخين السيجارة.

وأضاف: «ولا تحتاجون إلى دليل بعد الآن، ولا سّيما إلى ديناصور مثلي، فأنا لا أنفع أحداً هذه الأيّام».

وافقه راتوف وهو ينهض عن كرسيّه: «نحن الآن على دراية تامّة بالطريق».

قال جون: «يسـتعين بي السـيّاح كثيراً في الصيف، فهم يقومون برحلات تزلّج، ويحضرون بواسطة الجيب من هوفن، وأسمح لهم بأن يعبروا أرضي، وهناك الكثير منهم يأتون كلّ سنة».

بعـد المحادثـة القصيـرة، غادر راتوف بيت المزرعة مع مترجمه، واتّجها نحو مركبة صغيرة مجهّزة بجنازير، وركباها، وانطلقا من دون توانٍ متجاوزَيْن المزرعة باتّجاه السفوح، ولـم يكن هناك أيّ أثر للمركبات الضخمة حينها.

لقـد ازدادت حـدّة العاصفـة الثلجيّة خلال المسـاء، وبـات وضوح الرؤية ضعيفـاً، فتعقبـت مركبتهمـا الأثـر الذي خلّفتـه المركبات الأخـرى على الثلج المتسـاقط حديثـاً، وكان تقدّمهـا بطيئـاً وهي تزحف إلى الأمام عبر الانجرافات الثلجيّـة، ومصابيحهـا الأماميّـة القويّة تنير الطريق، وبحلول الوقت الذي وصلا فيه إلى المخيّم الواقع أسفل الهضاب، كانت مصابيح كشّافة ساطعة قد نصبت ضمـن دائـرة مغلقـة من الخيم، وصناديق من المؤن مبعثرة في الأرجاء، وجنود القـوّات الخاصّـة يرتـدون ملابـس التمويه الثلجيّ وهم يعملـون بطريقة منظّمة وممنهجة، وفي حال تحدّد موقع الطائرة، سينقلون المخيّم إلى الغطاء الجليديّ.

كانت حدودُ صحنِ قمرٍ صناعيّ كبيرٍ تلوح في الأفق عبر ستار كثيف من

الثلج خارج الخيمة التي نصبت لتكون مركّزاً للاتّصالات السلكيّة واللاسلكيّة.

دخل راتوف مباشرة، حيث كان رجلان مشغولين بتركيب النظام اللاسلكيّ.

سأل راتوف: «متى يمكننا أن نجري اتّصالاً؟».

ردّ أحد الرجلين: «في غضون أربعين دقيقة سيّدي».

«صلني بكار فور انتهائك».

كان فيتاوتاس كار جالساً في مكتبه داخل المبنى 312 عندما رنّ هاتفه.

أبلغه سكرتيره: «راتوف على الخطّ 1».

ضغط على الزرّ، وكانت التاسعة مساء في عاصمة الولايات المتّحدة الأميركيّة والثانية بعد منتصف الليل في آيسلندا.

سأل كار: «كلّ شيء على ما يرام؟».

«إنّنا ننفّذ مخطّطنا سيّدي، وسنتّجه إلى النهر الجليديّ مع بزوغ فجر الغد، إنّها تثلج بغزارة ولكن لا شيء سيعيقنا، طالما أنّ الإحداثيّات صحيحة، كما لن يؤثّر غمر الثلوج الطائرة، فمهما تراكمت الانجرافات الثلجيّة فسنجدها من دون أدنى شكّ».

«ماذا عن أهالي المنطقة؟».

«غير مرتابين، ونخطّط لأن نُبقي الوضع كذلك سيّدي».

«إنهم يراقبون مناوراتنا العسكريّة عن كثب، لذا علينا أن نستكمل العمل بحذر».

«سوف يغلقون أفواههم طالما أنّهم يحصلون على المال منّا».

تجاهل كار ذلك قائلاً: «هل هناك أيّة حركة مريبة على الجليد؟».

«نحن نعلم بخصوص فريق إنقاذ يقوم بمناورة تدريبيّة في حقل مختلف ولن يتسبّب ذلك لنا بأيّة مشاكل».

«حسناً، تواصل معي عندما تجد الطائرة».

4

توماساراغي، ريكيافيك، الجمعة 28 كانون الثاني، السادسة فجراً بتوقيت غرينيتش

استيقظت كريستين في ساعات الصباح الأولى ينتابها شعور غريب حول ذلك اليوم، لقد علمت أنّ المسألة مع رجل الأعمال لم تنتهِ، وكان من المحتّم أنّها ستصادفه مجدّداً، وربما في وقت لاحق من اليوم، كما أنّ أخاها الذي يقضي وقته وهو يمارس هواية التزلّج في فاتنويوكل في منتصف الشتاء يسبّب لها القلق أيضاً، لقد كان متمرّساً، ولكن يتعذّر على أحد التنبّؤ باشتداد ضراوة الطقس، وبعد قضاء ليلة سيّئة، استيقظت قبيل السادسة، واستحمّت بسرعة، ثم أعدّت القهوة، وجلست تحتسيها مفتقدة مَن تشاركه همومها.

لكن هذا لا يعني أنّها لا تحبّذ أن تعيش وحدها، فقد سكنت لثلاث سنوات مع رجل قابلته عند عودتها إلى الديار بعد إنهاء دراستها الجامعيّة في الولايات المتّحدة الأميركيّة، وكان محامياً مثلها، ولكن حالما انتهت فترة شهر العسل، أصبح متسلّطاً جدّاً، وشعرت بالراحة عندما لم تعد مضطرّة إلى تحمل سلوكه المتعجرف لمدّة أطول من ذلك، فقد كان مختلفاً جدّاً، عندما التقيا للمرّة الأولى وكان لمّاحاً ومسلّياً، اعتاد أن يضحكها وأن يغدق عليها الهدايا ويُعدّ لها المفاجآت، ولكنّ الحقيقة ما لبثت أن تجلّت أمامها حين

قرّرا العيش معاً، إذ بعد أن اصطاد سمكته، شعرت وكأنّه بدأ ينزع الخطاف.

على الرغم من أنّها كانت دوماً مستقلّة، إلّا أنّها هادئة بطبيعتها، وانطوائيّة نوعاً ما، ومحافظة على خصوصيّتها، ولم تكن تمانع غياب الرجل عن المنزل، كما لم يكن الجنس أمراً مهمّاً بالنسبة إليها لذلك لم تفتقده، وإذا ما شعرت بالرغبة كانت ترضي نفسها، وقد تمتّعت بتلك الحرّيّة التي امتلكتها، كما استمتعت بأن تحظى بالشقّة في توماساراغي كلّها لنفسها، بوجود فرشاة أسنان واحدة فقط في الحمام، وكذلك من دون وجود مَن تخبره بكافّة تحرّكاتها.

كان يمكنها الخروج والعودة ساعة تشاء. وقد أحبّت أن تعيش وحدها، من دون أن تخضع لأهواء الآخرين، وشعرت بارتياح كبير عندما أنهت علاقتها لدرجة أنّها كانت غير متأكّدة ما إذا كانت تريد أن تشارك أحداً منزلها مرّة ثانية، لعلّ ذلك تضحية كبيرة جدّاً، كما لم يخطر الأولاد في بالها أبداً، ربما كانت خائفة من أن تصبح مثل أبويها، فكان أمراً مفاجئاً حين طرح المحامي موضوع الأولاد بعد أن سكنا معاً لفترة محدّدة قائلاً إنّ عليهما التفكير في تأسيس عائلة، حينها حدّقت إليه بذهول واعترفت بأنّها لم تفكّر في هذا الموضوع مليّاً.

قال لها: «ربما عليك التوقّف عن القلق بشأن إلياس طوال الوقت، فهو وبالرغم من كلّ شيء ليس ابنك».

وجدت عبارة، إنّه ليس ابنك، غير مألوفة، صمتت وتأمّلت، لكن لم يكن لديها أدنى فكرة إلى أين سيصل بهذا هذا الأمر.

«ماذا تقصد؟».

«أنا أقصد أنّك تعاملينه كطفل».

«طفل؟».

«إنك تتّصلين به عشر مرّات خلال اليوم، رغم أنّه يظلّ دائما في الجوار، غالباً ما تختلقين الأسباب لمرافقته إلى البلدة، وهو يتسكّع هنا طوال الأمسيات

وينام على الأريكة».

«إنّه أخي».

«تماماً».

«أنت لا تغار من إلياس، أليس كذلك؟».

قال متهكّماً: «أغار؟ بالطبع لا! ولكن هذه العلاقة الحميمة جدّاً ليست طبيعيّة».

«ليست طبيعيّة؟! لا عائلة لدينا ولا يملك أحدنا سوى الآخر، نحن مجرّد أخوين ومقرّبين من بعضنا، ولكن ما غير الطبيعيّ في هذه العلاقة؟».

«حسناً، إنّها ليست بالضبط غير طبيعيّة، ولكن كلّ ما في الأمر أنّه أخوك وليس ابنك، أعلم أنّه أصغر منك بكثير ولكنّه سيبلغ العشرين عاماً قريباً، إنّه ليس طفلاً!».

ظلّت صامتة لفترة طويلة فاغتنم خلالها الفرصة لينهض ويدّعي بأنّ لديه عملاً لينجزه في المكتب.

لم يطل الوقت، حتّى بدأت علاقتهما بالتدهور، لينتهي بها المطاف بالنفور منه، وربما ضغطت على وتر حسّاس، وفتحت عينيها لترى ما لم ترد مواجهته، وقد قابلت رجالاً آخرين بعد ذلك، ولكنّهم لم يكونوا سوى علاقات عابرة، باستثناء شخص واحد، ندمت لإنهائها علاقتها به، وبالأخص لأنّ الافتراق كان يعود إلى خطأ ارتكبته بسبب حماقتها المخزية والمطلقة.

بين الحين والآخر، عندما كانت تجلس وحيدة في المنزل، وحده الفراغ كان يملأ وقتها، فكانت تحظى بفرصة للتفكير في مستقبلها الذي يتجلّى واضحاً أمامها، فترى نفسها تتقدّم في العمر في رتابة موحشة، وتذبل حتّى تموت، بلا أولاد، وبلا عائلة، وبلا أيّ شيء. تمرّ السنوات في صمت جائر وتمضي أمسيات الصيف الطويلة وحدها عندما لا يكون لديها ما تفعله سوى مراجعة ملفّات من مكتبها. كانت هذه اللحظات تخطر في بالها عندما كانت

تنزعج من صرخات الأولاد في الشارع، أو عندما كانت تستلقي في المساء، وهي تشعر بالإرهاق يتغلغل في جسدها، وأحياناً كانت تعتقد أنّ هذه الحالة تحدث بالفعل كما لو أنّها حبيسة الزمن. كلّ تلك الأيّام الطويلة الخانقة أدخلتها في بوتقة صمت موحش، وفي بعض الأحيان كانت تقدّر ذلك، ولكن في أحيان أخرى تمنّت أن تكون حياتها حافلة بالأحداث، وأن تقوم بما يتخطّى جلوسها وراء مكتب طيلة اليوم لتعود إلى شقّة خالية في المساء.

كان إلياس عائلتها، بعد أن ماتت أمّهما، وابتعدت عن والدها ليصبح التواصل معه نادراً، وما زاد من شعورها بالوحدة عدد الأقرباء القليل الذي يندر الحديث معهم وعنهم، لقد عاشت وإلياس وحدهما، واعتنيا ببعضهما، وربما كان المحامي محقّاً بأنّ أخاها يأخذ الكثير من وقتها، ولكنّها لم تمانع ذلك أبداً.

جلست وهي تهيم في أحلام اليقظة وتشرب القهوة متفحّصة من دون تركيز ملفّ الصباح إلى أن يحين موعد ذهابها إلى العمل، لم يكن هناك الكثير من الأخبار، فالمصرف الوطنيّ في خضمّ عملية خصخصته، ونُقل عن وزارة التجارة والصناعة أنّها رفضت الحاجة إلى تشريع تنوّع ملكيّة الأسهم، وقد اكتُشف موقع مزرعة تابع إلى عهد الفايكنغ غرب البلاد، أمّا رئيس روسيا بوريس يلتسن فسيحتفل بعيد مولده الثامن والستّين.

كانت الساعة التاسعة إلا ربعاً عندما غادرت المنزل بينما كان الثلج يتساقط بغزارة، ويفصلها عن شروق الشمس ساعتان، فمشت بصعوبة عبر الجروف، حيث الازدحام شديد، والناس في عجلة من أمرهم للوصول إلى أعمالهم بعد أن أقلّوا صغارهم إلى الحضانات النهاريّة، أو إلى المدارس، وقد طغى صوت طقطقة الثلج على زجاج السيّارات على ضجيج أبواقها، وبدأ يتصاعد دخان كثيف ناتج عن عوادم السيّارات فوق المدينة. لم يكن لدى كريستين سيّارة إذ كانت تفضّل المشي، وخصوصاً عندما يكون الثلج كثيفاً، وكانت المسافات قصيرة في ريكيافيك مقارنة بكاليفورنيا حيث سبق لها أن

عاشت، واعتادت اجتياز المسافات الطويلة. إنّ عدد سكان ريكيافيك يزيد عن المئة ألف بقليل، ولكن الناس يتصرّفون كما لو أنّهم يعيشون في عاصمة ضخمة رافضين الذهاب إلى أيّ مكان من دون سيّارة حتى لو كان يستغرق ذلك خمس دقائق سيراً على الأقدام.

عند وصولها إلى المكتب علمت أنّ رئيس مجلس التجارة كان ينتظر مقابلتها برفقة مساعد وزير الخارجيّة، فتساءلت: «ماذا الآن؟»، وحضّرت نفسها للأسوأ، وحالما جلس الرجلان على مقعديهما في مكتبها شرحا لكرستين أنّ الرجل ذا المعدّات المتنقّلة رونولفور زوفاناسون كان قد هدّد رئيس مجلس التجارة، وكانت تهديداته خطيرة جدّاً وتستدعي إعلام الشرطة، وقد اتّصل بالرئيس في وقت متأخّر من الليلة الماضية، وهو على ما يبدو يقظ، ولكنّه ساخط من النصيحة التي كان قد تلقّاها في ما يخصّ تعامله مع روسيا، وخلال المكالمة هدّد الرئيس بالعنف الجسديّ ولم يكن هناك سبب للاعتقاد بأنّه غير جدّي في كلامه.

قالت كريستين بعد أن اطّلعت على الوضع: «ولكن ما علاقتي بكلّ هذا؟».

وضّح مساعد وزير الخارجيّة والعضو الحزبيّ اليافع والذي بدا جليّاً أن له طموحاً سياسياً: «لقد ذكر اسمك على وجه الخصوص».

«أنا أقدّر بأنه لم يكن تماماً في مزاج جيّد عندما غادر حانقاً من هنا البارحة، ولم يقم سوى بقذف تهديدات كلاميّة كالعادة، لذا طردته بعد أن رمى بالكرسيّ على الجدار وعندما تجاهلت تهديداته ازداد غضبه، على أيّة حال يبدو الرجل مخبولاً ويظنّ أنّ ثمّة مؤامرة تحاك ضدّه في الوزارة».

قال الرئيس، وهو رجل سمين ذو وجه صغير ودود: «طلبت من الشرطة التحقّق من خلفيّته، فقد قام بالكثير من عمليّات المقاولة والمداولة في السابق، لكن كلّ أعماله كانت قانونيّة على حدّ علمهم، كما أنّهم زاروه وتحدّثوا إليه، ووعدهم بأن يتصرّف باحترام مدّعياً أنه فقد أعصابه لوهلة، ولكنّهم نبّهونا من

أن نكـون حذريـن فـي مطلق الأحوال، فهم لا يثقـون كثيراً بكلامه، ولن أردّد الكلمات التي قالها عنك أمامي، يبدو أنّه يستشيط غضباً بسبب خسارته مبلغاً كبيراً من المال في روسيا، وهو يلومنا لذلك».

قالت كريسـتين: «أنا لا أعلم حقّاً تداعيات القضيّة، ولكن أؤكّد لك أنّنا لم نعطِه أيّة معلومات غير صحيحة».

قال المسـاعد: «بالطبع لا، إنّه يدّعي أنّنا قد دفعناه إلى تسـيير عمله عبر إرسـال البضائـع مـن دون أيّ ضمانـات، ولكـن هـذا محض هـراء، إنّه ليس عملنـا أن نقـدّم هـذا النـوع من النصائح، وطريقة تسـيير الناس لصفقاتهم هي مسؤوليّتهم وحدهم فحسب».

وافقته كريستين قائلة: «بالطبع».

قـال المسـاعد وهـو يلقـي نظرة على سـاعته: «على أيّة حـال، أردناك أن تعلمي بالتطوّرات، وأن ننبّهك من أنّه لا ضير من أن تبْقي عينيك مفتوحتين، وإذا حاول رونولفور هذا مضايقتك بأيّ شكل من الِأشكال، عليك أن تتّصلي بالشـرطة مباشـرة، فقد أحطناهم علماً بملابسـات القضية»، انتهى الاجتماع، وبدأ يوم العمل كالمعتاد.

لـم ترفـع كريسـتين رأسـها عـن مكتبها إلى أن توجّهت عنـد الظهيرة مع بعض زملائها إلى مقهى صغير بجوار الوزارة لأخذ استراحة، فدردشت معهم قليلاً وتفحّصت جدول بعد الظهر وهي تشرب القهوة، وتأكل العجّة، وعندما عـادت إلـى مكتبهـا عنـد الواحـدة ظهراً كان قـد وصلها العديد من الرسـائل الصوتيّـة وكانـت إحداهـا مـن أخيهـا يقول لها فيها إنّه سـيتّصل بهـا مرّة ثانية لاحقاً، وفيما عدا ذلك كان اليوم خالياً من أيّ حوادث.

غـادرت العمـل باكـراً، بعد أن توقّف تسـاقط الثلج، وبـات الطقس دافئاً ولطيفاً، فكانت ليلة جميلة من ليالي شهر كانون الثاني، ولأنّه كان يوم الجمعة عرّجت على متجر لتشتري بعض الطعام لعطلة نهاية الأسبوع.

لقد سكنت شقّة في طابق أرضيّ في بيت صغير أنيق مكوّن من طابقين، ومبنيّ من خرسانة مطليّة بالأبيض، وله سقف مستوٍ اعتاد أن يرشح، عقب دخولها إلى الردهة المشتركة سمعت الهاتف يرنّ في شقّتها قبل أن يتسنّى لها الوقت للدخول، وسرعان ما فتحت الباب وأسرعت إلى الهاتف، وتلقّفت السمّاعة.

قال صوت عرفته فوراً، إنّه صوت أخيها: «مرحباً».

«إلياس!».

ردّد أخوها: «مرحباً، أتستطيعين سماعي؟».

أجابت: «بصوت مرتفع وواضح...» ولكنّ الاتّصال انقطع، فانتظرت فترة وجيزة قرب الهاتف في حال عاود أخوها الاتّصال مرّة ثانية، ولكن لم يحدث ما توقّعته، لذا أغلقت الباب الأماميّ، وخلعت معطفها، ووضعته داخل الخزانة. كانت قد جلست لتوّها إلى طاولة المطبخ عندما رنّ الهاتف مجدّداً.

أجابت: «مرحباً، هل هذا أنت إلياس؟».

لا ردّ.

«هل لا تزال على النهر الجليديّ؟».

لا ردّ.

«إلياس؟».

لقد سمعت في الطرف الآخر من سمّاعة الهاتف صوت تنفّس خافت، وعندها شكّت في أن يكون المتّصل رونولفور، فصمتت وأصغت جيّداً.

في نهاية المطاف سألت: «من أنت؟»، ولكنّها لم تسمع ردّاً، فسألت مجدّداً: «هل أنت رونولفور؟»، وأضافت بعد التفكير وهلة: «أيّها الوغد!»، ثم أنهت المكالمة.

استرجعت لقاءها مع رئيس مجلس التجارة ومساعد وزير الخارجيّة، وهي تتناول شطيرة، وتشرب عصير البرتقال، ثم أخذت مجموعة ملفّات من حقيبتها، وحاولت أن تركّز على العمل، وبكلّ الأحوال كانت تشعر بالنعاس،

فذهبت واستلقت على الأريكة، وفكّرت في أن تعدّ القهوة إلى حين أدركت أنّها نسيت أن تشتري حليباً، فكان يتوجّب عليها أن تذهب بنفسها إلى المتجر قبل أن يقفل، ولكنّها لم تستطع أن تتكبّد عناء ذلك، وغلبها النعاس.

لم تعلم كريستين كم من الوقت قد انقضى وهي نائمة، فاستيقظت وارتدت معطفها، وقفّازيها وقد أجبرت نفسها على ذلك كي تتمكّن من الذهاب إلى المتجر المحلّيّ الواقع في جوار منزلها عند الزاوية، إذ لا يطيب لها طعم القهوة إلّا عندما تضيف إليها حليباً دافئاً، وكانت قد وصلت لتوّها إلى الباب عندما رنّ الهاتف مجدّداً فقفزت فزعة.

قالت وهي ترفع السمّاعة: «ما الذي يجري هنا بحقّ الجحيم!».

«مرحباً، أنا إلياس، هل تستطيعين سماعي؟».

صاحت كريستين: «إلياس! أين أنت؟».

«كنت... الاتّصال بك...اليوم. أنا على النهر الجليديّ...». كانت الشبكة ضعيفة وكان صوت أخيها متقطّعاً.

سألت وهي لا تزال مترنّحة بعد قيلولتها، فهي استيقظت باكراً جدّاً هذا الصباح: «هل كلّ شيء على ما يرام؟».

«كلّ شيء ممتا...اثنان منّا...انطلقنا على زلّاجات...في... طقس. إنّه ظلام..».

«ماذا تقصد؟ أنتما الاثنان؟ أين الآخرون؟».

«نحن...قيادة تجريبيّة...بخير».

«هذا أمر ميؤوس منه، لا أسمع سوى كلمات متفرّقة، رجاء هل من الممكن أن تذهبا وتنضمّا إلى باقي الفريق؟».

«إنّنا نتجوّل حول...متراخٍ. كلّف الهاتف سبعة...آلاف. ألا تستطيعين سماعي؟».

«إنّ هاتفك عديم الجدوى!».

«لا تكوني هكذا، متى...ستأتين... القيام برحلة إلى النهر الجليديّ برفقتي؟».

«لن تستطيع إقناعي بأن تطأ قدماي أيّ نهر جليديّ لعين!». لقد سمعت أخاها يقول كلاماً غير مفهوم ثم ينادي صاحبه.

لقد سمعته يصرخ: «جوان! جوان، ما هذا!». تعلم كريستين بأنّ جوان صديق جيّد لأخيها، وهو المسؤول عن التحاقه بفريق الإنقاذ في المقام الأوّل.

ثم سمعته يصرخ مجدّداً: «ما كلّ هذه الأنوار؟ هل هم يحفرون في الجليد؟».

قال لها ونبرة صوته تعلو فجأة: «عليك أن تري هذا، هناك شيء ما يحدث هنا».

ثم سمعت صوته يبتعد عن الهاتف، ويصرخ منادياً صديقه، ثم قرّب الهاتف مجدّداً قائلاً: «يعتقد جوان...في الجليد».

أنتظر وقتاً طويلاً بصمت.

صاح إلياس فجأة: «إنّهم قادمون!». حديثه عاد يتقطّع بعد أن ضعفت الشبكة من جديد، لاحظت حماسته التي اختفت لتتحوّل إلى ذعرٍ يصحبه تنفّس متقطّع.

قالت مندهشة: «من هم؟ من الذي قادم؟ ما الذي تراه؟».

«من حيث لا أدري. نحن... بزلّاجات. إنّهم مسلّحون».

«من؟».

«كأنهم...جنود».

«إلياس!».

«...طائرة!» ولكنّ المكالمة انقطعت فجأة، ومهما صرخت عبر الهاتف لن تسمع سوى نغمة الرنين، فأغلقت السمّاعة بعناية وحدّقت بذهول إلى الحائط.

5

واشنطن العاصمة، الجمعة 29 كانون الثاني، الساعة الثالثة ظهراً بتوقيت غرينتيش

جـال فيتاوتـاس كار خلال مسـيرة مهنيّة عسـكريّة طويلـة مختلف أرجاء العالم، وزار آيسلندا مرّة واحدة فقط، وكان يدرك أنّ قاعدة الولايات المتّحدة الأميركيّـة الجوّيـة فـي كيفلافيك أنشـئت بعد الحـرب العالميّة الثانية في مقرّ تلفحه الرياح وسط الحرّة المعروفة باسم ميدنيشيدي على بعد حوالى ساعة قيادة من جنوب غرب العاصمة ريكيافيك. وكانت القاعدة أحد أكثر الروابط الاسـتراتيجيّة حيويّة في سلسـلة الدفاع الغربيّ، حيث إنّ موقع الجزيرة وسـط شـمال الأطلسـي أثبت أنّه موقع مثاليّ لقوى عسـكريّة عظمى في ظلّ الحرب الباردة المحتدمة، يتيح مراقبة تحرّكات غوّاصات الاتّحاد السوفياتيّ، وحركة النقل البحريّ والجوّيّ في منطقة القطب الشماليّ.

كمـا أدرك أيضـاً أنّ البريطانيّيـن كانـوا قد احتلّوا البلاد عند بداية الحرب قبل أن يسلّموا دورهم الدفاعيّ للأميركيين في العام 1941. وفي البدء، كانت القيادة العامّة الأميركيّة في ريكيافيك بمشاركة كتيبة من الجند، ولاحقاً دعمهم فوج المشـاة الخامس بقيادة الجنرال كورتلاند باركر الذي حارب في تونس إلـى أن استسـلمت قـوّات المحور في أفريقيا، وقد اسـتولت القـوّة الأميركيّة

الاستعماريّة على 38000 قوّة عسكريّة.

كان وجود الجيش الأميركيّ سبب نشوء النزاعات السياسيّة عند انتهاء الحرب، وقد أشعل التوقيع على معاهدة الدفاع اضطرابات خارج مبنى البرلمان الآيسلنديّ، وكانت الأحزاب السياسيّة اليساريّة شرسة في معارضتها وجود القاعدة على مرّ السنوات، ومع ذلك لم يكن لذلك أيّ تأثير. وقد أشارت سياسة الحكومة دوماً إلى عدم استفادة الدولة من وجود حلف الناتو على شواطئها، واستناداً إلى ذلك لم يدفع الجيش مباشرة مقابل خدماته في مطار كيفلافيك، وبالرغم من ذلك كانت عشرات الملايين تصبّ في جيوب المقاولين المدنيّين وأصحاب شركات الخدمات الذين قاموا بالأعمال نيابة عن الجيش وكان لهم علاقات مع الأحزاب السياسيّة المتطرّفة جدّاً.

وعلاوة على ذلك فإنّ اقتصاد القرى المجاورة أصبح يعتمد بشكل تامّ على وجود قوّات الدفاع الآيسلنديّة، ولذلك فإنّ قرار تقليص المهمّات في ميدنيشيدي عقب نهاية الحرب واجهته احتجاجات صاخبة من قبل الأهالي.

كان كار يدرس هذه الخلفيّة بتمعّن وهو في طريقه إلى اجتماعه الأسبوعيّ مع وزير دفاع الولايات المتّحدة الأميركيّة، كما كان قد استُدعي لتوضيح سبب وجود طائرة سي 17 نُقلت من قسم النقل الجوّيّ في تشارلسون إلى آيسلندا وهي قابعة بلا حراك منذ مدّة غير محدّدة وسط الثلوج، وكان سيتحدّث باسم عمال قوّة الدلتا. وقد انتابت كار موجة من الحنين إلى الأيّام الماضية التي كانت تُجرى فيها العمليّات بسرّيّة تامّة، بعد إعلام حشد من المسؤولين المنتخبين سياسيّاً بأدقّ تفاصيل تحرّكات الاستخبارات العسكريّة في كلّ بقاع العالم.

لقد جعل وزير الدفاع كار ينتظر خارج مكتبه خمس عشرة دقيقة - كان كار متأكّداً من أنّ ذلك متعمّد - قبل أن يستدعيه إلى الداخل ويتصافحا بجفاء، إذ كانت العلاقات بينهما غير وديّة خلال السنوات الستّ التي شغل

فيها الوزير منصبه، وقد أدرك كار خلال تلك الفترة حتميّة مواجهته العراقيل في تلك القيادة، بعد أن اكتشف الوزير سعيه إلى الحصول على معلومات شخصيّة عنه بهدف فضحها - كإثبات على أنّ لديه عشيقات، أو نزعة إلى المقامرة، أو ارتكاب أيّ رذيلة أخرى - وتوريطه في مشاكل، وقد تمادى في بحثه لدرجة أنّه تفحّص عائداته الضريبيّة، وحساباته المصرفيّة، وتعاملات بطاقته الائتمانيّة، وإن كان ذلك يعدّه إجراء احترازيّاً يقوم به مع كلّ وزير دفاع جديد، وقد أثبت هذا الإجراء فاعليّته ذات مرّة بطريق الصدفة ما مكّنه من الحصول على نفوذ أكبر، ولكن لم يحالفه الحظّ هذه المرّة، لأنّ الوزير على حدّ علمه كان نقيّاً كالثلج.

لقد كان الوزير خطيباً يافعاً، وسياسياً مصلحاً، وأحد ألمع الديمقراطيّين، وهو متزوّج ولديه أولاد، ويعتني بحيوانين أليفين، ويذكّر بكارتر في ريعان شبابه، كما كان معارضاً صريحاً لأسرار الدولة، وقد ألقى عدّة خطابات تناول فيها الحاجة إلى الانفتاح في ما يتعلّق بعمليّات الاستخبارات السرّيّة التي كانت قد أدّت دوراً جديداً واسع النطاق عقب انتهاء الحرب الباردة، ولم يكن واضحاً في ما قصده بقوله: «دوراً جديداً واسع النطاق»، ولكنّه كان بالتأكيد أحد أبرز الدعاة إلى الحدّ من الإنفاق على الاستخبارات السرّيّة ووضع عمليّاتها تحت الرقابة.

لم يستطع كار تحمّل مواقف الوزير السياسيّة، وقد أزعجه بشدّة فشله في إيجاد أيّ فعل مشين ارتكبه في ماضيه.

بدأ الوزير كلامه قبل أن يجلسا على مقعديهما: «ما قصّة الطائرة في كيفلافيك؟ وما الذي تسعى وراءه في آيسلندا؟ إنّ طائرة سي- 17 تكلّف 350000 دولار يوميّاً، بالإضافة إلى نفقات قوّات الدلتا، ونحن لا نستطيع تحمّل هذا القدر من التبذير إلّا إذا كان الذي استوجب ذلك حدثاً خطيراً، وبالنسبة إلى راتوف فهو مختلّ عقليّ وأنا لا أرى من داعٍ إلى أن يكون في

فريقنا».

لم يعطِه كار جواباً، إذ في ظلّ إجراءات العمل الروتينيّة، لم يكن يُفترض بالوزير أن يعلم بوجود رجال كراتوف، بل مدّ يده إلى حقيبته، وأخرج مجموعة من صور أقمار صناعيّة لفاتنويوكل وسلّمها إليه.

سأله الوزير: «ماذا لديك هنا؟ ما هذه الأوراق؟».

«إنّها صور أقمار صناعيّة سيّدي الوزير للقطاع الجنوبيّ شرق نهر جليديّ آيسلنديّ معروف باسم فاتنويوكل، وهو يعدّ أكبر نهر جليديّ في أوروبا يتكوّن من صفيحة جليديّة ضخمة تظلّ في حالة تغيّر دائم، وتُظهر الصور المكبّرة ما نعتقد أنّه طائرة قد تحطّمت على هذا النهر في الفترة الأخيرة من الحرب العالميّة الثانية».

«أيّ نوع من الطائرات تكون؟».

«ناقلة ألمانيّة سيّدي الوزير، وعلى الأرجح يونكرز».

«ونحن وجدناها للتوّ؟».

نحن؟ من نحن؟ يا إلهي إنّ السياسيّين يضعون أنفسهم دوماً في مركز الصدارة، ولا سيّما الديمقراطيّين الذين يطالبون بانفتاح الحكومة وكشف الأسرار ليكون كلّ شيء شفّافاً وعلنيّاً.

أردف كار قائلاً: «كما ذكرت سيّدي الوزير، لقد تحطّمت في المراحل الأخيرة من الحرب، وقد انطلقت بعثة الاستطلاع من مركز قيادتنا في ريكيافيك بعد ذلك بأيّام، وحصل ذلك في وسط الشتاء، فكانت الرؤية غير واضحة على النهر الجليديّ، وكان الحطام مدفوناً في الجليد، وفي نهاية المطاف ابتلعه النهر الجليديّ تماماً، ولكنّه يبدو أنّه يعيده إلينا الآن بعد مرور أجيال».

«يعيده إلينا؟ عمّ تتحدّث؟».

«هذا ليس غريباً عنه، أكرّر مرّة ثانية، إن فاتنويوكل دائم الحركة، وهو يغطّي منطقة مساحتها 3200 كيلومتر مربّع، وهي منطقة تضمّ عدّة براكين

نشـطة، إلـى جانـب عدّة ألسـنة جليديّة صغرى، ما يجعـل كتلة النهر الجليديّة الكبـرى تتغيّـر وفقـاً للتقلّبـات المناخية، وكلّ ما يغـوص في الجليد يمكن أن يطفـو مجـدّداً علـى السـطح بعـد عدّة قرون، وهذا على مـا يبدو ما حصل مع الطائرة الألـمانيّة».

«ولكـن كيـف لنـا أن نعلـم أنّ طائرة ألمانيّة قـد تحطّمت على الجليد إن لـم نعثر عليها من قبل؟».

«لقـد رآهـا أخوان يعيشـان عنـد حافة الغطاء الجليـديّ وهي تحلّق فوق مزرعتهمـا علـى ارتفاع منخفض، وحملة الاسـتطلاع الأولى وجدت عجلتها الأماميّة».

«أكان هناك حملة استطلاع أولى؟».

«لقـد فتّـش فريـق مؤلّـف من مئتـي رجل المنطقـة الجليديّة بعـد تحطّم الطائرة بوقت قليل، ولكنّهم لم يجدوا سوى العجلة الأماميّة، ثم أرسلنا حملة اسـتطلاع ثانية في العام 1967 ولكنّ عملنا أُعاقه مجدّداً سـوء الطقس، وهذه هي الحملة الثالثة».

سأل الوزير: «بالله عليك، ما الذي كان على متن تلك الطائرة؟».

«لقد أعطتنا العجلة فكرة عن حجم الطائرة ونوعها فقط»، وتابع كلامه: «وكنّا نراقب النهر الجليديّ مراقبة دقيقة، ومن المؤكّد أنّنا لم نكن لنجد فترة ملائمة أكثر من هذا الوقت للعثور عليها».

«أنت لا تبدو متحمّساً جدّاً للعثور عليها».

أجـاب كار: «لعلّـه كان مـن الأفضـل لو دفن النهر الجليـديّ الطائرة إلى الأبـد، فلـم نكـن على عجلة من أمرنا لاسـترجاعها طالما هـي مختفية تماماً، وفي الواقع، لم نكن مضطرّين إلى تكبّد عناء البحث في النهر الجليديّ بشكل منتظم، والتنقيب فيه لإيجادها طالما أنّها مختفية تماماً، بل كان همّنا الرئيسيّ أن نتحقّق من أنّها لن تظهر مجدّداً، ولكنّ الوضع قد تبدّل الآن».

«أنت تقصد أنّنا كنّا نراقب النهر الجليديّ طوال تلك السنوات؟».

نحن؟ وهل يعني ذلك أنّ الوزير كان مسمّراً أمام الشاشة وهو يتفحّص صور الأقمار الصناعيّة طوال الأربعين عاماً المنصرمة؟

قال كار متجاهلاً سؤال الوزير: «لقد اعتُبرت العجلة دليلاً على سقوط الطائرة، ما جعل الاستخبارات العسكريّة تراقب تغيّرات النهر الجليديّ منذ نهاية الحرب، بدايةً بواسطة التصوير الجوّيّ عبر استخدام طائرات التجسّس، وبعد ذلك عبر الفضاء بعد ظهور الأقمار الصناعيّة».

«أقمار صناعيّة، وطائرات تجسّس، ما قصّة هذه الطائرة بحقّ الجحيم؟ ولمَ نحرص على الحصول عليها بعد أن ظهرت من جديد؟».

تنحنح كار.

تابع الوزير كلامه: «أكرر السؤال، ما الذي كان على متن هذه الطائرة بحقّ الجحيم؟ ولماذا هذا الإصرار على العثور عليها؟» ثم أضاف: «وهل هذه عمليّة سرّيّة؟ وإذا كانت كذلك، فلماذا نُشرك قوّات الدلتا وذاك المختلّ راتوف؟».

تظاهر كار بأنّه يفكّر قليلاً، ثم قال: «هل تعلم بقصّة ذهب والشينزي سيّدي الوزير؟».

أجاب الوزير وقد علت وجهه الاستقصائيّ ملامح مختلطة ما بين الشكّ والدهشة: «ذهب؟ أتقول لي إنّ على متنها ذهباً؟ لا، لم أسمع بذلك قطّ».

استجمع كار معلوماته وسط حيرته من اهتمام الوزير الشديد بهذه القضيّة، وقال: «لقد شغلنا هذا الأمر قبل سقوط برلين بوقت قصير، وقبيل أن يستولي الجيش الأحمر على البلاد، ويغلق الطرق الداخلة والخارجة مباشرة، إذ بدا أنّ قطار شحنٍ قد انطلق إلى جبال الألب، وعلى متنه أكثر من ثلاثمئة حقيبة محمّلة بسبائك الذهب التي نُقلت من بنك الرايخ بناء على أوامر هتلر، وكانت كلّ ما تبقّى من المخزون الاحتياطيّ من ذهب الرايخ

الثالث، ولم نكن نعلم بالضبط إلى أين كان متّجهاً، ولكنه في مطلق الأحوال لم يتجاوز مدينة والشينزي البافارية»، وتابع كار قائلاً: «وكان الذهب مدفوناً في مكان غير محدّد بجوار محطّة طاقة أوبرناخ، وبعد ذلك استخرجته فرقة من قوّاتنا ثمّ اختفى نهائيّاً، وقد حصل ذلك في شباط عام 1945 حيث شارفت الحرب على نهايتها، ويُزعم أنّ رجالنا حصلوا على الذهب بطريق الصدفة، وقد استخرجوه، ثم شحنوه إلى ديارهم في الولايات المتّحدة الأميركيّة وقد امتنعت الحكومة عن أن تعلّق على ما جرى، وهذا سبّب نزاعاً سياسيّاً، كما أنّ الإعلام الألمانيّ لا يزال يعيد إحياء قصّة ذهب والشينزي كلّ عدّة سنوات، فمن البديهيّ أنّ الألمان لا يصدّقوننا، على الرغم من أنّ لا أحد يعلم ما حلّ به بالفعل ».

قال الوزير مذهولاً: «يا إلهي! أتقصد أن تقول إنّه على متن الطائرة التي سقطت على النهر الجليديّ؟»، لقد انطلت عليه الخدعة تماماً.

«واستناداً إلى معلوماتنا الاستخباراتيّة الدقيقة، تبيّن أنّ جنوداً أميركيّين قد استولوا على طائرة يونكرز من قوّات اللوفتفافه، وطلوها بألوان مختلفة للتمويه، ثمّ حمّلوها بالذهب وغادروا ميونيخ، وقد توقّفوا بشكل سرّيّ في بريستويك في اسكتلندا، وكانوا ينوون الهبوط في مطار ريكيافيك لإعادة تزويد الطائرة بالوقود قبل الوصول إلى الولايات المتّحدة الأميركيّة، ولكنّ عاصفة ثلجيّة قد اعترضت طريقهم فتسبّبت بتعطّل الطائرة وتحطّمها على النهر الجليديّ، ولأنّه لم يسبق لأحد أن نجا من قسوة البرد في تلك المنطقة الجليديّة، نفترض أنّه لم يكن هناك أيّ ناجين، ولكن على أيّة حال، مصادرنا ليست دقيقة بشكل تامّ، ومن البديهيّ، ألّا يعترف أيّ من الرجال المتورّطين في السرقة، ومع ذلك ليس هناك ما يدعو إلى التشكيك في مصداقيّة القصّة».

«كم سبيكة نتحدّث عنها؟».

«من ستّة إلى ثمانية أطنان».

قال الوزير كمن يحدث نفسه: «هذه مشكلة كبيرة بالفعل».

كان الوزير يرتعد من الخوف، بعد أن انقلبت الأمور ضدّه بفضل حنكة كار الذي كان قد استدعاه ليوبّخه على العمليّات السرّيّة اللانهائيّة، وعمليّات انتقام خاصّة قد قام بها.

لم يكن معتاداً من قبل على أن يهزم بسهولة وبالأخصّ لصالح كار، ولكنّه لم يستطع أن يكبح احترامه وتقديره لحرفيّته، على الرغم ممّا يكنّه له من حقد.

أضاف كار: «وهذا ليس كلّ شيء سيّدي الوزير».

«أهناك المزيد؟»، ولم يستطع أن يخفي نبرة القلق.

«هناك ما يجعل قصّة الذهب مسألة حسّاسة بالنسبة إلينا، وأعني الناحية السياسيّة».

سأل الوزير: «وما هذه المسألة الحسّاسة؟»، كانت مسيرته حتّى ذلك اليوم لامعة وخالية من الوصمات، وكما كان له سجلّ لا تشوبه شائبة، ولكنّه الآن بات معرّضاً لخطر تشوّه سمعته.

«تتعلّق بمصدر الذهب».

«ماذا تقصد؟ ماذا كان مصدره؟ وما هو الموضوع الحسّاس المرتبط بالسياسة إلى هذه الدرجة؟».

أجاب كار: «مصدر سبائك الذهب هو مخيّمات الاعتقال».

صمت الوزير لحظة ليستوعب أبعاد ذلك.

ثم تنهّد قائلاً: «أتقصد أنّه ذهب اليهود من أسنان ومجوهرات؟ تقول لي إنّ لدينا طائرة قد تحطّمت في منطقة تسيطر عليها قوّات تابعة للولايات المتّحدة الأميركيّة، وهي محمّلة بذهب اليهود المنهوب؟».

قال كار داعماً فكرته: «إذا أعلنّا أنّ مجموعة من الجنود الأميركيّين المرتزقة قد سرقوه فلن يصدّقنا أحد، وسيكون الجميع تحت شبهة ارتكاب

جريمـة السـرقة: الرئيـس، والكونغـرس، وبالطبـع مؤسّسـات الاسـتخبارات السرّيّة».

«يا إلهي».

«لهذه الأسباب سيّدي الوزير كان الموضوع حسّاساً».

فكّـر الوزيـر باحتمـال نجاته غير المتوفّر، وقال أخيراً: «إنّك محقّ، محقّ تماماً».

مكتبة
t.me/t_pdf

«سيّدي الوزير؟».

«لا ينبغي العثور على هذه الطائرة أبداً».

ختم كار كلامه وهو يحاول إخفاء الابتسامة الساخرة التي كادت ترتسم على وجهه: «هذا هو الغرض من الاستخبارت السرّيّة سيّدي».

6

النهر الجليديّ فاتنويوكل، آيسلندا، الجمعة 29 من كانون الثاني، الساعة السابعة بتوقيت غرينتش

أمسك راتوف بهاتف الشابّ الذي ادّعى أنّ اسمه إلياس، وعندما دخل إلى خيمة الاتّصالات التي كانت قد نصبت إلى جانب الطائرة، تحقّق من قائمة المكالمات الواردة، ووفقاً للشاشة استمرّت آخر مكالمة بحسب توقّعات راتوف وقتاً كافياً لكي يصف الشابّ المنطقة وتفاصيل تحرّكاتهم، كما كان الرقم الوحيد الذي ظهر في القائمة.

كما بدا هاتفه جديداً، وبالكاد استُخدم.

أمر راتوف مدير الاتّصالات العسكريّة قائلاً: «اجعل السفارة تتعقّب هذا الرقم، كما أريد أن أتحدّث مع فيتاوتاس».

سأل المدير: «فيتاوتاس سيّدي؟».

تنفّس راتوف بعمق ثمّ قال: «كار، الجنرال فيتاوتاس كار»، ثم غادر الخيمة مجدّداً.

لقد ظهر نصف هيكل الطائرة فوق الجليد، وقد استمرّ الجنود يعملون على استخراجه من الجليد عبر المجارف، وهم يعتمدون على وهج الأنوار المنبعثة من الكشّافة، وقد أكّدت مقّدمة الطائرة التي بدت سليمة نسبيّاً

وهـي بـارزة فـي الجـوّ كقبضة مرفوعـة نظرية كار بأنّها كانـت يونكرز جو 52 والتـي كانـت معروفـة لدى قوّات الحلفـاء خلال الحرب العالميّة الثانية «بآني الحديديّـة» و«بالعمّـة جـو»، كما كانت جو 52 طائرة النقل الأساسيّة لألمانيا، وغالباً ما كانت تسـتخدم لنقل المظلّيين، وهي تعمل بواسـطة ثلاثة محرّكات بـي أم دبليـو هائلـة، أحدهـا يتموضع فـي المقدّمة، ولا تـزال مروحيّته معلّقة بالطائرة، وشفراتها قد تشوّهت نتيجة ارتطامها بالجليد، وتحت نافذة مقصورة القيادة بانت حدودُ صليبٍ معقوفٍ أسـود تحت طلاء التمويه المقشـور، كما أمكن رؤية نافذتين من أصل سبع اصطفت على جانبي الطائرة فوق الجليد، ولا تزال نهاية الذيل مخفيّة في الأعماق، ولكن من الواضح أنّ الجناحين قد انتُزعا، وعلى الأرجح لن يُعثر عليهما أبداً.

فهم راتوف خطورة الموقف، وأنّ عليه إذا كان هذان الشابّان تعيسا الحظّ قد تمكّنا من إبلاغ أحدهم بوجود قوّات مسـلّحة، وطائرة محطّمة على النهر الجليديّ، أن يتصرّف بشـكل حاسـم، بعد أن يحدّد الأشـخاص الذين اتّصلا بهم، ليمنع انتشـار هذه المعلومات السـرّيّة، قبل أن تتفشّـى كالفيروس بسرعة هائلة، لذا كان عليه أن يسـدّ مصادر التسـرّب مهما كان الثمن، بعد أن أدرك كـم بـات حجـم الخطر جسـيماً، وكـم يصعب إبقاؤه طـيّ الكتمان. لقد كانت العمليّات السـابقة التي نفّذها، ذات النطاق الضيّق، لا تتطلّب عدداً كبيراً من العتاد والقوّات البشـريّة، وتقع في بيئات مدنيّة تناسـب أسـلوب عمله، بينما المناطـق القطبيّـة البرّيّـة ذات الأحـوال الجويّة القاسـية التي تتغيّـر جذريّاً في غضـون دقائق قليلة تقع خارج مجال خبرته تماماً، وعلى الرغم من هذا، اعتقد أنّ لديه فرصة كبيرة لإتمام مهمّته إذا اسـتطاع أن يتقن اسـتخدام أوراقه، وإذا قـام كلّ المعنيّيـن بمـا عليهـم أن يقوموا به، ومـن جهته قام ببحث أوصله إلى خلاصة مفادها أنّ آيسلندا تقع في بقعة معزولة ونائية، ويمكن كشف سرٍّ فيها، ولكن من دون الإفصاح عنه.

لقد سمع أحدهم ينادي اسمه من خيمة الاتّصالات، فتوجّه إليها مجدّداً.

«إنّه رقم من ريكيافيك سيّدي، ومسجّل باسم امرأة تدعى كريستين، ولديها كنية صاحب الهاتف نفسها، فربما هي أخته إذ إنّ النساء المتزوّجات يحتفظن باسم والدهنّ في آيسلندا، وها هو عنوانها ويبدو أنّها تعيش بمفردها، والسفارة على الخطّ».

«صلني بريبلي»، كان قد سلّم السمّاعة.

قال راتوف: «اسمها كريستين»، أملى عليه العنوان.

ساد صمت وهو يصغي إلى الطرف الآخر.

قال راتوف: «انتحار».

أغلق الرجل المعروف باسم ريبلي الهاتف، وكان قد وصل زميله بيتمن مع طاقم عمل قوى الدلتا إلى السفارة الأميركيّة في ريكيافيك، وكانت تعليمات راتوف تنصّ على أن ينتظرا أوامره.

أبلغ ريبلي بيتمن بمضمون محادثته عبر الهاتف مع راتوف.

كانا متشابهين جدّاً في المظهر فهما طويلان، وقويّا البنية، وحليقا الذقن، وشعرهما الحريريّ مفروق إلى جهة اليمين، ويرتدي كلّ منهما بذلة داكنة مكويّة بعنايةٍ، وربطة عنق، ومعطفاً مطريّاً يصل حتّى الخصر، بالإضافة إلى حذاء لامع، فكادا أن يكونا توأماً لولا اختلاف ملامح الوجه، فقد كان أحدهما أنحف من الآخر، وله وجه ضيّق، وعينان زرقاوان ثاقبتان وأنف طويل ونحيل، وفم صغير ويكاد أن يكون بلا شفتين، أمّا الآخر فكان مظهره أشدّ خشونة، وله فكّ مربّع، وشفتان حمراوان مكتنزتان، وذقن ضخم، ورقبة ثخينة.

بعد أن حصلا على عنوان المرأة سلكا أقصر طريق يوصلهما إليها عبر شوارع ريكيافيك، بعد أن استخدما إحدى سيّارات الطاقم فكانت بيضاء اللون وغير مرقّمة، رباعيّة الدفع من نوع فورد أكسبلورر، وقد انطلقا وسط العاصفة الثلجيّة بسرعة هائلة إذ كان الوقت ثميناً.

لم تستغرق الرحلة أكثر من خمس دقائق رغم صعوبة السير على الثلج الذي يغطّي الطريق، وعندما ركنا السيّارة أمام منزلها في توماساراغي، كانت كريستين تحاول التواصل مع فريق إنقاذ ريكيافيك الأرض جوّي، وهي لا تزال مرتدية معطفها الجلديّ ذا القلنسوة وتقف إلى جانب الهاتف محاولة الاتّصال بكلّ الأرقام المدوّنة للمنظّمة في دليل الهاتف من دون نتيجة، إذ لم يرد أحد على اتّصالاتها، ثم اتّصلت برقم أخيها مجدّداً، ولكنّها لم تتلقّ ردّاً باستثناء الرسائل المسجّلة التي كانت تعلن أنّ الخطّ مغلق، أو أنّه خارج نطاق التغطية، أو أنّ كلّ الخطوط مشغولة حاليّاً، ما جعلها تتوقّع أنّ أخاها تعرّض للخطر، ما بعث في نفسها القلق والذعر.

لكنّها أخذت نفساً عميقاً مقاومة مشاعر التوجّس والتخوّف، وحاولت أن تفكّر بعقلانيّة، وأن تقنع نفسها بأنّه ما من داعٍ لقلقها، وأنّ أخاها بخير وسيتّصل بها في أيّ لحظة ليخبرها بما جرى معه، فعدّت إلى العشرة، ثم إلى العشرين، حتّى شعرت بأنّ ضربات قلبها تهدأ تدريجيّاً.

وكادت أن تتّصل بالشرطة عندما سمعت طرقاً على الباب، فتركت الهاتف، وسارعت نحو الباب ونظرت عبر العين السحريّة، تنهّدت قائلة: «شهود يهوه في وقت كهذا؟!». ولكن كان عليها أن تتصرّف بلباقة.

وفي اللحظة التي فتحت فيها الباب، اقتحم رجلان المكان، أحدهما أطبق بيده على فمها، ودفعها أمامه إلى غرفة الجلوس، ولحق بهما الآخر بعد أن أغلق الباب، وأجرى بحثاً سريعاً في الشقّة متفحّصاً الغرف الباقية، والمطبخ ليتأكّد من أنّها بمفردها. وفي هذه الأثناء، أشهر الرجل الذي كان يحتجز كريستين مسدّسه ووضع إصبعه على فمه مشيراً إلى أن تبقى هادئة. كانا يرتديان قفّازات بيضاء مطّاطيّة وكانت تصرّفاتهما ممنهجة ومدروسة وتدلّ على أنّهما متمرّسان وقد قاما بذلك مرّات غير معدودة، وبمهارة وبشكل هادف دخلا مباشرة في صلب الموضوع.

لـم تسـتطع كريسـتين إصدار صـوت، وهي تحدّق إلـى الرجلين اللذين يضعان قفّازات مطّاطيّة بذهول.

وجد بيتمن جواز سفرها في درج مكتبها، فاقترب منها، وقارن بين وجهها وصورتها، وقال وهو يلقي الجواز على الأرض: «لقد وجدناها!».

قال لها ريبلي وهو لا يزال يوجّه المسـدّس نحو رأسـها: «اجلسـي وراء مكتبك، وافعلي ما سأقوله لك تماماً»، ثم دفعها باتّجاه المكتب، وهو يضغط بالمسـدّس على جبهتها، فشـعرت بفوهته الباردة والثقيلة، وقد آلمها رأسـها لشدّة الضغط عليه.

أتى بيتمن وانضمّ إليهما، ثم شـغّل حاسـوب كريسـتين مدندناً في أثناء إقلاع الحاسـوب، ثم أنشـأ ملفّاً جديداً، وبدأ بسـرعة وبشـكل ممنهج بنسـخ رسالة عن ورقة كان قد أخرجها من جيبه، ثمّ تناقشا بالإنكليزيّة حول موضوع مـا، ولكنّهـا لم تسـتوعبه، ومع أنّهمـا يوحيان بأنّهما أميركيّان إلّا أنّها تفاجأت بأنّ أحدهما كان يكتب بالآيسلنديّة.

لا أستطيع الاستمرار بالعيش، إنّها النهاية، أنا آسفة.

بدأت بمخاطبتهما أوّلا بالآيسـلنديّة ثم بالإنكليزيّة ولكنّهما لم يجيباها، فهـي تـدرك تمامـاً أنّ عمليّـات السـرقة كانت فـي ازدياد، ولكنّهـا لـم تكن قد سمعت بسرقة تحصل بهذه الطريقة من قبل، في البداية حسبت ذلك نوعاً من المـزاح، ولكنّهـا مـا لبثـت أن تأكّدت من أنّهما سـارقان خطيران، ولكن لماذا هذه الرسالة المزيّفة التي طبعت على شاشة الحاسوب؟

قالـت لهمـا: «خذا ما تشـاءان، خذا أيّ شـيء تريدانه وغـادرا، واتركاني وشأني»، ثمّ غرقت في مخاوفها التي أنبأتها أنّهما ليسا سارقين، وربما يحضّران لمؤامرة تعتمد على ممارسـة العنف، وعندما اسـترجعت الأحداث كما كانت تفعل في الأيّام السابقة لحلّ قضيّة ما وتعيدها مراراً وتكراراً، واجهت صعوبة في تذكّر أيّ حدث، وقد ظلّت الأفكار تجول في ذهنها خلال تلك اللحظات

المضطربة، فقد حدث كلّ ذلك بسرعة فائقة لدرجة أنّه لم يتسنَّ لها الوقت لأن تحيط بكلّ ملابساتها، فالوضع لم يكن منطقيّاً أو مفهوماً، كما لم يسبق أن حدثت مثل هذه الأحداث لا في ريكيافيك، ولا في آيسلندا، ولا في عالمها الخاصّ.

كرّرت قائلة: «خذا ما تشاءان».

ولكن لم يردّ الرجلان على كلامها.

فسألتهما بالإنكليزيّة مشيرة إلى الشاشة: «أتقصدانني؟ هل أنا التي لا تستطيع الاستمرار بالعيش لأكثر من ذلك؟».

قال بيتمن: «إنّ أخاك ميت، ولا تستطيعين الاستمرار بالعيش لأكثر من ذلك، بهذه البساطة»، ابتسم ساخراً وهو يخاطب نفسه: «يا لهم من شعراء في السفارة». فلفت انتباه كريستين كلمة «السفارة».

«أخي إلياس؟ ماذا تعني بأنّه ميت؟ من أنتما؟ هل أنتما أصدقاء لإلياس؟ إن كانت مزحة...».

قال ريبلي: «صه، كريستين، لا توتّري أعصابك». لقد كانت لهجته أميركيّة بالتأكيد.

سألتهما كريستين قائلة: «ما الذي يجري؟»، لقد تحوّل ذعرها فجأة إلى غضب عارم.

قال بيتمن بجدّيّة وهو ينظر إلى ريبلي: «مؤامرة كبيرة متضمّنة شرطة ريكيافيك، ووزارة خارجيّة آيسلندا، ووزارة العدل»، لقد بدا يتحدّث كما لو كان يتسلّى وهو يتلاعب بأعصابها.

ردّدت كريستين بالآيسلنديّة: «مؤامرة؟»، وأردفت وهي تصرخ قائلةً: «وزارة الخارجيّة؟ إلياس؟ أيّ نوع من المزاح هذا؟ بل أيّ نوع من الهراء هذا؟».

قال بيتمن متفحّصاً وجهها المحمرّ، وصدرها المتنهّد: «لقد فقدت

أعصابها»، ثم أَضاف: «دعها تحظَ بهذا»، ثم تراجع عدّة خطوات.

ومن طرف عينيها شاهدت ماسورة المسدّس الموجّهة إلى رأسها، وإصبع ريبلي على الزناد، فأغمضت في الحال عينيها.

ولكن بدلاً من انطلاق الطلقة التي كانت تنتظرها سمعت طرقاً عنيفاً على الباب.

أبعد ريبلي المسدّس عن جبهتها، وأطبق بيده المتقفّزة على فمها، فقاومته من أجل استنشاق الهواء، فاستطاعت أن تتذوّق طعم البلاستيك، بينما توجّه بيتمن إلى الباب، وحدّق عبر العين السحريّة ثم عاد إلى غرفة الجلوس.

«إنّه رجل أربعينيّ، ولا يرافقه أحد وهو متوسّط الطول».

قال ريبلي: «أدخله، وسنقتله أيضاً ونحوّل القضيّة إلى جريمة قتل، ولكن من دون أن يعلم راتوف»، لقد ذكر اسم راتوف الذي أثار انتباه كريستين.

توجّه بيتمن إلى الباب الذي بدأ الرجل يطرقه بشكلٍ أعنف وهو يصيح باسم كريستين، فتعرّفت إلى الصوت ونبرة التوبيخ، ولكنّها لم تستطع تحديد هويّته، وبلمح البصر، فتح بيتمن الباب، وأمسك بالرجل من ياقته، وسحبه إلى داخل الشقّة، وعندما انفتح الباب، تشتّت انتباه ريبلي للحظات بعد أن انشغل بالعراك الذي دار في الردهة، فاغتنمت كريستين الفرصة، وقفزت من مكانها دافعة إيّاه بعيداً عنها، فوقع وارتطم جسده بالطاولة، وحين ركضت نحو الباب، استطاعت أن تكتشف أنّ الزائر كان رونولفور.

صرخت كريستين قائلة: «انتبه! إنّهما مسلحان!»، ولكن لم يتسنَ له الوقت لأن يجيبها وهي تركض نحوه، والذعر يرتسم على وجهها، وخلفها في غرفة الجلوس ريبلي الذي يترنّح أمام الطاولة، ثمّ سمعت صوتاً خافتاً، وتراءى لها ثقب أحمر صغير على جبين رونولفور بينما كانت تمرّ بالقرب منه، ثم سقط بين يدي بيتمن. أمّا الرصاصة الثانية فمرّت أمام أذنها وارتطمت بالباب، فضاعفت سرعتها وهي تعبر الردهة ثمّ انطلقت من الباب الأماميّ وسط الثلج

المتساقط متّجهة نحو زاوية المبنى، فتعقبّها ريبلي وبيتمن.

على الرغم من أنّ كريستين كانت تهمّ بالخروج عندما كانت تحاول الاتّصال بأخيها في منطقة النهر الجليديّ، لكنّها لم تكن قد جهّزت نفسها لأن تنتعل حذاءها، فكانت بجوربين رقيقين فقط، وترتدي بنطالاً رياضياً فضفاضاً، وسترة رقيقة تحت معطفها الجلديّ ذي القلنسوة، فأسرعت الخطى حافية القدمين عبر الحديقة الخلفيّة.

كانت الحرارة قد انخفضت تحت الصفر، فتكسّرت تحت ثقل وزنها القشرة الجليديّة الرقيقة التي غطّت الأرض، فبلّلت قدميها وهي تسرع الخطى، وكان البرد شديداً ولكنّها لم تستطع أن تصرخ من شدّة ألمها، كما لم تجرؤ على النظر خلفها، وبقفزة عالية فوق سور الحديقة، أصبحت في الطريق العام، ثمّ توجّهت نحو حديقة عامّة، وعبرتها بعد أن قفزت فوق السور واختفت في الظلمة.

لاحقاً، وعندما حظيت بالوقت الكافي لتحلّل الأحداث المتسارعة في عقلها استدركت أنّ من أنقذ حياتها كان عدم استعداد ريبلي وبيتمن للجري وسط الثلج، إذ لم يكن لديهما فرصة أبداً للإمساك بها، وهما ينتعلان حذاءيهما الزلقين الجلديّين، وعندما لم يستطيعا اللحاق بها بعد أن اختفت وسط الظلام الدامس، حاولا تتبّع آثار خطاها على الثلج، ولكنّها كانت قد اختلطت مع آثار خطى الآخرين، ما جعلهما يفقدان الأمل في الوصول إليها، فحوّلا طريقهما وعادا إلى شقّتها.

على الرغم من صوت إطلاق النار، وجلبة العراك والملاحقة، إلّا أنّه لم يكن هناك أيّ أثر للقاطنين في الشقّة العليا.

فأغلق بيتمن وريبلي باب الشقّة وراءهما، ثم خرجا منها مجدّداً بعد خمس دقائق، وركبا بصمت الفورد اكسبلورر.

7

النهر الجليدي فاتنويوكل، الجمعة 29 كانون الثاني، الساعة السابعة والنصف مساء بتوقيت غرينيتش

تقدّم راتوف نحو الشابّين من فريق الإنقاذ الأرض جوّيّ الآيسلنديّ.

بدا أنّهما بالكاد تخطّيا مرحلة المراهقة، وهما يرتديان الزيّ الرسميّ لفريقهما، وهو عبارة عن بذلات برتقاليّة تناسب الطقس البارد، وشعار الفريق معلّق على الصدر والكتف، وقد ظهرت على وجهيهما علامات الجزع والتوجّس، وعندما اتّجه الجنود نحوهما بسرعة حاولا الفرار، ولكن بعد مطاردة قصيرة قبضوا عليهما، وقادوهما إلى راتوف، بعد أن صادروا هاتف الشابّ إلياس، بيد أنّ الشابّ الآخر جوان لم يكن يملك أيّ هاتف أو جهاز إرسال.

كانا طويلين وشقراوين ووسيمين، بينما كان راتوف، الذي كان قصير القامة، يعتقد أنّ كل الآيسلنديّين يبدون بطوله.

التُقطت زلّاجتاهما على شاشة رادار قوّات الدلتا الصغيرة، فراقبهما راتوف عندما انفصلا عن جماعتهما الرئيسيّة، وانطلقا بمفردهما، وقد سلكا مساراً مباشراً نحو الطائرة، ولم يكن قادراً على التفكير في خطّة ليحوّل طريقهما، ولكن على الأقلّ لم يشكّل الفريق الرئيسيّ الذي يخيّم على بعد

مسافة خمسة وأربعين ميلاً عن موقعهم أيّ خطر مباشر، ولكنّ هذين الشابّين كانا العضوين الوحيدين اللذين فارقا الجماعة.

اقتيد الآيسلنديّان إلى خيمة راتوف حيث انتظراه مطوّقين بحرّاس مسلّحين، لقد رأيا الطائرة، والصليب المعقوف تحت مقصورة الطيّار، وكذلك الجنود وهم يستخرجون الحطام من الجليد، لقد رأيا أكثر من مئة جنديّ مسلّح يطوفون حول المنطقة، وعلى الرغم من أنهما لم يدركا ما يجري إلّا أنّهما رأيا الكثير، فكان على راتوف أن يستجوبهما بحذر من دون أن يترك علامات واضحة للعنف، وألّا يتمادى كثيراً، والأهمّ من ذلك كان من الضروريّ منع فريق الإنقاذ من البحث عنهما في هذا القطاع، فكان يخوض معركة مع الوقت، ولكنّه في مثل هذا الوضع لا بدّ أن يواجه بكفاءة قصوى.

كان إلياس وجوان خائفين جدّاً من ادّعائهما جهلهما الإنكليزيّة، في الواقع، ومثل معظم الآيسلنديّين فقد تحدّثا اللغة بشكل جيّد للغاية.

قال راتوف بصوت بارد خشن موجّهاً كلامه إلى إلياس: «كريستين، أهي أختك؟».

سأل إلياس بدهشة وهو ينقّل نظره من راتوف إلى الحرّاس المسلّحين ثم إلى راتوف من جديد: «كيف عرفت ذلك؟». حدث هذا خلال مدّة لا تتجاوز الخمس عشرة دقيقة منذ أن صودر هاتفه.

سأل راتوف متجاهلاً سؤاله: «هل اتّصلتَ بأحد آخر؟».

«لا، لا أحد».

«ألم تتواصل مع فريقك على الإطلاق؟».

«فريقي؟ لماذا؟ كيف عرفت بشأن أختي؟ كيف تعرف أنّ اسمها كريستين؟».

تنهّد راتوف بعمق ثمّ أردف قائلاً: «أسئلة، أسئلة»، وحدّق إلى المسافة التي تفصله عنهما كما لو أنّه غارق في التفكير، ثم ابتعد عن الشابّين وجال

بنظره في الأرجاء حتّى تركّز على صندوق أدوات كان على منصّة طاولة طويلة في القسم الخلفيّ من الخيمة، فتوجّه إلى الصندوق، وفتحه، وفتّش في داخله بيد واحدة من دون اكتراث، أوّلاً، استخرج مفكّ البراغي وتأمّله بعمق قبل أن يعيده إلى الصندوق، وبعد ذلك استخرج مطرقة، وتفحّصها بيده ثم أرجعها أيضاً إلى الصندوق، ثم رآه إلياس وهو يمسك بيده كمّاشة.

حدّق الشابّان إلى الرجل القصير، ولم يعرفا ما الذي ينوي القيام به، لقد أعطى انطباعاً بأنّه متوازن ورصين، وأسلوبه هادئ ومتأنٍّ ويدرس خطواته بدقّة، ولم يكن لديهما أيّة فكرة عن أيّ نوع من السيناريوهات العنيفة كان يحضّرها لهما.

أغلق راتوف صندوق الأدوات، ثم استدار فأصبح بمواجهتهما.

سأل راتوف إلياس: «ما رأيك بأن أعدك بأنّني لن أطعن صديقك؟ ولكن هل سيضع هذا الوعد حدّاً لأسئلتك؟»، ولأنّ صوته الأجشّ كان رخيماً بما فيه الكفاية، لم يميّز إلياس جدّيّة تهديده في البداية.

ردّد إلياس والدهشة مرتسمة على وجهه، وعيناه تتأمّلان صديقه: «تطعنه؟ لماذا ستفعل ذلك؟ ومن أنت؟ وماذا بشأن الطائرة ذات الصليب المعقوف؟».

بالكاد رأى الحركة السريعة، وكلّ ما حصل بعد ذلك كان صراخ جوان، وهو يضع يده على عينه اليمنى، وقد ركع على الثلج وهو يتلوى من الألم عند قدمي صديقه.

سأله راتوف، وفي يده مخرز معدنيّ صغير: «إلياس إذا وعدتك بأنّني لن أطعنه مجدّداً، هل سيحثّك هذا على أن تتوقّف عن تضييع وقتنا؟»، فكان من الصعب سماع صوته بسبب صرخات جوان.

قال إلياس لاهثاً: «ماذا فعلت؟ جوان، هل تستطيع أن ترى؟ تحدّث إليّ»، لقد حاول أن ينحني ليتفقّد حال صديقه، ولكنّ راتوف أمسك بشعره، وسحبه إلى الأعلى، فقرّب وجهه من وجهه.

«لنجرّب هذا مجدّداً، ما الإحداثيّات التي أعطيتماها لفريقكما قبل أن تنطلقا؟».

قال إلياس متلعثماً وهو لا يزال في حالة صدمة: «لا شيء، لقد قلنا لهم إنّنا سنجرّب قيادة زلّاجتينا، ومن الممكن أن نغيب من أربع إلى خمس ساعات».

«هل كانوا يعلمون إلى أين كنتما متوجّهين؟».

«لم نحدّد لهم أيّ مسار سنسلكه، كنّا فقط سنجرّب الزلّاجتين، إنّهما جديدتان، ولم نقصد أبداً أن نتطفّل على ما يقوم به فريقكم».

«كم مضى على غيابكما؟».

«نصف الوقت الذي حدّدناه تقريباً، ربما ثلاث ساعات».

«متى سيبدأون بالبحث عنكما؟».

كانت الأسئلة تتلاحق الواحد تلو الآخر، وقد شوّشت أفكاره كثرتها، بالإضافة إلى قلقه لحال صديقه المتألّم الذي ينزف، فلم تكن لديه أيّة فكرة حول ما يجب أن يقوله، وكان هذا بالضبط ما يقصده راتوف.

«قريباً جدّاً إذا لم نرجع في الوقت المحدّد، إنهم على الأرجح بدأوا بالبحث عنّا، ولكن كيف تعلم بشأن كريستين؟».

لقد بدأ الأمر ينجلي أمام إلياس واكتشف أنّ حياته في خطر، ولكنّه كان أكثر قلقاً لمعرفة هذا الرجل اسم أخته.

«ما الذي قلته لأختك على الهاتف؟».

«فقط قلت إنّني أجرّب زلّاجة جديدة، هذا كلّ شيء أقسم لك».

«لم يكن قد انقضى أكثر من اثنتي عشرة دقيقة منذ أن تكلّمت مع أختك عندما أمسكت بهاتفك، وهذا يعني أنّك كنت قريباً جدّاً من هنا عندما اتّصلت بها، ما الذي تعلمه يا إلياس؟ تذكّر بأنّ عين صديقك الأخرى على المحكّ، ربما تكون قد وصفت لها ماذا رأيت؟ إنّه خارج عن المألوف، ألم تفعل هذا؟».

«لا شيء، لم أقل لها شيئاً، أنهيت المكالمة عندما رأيت الجنود يتّجهون نحونا، فحاولنا الهرب»، فتنهّد راتوف مرّة أخرى.

وتحـوّل انتباهـه إلـى جـوان الـذي كان يقف على قدميه بمسـاعدة اثنين مـن الحـرّاس، فاقتـرب منه وحدّق إلى عينه السـليمة، فلمـع المخرز، ودوّت صرخـات مـن الخيمـة مجدّداً مجتازة مسـافات طويلة عبر الغطـاء الجليديّ، مخترقـة آذان الرجـال الذيـن توقّفـوا لوهلـة عن الحفر قـرب الطائرة، ونظروا إلى الأعلى ثم تابعوا عملهم من دون تعليق.

غادر راتوف الخيمة وقد لطّخت قطرات من الدم وجهه، وتوجّه بسرعة إلى خيمة الاتّصالات حيث وجد رسالتين تنتظرانه، كان سيتحدّث مع ريبلي أوّلاً، فعثـر علـى قطعـة قمـاش، وجفّـف بها وجهه بتأنٍّ وعنايـة فبدا وكأنّه قد غسله لتوّه.

سأل عندما صار ريبلي على الخطّ: «انتحار امرأة مأسوف على شبابها؟».

أجاب ريبلي: «أخشـى قول لا، سـيّدي، فقد هربت المرأة وأُجبرنا على أن نترك جثّة في شقّتها».

ولم يسد بعد ذلك سوى السكون في المكان.

وتابـع ريبلـي: «أتاهـا زائر فجـأة قبل أن نتمكّن من قتلها، فكان ذلك غير متوقّع، وكانت أوامرنا أن نتحرّك مباشـرة، ولم يتسـنَّ لنا الوقت للتفكير في المسألة».

سأل راتوف في نهاية المطاف: «حسناً، ماذا الآن؟».

«سنجدها سيّدي».

«هل تريدون المزيد من الرجال؟».

«لا أعتقد ذلك سيّدي».

«وكيف ستجدها؟».

«أمازال أخوها على قيد الحياة؟».

«إلى حدّ ما».

«نحن نحتاج إلى أيّة معلومات حولها سيّدي، هل لديها حبيب، أيّ أصدقاء - أكانوا قدامى أم جدداً - عناوين أفراد عائلتها؟ أيّ شيء نستطيع استخدامه، ولكن هل تمكّن من أن يطلع أحداً آخر على أيّ معلومات؟».

«فقط أخبر أخته، وهي تعلم أنّ النهر الجليديّ يعجّ بالجنود المسلّحين، وبأنّ هناك طائرة غارقة في الجليد، كما تعلم بأنّ أخاها اختفى، ولديّ أسباب منطقيّة للتأكّد من أنّها تعلم أين يختبئ، ولو لم تسمحا لها بالهروب أيّها الأبلهان لكنّا الآن بأمان»، خطابه هذا الذي يعدّ أحد أطول خطاباته حتّى الآن، لم تتغيّر خلال إلقائه، لا لهجته ولا نبرة صوته ولو قيد أنملة.

«سنجدها سيّدي، وسنتعقّب أفراد عائلتها، ولدينا أرقام بطاقتها الائتمانيّة وبطاقة المدين، ونستطيع مراقبة أيّ استخدام لهما، وستظهر قريباً وسنكون حينها في انتظارها».

8

المبنى 312، واشنطن العاصمة، الجمعة
29 كانون الثاني، بعد الظهر

كان فيتاوتاس كار جالساً في مكتبه عندما وردته مكالمة عبر خطّه الخاصّ شتّتت أفكاره، فهو كان ينتظر اتّصال راتوف به بعد أن غادر وزارة الدفاع وضمن عدم وصول أيّة أخبار عن الطائرة الغارقة في الجليد إلى العامّة. لقد أعلن الديمقراطيّ اليافع بوضوح أنّ الأحداث يجب أن تبقى سرّيّة، وأنّه لا يريد أن يعرف حاليّاً بالتفاصيل، وفي الحقيقة، لم يرد أن يسمع أيّ كلمة أخرى عن المهمّة إلى أن تتكلّل بالنجاح، وعندها يمكنه أن يزوّد الرئيس بالحقائق الضروريّة، وفي هذه الحالة، إذا ارتُكب أيّ خطأ لن يضطرّ الرئيس إلى التفوّه بأيّة أكاذيب، بل سيقول وبكلّ صراحة بأنّه لم تكن لديه أيّة فكرة عن تحطّم طائرة محمّلة بذهب يهوديّ، سرقها جنود من الجيش الأميركيّ، ومع ذلك، لم يستطع الوزير أن يكبح نفسه عن طلب توضيحات حول عدّة نقاط.

فسأله في نهاية الاجتماع: «ماذا ستفعلون بالطائرة؟».

كان كار مستعدّاً لهذا السؤال كما هو مستعدّ للسؤال اللاحق الحتميّ.

«سننتزعها من الجليد بحطامها ومحتوياتها من جثث وأشياء أخرى، وسنعيدها إلى الولايات المتّحدة الأميركيّة، فهذا هو الغرض من السي 17

سيّدي الوزير، إذ إن لديها قدرة غير محدودة على حمل الأثقال، وستغادر كيفلافيك وتطير من دون توقّف أو إعادة تزويد بالوقود إلى قسمنا في روزويل حيث ستختفي هذه الطائرة النازيّة هناك تماماً».

تساءل الوزير: «روزويل؟ أليست هذه مدينة الفضائيّين؟».

«لا أستطيع التفكير في أيّ مكان لإخفائها أفضل من هذا المكان، فبعد انتشار كلّ هذا الهراء حول الفضائيّين، أيّ خبر يصدر عن روزويل وعمّا يجري فيها، يعدّ ترّهات باستثناء وجود أقلّيّة ضئيلة من مجانين اليوفو، وإذا انتشر الخبر بأنّنا نخفي طائرة نازيّة في روزويل فسيثير هذا سخرية الجميع».

سأل الوزير: «وماذا سيحلّ بالذهب؟».

«لا داعي لأن نهدره، أتصوّر أنّه سيختلط مع الاحتياطيّ الفيدراليّ، إلّا إذا كان لديك اقتراح آخر».

لقد افترقا على وفاق أكثر من المرّات السابقة، فتقدير وزير الدفاع لدور الاستخبارات السرّيّة كان قد تحسّن بشكل هائل، بعد ارتقائهما درجات عدّة من التفاهم.

لم يعنِ الأمر بالنسبة إلى كار سوى أنّه شعر بتقدير ذاتيّ، لأنّه تمكّن من أن يخضع الوزير، ففي نهاية الاجتماع كان في إمكانه أن يأمر الوزير بأن يقف على رجل واحدة، ويمدّ لسانه وكان سيطيعه بلا تردّد.

لقد ابتعد كار كثيراً عن أصوله الليتوانيّة، فكانت كنيته الأصليّة كاريليوس، ولكنّه اختصرها لكار في محاولة للانخراط في بلده الثاني، فقد هاجر والداه إلى الولايات المتّحدة الأميركيّة في عشرينيّات القرن العشرين، وهو ابنهما الوحيد، وكان عمره أحد عشر عاماً عندما دخلت الولايات المتّحدة الأميركيّة الحرب العالميّة الثانية، فاعتاد على أن يتابع أخبار الخطوط الأماميّة بدأب، وبمجرّد أن أصبح شابّاً التحق بالجيش، وترقّى بشكل سريع في المناصب حيث عُيّن ضابط اتّصال بين الجيش الأميركيّ والناتو، ولكنّ العمل المكتبيّ

لم يناسبه، فانتقل إلى الخدمة الفعليّة عندما نشبت الحرب الكوريّة، وذهب ليدير العمليّات العسكريّة السرّيّة فيها، وتولّى مهمّات عديدة خلف خطوط العدوّ، وبعد كوريا، التحق بهيئة الاستخبارات العسكريّة.

ورث كار موضوع تتبّع الطائرة في فاتنويوكل في أوائل السبعينيّات، عندما تولّى منصب رئيس المنظّمة، وخلال السنوات الخمس التي تطلّبها التمكّن من منصبه تماماً، زوّده سلفه تدريجيّاً بخلفيّة وجود طائرة ألمانيّة في الجليد. وفي نهاية تلك المدّة، علم كار بكلّ شيء يخصّ الطائرة وحمولتها، وكيف يتصرّف إذا ظهرت على سطح النهر يوماً ما من جديد. وإنّ ما ينفّذه الآن قد خطّط له مسبقاً، وكان يراجعه طوال عدّة سنوات، وعدد قليل فقط من الأفراد الذين يحتلّون المناصب العليا في الجيش كانوا يعرفون بوجود الطائرة، وإجراءات التعامل معها.

طيلة أربع وخمسين سنة، كان سرّ الطائرة مقتصراً على هذه المجموعة الصغيرة، وكان يتمّ تناقله من جيل إلى جيل، عبر المسؤول في المكتب إلى من يعيّن بعده.

حتّى كار لم يعرف القصّة بأكملها، ولكنّه عرف ما يكفيه منها، وهذا كان كفيلاً بتخيّله العواقب إذا ما انتشرت الأخبار حول حمولة الطائرة.

رنّ الهاتف على مكتبه، فرفع السمّاعة.

أبلغه راتوف: «نحن نسير وفقاً للمخطّط سيّدي».

«لا مشاكل في تحديد موقعها؟».

«لا، لقد كانت مدفونة في الجليد فعلاً، ولكنّ الإحداثيّات كانت صحيحة، وقد ظهر نصف هيكل الطائرة بالفعل، وأقدّر بأنّنا سننقلها إلى كيفلافيك في غضون ثلاثة أو أربعة أيّام على الأكثر».

«لا عقبات؟».

«لا شيء يذكر، هناك فريق إنقاذ من ريكيافيك يجرون تدريبات على

النهر الجليديّ، والفريق يتدرّب على مسافة بعيدة عنّا، ولكن اثنين من أفراده تجوّلا في منطقتنا».

توتّر كار وقال: «ثم ماذا؟».

«لقد فقدا حياتهما في حادث وقع على بعد خمسة وثلاثين ميلاً من هنا، في أثناء قيادتهما زلّاجتيهما، فقد انحرفا إلى شقّ عميق، وسوف نضمن بأن يُعثر عليهما بسرعة من أجل ألّا يتجوّل أفراد فريقهما في منطقتنا بحثاً عنهما».

«هل هما شابّان؟».

«شابّان؟ لا أفهم ما علاقة هذا سيّدي، إنّهما كبيران بما فيه الكفاية ليرونا والطائرة».

استنتج كار: «حسناً، كلّ شيء تحت السيطرة؟».

«أحدهما لديه أخت في ريكيافيك»، فكانت خيبة أمل كار من المستحيل ألّا تظهر على وجهه.

وأضاف راتوف: «لقد تواصل معها عبر الهاتف بعد أن دخل منطقتنا، ونحن نعلم من هي، ولكنّها هربت منّا، ونحن نتعقّبها الآن».

«من نحن؟».

«ريبلي وبيتمن، أفضل خيار متاح في هذه الظروف».

«بالله عليك يا راتوف! حاول أن تسيطر على نفسك، إنّ الآيسلنديّين حلفاؤنا»، أغلق كار السمّاعة، ثم رفعها مجدّداً على الفور، وبدأ بالاتّصال، كان الوقت قد آن لوضع المرحلة الثانية قيد التنفيذ، لقد كان الوزير قلقاً لاشتراك راتوف في تنفيذ هذه المهمّة، وفي هذه الأثناء بدأ الشكّ يراود كار في اختياره راتوف مديراً للمهمّة، فقد كان يدرك عن كثب التفاصيل المخيفة لمسيرته العسكريّة رغم تحقيقه نتائج جيّدة بلا شكّ، ولكنّه يميل إلى أن يكون مفرطاً في حماسته.

كان عليه الانتظار لفترة لا بأس بها قبل يجيبه من يتّصل به، فقضى الوقت

وهـو يخطّـط لتحرّكاتـه التالية، فكان عليه أن يذهب إلى آيسـلندا، ولكن أوّلاً يتوجّب عليه أن يفي بوعد قديم.

قال كار: «ميلر؟ أنا فيتاوتاس، ظهرت الطائرة، وعلينا أن نلتقي».

9

ريكيافيك، الجمعة 28 كانون الثاني، الساعة الثامنة إلّا الربع مساء بتوقيت غرينيتش

جرت كريستين على غير هدى باتّجاه الطريق الساحليّ في إيغيزيدا، ثم انعطفت غرباً، وأبقتها غريزة البقاء بعيدة قدر الإمكان بين أشجار الحدائق المظلمة، فكان همّها الوحيد أن تهرب، فلم تنظر إلى الخلف أبداً.

ومضت في بالها سلسلة من الصور الفظيعة، ومنها مشهد عيني رونولفور عندما اخترقت الرصاصة رأسه وأطبقهما في الحال بعد أن أنطفأ نورهما، وعند سماع صوت إطلاق رصاصة ثانية، فشعرت بحرارتها قرب أذنها قبل أن تنغرز في الباب، ثمّ آلمتها أذنها وبدأت تنزف، ثم تحوّلت أفكارها إلى أخيها الموجود على النهر الجليديّ وقولهما إنّه ميت، وتذكّرت كلماته الأخيرة: جنود مسلّحون، وطائرة، وبعدها بدقائق قليلة اقتحم رجلان شقّتها، وحاولا قتلها، لقد ذكرا اسماً -راتوف- ومؤامرة تشمل شرطة ريكيافيك، ووزارة الخارجيّة ووزارة العدل، لقد بدا الأمر غير معقولٍ في البداية، ولكن كلّ الأوهام قد تلاشت عندما سقط رونولفور على الأرض أمامها، وهي تعيش الآن واقعاً مؤلما والبرد ينخر عظامها.

حفّزت نفسها لأن تنظر وراءها وهي تجري، ولكنّها لم ترَ أيّ أثر

للرجليـن، فتمهّلـت وهـي تعاين المكان من حولها بدقّـة، وأخيراً تباطأت في جريها إلى أن توقّفت، أمام شقق سكنيّة، فانتبهت إلى وجود باب قبو مفتوح، فتسلّلت إلى الداخل وأغلقت الباب خلفها، فكان الظلام دامساً، وسرعان ما خدشـت أنفها رائحة نفايات نتنة، فاتّجهت إلى القسـم الخلفيّ، لترى جيف الحيوانات تملأ المكان.

لقد فقدت الإحساس بالوقت، ولم تعد تسمع صوتاً ولا تشعر بأيّ حركة حولهـا، فتسـلّلت باتّجـاه الباب ودفعته بحذر، وحدّقت عبر الشـقّ مسـتطلعة المـكان حولهـا، فلـم تـرَ أحداً، ولم يلحقا بها، وتراءى لها من مسـافة ليسـت ببعيـدة مجمّـعٌ صغيـر مكوّن من بيوت متلاصقـة، مضاءة بأنوار خافتة تخترق الظلمـة الجليديّـة، ولكـن مـاذا ينبغي لهـا أن تفعل؟ هل تطـرق أحد الأبواب وتقول لهم كلّ شيء حول الرجلين، والجثّة التي في شقّتها، وتواطؤ الشرطة؟ ولكـن إذا كانـت الشـرطة منخرطـة في القضيّة، فمن عسـاها تبلّغ عن جريمة القتـل، وعـن أخيهـا في منطقة النهـر الجليديّ، وعن القاتلين؟ وماذا لو كانت الـوزارة التـي تعمـل فيها متورّطة في الجريمة؟ فتحسّسـت معطفها باحثة عن محفظتها في جيبها.

لقـد فكّـرت فـي احتمـالات كثيـرة، فماذا لـو أنهما قتلا إليـاس كما قتلا رونولفـور أمـام عينيهـا؟ وأيّ نوع من الرجال كانا؟ فاسـتولى غضبها تدريجيّاً علـى خوفهـا مـا أتـاح لهـا أن تفكّـر بمنطقيّة أكثـر، فكان عليهـا أن تجد ملجأ فـي مـكان مـا، وتحصل على ثياب ومعلومـات أدقّ، وربما تذهب إلى منطقة النهـر الجليـديّ بنفسـها لتحاول أن تنقـذ أخاها إذا كان لا يزال حيّاً، فلم تكن تجـرؤ علـى أن تتواصل مع السـلطات قبـل أن تعرف الحقيقة، وقبل أن تتأكّد من أنّ أخاها بأمان، ولكن أين عسـاها تذهب؟ إذا علما بشـأنها فإنّهما حتماً يعلمان بشـأن والدها، وفي هذه الحالة لن تسـتطيع الذهاب إليه، وفجأة خطر في بالها أن تحذّره في حال أرادا زيارته لاحقاً، فخرجت مسرعة من مستودع

الجيف، وتوجّهت نحو المنازل المتلاصقة، وطرقت على باب أقرب منزل، واتّكأت على جرس الباب، وما إن فتح صاحب المنزل الباب حتّى ظهرت زوجته وولداه خلفه، لقد كانوا يشاهدون التلفاز، لكنّهم نهضوا ليستطلعوا مَن الطارق، فاقتحمت كريستين المنزل من دون استئذان.

وصرخت: «عليّ أن أجري مكالمة، أين الهاتف؟».

نظر إليها الرجل بهلع وقال: «لحظة واحدة يا آنسة»، كانت تتصبّب عرقاً رغم البرد، وتلهث بشدّة، وقد غطّى قناع من القلق والذعر وجهها، وكانت ثيابها مبتلة تماماً، والدم ينزف من أذنها ملطّخاً القسم الأيمن من رأسها.

ردّدت: «سألتك، أين الهاتف؟»، حينها ترنّح أمامها داخلاً إلى المطبخ الصغير حيث أشار ببلاهة إلى الهاتف، فتجمّعت عائلته حوله.

ثلاث رنّات، ستّ، لكنّه لم يُجب، فحاولت أن تفكّر بشكل واضح.

أين يمكن أن يكون؟ بدأ جهاز الردّ الآليّ في العمل، وانتظرت بنفاد صبر الصفّارة، ثم تكلّمت بسرعة.

«أبي! عليك أن تختبئ، اختفِ حالما تسمع هذا التسجيل، أنا لا أعلم ما الذي يجري، ولكنّهما قتلا رجلاً، وحاولا أن يقتلاني، ومن شبه المؤكّد أنّهما سيسعيان وراءك، ربما إلياس ميت، وهناك رجلان اثنان خطيران يطاردانني وهما يرتديان مثل شهود يهوه، وأنا أعلم أنّ ما أقوله يبدو غير منطقيّ، ولكن افعل ما أقوله لك، واختبئ، ولا تقلق عليّ فقط اختبئ! ولا تحاول أن تتواصل معي».

كان أفراد العائلة الصغيرة يحدّقون إليها، بينما تبادل الرجل وزوجته نظرات خوف وقلق، ثمّ نظرا إلى الولدين، ثم التفّ الجميع حول بعضهم، وعيونهم مستقرّة على هذه المرأة الجامحة، وهي تنهي رسالتها، وعندما أغلقت السمّاعة، استدارت لتكون بمواجهتهم فتراجعوا كلّهم إلى الخلف في آن واحد.

قالت وهي ترى الذعر في عيون الولدين: «أنا آسفة، وكلّ شيء سيكون بخير، ولكنّني أقسم إنّهما كانا سيقتلانني، فهل تستطيعون إعارتي بعض الثياب؟ ولكن رجاء لا تتّصلوا بالشرطة، ربما تكون متورّطة مع المجرمين، وحاولوا أن تنسوا ما حصل».

ارتعشت بشكل لا إراديّ بينما كان الأدرينالين ينحسر من جسمها، وأسنانها تصطكّ وهي تقول: «هل لديكم أيّ ثياب يمكن أن تعيروني إيّاها؟ يا إلهي أشعر بالبرد الشديد، وهل لديكم جوارب وحذاء؟».

قالت المرأة بشكل هادئ قدر المستطاع: «إذا أعطيناك الثياب، هل ستذهبين؟».

أكّدت لها كريستين قائلة: «سأذهب في الحال، ولكن أرجوكم ألّا تخبروا الشرطة».

بعد دقائق خرجت كريستين من المنزل مرتدية زيّاً أعطتها إيّاه المرأة، وهو عبارة عن بنطال جينز، وسترة سميكة، وجزمة شتويّة، وفي ظلّ ظروف طبيعيّة، كانت ستجد أنّه من الغريب، وغير المريح أن ترتدي ثياب امرأة أخرى تفوح منها رائحة عطر غريبة، ولكن لم يكن لديها الوقت للتفكير في ذلك الآن.

أُغلقوا الباب وراءها بعد أن أعطوها ضمادة لأذنها، وعندما مشت ببطء في الطريق المسدود، متّجهة نحو الطريق الرئيسيّ مرّت سيّارة بحذر وهي تقود وسط الثلج، فلطالما مقتت كريستين الثلج الذي لايذكّرها سوى بليالي الشتاء الآيسلنديّة، والظلام الداخليّ الذي جلبته معها من تلك البلاد، فمشت على طول الرصيف تخامرها مشاعر الحيرة حول خطوتها التالية، قبل أن تقرّر في نهاية المطاف أن تعود باتّجاه توماساراغي، وطوال الوقت كانت تنظر حولها بحذر، فقد وضعت ما يشبه الخطّة، مع أنّها شكّت في أن تكون في حالة مناسبة للتفكير بعقلانيّة، أو للتوصّل إلى حلّ أمثل.

وأدركت أنّها ستتعامل مع الوضع وحدها، على الأقلّ في بادئ الأمر، فلم تتجرّأ على الذهاب إلى أحد رفاقها أو أفراد عائلتها بسبب خوفها من أن يكون المجرمان أو أتباعهما بانتظارها، إذ لم يمرّ سوى دقائق عدّة بين محادثتها مع أخيها، وظهورهما أمام عتبة منزلها، وربما كانا يتعقّبان هاتفها، ولكن لماذا؟ هل لرونولفور علاقة بالأمر؟ لقد قتلاه بعد كلّ شيء، بعد أن استشاط غيظاً جراء وقوعه ضحيّة مؤامرة المافيا الروسيّة.

فتذكّرت رجلاً يمكنه أن يساعدها في إيجاد معلومات عن الجنود.

وبحيطةٍ وحذر توارت عن الأنظار، بعد أن استرقت النظر إلى منزلها، فلم يكن هنالك أيّ أثر للشرطة أو لأيّ شخص آخر، وبدا كلّ شيء هادئاً ومألوفاً وعاديًّا، وعندما وصلت إلى الطريق الرئيسيّة أشارت إلى سيّارة أُجرة تقبل البطاقات الائتمانيّة لحسن الحظّ.

سألها السائق: «إلى أين؟».

أجابته وهي تلقي نظرة قلقة خارج النافذة الخلفيّة: «مطار كيفلافيك».

10

النهر الجليديّ فاتنويوكل، الجمعة 29 كانون الثاني، الساعة التاسعة ليلاً بتوقيت غرينيتش

توارى القمر وراء غيوم كثيفة، وخيّم الظلام الدامس على النهر الجليديّ، الذي لا يخترقه سوى ضوء المصابيح الأماميّة لمجنزرة راتوف الذي لم يرَهما وهما يسقطان، ولكنّه سمع صوت الدويّ الهائل عند ارتطامهما بالجليد بعد وقوعهما داخل الشقّ، فانتهى الأمر بأحد الشابّين غائباً عن الوعي، والآخر ميتاً، وقبل أن يرمي هاتف إلياس في الهوّة، أمر راتوف جنوده بدفع زلّاجتيهما فوقهما، لمحو آثارهما تماماً.

لقد قاوم إلياس لوقت طويل، ولكنّ راتوف المحنّك في عمله أجبره مكرهاً على أن يفصح عن الحقائق الخاصّة بأخته كريستين التي بات ريلي وبيتمن يعرفانها عنها الآن، كيف لا وإلياس أفصح عن كلّ شيء حول أصدقائها، وزملائها، ومكان إقامة والدها، وعدد المرّات التي قامت فيها برحلات طويلة إلى الخارج، وحول أحبّائها السابقين، أي المحامي ودائرته، كما أخبره بموت أمّهما قبل عدّة سنوات في حادث سيّارة، وبأنها حازت شهادة دراسات عليا من جامعة كاليفورنيا، كما كشف أنّها تكره السفر إلى آيسلندا، ورحلاتها إلى الداخل الأشبه بالجحيم على الرغم من مرافقة أصدقائها لها

أحياناً، لقد قال إلياس كلّ شيء يريد سماعه رجل ماتت في داخله الأحاسيس إلّا الشعور بالقسوة، والتماس الرحمة منه لم يُنجِّ صديقه جوان من الموت، وآخر ما سمعه إلياس قبل أن يغيب عن الوعي صوت راتوف وهو يهمس في أذنه خبر موت أخته.

اجتهد رجال راتوف في إزالة الجليد عن الطائرة الألمانيّة فعملوا خلال عدّة مناوبات، وقد ضمّت كلّ مجموعة ستّين رجلاً يعملون لمدّة أربع ساعات، واستمرّ عملهم الدؤوب وهو يتّبعون المخطّط بشكل دقيق، حتّى ظهر هيكل الطائرة تدريجيّاً، فاستطاعوا في تلك الأثناء رؤية حجرة الركّاب من النوافذ الجانبيّة، وعندما عاد راتوف إلى المخيّم اقترب من الطائرة الألمانيّة، وقضى وقتاً طويلاً محدّقاً إليها عبر النافذة، حيث استطاع تمييز بعض الأشكال على الأرض مخمّناً أنّها جثث.

وبينما هو كذلك، استُدعي إلى خيمة الاتّصالات، حيث ريبلي كان على الخطّ.

قال ريبلي: «لقد استخدمَت بطاقة المدين الخاصّة بها لتدفع أجرة تاكسي إلى كيفلافيك سيّدي، هل قال أخوها شيئاً يتعلّق بكيفلافيك؟».

سأل راتوف: «لماذا بحقّ الجحيم هي ذاهبة إلى هناك؟ ماذا حصل في منزلها؟ ما مقدار ما تعرفه؟ بالتأكيد الخطوة المنطقيّة هي الاستعانة بشرطة كيفلافيك؟».

وساد صمت قصير.

اعترف ريبلي بتردّد: «إنّها تشكّ في أنّ أخاها لا يزال على قيد الحياة، وربما تيقّنت من محاولة قتلها بسبب مؤامرة تتضمّن شرطة ريكيافيك، ووزارة الخارجيّة، ووزارة العدل».

«هل فقدتما صوابيكما؟».

«لقد استخففنا بالعمل، وأعدك بالّا يحدث هذا مجدّداً».

هسهس راتوف قائلاً: «لن يحدث مجدّداً؟! ما كان يجب أن يحدث أبداً!».

«نحن نغادر شقّة أبيها لتوّنا، إذ إنّه ليس في المنزل، كما تركت رسالة على مجيبه الآليّ، وسنأخذها إلى السفارة لترجمتها».

«إنّها تعرف الكثير، وأكثر من اللازم».

سأل ريبلي مجدّداً: «ماذا بشأن كيفلافيك؟».

«لعلّها في طريقها إلى القاعدة، فقد ذكر أخوها حبيباً سابقاً لها، هجرته فجأة، ولم يتقابلا منذ مدّة، ولكنّها قد تقصده الآن من أجل المساعدة أو الحصول على المعلومات».

قال ريبلي: «مفهوم سيّدي».

مكتبة
t.me/t_pdf

«لا تفسدا الأمر مجدّداً».

ردّد ريبلي قائلاً: «مفهوم سيّدي».

أعطاه راتوف اسم الرجل، وأنهى المكالمة ثم خرج من خيمة الاتّصالات، ونظر مجدّداً إلى الطائرة، فبدا كغيره من العناصر في قوات الدلتا، يرتدي ثياباً مموّهة سميكة وبيضاء، وقد رفع نظّارته الثلجيّة إلى جبينه، ويضع قفّازين سميكين وقناعاً، ولم يكن أيّ اسم أو رتبة أو أيّ علامات على ثيابهم تدلّ على انتسابهم إلى أيّ منظّمة أو تربطهم بالوحدة.

لم يخبره كار عن محتوى الطائرة، ولكنّ لهفةً ملحاحةً تدفعه إلى معرفة ذلك، فقد عرف شيئاً عن ماضيها، وأنّها انطلقت من ألمانيا في نهاية الحرب متّجهة إلى ريكيافيك، فاعترض طريقها طقس سيّئ، فسقطت، ولكن لم تكن لديه أدنى فكرة عن هويّة ركّابها، وعمّا إذا كانت ريكيافيك هي الوجهة المقصودة للطائرة أم الولايات المتّحدة الأميركيّة.

عاد يتأمّل الحطام، ويحدّق إلى حجرة الركّاب مجدّداً محاولاً سدّ الفجوة من خلال التخمينات التي مرّت سريعاً في باله، ولكنّ محاولاته كانت أعقم من النفخ في الرماد، ولن يتمكّن من إرضاء فضوله إلّا إذا استطاع الولوج

إلى الداخل.

عاد إلى خيمته، وارتسمت في باله صورة الشابّ حين أخبره بأنّ أخته ماتت، فاشتعل الألم في عينيه قبل أن يطفئهما إلى الأبد، ورغم ذلك فإنّ موت الشابّين لم يخلّف أثراً في نفس راتوف الذي لطالما تحصّن بقسوته لتجنّب الأضرار التي يمكن أن تفشل مهمّاته، ومن دون أن يوليها أهمّيّة كبيرة ينجز هذا العمل كما يرضيه تماماً، إذ يرى أنّ أيّة إعاقات تعترض طريقه ينبغي إقصاؤها.

خطر في باله سؤال كار حول إن كانا يافعين، فمن الواضح أنّ مشاعره تلين مع تقدّم عمره، ولاشكّ في أنّه سيسأل السؤال نفسه عندما يبلّغ بموت المرأة.

ثم أعطى أوامره بالاتّصال بكار.

قال راتوف عندما أصبح كار على الخط: «نحن نعتقد أنّها في طريقها إلى القاعدة الأميركيّة في كيفلافيك سيّدي، ولديّ فكرة سديدة عن الشخص الذي تريد مقابلته».

11

ريكيافيك المركزيّة، الجمعة 29 كانون الثاني، الساعة التاسعة ليلاً بتوقيت غرينيتش

كان اللقاء رسمياً جداً على الرغم من خيار موقع انعقاده، وقد تحدّد اللقاء بناء على طلب خاصّ من سلطات الجيش الأميركيّ، فجلس رئيس الوزراء ووزير الخارجيّة وجهاً لوجه مع الأدميرال في مطار كيفلافيك بصفته كبير ضباط قوّة الدلتا، والجنرال الذي كان يشغل مكتب سفير الولايات المتّحدة الأميركيّة في آيسلندا خلال غياب السفير المفاجئ وغير المتوقّع، وقد استُدعي الوزير إلى الاجتماع بسرعة فسّرها على أنّها غطرسة إذا لم يتبيّن أنّ الظروف استثنائيّة، كما لم يحصل الآيسلنديّان على أيّة معلومات عن سبب الاستدعاء، فتباحثا في عدّة سيناريوهات، وهما متوجّهان في سيّارة رئيس الوزراء إلى فندق مركز المدينة حيث سيعقد الاجتماع، وقد مالا إلى الاعتقاد أنّ سبب هذا الاجتماع هو استقبال لزيارة رئاسيّة متذكّرين أنّه لم يكن هناك أيّ تمهيد قبل انعقاد اجتماع القمّة بين ريغان وغورباتشوف في ريكيافيك في العام 1986.

فور وصولهما استقبلهما الأدميرال الذي كانت معرفته سطحيّة بهما إذ لم يجتمعوا معاً إلّا خلال عدّة حفلات استقبالات رسميّة، وعرّفهما بدوره

إلى الجنرال إيمانويل ويسون الرجل القصير، ذي الشكل السمين والشرس، والوجه الأحمر، والأسنان البارزة، وقد كان يعرج لقصر إحدى قدميه عن الثانية، فتفحّصه رئيس الوزراء ومشاعر الحيرة والشكّ تختلج في داخله حول خدماته الفعليّة وما وراء مكتب يواجه فوضى الضبّاط.

كانت الساعة حوالى التاسعة مساء، حيث الشوارع هادئة، وعدد النزلاء قليل، فلطالما عقد وزير الخارجيّة في هذا الفندق اجتماعات مع ضيوف أجانب يقومون بزيارات غير رسميّة ويرغبون في بقاء لقاءاتهم بعيدة عن الصحافة، وكان المكان بسيطاً، وقد ميّزته بعض المواصفات المعتادة المكلفة لغرف الفنادق، من أثاث أبيض مصنوع من الجلد، ولوحات جميلة لرسّامين آيسلنديّين معلّقة على الجدار، وسجّادات بيضاء سميكة على الأرض، ومشرب كامل تنوّعت فيه المشروبات، فتفحّص الأميركيّان محيطهما الفاخر، وهزّا برأسيهما للآيسلنديّين معبرين عن راحتهما في المكان الذي ساده جوّ من الترقّب الهادئ.

وفي ختام الإجراءات الرسميّة جلسوا في مقاعدهم على الأثاث الفاخر ذي القطع الثلاث.

خاطب رئيس الوزراء الأميركيّين، وهو يرخي عقدة ربطة العنق: «لعلّكما ستتكرّمان علينا وتقولان لنا ما الذي يجري؟».

استهلّ الجنرال رامقاً كلّ واحد على حدة: «نودّ أن نبدأ بشكركما أيّها السيّدان على تلبية دعوتنا إلى هذا الاجتماع الطارئ، ونودّ الاعتذار منكما لاستدعائكما في غضون مهلة قصيرة، وحالما سنشرح لكما الأمر ستتفهّمان ضرورة الخوض فيه واستحالة تجنّبه، وأودّ التأكيد على ضرورة الحفاظ على سرّيّة موضوع اجتماعنا». فهزّا برأسيهما، وانتظرا أن يتابع كلامه، فتنحنح الجنرال وقال: «كما تدركان بالطبع، استناداً إلى شروط معاهدة الدفاع بين أمّتينا، نحن نراقب كلّ شيء يحدث ضمن حدود آيسلندا وخارجها لغايات

عسكريّة، مستخدمين مجموعة من غواصّات، وطائرات استطلاع، وأقمار صناعيّة، وعلى وجه الخصوص، كنّا نراقب عن كثب في السنوات الأخيرة قسماً من النهر الجليديّ فاتنويوكل».

قاطعه وزير الخارجيّة مضطرباً وقال: «أنا آسف، ولكن هل قلت فاتنويوكل؟».

قال الجنرال: «اسمحا لي بأن أكمل أيّها السيّدان، نستطيع أن نجيب عن أيّة أسئلة فيما بعد، في الماضي قمنا برحلات استطلاعيّة فوق هذه المنطقة من النهر الجليديّ، ولكن منذ أن حصلنا على إمكانات الأقمار الصناعيّة أصبحت عمليّة المراقبة أسهل بكثير، واهتمامنا بالنهر الجليديّ قديم للغاية، ولكنّه في الوقت نفسه يشكّل نوعاً من الإحراج، ففي المراحل الأخيرة من الحرب العالميّة الثانية تحطّمت إحدى طائراتنا على النهر الجليديّ، وغاصت في الجليد، وكنّا نعلم إلى حدّ ما أين سقطت، ولكنّ الأحوال الجويّة القاسية منعتنا من الوصول إليها إلّا بعد فوات الأوان، وأخيراً، عندما وصل فريق بحث من قوّات دفاعنا في ريكيافيك إلى النهر الجليديّ لم يعثر على أيّ أثر للطائرة، وكما قلت كان الجليد قد ابتلعها بالكامل».

توقّف الجنرال هنيهة، فاغتنم رئيس الوزراء الفرصة قائلاً: «ما الذي يميّز هذه الطائرة؟».

تابع الجنرال متجاهلاً المقاطعة قائلاً: «مؤخّراً، ظهرت الطائرة في صور الأقمار الصناعيّة الملتقطة من قبل الاستخبارات العسكريّة، وقد تأكّدت شكوكنا الأساسيّة ما إن شاهدنا هذه الصور، وقمنا بمقارنتها بالصور الأخرى الملتقطة للمنطقة نفسها قبل ذلك، فقرّرنا أن نرسل بعثة استطلاع إلى المنطقة المقصودة لاستخراج الطائرة، ونقلها إلى القاعدة قبل إعادة ترحيلها إلى الولايات المتّحدة الأميركيّة، وهذا الأمر يتطلّب بالتأكيد تحرّك عدد كبير من الجنود، والعتاد ضمن الأراضي الآيسلنديّة».

استنتج وزير الخارجيّة قائلاً: «وأنتما تطلبان إذن حكومة آيسلندا لهذه العمليّة».

تدخّل الأدميرال قائلاً: «لم تكن رغبتنا أبداً في التصرّف ضدّ إرادتكم، بالطبع سوف نتجوّل داخل البلاد بشكل غير لافت للنظر قدر الإمكان حريصين على ألّا نسبّب أيّ خوف للمواطنين، فقد وضعنا خططاً وسنستعرضها معكما بشكل مفصّل لاحقاً، على الرغم من أنّنا نعلم برأي العديد من الآيسلنديّين في الجيش الأميريكيّ، ونعي أيضاً عدم رغبة العامّة في مشاهدة مناورات عسكريّة على الأرض الآيسلنديّة، ولكنّ الأمر خطير، ومن أجل ضمان نجاح بعثة الاستطلاع، علينا أن نكمل العمل بسرّيّة تامّة، وغنيّ عن البيان أنّنا لم نكن لنتصرّف من دون تعاونكما التامّ، وقد أردت أن أوضح هذا الأمر منذ البداية، وأؤكّد أنّ هذه بعثة علميّة قبل كلّ شيء، وسيرافق الجنود بعضٌ من كبار علمائنا».

سأل رئيس الوزراء مجدّداً: «ما الذي يميّز هذه الطائرة؟».

«من الأفضل أن ننهي النقاش في الوقت الراهن، فقد أردنا أن نعلمكما في حال حصل خطب ما، وبالطبع إن حصل ذلك فسيكون في ظلّ روح التعاون».

ردّد وزير الخارجيّة كلمات الأدميرال قائلاً: «حصل خطب ما؟ ماذا تقصد؟».

أجاب الأدميرال: «في حال تسرّب خبر العمليّة، نريد منكما أن تكونا جاهزين لتوضيح تحرّكات القوّات، وسبب تواجدنا على النهر الجليديّ».

تساءل رئيس الوزراء قائلاً: «وماذا تقترح أيّها الجنرال؟».

«تدريبات عسكريّة على النطاق الضيّق، ولعلّه من الأفضل تبيان عمليّات انتشار لقوّات صغيرة هولنديّة وبلجيكيّة تابعة لحلف الناتو بالتعاون مع قوّات الدفاع الأميركيّة، وذلك سوف يخفّف معظم التوتّر».

سأله وزير الخارجيّة: «أهذا كلّ ما تنويان إخبارنا به؟».

«نحن نعتبر أنّ ذلك أفضل طريقة».

«أفضل طريقة؟ لم لا نعلن ببساطة أنّكم تديرون بعثة على النهر الجليديّ لاسترجاع طائرة؟ لمَ كلّ هذه السرّيّة؟ ما الذي يجري هنا بالضبط؟».

أجاب الجنرال: «إنّه أمر حسّاس، وهذا كلّ ما يمكنني أن أقوله لكما حالياً، وأعدكما بتزويدكما بالتوضيح التامّ في الوقت الملائم».

أوضح رئيس الوزراء قائلاً: «إنّها مسألة حسّاسة للغاية بالنسبة إلينا أيضاً، لذا أنصحكما بأن تكونا واضحين معنا، وإلّا سأعجز عن تحقيق نجاح الأمر، ما قصّة هذه الطائرة؟ ولماذا قد تسبّب مشكلة؟».

أجاب الجنرال من دون مقدّمات محاولاً أن يكون مهذّباً: «مع كامل الاحترام، هذا ليس من شأنكما».

«ومع كامل احترامي لك، نحن غير معتادين على مثل هذا الافتقار للباقة في تعاملاتنا مع قوّات الدفاع، فأنتما لم تطلبا إذناً لأن تنفّذا هذه العمليّة بل قلتما لنا فقط ما تخطّطون لفعله، هل هذا يعني أنّكم شرعتم في العمليّة بالفعل؟ اسمحا لي أن أذكّركما بأنّ هذا التصرّف سيعتبر انتهاكاً جسيماً لشروط معاهدة الدفاع، وهذا شيء سيفزع الإعلام الآيسلنديّ عند معرفته بذلك، وحتّى الآن نحن مستعدّون أن نراعي المصالح الأميركيّة بأيّة طريقة ممكنة، ومع أنّنا ممتنان لأنّكما رأيتما أنّه من اللائق أن تعلمانا بهذه العمليّة، ولكنّني أخشى أنّ هذه الأعذار الواهية التي تقترحانها غير كافية لتفسير ما تقومون به إذا اضطررنا إلى ذلك».

تدخّل الأدميرال وهو يخاطبهما بنبرة مهدّئة: «اعذرنا إن كنّا قد قلّلنا من شأنكما، فنحن بالطبع نقدّر مساهماتكم في مساعي الغرب للحفاظ على السلام، والاستقرار الدوليّ، ولكن في هذه الحالة أعتقد أنّ الجنرال محقّ، فمن الأفضل لهذا الأمر أن يتمّ بلا أيّ تدخّل خارجيّ، ليصبح لاحقاً في طيّ النسيان».

أجاب وزير الخارجيّة: «أنا أخشى أن يكون الأمر خلاف ذلك، تقولان طائرة من الحرب العالميّة، كيف لنا أن نعرف مدى صحّة ذلك؟ أليس من الممكن أن تكون قد سقطت البارحة؟ ومن يدّعي أنّها موجودة أصلاً؟ بصراحة، أنا أجد الأمر مستبعداً جدّاً».

أجاب الأدميرال: «كان في وسعنا أن نمرّر هذا الأمر على أنّه تدريب روتينيّ، ولكنّ الأمر خطير جدّاً لدرجة أنّه لا يتحمّل أن نكون مخادعين، لذا عليك أن تثق بنا وحسب، وعند طرح التساؤلات ينبغي تطابق إجابات كلّ الأطراف، فمن الضروريّ أن نُبقي أمر وجود الطائرة سرّاً».

سأل رئيس الوزراء: «أنا أكرّر ما الذي يميّز هذه الطائرة؟».

أجابه الأدميرال: «أخشى أنّه لا يمكننا الإجابة عن هذا السؤال».

وقف رئيس الوزراء، وهو يشدّ عقدة ربطة عنقه، قائلاً: «إذاً أعتقد أنّ هذا الاجتماع قد انتهى».

راقب الأميركيّان الآيسلنديّين، وهما يتجهّزان للرحيل، فقد كانا متيقّنين من أنّ الآيسلنديّين لن يصدّقا رواية الطائرة غير المحكمة، والقوّات البلجيكيّة، ولكنّهما كانا مضطرّين إلى استخدامها كخطّ دفاع أوّل.

سأل الجنرال، وهو ينهض: «هل لديكما أيّ دراية عن مشروع مانهاتن؟».

قال وزير الخارجيّة بنبرة يشوبها الحيرة والشكّ: «مشروع مانهاتن؟».

«كان هذا الاسم الحركيّ لبرنامج التجارب النوويّة الخاصّ بنا في أربعينيّات القرن العشرين، ففي نهاية الحرب استُدعي عدد كبير من العلماء الألمانيّين الذين شاركوا في التجارب النوويّة النازيّة إلى أميركا، وعُيّنوا لتنفيذ مشروع مانهاتن، فأصبح هذا الأمر مصدر إحراج لنا بعد انتشار الأخبار عن محرقة اليهود، وبأنّ بعض هؤلاء العلماء كانوا قد عملوا في معسكرات الموت وقد أجروا تجارب على السجناء».

وقد منح الجنرال الآيسلنديّين الوقت لاستيعاب الأبعاد.

هـذه هـي القصّـة التـي أراد أن يزوّدهمـا بهـا إذا لـم يجـرِ الاجتماع وفقاً للخطّـة الأساسـيّة، وكانـت خطّـة احتياطيةّ اعتبرها في تلـك الأثناء ضروريّة، فتأمّله الوزيران وتعابير الاستغراب مرتسمة على وجهيهما.

وأضاف: «كنّا مشـاركين في سـباق مع الروس، وكما هو الحال في هذه الأيّـام، الصـراع علـى كلّ الجبهـات، فاسـتطاعوا توظيـف علمـاء ألمان أكثر بكثير مما استطعنا توفيره، ولـم ينتقدهم أحد بالطبع، ولكن هذه قصّة أخرى، انطلقت الطائرة من هامبورغ وعلى متنها أربعة علماء، فتوقّفت لتعبئة الوقود في إسكتلندا، وكان مقرّراً لها أن تحطّ مجدّداً في ريكيافيك وهي في طريقها إلـى نيويـورك، ولكنّهـا تضرّرت جراء عاصفة، وسـقطت على النهر الجليديّ حيث لم يُعثر على أيّ أثر لهم أو للطائرة في ذلك الوقت، ونحن نعتقد أنّ كلّ من عليها لقوا حتفهم، وعلى كلّ حال، لدينا الآن فرصة أن نسترجع الحطام من النهر الجليديّ، وننقله إلى الديار».

قاطعـه وزيـر الخارجيّـة: «لكنّني ما زلت لا أسـتطيع أن أفهم لماذا ينبغي إبقاء أمر اكتشاف الطائرة في سرّيّة تامّة».

«إذا أُعلنّا خبر ظهور الطائرة ومهمّتها للجمهور، فسيحتدم الجدال حول عمـل العلمـاء الألمـان في أميركا، وهذه التغطية الإعلاميّة نحن بغنى عنها، إذ سـتعرّض العلاقـات بين الولايات المتّحـدة الأميركيّة، وأوروبا للخطر، وهذا كلّ ما في الأمر، والآن أيّها السيّدان كلّ الحقائق باتت في حوزتكما، فهل لي أن أعتبر أنّكما على استعداد للتعاون؟».

نظر الآيسلنديّان إلى بعضهما ثم إلى الأميركيّين مجدّداً.

قال رئيس الوزراء: «أعتقد أنّنا نحتاج إلى المزيد من الشرح».

12

قاعدة كيفلافيك الجوّيّة، الجمعة 29 كانون الثاني، الساعة العاشرة والنصف ليلاً بتوقيت غرينيتش

منذ تولّي الآيسلنديّين إدارة المطار الدوليّ في كيفلافيك في ثمانينيّات القرن العشرين وإنشاء محطّتهم الجوّيّة المدنيّة الخاصّة أصبح إمكان وصول العامّة إلى المنطقة العسكريّة مقيّداً، كما بات التعامل المحلّيّ مع الجيش في حدّه الأدنى أغلب الأحيان، وأصبحت القاعدة أكثر انعزالاً من أيّ وقت مضى.

وفي موقع الحرّة الجرداء، أحيطت المنطقة العسكريّة بسور عالٍ تتخلّله بوّابتان محروستان على مدار الساعة، وعلى الرغم من عدم ضرورة وضع حرّاس أمام السور نفسه، إلّا أنّ الشرطة العسكريّة كانت تراقبه من خلال دوريّاتها المعتادة في المنطقة السكنيّة.

وجّهت كريستين التاكسي نحو مجموعة سكنيّة جديدة قريبة من السور الخارجيّ، وحين وصلت انتظرت اختفاء السيّارة في آخر الشارع، ثم انطلقت مسرعة باتّجاه المنطقة العسكريّة، وسرعان ما لاح في الظلمة السور بسلكه الشائك، وبعد نظرة سريعة حول المكان بدأت بتسلّقه، ممهّدة طريقها بعناية فائقة لتجنّب الأشواك التي وعلى الرغم من حرصها الشديد فقد مزّقت ثيابها،

وخدشت يديها. أخيراً، بلغت قمّته، فقفزت إلى الجهة الأخرى مسافة تقارب الثلاثة أمتار، ولكنّ طراوة الثلج خففت من تأثير ارتطامها بالأرض، فنهضت على قدميها، ونظّفت ثيابها معاينة الأضرار، فآلمها كاحلها بسبب قوّة القفزة، ولكنّ الضرر لم يكن خطيراً كما بدا واضحاً، لذلك وبعد وقفة قصيرة انطلقت وهي تعرج قليلاً.

أجبرت نفسها وهي في طريقها إلى وجهتها على أن تقيّم وضعها، وتنظّم أفكارها المضطربة.

كان رونولفور شريكاً في أعمال تجاريّة مع الروس، وقد تحدّث عن مؤامرة عندما زارها في مكتبها، ووجّه تهديدات إلى مجلس التجارة، ولكنّه الآن يرقد ميتاً في شقّتها بعد أن اخترقت رصاصة رأسه، كما ذكر المافيا الروسيّة، ولكنّها أصبحت هدف القاتلين المنشود، وقد أشارا إلى مؤامرة، ولكنّهما أميركيّان، كيف ذلك؟ وما علاقته بما رآه أخوها على النهر الجليديّ؟ وهل هو ميت فعلاً كما ادّعيا؟ هل مات إلياس حقّاً؟ أجهدت نفسها وهي تحاول التفكير في هذا الأمر أكثر ممّا استطاعت أن تتحمّله.

وسرعان ما وصلت إلى عمارة سكنيّة، فرنّت أحد الأجراس.

يتألّف المبنى من ثلاثة طوابق، وله درجان باردان وفارغان، ويحتوي على اثنتي عشرة شقّة، وكما كلّ الوحدات السكنيّة العسكريّة في القاعدة فقد أنشئ من قبل متعهّدين آيسلنديّين على نمط مستودع ضخم ذي جدران خرسانيّة سميكة مصمّمة لمقاومة الهزّات الأرضية، واللفحات القاسية التي يسبّبها المناخ الآيسلنديّ العاتي، وعلى وجه الخصوص في شبه جزيرة ريكجينز المكشوفة، كما كانت نوافذه صغيرة وتلائم المبنى، وهي ذات زجاج سميك.

بعد برهة أجابها صوت عبر الإنترفون: «أجل؟».

«ستيف».

«أجل».

تكلّمت بالإنكليزيّة: «أنا كريستين، عليّ أن أتكلّم معك».

«كريستين؟ كريستين! لحظة واحدة».

فتح لها الباب المؤدّي إلى السلالم المظلمة وعندما ضغطت على زرّ الإضاءة رأت آلة سجائر مُسندة إلى جدار، وأخرى للشوكولا والمكسّرات، فمشت على أرضيّة بلاستيكيّة ثم صعدت إلى الطابق الأخير حيث وجدت باب ستيف مفتوحاً، ولكنّها طرقته قبل أن تدخل.

فناداها من داخل الشقّة قائلاً: «تفضّلي بالدخول».

دخلت وأغلقت الباب خلفها، وقد ظنّت أنه سيستقبلها عند الباب، ولكنّها رأته منهمكاً في جمع صحف ومجلّات يلتقطها عن الأرض والأريكة، مكدّساً إياها في مكان واحد، وهو أمر يندر أن يقوم به في العادة.

لقد سبق لها أن زارت شقّته مرّة واحدة، ولم يتغيّر فيها شيء، إنّها شقّة صغيرة مؤلّفة من مطبخ، وغرفة جلوس، وغرفة نوم واحدة، وحمام ضيّق، ولطالما كانت بؤرة مليئة بأكوام من الصحف والمجلّات، وعلب المأكولات السريعة، والأطباق المتّسخة المتراكمة على طاولة المطبخ، أمّا جدرانها فكانت مغطّاة بالصور والملصقات، واحدة لجيمس دين وهو يرتدي معطفاً طويلاً ويقف في شارع من شوارع نيويورك تحت المطر، وأخرى لتشي غيفارا مرسومة بالأسود على خلفيّة حمراء، كما ترى فيها كلّ ما يمكن أن تجده في منزل يساريّ عاشق للسينما.

«آسف بشأن الفوضى، فلم أتوقّع مجيئك، في الواقع أنت آخر شخص أتوقّع رؤيته».

أجابت كريستين: «لا مشكلة».

قال: «لقد غفوت قليلاً، ولكن ماذا تفعلين هنا؟ لقد مرّ عام على الأرجح....».

قاطعته كريستين محاولة أن تحبس دموعها التي تجمّدت في مقلتيها: «لم

أجد من ألجأ إليه سواك».

سألها ستيف شاعراً باضطرابها، وواضعاً حزمة الأوراق بعيداً: «ما الخطب؟».

ردّت كريستين: «لا أحد يمكنّني أن أعتمد عليه غيرك، وعليك أن تساعدني، فقد حدث أمر مروّع لأخي».

«أخوك إلياس؟ ما الذي جرى له؟».

«حاول رجلان أميركيّان قتلي في شقّتي».

«قتلك؟ لا...».

«قتلا رونولفور».

«رونولفور؟»، واجه ستيف صعوبة في لفظ الاسم، ولكنّ الأصعب كان محاولة فهم قصّة كريستين.

«ما الذي تتحدّثين عنه؟ ما الذي يجري؟».

كرّرت كريستين كلامها ووجهها يزداد شحوباً، وذقنها يرتعش، وقد بذلت جهداً للسيطرة على توتّرها، وعلى وقع كلامها المتكرّر والمبهم عصفت بستيف مشاعر الحيرة، فوقع أسير الاضطراب بسبب ضيقها من جهة وعدم استيعابه ما روته من أحداث من جهة ثانية، فاقترب منها بهدوء، ووضع يده بعناية حولها، وقادها إلى غرفة الجلوس.

قالت كريستين والغُصّة تكاد تخنقها: «كانا سيقتلانني، لا أعرف لماذا، لقد ادّعيا بأنّ الشرطة، والوزارة مشتركتان في الأمر، وقد اتّصل إلياس من منطقة النهر الجليديّ قائلاً إنّه رأى جنوداً وطائرة، ثم انقطع الاتّصال، وحين أردت معاودة الاتّصال بفريق الإنقاذ ظهر هذان الرجلان فجأة، وقالا إنّني سأنتحر، ولكن رونولفور طرق الباب، وقتلاه، وحينها تمكّنت من الفرار، كما قالا إنّ إلياس مات».

حرص ستيف على ألّا يقاطعها، فمن الواضح أنّ ثمّة حدثاً مأساويّاً قد

حصل، ولكنّه لم يستوعب إلّا القليل من هذا المونولوج المتقطّع.

لم يتوقّع أن يرى كريستين مجدّداً، وظهورها في هذا الوقت لا يجد له تفسيراً، وفي تلك الأثناء تساءل حول إمكان فقدانها صوابها، وحول الوقت الذي سيستغرقه وصول طبيب من القاعدة إلى شقّته.

حاولت كريستين مجدّداً توضيح الأمر: «رأى إلياس بعض الجنود على النهر الجليديّ، ولا بدّ من أنهّم جنود أميركيّون، وهذا آخر ما قاله قبل أن ينقطع الاتّصال، فهل تعلم ماذا تفعل القوّات الأميركيّة على النهر الجليديّ؟».

«النهر الجليديّ؟».

«فاتنويوكل، يمكنني الجزم بأنّك تعتقد بأنّني أتفوّه بالهراء، فقد ظننت أنّني أحلم، وأنّه كابوس وسأستيقظ منه لاحقاً، ولكنّني استيقظت، ولم أجد شيئاً على ما يرام، بل تأكّدت من أنّ كلّ الأحداث حقيقة جرت أمامي».

تفحّص وجهها، وكأنّه سيجد دليلاً على الصراع الذي يدور في عقلها.

أضافت متردّدة: «والآن هناك الروس».

«الروس؟».

«الرجل الذي قتله الأميركيّان برصاصة في رأسه يتعامل مع روسيا، وعندما جاء إلى الوزارة كان يصرخ بشأن التآمر ضدّه، كما ذكر قاتلاه أنّ هناك مؤامرة ما أيضاً، ولا أعلم ماذا أُصدّق، وكلّ ما أريد أن أعرفه الآن هو مصير إلياس، فقد حاولت الاتّصال بفريق الإنقاذ، ولكنهّم لم يجيبوا، ثم فجأة ظهر شهود يهوه».

«شهود يهوه؟».

«الرجلان اللذان حاولا أن يقتلاني كانا يرتديان مثل شهود يهوه، فهم -كما تعلم- يرتدون سترات داكنة، وربطات عنق، وشعرهم مصفّف بعناية، ويذهبون من باب إلى آخر ومعهم كتيّبات، لذلك فتحت الباب عندما اعتقدت أنّهما شاهدان من شهود يهوه، ويا لي من حمقاء!».

قال ستيف مهدّئاً: «حسناً، لا عليك»، ولكنّه بات مدركاً تماماً أنّ الأمور لا تسير على ما يرام.

ثم سألها: «ماذا فعلتِ في الوزارة وأدّى إلى هذا بحقّ الجحيم؟».

«لا شيء، أدّيت عملي فقط، ولم أفعل أيّ شيء، إنّه ليس خطئي، ولم أفعل شيئاً يمكن أن يسبّب أيّاً من هذا، وإلياس أيضاً بات جزءاً من هذه الزوبعة».

«لا، بالطبع لا، يبدو أنّهما أمران لا علاقة لهما ببعضهما أبداً، من ناحية، هناك جنود أميركيّون على فاتنويوكل، ومن الناحية الأخرى هناك مؤامرة مرتبطة بالتعامل التجاريّ مع روسيا».

أخذت كريستين نفساً عميقاً، ومسحت وجنتيها الملطّختين بالمسكرة، وقالت: «أنا أعلم ذلك، ولكن لا يمكنني أن أفهم أيّ حدث من الأحداث المتلاحقة».

مرّت دقائق، هدأت بعدها كريستين ليعود إليها تركيزها، وكان ستيف مسروراً بأنّه استطاع تبديد توتّرها عن طريق الإيحاء بتصديق ما قالته من دون إظهار أيّة شكوك تجاه قصّتها الغريبة، ومهما تكن حالتها العقليّة فقد بدت قواها خائرة، وكان من الخطأ أن يجادلها في ما قالته، فانحسرت تنهّداتها تدريجيّاً، وأصبح في إمكانها أن تتحدّث برزانة أكثر.

سألته: «أيمكنّك التحقّق من أمر الجنود على النهر الجليديّ؟ وتتأكّد ممّا يحصل في الجوار من الذين يقيمون في القاعدة؟».

أجابها ستيف: «سأرى ما يمكنني فعله، ولكن ما الذي قاله أخوك بالضبط؟».

«كان هناك طائرة في الجليد، وجنود على النهر الجليديّ».

«هل قال في الجليد؟ ألا تظنّين أنّ هذا غريب قليلاً؟».

«ماذا؟».

«كما لو أنّها كانت مدفونة في الجليد، هل هذا ما قاله؟».

«على الجليد، في الجليد، بالله عليك ما الفرق؟ لقد ذكر طائرة وجنوداً».

«هل من الممكن أن يكون هناك طائرة في الجليد؟».

«بالله عليك يا ستيف! أنا لا أتذكّر إذا قال في الجليد أو على الجليد، فهذا لا يهمّ، أنا فقط أريد أن أعرف ما الذي حلّ بأخي، وماذا يجري هناك».

هزّ ستيف برأسه.

يقيم ستيف في القاعدة منذ ثلاث سنوات، وهو موظّف في المكتب الإعلاميّ، ومهمّته التواصل مع الوزارات الحكوميّة التي تتعامل مع الجيش الأميركيّ، وبشكل رئيسيّ مع وزارة الخارجيّة، وهو يعيش بمفرده بعد أن طلّق زوجته في أميركا، وأصوله إيرلنديّة، وهو ذو بشرة داكنة، وشعر أشعث أسود اللون، وعلى الرغم من أنّه أكبر سنّاً من كريستين إذ يناهز عمره خمساً وثلاثين سنة، إلّا أنّه يضارعها في الطول تقريباً، وجسمه نحيل ولكنّه قويّ البنية، ولطالما رسم الضحكة على محيّاها وأسعد فؤادها، فلقاؤهما الأوّل كان من أجل العمل، وفي نهاية المطاف تشجّع ودعاها إلى تناول العشاء.

خلال مواعيدهما الأولى في مطاعم ريكيافيك أخبرها كلّ شيء عن حياته، وعن عائلته التي تعمل في تجارة التجزئة، ولأنّه لم يُبدِ أدنى اهتمام بهذه التجارة خرج عن المألوف من خلال دراسة العلوم السياسيّة في الجامعة وقد تبع ذلك عمله لفترة لدى وزارة الدفاع، ولكنّ شغفه الحقيقيّ كان السفر، لذلك عندما أتت فرصة العمل في آيسلندا اغتنمها.

في موعدهما الثالث دعاها إلى استراحة الموظّفين في القاعدة، وبعدها إلى احتساء الشراب في شقّته، ما جعلها تفقد ثقتها به من دون سابق إنذار، فأصيبت بالذعر وغدت غير قادرة على تحمّل احتمال النوم مع أميركيّ في القاعدة، لكنّه تفهّمها تماماً.

كانت القصص حول النساء الآيسلنديّات، والجنود الأميركيّين قبيحة

بحيث نُعتت هؤلاء النساء بوضيعات يانكي، وقد نظر الرأي العام إلى الآيسلنديّات اللواتي يرتبطن بالعساكر الأميركيّين نظرة ازدراء نتيجةً ما جرى في الحرب العالميّة الثانية، عندما استقبلت النساء الجنود الأجانب على هذه الشواطئ، ونظرن إليهم على أنّهم وسيلة للهرب وبناء مستقبل أكثر إشراقاً، وحياة جديدة خارج البلاد، أو أثاروا إعجابهنّ بأزيائهم وسلوكهم الأجنبيّ المألوف الذي لطالما لفت نظرهنّ عبر الأفلام، كما نظرن إليهم كمصدر للتبغ، والجوارب النسائيّة، وتمضية الأوقات الجميلة. والوضع كما عُرف ألحق بهن العار في آيسلندا، والنساء اللواتي عاشرن عناصر الجيش وصفن بالوضيعات، وهذه العقليّة جعلت كريستين التي أدركت أنّها لم تتغيّر إلّا قليلاً على مرّ السنوات تبتعد عن ستيف.

ورغم أنّها حاولت أن تشرح له الأمر إلّا أنّه أبدى انزعاجاً من تفكيرها المتعنّت ومعاملته بهذا الأسلوب الجاف، ولكنّها تركته وغادرت ببساطة، ثم قلّت لقاءاتهما شيئاً فشيئاً إلى أن خمدت في نهاية المطاف وطغى الجفاء، وساد الصمت بينهما، فلم يتكلّما مع بعضهما مدّة ستّة أشهر، ولكنّهما لم ينهيا العلاقة بشكل قاطع فعليّاً.

اقترح ستيف محاولاً تهدئتها: «لم لا نبدأ بالتواصل مع فريق الإنقاذ؟ لنتبيّن ما جرى مع أخيك».

فنهض، وأحضر الهاتف واتّصل بالرقم الأوّل، لكنّ أحداً لم يجب، ثم جرّب رقماً آخر ولم يتلقّ جواباً أيضاً، وعند تجربته الرقم الثالث أومأ إليها لتأخذ السمّاعة بعد أن سمع أحدهم يردّ على المكالمة، فنهضت متلهّفة.

قالت: «اسمي كريستين، هل هذا فريق إنقاذ ريكيافيك الأرض جوّيّ؟».

«أجل».

«كيف يمكنني الاتّصال بفريقكم في فاتنيوكل؟».

«لدينا عدّة أرقام اتّصال لهواتف نقّالة، وأجهزة لاسلكيّة، كيف يمكنني

تقديم المساعدة؟».

«هل جرى أيّ حادث على النهر الجليديّ؟ وهل هناك أحد مفقود؟».

«هل لي أن أسأل من أنت؟».

«كريستين، وأخي من عناصر الفريق، واسمه إلياس».

«سأصلك بقائد الفريق على فاتنويوكل، من فضلك انتظري على الخطّ».

انتظرت كريستين، وعيناها على ستيف الذي يزرع الغرفة الصغيرة جيئة وذهاباً محدّقاً بلا تركيز إلى صورة جيمس دين تحت مطر نيويورك في وجه الثورة.

سمعت صوتاً من الجهة الأخرى من الاتّصال: «مرحباً، هل أنت كريستين؟ معك يوليوس، أنا مسؤول عن الفريق هنا في فاتنويوكل، هل تسمعينني جيّداً؟».

قالت كريستين بسرعة: «بصوت مرتفع وواضح، هل إلياس معكم؟ هل هو بخير؟».

«أخشى أنّ إلياس مفقود».

«مفقود؟ كيف حصل ذلك؟ وأين هو؟».

«غادر مع جوان المخيّم منذ سبع ساعات ولم يعودا حتّى الآن، ولكنّنا تعقّبنا إشارة هاتف إلياس، ونتوقّع أنّنا سنجدهما حالما يطلع الفجر، ربما تاها - إنّ الظلام دامس هنا - ولا يمكنني أن أستبعد احتمال تعرّضهما لحادث، ولكنّ إلياس لديه خبرة وافرة مع الأنهار الجليديّة لذلك لا داعي للقلق».

سألت كريستين: «هل لاحظتم وجود أيّ جنود في المنطقة؟».

«جنود؟ لا، ماذا تقصدين بجنود؟».

«اتّصل بي إلياس من النهر الجليديّ، وقال لي إنّ ثمّة جنوداً يتجّهون نحوه».

«متى اتّصل بك إلياس؟».

«منذ ثلاث أو أربع ساعات على الأرجح، وانقطع اتّصالنا بعد ثوان من رؤيته للجنود».

«لا، لم نلحظ وجود أيّ تحرّكات هنا، كان الشابّان يجرّبان قيادة زلّاجتيهما الجديدتين، ومن الممكن أنهّما اجتازا مسافة طويلة في ذلك الوقت، ولكن ليس هناك أحد في الأرجاء سوانا».

«ألم يعطياك أيّة فكرة عن وجهتهما؟ هل تعتقد أنّه من الممكن أن يكون إلياس في خطر؟».

«لا، لم يعطياني أيّة فكرة، ولا أستطيع تخيّل ذلك إلّا إذا كانا يتجوّلان في الظلام، إذ هناك حزام كبير من التشقّقات على بعد عدّة ساعات من جهة الغرب، ولكن إلياس حذر، وكذلك جوان، وأتوقّع أنّهما قد توقّفا في مكان ما، وبالنسبة إلى الهاتف فهو خارج نطاق الخدمة، ومع ذلك إذا بقيا في مكانهما فسنجدهما بسرعة عند طلوع الفجر، ولكن ما الذي جعلك تتّصلين للاطمئنان على إلياس؟ هل راودك حدس ما ينبئك بتعرّضه للخطر؟».

قالت كريستين: «قيل لي إنّ إلياس مات، وهذا له علاقة ما بالجنود الذين رآهم على النهر الجليديّ».

«إلياس ليس ميتاً، إنّه مفقود، ولكنّه حيّ».

في تلك الأثناء نظر ستيف من نافذة غرفة الجلوس، والستارة مدفوعة إلى جهة واحدة، وحدّق إلى مرآب السيّارة أمام المبنى.

سألته كريستين متجاهلة ستيف: «هل لي أن أتّصل بك عبر هذا الرقم للاطمئنان على إلياس؟».

«من قال لك إنّ إلياس ميت؟ من عساه يقوم بأمر كهذا؟».

«إنّه أمر معقّد جدّاً، ويصعب الخوض فيه الآن، وسأتكلّم معك لاحقاً». فسجّلت رقمه، وأنهت المكالمة.

إلياس لديه طباع تنمّ عن طبيعة قياديّة، وكريستين تعتقد أنّه من الممكن،

لو لم يتغيّر مجرى الأحداث، لكان سيطمئنها وهو يتكلّم معها بثقة شديدة، ولكنّ المحادثة لم تبدّد مخاوفها.

سألها ستيف: «كيف وصلتِ إلى هنا؟».

«بواسطة التاكسي».

«هل علم أحد بأنّك قادمة إلى هنا؟».

«لا، لا أحد».

«هل دفعت أجرة التاكسي بواسطة أموال نقديّة مباشرة؟».

«لا بواسطة بطاقة المدين».

سألها ستيف بصوت رزين: «هل لهذين الرجلين شعر أملس؟».

«لماذا تسأل؟».

«في الواقع، من المستحيل أن يكونا هما، لأنَّ هذين الرجلين لا يرتديان سترات، وربطات عنق بل هما في لباس التزلّج، وينتعلان حذاءين طويلي الساق».

«ستيف! ما الذي تتحدّث عنه بحقّ الجحيم؟».

«هناك رجلان في الخارج يحدّقان إلى نافذتي».

سألت كريستين وقد امتقع لون وجهها: «ماذا تقصد؟».

جرت إلى النافذة، وحدّقت إلى مرآب السيّارات ثم لهثت في ذعر: «يا إلهي، إنّهما المجرمان نفسيهما، كيف وجداني هنا بحقّ الجحيم؟».

قفز ستيف مبتعداً عن النافذة كما لو أنّه قد صعقته صاعقة.

«لقد رأيانا، هيا بنا!»، لا تزال كريستين ترتدي معطفها، فانتعل ستيف جزمته، ومعطفاً سميكاً بسرعة، وبعد ثوان كانا في الخارج ينزلان على الدرج.

وبينما كانا يحدّقان إلى الأسفل شاهدا ريبلي، وبيتمن يدخلان الردهة السفلى، ويجريان باتّجاه السلم.

فتمتم ستيف: «سحقاً».

وسألت كريستين: «هل لديك مسدّس؟».

«لماذا عساي أحمل مسدساً؟».

شتمت بالآيسلنديّة، وقالت: «يا لحظّي العاثر الذي جعلني أقابل الأميركيّ اللعين الوحيد الذي لا يحمل مسدّساً».

فصرخ قائلاً: «هيا بنا».

دخلا الشقّة بسرعة، وأقفلا الباب، ثم خرجا مسرعين إلى الشرفة، فكانت المسافة من الشرفة إلى الأرض حوالي ستّة أمتار- وهي عالية جدّاً- ولا يمكنهما النزول إلى الشرفة التي تحتهما مباشرة أيضاً، ولكن لديهما فرصة أن يقفزا إلى الشقّة المجاورة، فانبعث صوت طرق على الباب الأماميّ للشقّة، عندها سارع ستيف إلى مساعدة كريستين في الصعود إلى الدرابزين، وأمسكت بالحديد البارد وهي تدفع نفسها إلى الأعلى ولكنّها استسلمت للدوار الذي أصابها عندما نظرت إلى الأسفل، وقد بدا لوهلة وكأنّها ستسقط، ثمّ انزلقت كمّيّة كبيرة من الثلج الذي اختفى في الحال في الظلمة، لكنّها تغلّبت على دوارها، وتجاهلت الألم في يديها بعد أن نخرهما البرد، ثم قفزت إلى الشرفة المجاورة لتسقط على الأرض الإسمنتيّة وقد انبعث صوت ارتطام جسدها بالأرض، فشهقت بعد أن لحق بها ستيف لحظة انفتاح باب شقّته.

ثمّ أخذ أصيص زهور ثقيل من أرضية شرفة جاره، واستخدمه ليحطم زجاج باب الشرفة قبل أن يفتحه من الداخل، وولجا مباشرة الشقّة مبعدين ألعاب الأطفال عن طريقهما، فكادا يتعثّران بمكنسة كهربائيّة، ثم خرجا إلى الدرج، وبعدها أسرعا في نزول السلم.

جرى ريبلي وبيتمن عبر شقّة ستيف، وعند سماعهما صوت تحطيم الزجاج توجّها إلى الشرفة حيث رأيا أنّ باب شرفة الشقّة المجاورة مفتوح.

استدارا وعادا أدراجهما مسرعين ليجدا ستيف وكريستين يختفيان داخل بيت الدرج، فخرج رجل سمين لا يرتدي سوى ملابس داخليّة من الشقّة

المجاورة، ومشى مباشرة نحو ريبلي، وبيتمن فاصطدما به، وأسقطاه أرضاً إذ تعثّر ريبلي به.

كان لستيف وكريستين الأسبقيّة، فاندفعا بسرعة من الباب الأماميّ للمبنى في حين استجمع الرجلان قواهما، وتابعا طريقهما، فجرى ستيف، وكريستين خلفه، باتّجاه سيّارته، فلم تكن مقفلة، وسرعان ما جلس وراء المقود وكريستين إلى جانبه.

صرخ ستيف وهو يتحسّس جيوب بنطاله الجينز بتوتّر، ثم أدخل يده في أحدها، وهو يقول: «المفاتيح...المفاتيح!».

صرخت كريستين أيضاً: «أين المفاتيح؟».

قال ستيف: «وجدتها!». أخرج كومة مفاتيح من جيبه، وأدخل المفتاح الصحيح في المشغّل.

ضغط على دوّاسة البنزين حتّى أقصاها عندما أدار المفتاح، ولكن المحرّك لم يعمل، فهسهس مفتاح السيّارة، أيضاً المحرّك لم يستجب.

ثمّ ضغط ستيف على أسنانه قائلاً: «يا إلهي».

حاول مجدّداً، وهو يطرق على المقود ضاغطاً رجله بقوّة مرّات متتالية، محرّكاً مفتاح السيّارة يميناً ويساراً، فهدر المحرّك لعدة ثوان ثم بدأ بالعمل. حوّل ستيف السيارة إلى وضع القيادة، فارتدّت قليلاً إلى الخلف، كما ارتدّت كريستين معها في مقعدها، وفاحت رائحة الوقود وعندما تحرّكت العجلات في الثلج، دوّى صوت المحرّك قويّاً بينما العجلات تحاول أن تتحرّر من الثلج الذي انغرزت فيه، ومؤخرة السيّارة تنزلق إلى الأسفل، ولكن عندما هرع الرجلان خارج المبنى كانت العجلات قد تحرّرت، فاندفعت السيارة إلى الأمام ليصبحا بعيدين عنهما.

نظرت كريستين إلى الخلف، وراقبتهما وهما يتبعان السيّارة لفترة وجيزة قبل أن يستسلما ويتسمّرا في مكانهما في حيرة وهما يشاهدان السيّارة، وهي

تختفي عن أنظارهما.

حوّل ستيف نظره عن الطريق لينظر إلى كريستين: «اعتقدت أنّك مجنونة عندما وصلت إلى منزلي، وقد فقدت عقلك».

«شكراً، لاحظت هذا».

«لن يتكرّر ذلك، وأنا آسف». تابع القيادة متفحّصاً المرايا كلّ بضع ثوانٍ. لاحظت كريستين أنّه تمسّك بالمقود بشدّة ليسيطر على ارتعاش يديه.

بعد دقيقة من الصمت قالت كريستين: «هناك طريقة واحدة فقط جعلتهما يعرفان بشأنك».

«ما هي؟».

«إلياس، إنّ لهما علاقة بالذي يجري على النهر الجليديّ، لقد حصلا على اسمك من إلياس، لا بدّ أن يكون هذا هو الأمر، إنّهما على الأرجح يعتقدان بأنّه قد قال لي شيئاً وأنّه أخبرني عنهم، وعن الطائرة، ومهما يكن سبب وجودها هناك، فإنّ الرجلين على اتّصال بالجنود، وحصلا على رقم هاتفي من هاتف إلياس، وهكذا علما بأنّني أخته، وهما يعتقدان أنّني أعرف شيئاً، لهذا يلاحقانني».

«ولكن من هما؟ ولصالح من يعملان؟».

«كدت أنسى، لقد ذكر أحدهما اسماً عندما هاجماني، ولم يكن من المفترض أن أسمعه، شيئاً ما بخصوص «راتوف». هل سبق وأن سمعت بهذا الاسم؟».

«راتوف؟ لم يسبق لي أن سمعت بهذا الاسم».

تنهّدت كريستين وسألت: «يا إلهي يا إلياس» وهي تغوص في المقعد وتمرّر يدها في شعرها وأضافت: «ماذا جرى له؟ قالا إنّه مات».

تابع ستيف القيادة كالح الوجه، والدهشة مرتسمة على وجهه للتغيّر العجيب الذي حصل خلال هذه الأمسية، معتقداً أنّه قد جاء إلى هذه الجزيرة

المتجمّدة ليحظى بحياة هادئة.

«كريستين، سأجري بعض الاتّصالات لأحاول تبيّن ما الذي يجري، هل يعلمان حقّاً من أنت؟».

«إنّهما يعلمان أين أعيش، وبشأن إلياس، ويبدو أنّهما يعلمان بكلّ خطوة أخطوها، أجل ستيف، أستطيع القول إنّهما يعرفان من أنا».

نظرت كريستين إليه، ثم إلى خارج النافذة مجدّداً، وفكّرت في إلياس، وفي والدها الذي على الأرجح سافر إلى خارج البلاد إذ إنّه يسافر دوماً، وهذا لا يعني أنّهما قد ذهبا معاً في العطل سابقاً، فهو لم يكن يجهد نفسه يوماً لإخبارهما بقيامه برحلات قصيرة، فالتواصل بينهم كان نادراً جدّاً، ويقتصر على اتّصال هاتفي كلّ شهر أو اثنين، ومحادثة متكلّفة مع تعابير فارغة عن الأمل بأنّ كلّ شيء على ما يرام. شعرت كريستين بالحزن لأنّها لا تستطيع الاستعانة بوالدها في أيّ أمر، فقد كان عليها التأقلم دوماً بمفردها، والأسوأ من كلّ هذا أنّه سيلومها لما حصل لأخيها كما كان يفعل دوماً.

13

قرب العاصمة واشنطن، الجمعة 29 كانون الثاني، الساعة الخامسة بالتوقيت الشرقيّ

فتح ميلر الباب بنفسه، ودعا كار إلى الداخل، فقد عاش ميلر في بيت خشبيّ ذي طابقين، وله حديقة أنيقة، في ريف هادئ محاط بالغابات المغطّاة في تلك الأثناء بقشرة من الثلج، وهو ليس ببعيد عن واشنطن العاصمة، جرّ ميلر قدميه بخفّه البالي، إنّه يبلغ من العمر قرابة الثمانين، وظهره محدودب بوضوح، وخصلات شعره المتبقّية بيضاء تماماً، أمّا وجهه فمرقّط ببقع الكبد، وقد توفّيت زوجته قبل عشرين سنة، ورغم أنّه لم يكن لديه أولاد يهتمّون به، إلّا أنه يحصل على مساعدات منزليّة ثلاث مرّات في الأسبوع، وموائد مجّانيّة وقت الغداء، والعشاء، ظاهريّاً لم يكن ميلر سوى رجل مسنّ ينتظر الموت مخلّفاً سنوات خدمته العديدة وراءه، ولكنَ المظهر الخارجيّ الضعيف المسنَ أخفى وراءه عقلاً متّقداً وحذقاً كما كان في السابق.

بعد أن تصافح الرجلان عند الباب، أرشد ميلر كار إلى مكتبه في الطابق الأرضيّ المليء بتذكارات وصور عن حياته الطويلة في خدمته العسكريّة، وهي تجمعه بزملائه أيّام الحرب العالميّة الثانية، ومن بينها مشاهد من كوريا وفيتنام، وقد ضمّت المجموعة صوراً التقطت في أوقات السلم أيضاً، وكلّ ما

في منزله بدا في غاية الترتيب، وكذلك الكتب كانت مرصوفة على الجدران ومعظمها يتناول الحرب.

سأل ميلر: «هل أنت واثق من أنّها الطائرة نفسها؟»، وهو يخرج كأسين، ويملأهما بالبراندي، فقد كان الوقت مبكراً جدّاً لاحتساء الشراب بالنسبة إلى كار، ولكنّه لم يعترض إذ إنّ الوقت لم يعد يعني أيّ شيء بالنسبة إليه.

أجابه كار مرتشفاً شرابه: «لا شكّ».

«هل دخلوا إليها؟».

«ليس بعد، راتوف هو المسؤول».

قطّب ميلر حاجبيه وقال: «هل هذا ضروريّ حقاً؟».

«في تقديري، إنّ العمليّة تحتاج إلى رجل مثل راتوف، والأمر بهذه البساطة».

«أما زلت تخطّط للطيران بها فوق المحيط الأطلسيّ؟ إلى الأرجنتين؟».

«أجل، الأرجنتين».

«إذاً الإجراء لم يختلف؟».

«لا، كلّ شيء يجري وفق الخطّة، إلّا أنّ ساكنيْن محلّيّيْن شاهدا الطائرة، وأخشى أنّهما شاهدا الكثير، ولكن وفقاً لراتوف كلّ شيء تحت السيطرة».

«لا أعتقد أنّه عفا عنهما».

أدار كار وجهه، ونظر خارج النافذة.

«والأخوان؟».

رفع كار كتفيه متجاهلاً.

أغمض ميلر عينيه، وتذكّر الأخوين كما كانا عليه عندما قابلهما للمرّة الأولى عند سفح النهر الجليديّ، عمرهما يقارب عمره، وهما يتّسمان بالودّ وحسن الضيافة والتعاون، والأهمّ من ذلك كانا كتوميْن، لم يسألا عن شيء قطّ، وببساطة دعواه إلى منزلهما، وكانا المرشدين له على النهر الجليديّ.

سأل ميلر: «لم يعلم راتوف بمحتوى الطائرة، أليس كذلك؟».

«سيكتشف قريباً، ولكن يمكننا الوثوق به على الأقلّ ليأتينا بالوثائق، ولدينا شاحنات جاهزة لنقل الطائرة المفكّكة إلى كيفلافيك، وسترافق الجثث الحطام، وقد أعطيت راتوف تعليمات بخصوص ما يجب فعله بأيّة أوراق يجدها، ولا شكّ في أنه سيقرأها، ولكنّها خطوة لا مفرّ منها، وأيّاً يكن الأمر فهو عالق على جزيرة، وإلى أين يمكنه الذهاب؟ وإذا سارت الأمور على ما يرام فإنّ هذا الفصل من الحرب سيختتم في غضون أيّام، وسنستطيع أخيراً التنفّس براحة».

«وماذا بشأن راتوف؟».

«نحن نُبقي خياراتنا مفتوحة».

«إذا قرأ الملفّات سيظنّ أنه في خطر».

«دعنا ننتظر، ونرَ كيف سيتصرّف، راتوف ليس رجلاً معقّداً كثيراً».

حرّك ميلر البراندي في كأسه.

«هل يعلم الآخرون بالوضع؟».

«فقط قلّة قليلة».

«والسياسيّون؟».

«أنا واثق من أنّني أخفتهم، فقد رويت لهم قصّة ذهب والشينزي، ولم يعرف وزير دفاعنا اليافع أيبكي أو يبلّل نفسه عندما أخبرته بالقصّة، ما عليك سوى أن تذكر اليهود، وهذا وحده كفيل بأن يجعلهم يرتعدون خوفاً».

«ولكن هناك خطب ما».

كانت هذه الجملة حكماً ولم تكن سؤالاً، فقد عرف ميلر خليفته بشكل جيّد، وخمّن من تعابير كار والطريقة التي تكلّم بها أنّ الأمور لا تجري على ما يرام بشكل تامّ، فلم تكن تلك المرّة الأولى التي لجأ فيها كار إليه للمشورة، أو لدعمه، ولكنّه كان رجلاً لم يستطع تحمّل الاعتراف بأخطائه.

تكلّم كار بوضوح ودقّة: «هناك امرأة يافعة في ريكيافيك، وهي أخت أحد الشابّين اللذين عرقلا عمليّة الاستخراج، وعلى ما يبدو أخبرها الأخ عبر الهاتف بأنّ هنالك قوات مسلّحة، وطائرة على النهر الجليديّ، فاستخلص راتوف هذا القدر منه، ولقد فرّت من رجالنا مرّتين حتّى الآن، ويساعدها أميركيّ من القاعدة، وهو حبيب سابق لها، ومن المحتمل أنها لجأت إليه بسبب ما قاله أخوها عن الجنود، إنهما حالياً في مكان ما في القاعدة، ولكنّني حرصت على أن تكون المنطقة مؤمّنة، وقائد القاعدة يتعاون معنا، ولن يذهبا بعيداً».

خيّم الصمت في المكان لفترة.

أخيراً، قال ميلر: «كانت العمليّة من ضرورات الحرب، وعلينا أن ننظّف وراء السياسيّين كعادتنا».

«أعلم هذا، ولكنّني أميل إلى أن أرجع السبب إلى الجنون المؤقّت، لقد كانت الحال كما في المصحّة العقليّة خلال الأشهر الأخيرة من الحرب».

«هذا لا يعني أنّه لم يكن علينا الدخول إلى روسيا، فقد كان باتون محقّاً في ذلك».

«لقد تردّدوا».

«وخسرنا نصف أوروبا».

ملأ ميلر كأسيهما، وكان البراندي أحد مظاهر الرفاهية التي ما زال يسمح لنفسه بالاستمتاع بها بعد أن أخبره الأطبّاء بأنّه لم يبقَ له الكثير في هذه الحياة، وبدا وكأنّه لا يأبه للأمر، وأنّه متصالح مع الموت منذ زمن طويل، وسيستقبله عندما يحين أوانه.

قال: «لا تقع كتابة التاريخ على عاتقنا بل على عاتق سوانا».

أجاب كار: «لا، عملنا دوماً أن ننظّف الصفحات تماماً، ونعيد كتابتها، فالتاريخ كلّه أكاذيب، وأنت وأنا نعلم ذلك بوضوح، وهناك الكثير من التغطيات

والتحريفات، فقد قلنا الحقيقة بشأن الأكاذيب، وكذبنا بشأن الحقائق، وحذفنا شيئاً، واستبدلناه بالآخر، فهذا هو عملنا، وقد قلت لي ذات مرّة إنّ تاريخ البشريّة لم يكن أكثر من سجلّ للجرائم والعثرات، كما هو سجلّ لأكاذيب محبوكة بدقّة».

«تبدو متعباً يا فيتاوتاس».

«أنا متعب حقّاً، وسأتقاعد عندما ينتهي كلّ هذا».

أخذ ميلر رشفة أخرى من البراندي - نوعه المفضّل - وتلذّذ بطعمها قبل أن يبتلعها.

علّق ميلر قائلاً: «قال لي الأخوان إنّ شتاء عام 1945 كان قاسياً بشكل غير طبيعيّ، ولم يذب الثلج عن المنحدرات فوق المزرعة حتّى تموز، وقد فتّشت المنطقة مع فريق صغير، ولكن لم يكن هناك أيّ أثر للحطام، فلا بدّ أنّ الهيكل مدفون تماماً تحت الجليد، وهذا يعني أنّ الجثث أيضاً مدفونة، وقد تجمّدوا على عمق كبير لأكثر من نصف قرن».

توقّف ثم قال: «أنا أحسد ذلك المتوحّش راتوف، فقد بحثت عن هذه الطائرة طوال أيّام حياتي، والآن عندما عثر عليها أخيراً أصبحت عجوزاً جدّاً ولا أستطيع أن أراها، متى ستصل إلى الأرجنتين؟».

«يقول راتوف خلال أربعة أيّام، ولكنّ الأمر قابل للتغيير، فهناك توقّع بسوء الأحوال الجوّيّة في تلك المنطقة، إذ ثمّة عاصفة مترقّبة خلال الأربع والعشرين ساعة القادمة، ويمكنك القدوم إلى أميركا الجنوبيّة إن كنت تودّ ذلك».

لكنّ ميلر ابتعد بفكره إلى الطبقات المتكدّسة من الثلج والجليد التي قضى سنوات عديدة في البحث فيها من دون جدوى، وإلى التراكمات الجليديّة ومرور شتاء تلو الآخر، وعاصفة ثلجيّة تلو الأخرى لتدفن النعش المتجّمد في أعمق مكان في العالم.

«لطالما فكّرت في أنّه ربما من الأفضل لنا أن يغطّي النهر الجليديّ الطائرة إلى الأبد، لكي لا نضطرّ إلى أن نقلق بشأنها بعد الآن، وسيكون ذلك الأفضل للجميع».

«ربما، أفكّر أحياناً في أنّ هذه الطائرة اللعينة هي السبب الوحيد لإنشائنا قاعدة في آيسلندا، فأحياناً تبدو بهذا القدر من الأهمّيّة».

خيّم الصمت على الغرفة الصغيرة مجدّداً.

سأل ميلر في نهاية المطاف: «ماذا بشأن الأخت؟ ألا يمكننا أن ننسى الأمر؟».

«ليس قبل أن تُشحن الطائرة جوّاً، وبعد ذلك لن يكون الأمر مهمّاً».

«حسناً كلّ ما يجب عليها فعله هو التواري عن الأنظار لبضعة أيّام، وستصبح خارج نطاق الخطر؟».

«شيء من هذا القبيل».

شرب ميلر جرعة أخرى من البراندي.

«إذاً من يعلم هنا بشأن الاكتشاف؟».

«أنا، وأنت، ووزير الدفاع الذي لا يعلم سوى أنّها تتضمّن ذهباً يهوديّاً، وبضعة أفراد في الشركة، والآخرون كلّهم ميّتون ومدفونون».

«وقريباً سننضم إليهم».

«هذا تاريخ غابر حيث هناك قلّة قليلة بالإضافة إلينا تعرف حقّاً ما الذي على متن الطائرة، وهؤلاء الرجال اليافعون لا يقدّرون الوضع، إنّهم ساذجون جدّاً لأن يفهموا الضرورة السرّيّة، ولا يأبهون إذا انتشرت قصّة الطائرة وربما سيستغلّونها لمآرب أخرى، فليساعدنا الله في مواجهة هؤلاء المتعصّبين، لذا يجب ألا نتأخّر أبداً، فكلما استغرقت عمليّة الاسترجاع وقتاً أكثر كلما زاد احتمال حدوث تسرّب أكبر».

«عندما تتحدّث عن المتعصّبين...»

«أقصد أنّني لست متأكّداً ممّا سيفعلونه إذا علموا بالدور الأساسيّ الذي أدّته الطائرة».

ابتسم ميلر ساخراً وقال: «من المؤسف أنّ رجال الفضاء غير موجودين ليلفتوا انتباه العالم هذه المرّة».

علّق كار: «يا لأرمسترونغ المسكين، لم يكن لديه أدنى فكرة عن الذي كان يفعله لآيسلندا».

فجأة غيّر ميلر الموضوع: «لقد خطا خطوة عملاقة، وقدّم خدمة للبشريّة هناك».

تفقّد كار ساعته، فكان عليه أن يغادر قريباً.

«تعرّفت إلى الآيسلنديّين قليلاً عندما كنت أخدم هناك في العام 1945، فهم أمّة غريبة، يعيشون على حدود أوروبا الصخريّة في أقصى شمال المحيط الأطلسيّ، حيث الظلمة تخيّم معظم أيّام السنة، وقد عاشوا لقرون في مساكن لم تكن أفضل من حفر في أعماق الأرض بين الصخور، والحُثّ هو مادّة البناء الوحيدة المتوفّرة، وعندما كنت هناك كانوا يشرعون في الخروج من الأرض، ويبنون لأنفسهم منازل مناسبة، ولكن بالرغم من كلّ هذا هم شعب مثقّف. فعلى سبيل المثال هذان الأخوان كانا قد قرآ أعمال ميلتون المترجمة بالآيسلنديّة، وفهما كلّ كلمة منها، وحفظا مقاطع طويلة من الفردوس المفقود عن ظهر قلب».

«ماذا تقصد؟».

«ليس هناك الكثير من الآيسلنديّين في العالم، دعنا لا ننقص عددهم من غير داعٍ».

«أؤكّد لك أنّنا لن نفعل ذلك».

نظر ميلر إلى الكأس التي في يده.

«إن لم أستطع الذهاب إلى الأرجنتين، هلّا ترسله إليّ».

مكتبة
t.me/t_pdf

«كما يبدو لي، لم يتغيّر شيء منذ أن راجعنا الإجراء آخر مرّة، ومن الواجب أن يعود إليك».

«لا أنفكّ عن التفكير في درجات الحرارة، فلا يمكنها أن تكون قد ارتفعت فوق الصفر خلال خمسين سنة، وإن لم يكن مصاباً بشدّة فينبغي أن يبدو على حاله، وإنّه لمن الغريب أنّني لا أستطيع التوقّف عن التفكير في ذلك رغم مضيَ الأعوام، وكأنّ الزمن يعود بي إلى الوراء».

14

النهر الجليديّ فاتنويوكل، السبت 30 كانون الثاني

عمل جنود قوّات الدلتا من دون كلل على إزاحة الثلج، وحفروا عند جانبي الحطام في آن واحد وأزاحوا أكواماً ضخمة، ومع طلوع الضوء بدأت تتوضّح الطائرة تدريجيّاً، فبرزت المقدّمة حينها بزاوية عشرين درجة، ولكنّ الذنب كان لا يزال مدفوناً في ثلج سميك وكثيف يصعُب التعامل معه، ولم يكن الباب الكائن إلى اليسار خلف صفّ النوافذ قد انكشف بعد، وبالنسبة إلى الهيئة التي كانت عليها، فإنّ هيكل الطائرة بدا سليماً إلى حدّ كبير، ولم يبدُ أنّ الكثير من الثلج قد دخل إليه.

سلّطت مصابيح كشّافة قويّة وهجاً أصفر اللون على الموقع خلال الليل الدامس، ولكن مع طلوع الضوء أُطفئت الأنوار فتصاعد من سطوحها الساخنة بخاراً رقيقاً في الجوّ، ثمّ تجمّع فوق قشرة النهر الجليديّ، حيث نُصبت عدّة خيم بيضاء إلى جانبه، وكانت كلّ واحدة منها تحتوي على فانوس يُشعل ليلاً ونهاراً من أجل الدفء، وكانت خيمة الاتّصالات أكبر هذه الخيم، حيث الكهرباء مؤمّنة فيها بواسطة مولّدات متنقّلة، وكانت المنطقة المحيطة بالمكان ممتلئة ببراميل الوقود والزلّاجات والمركبات المجنزرة إضافة إلى منصّات ناقلة لنقل الحطام.

تقدّم العمل بشكل متسارع، في ظلّ هبوب رياح خفيفة، وحرارة تعادل خمس عشرة درجة مئويّة تحت الصفر، فتوجّه بعض الرجال لتحطيم السطح القاسي باستخدام المعاول، بينما انشغل آخرون بشطر الطائرة إلى نصفين بواسطة مواقد لحام قويّة، ليسهل نقلهما إلى المنصّات الناقلة، ثم يُجرّان إلى حيث كانت الشاحنات تنتظر نقلهما غرباً إلى مطار كيفلافيك. وقف راتوف خارج خيمة الاتّصال مراقباً الشعلة الزرقاء للأوكسي أسيتيلين، ووابل الشرر الذي يتطاير من آلة التقطيع المعدنيّ، وبحسب تقديره كلّ شيء يسير وفق الخطّة، إلّا أنّ ثمّة توقّعات بهبوب عاصفة قويّة، ولكن من المتوقّع أن تمرّ بسرعة.

من حسن الحظّ أنّ الطائرة عثر عليها في الشتاء، فبالرغم من أنّ الطقس يتقلّب بشكل سريع، والأحوال الجوّيّة تكون صعبة وقاسية، ولكنّ تحرّكاتهم محميّة تحت جنح الظلام، حيث تكون الحركة خفيفة في هذه المنطقة خلال هذا الوقت من السنة.

عندما كان راتوف يراقب المكان، توقّف الجنودُ في الجانب البعيد من حطام الطائرة عن الحفر، وتجمّعوا ليحدّقوا إلى شيء لفت نظرهم على الجليد، وسرعان ما ناداه أحدهم، فاتّجه نحوهم، ومرّ من تحت مقدّمة الطائرة متفادياً الارتطام بها، وانضمّ إلى الرجال حيث فاجأه منظر قدم تبرز من الجليد إلى جانب الهيكل، وكانت مغطّاة بحذاء عسكريّ أسود وصل تقريباً إلى الركبة، وسروال رماديّ، فأمر راتوف الرجال بأن يكشفوا الجثّة، وبعدها بقليل أصبحت الجثّة، أو ما تبقى منها ظاهراً أمامهم.

بدا الأمر وكأنّها مدّدت إلى جانب الطائرة بشكل متعمّد، كما بدا واضحاً أنّ بعض الركّاب قد نجوا من حادثة التحطّم، وأنّهم كانوا قادرين على أن يكرموا الذين ماتوا بعد الاصطدام، وبدا الرجل بثياب ضابط ألمانيّ عالي الرتبة، ولكنّ راتوف لم يتعرفّ إلى العلامة المعلّقة على ثيابه، وقد تدلّى

من عنقه صليب حديديّ، وكانت يداه متقاطعتين على صدره، ورأسه مغطّى بقبّعة، وقدمه الأخرى مفقودة، وبدا أنها قد انتزعت من الفخذ، والجرح الكبير الذي يكشف العظم الأبيض ظاهر بوضوح، ولكنّ القدم بحدّ ذاتها لم يُعثر عليها في أيّ مكان، فانحنى راتوف فوق الجثّة ليتفحّص وجهها، ولكنّه وجد القبعة متجمّدة عليه.

أمر الرجال بعد أن وقف مستقيماً بأن يذيبوا الجليد عن الجثّة ويدخلوها إلى إحدى الخيم، وعندها تساءل إلى متى ظلّ الركّاب على قيد الحياة بعد الهبوط الاضطراريّ، فقد حصل الحادث في مثل هذا الوقت من السنة، وراتوف ورجاله ملحفّون بملابس النجاة الخاصّة بالقطب الشماليّ، ومع هذا ينخر البرد عظامهم، كما لديهم أيضاً القناديل، بالإضافة إلى أنّهم مدرّبون على تحمّل البرد، وبالمقابل من غير الممكن أن يكون ركّاب الطائرة مجهّزين لمواجهة هذا الطقس القاسي، ولا بدّ من أنّ الذين نجوا من تحطّم الطائرة تجمّدوا ببطء حتّى الموت، ومن غير المحتمل أن يكون قد استغرق ذلك أكثر من أيّام معدودة.

على بعد خمسة وثلاثين ميلاً وقف ثمانية عناصر من فريق إنقاذ ريكيافيك يحدّقون في الأعماق الزرقاء إلى شرخ متعرّج في الجليد حيث كانوا يسمعون صوت رنين ضعيف لهاتف نقّال.

لقد انطلقوا قبل طلوع الفجر بقليل، وسرعان ما وجدوا آثار الزلّاجتين حيث تغيّر مسارهما على بعد ساعتين من مخيّم الفريق الأساسيّ باتّجاه الغرب نحو حزام عريض من التشقّقات، وقد نجحوا في تحديد إشارة الهاتف النقّال، وكان الباقي سهلاً، عندما بدت الزلّاجتان وكأنّهما انحرفتا إلى داخل التصدّعات بأقصى سرعة، وكما لو أنّ إلياس وجوان لم يكونا قد توقّعا حدوث هذا إلّا بعد فوات الأوان.

نزل أحد أعضاء فريق الإنقاذ إلى أسفل الشرخ عبر حبل حيث كان زميلاه

يستلقيان على عمق ثمانية أمتار، وعندما اقترب منهما تراءت له إصاباتهما البالغة، فبدا واضحاً أنهما ارتطما بشكل متكرّر بجدار الشرخ عندما سقطا، وكانت الزلّاجتان قد سقطتا فوقهما ما جعل التعرّف إليهما غير ممكن تقريباً، بعد أن تحوّل وجهاهما إلى عجينة نيئة بلا ملامح، وعيونهما كانت متوّرمة ومنتفخة بشكل كبير، وآذانهما دامية، وجسداهما ملتويان بشكل غير طبيعيّ، كما لو أنّ كلّ عظامهما قد تكسّرت، فلم يسبق له أن رأى مشهداً فظيعاً كهذا أبداً، فأدار رأسه في الحال وتقيّأ.

بدأ الفريق بالعمل فسحبا الزلّاجتين أوّلاً إلى الأعلى، ثم أنزلوا الحمّالات التي ربطوا إلياس وجوان إليها.

لقد رفعوا الحمّالتين بعناية فائقة لتجنّب ضرب الجثّتين بالجدران الجليديّة، ووضعوهما في الصندوق الخلفيّ لعربة الثلج الخاصّة بالفريق، وفي هذه الأثناء هبّت رياح شماليّة شرقيّة قارسة قاذفة معها الثلج المتناثر الذي يجرح الجلد المكشوف كالشفرة، وسرعان ما غطّت كلّ أثر لهم حول الشرخ.

وقف يوليوس مراقباً العمليّة مطأطئاً رأسه وغير آبه بالبرد، فقد قاد الاستطلاعات مدّة خمس عشرة سنة، وتخلّلتها حوادث وإصابات، ولكن لم يمت أحد تحت إشرافه قطّ، والآن ها هو يخسر فردين من مجموعة يتولّى مسؤوليّتها. لقد أعطاهما الإذن بأن يغادرا المخيّم ليجرّبا قيادة الزلّاجتين الجديدتين، وتوقّع أنّهما قد يتحمّسان، وينسيان الوقت، ويقعان في مأزق، ولكنّ ما حدث تعدّى أسوأ تخيّلاته، ثمّ سمع أحداً يناديه من المركبة، إنّه هايمر أحد المتطوّعين، وطالب طبّ وقد وضع إصبعين على رقبة إلياس، فمرّت اللحظات ثقيلة على يوليوس وهو يحبس أنفاسه.

ثمّ أعلن هايمر: «إنّه ضعيف، ولكن لا يزال هنالك نبض».

«هل هو على قيد الحياة؟».

«تقريباً، ولكنّني أشكّ في أنّه سيبقى طويلاً على قيد الحياة».

«هـل يمكننـا أن نعتنـي بـه هنـا، أم علينا أن نعيده إلى المخيّم ونسـتدعي مروحيّة؟».

«كمـا قلـت، مـن الممكن أن يموت في أيّة دقيقة لذلك لعلّه من الأفضل ألّا نحرّكه، وعلينا أن نفعل ما في وسـعنا، ونتّصل بالمروحيّة، ما أسـرع وقت يمكن أن تصل خلاله مروحيّة إلى هنا؟».

قـال القائـد مشـغّلاً جهـازه اللاسـلكيّ: «يجب ألا تسـتغرق وقتاً طويلاً، ولكنّنـي لا أزال أعتقـد أنّ علينـا أن نخرجـه مـن هنـا قبل أن تشـتدّ العاصفة، فهناك أنباء عن هبوب عاصفة قويّة، وقد تهبّ في أيّ دقيقة، ومن المستحسن أن نكون في المخيّم بدلاً من بقائنا في العراء، هيا لنتحرّك».

أصدر إلياس أنيناً خافتاً، وتحرّكت شفتاه الزرقاوان قليلاً.

سأل يوليوس: «هل يحاول أن يقول شيئاً؟».

انحنى هايمر قرب وجه إلياس الملطّخ بالدماء، وقرّب أذنه من فم الشابّ وبعد مرور هنيهة وقف مجدّداً ونظر إلى يوليوس.

«تارة يفقد وعيه، وتارة أخرى يستعيده».

«هل قال شيئاً؟».

«كان كلامه غير واضح، وأعتقد أنّه قال كريستين».

قال يوليوس: «أجل، أعتقد ذلك».

عندها تذكّر يوليوس كيف طمأنها بأنّ إلياس بخير، وهذا الأمر أشعل في نفسه شرارة تأنيب الضمير.

عندمـا تواصـل مع مروحيّة خفر السـواحل، علم بـأنّ المروحيّة الوحيدة المتوفّرة تجلب صيّاداً مصاباً في تلك الأثناء من سـفينته الواقعة في منتصف الطريق ما بين آيسـلندا، وغرينلاند، وفي الحالات التي لا يسـتطيع فيها خفر السـواحل الوصول إلى الموقع تُطلب المسـاعدة وبشـكل اعتياديّ من قوّات الدفـاع فـي مطـار كيفلافيـك، وكان يوليـوس متأكّـداً مـن أن خفر السـواحل

سيتواصلون مع الأميركيّين، ويطلبون منهم إرسال مروحيّة لتقلّ الشابّين.

تساءل يوليوس وهو يكلّم نفسه حين رجع إلى حافة التصدّع، ونظر إلى أسـفل الشـرخ: «لماذا كانت أخت إلياس تظنّ أنّه ميت؟ وكيف لها أن تعرف قبلنا؟».

وتهيّب من إخبارها بأنّها على حقّ، فلم يكن إلياس قد مات حتّى الآن، ولكن من غير المرجّح أن ينجو، فإصاباته خطيرة، ومرّت عليه ساعات ممدّداً على الثلج، ومن المؤكّد أنّ حرارته قد انخفضت كثيراً، ولا ريب في أنّ أمل النجـاة الوحيـد متوقّف على تحقيـق أمنية يوليوس الذي تفحّص الأفق، وهي وصول المروحيّة قبل أن تبدأ العاصفة.

15

السفارة الأميركيّة، وسط ريكيافيك، السبت 30 كانون الثاني، الساعة الواحدة بعد منتصف الليل بتوقيت غرينيتش

تعمل مونيكا غارسيا مديرة مفوضيّة فولبرايت في آيسلندا، وهي عبارة عن برنامج تبادل علميّ يقع في سفارة الولايات المتّحدة الأميركية، وهي تملك شقّتها الخاصّة، وكان يزعجها أن تتلقّى الاتّصالات الهاتفيّة عند منتصف الليل، فتوقظها من نومها وهي لا تزال ناعسة، وقد أملت بعد هذا اليوم الاستثنائيّ في السفارة أن تحصل على ليلة هانئة، ولكنّ الرنين المتواصل استمرّ حتّى استيقظت أخيراً بعد تكرار المحاولة ثلاث مرّات، وما إن رفعت السمّاعة حتّى قال ستيف: «مونيكا؟»

امتعضت، وهي تتفحّص الساعة عبر منبّه الراديو، وقالت: «إنّها الواحدة بعد منتصف الليل».

«معكِ ستيف، أنا آسف، ولكنّها حالة طارئة».

«ستيف؟ لماذا تهاتفني عند منتصف الليل؟».

«أعتقد أنّ بعض الرجال الذين يعملون في السفارة يريدون قتلي».

«لماذا يريد أحدهم أن يقتلك يا ستيف، ما الذي كنت تدخّنه؟»

ثم تحسّست مفتاح إضاءة المصباح وشغّلته، وقد أوشكت أن توقع كأساً

مـن الميـاه، وهـي تزيـح مجموعة من الكتب تعلوها نسـخة مفتوحة من رواية الحرب، والسلم.

«إنّهما رجلان يبلغ طولهما ستّة أقدام تقريباً، أشـقران ويرتديان ملابس مدنيّة أنيقة، وهما يسـعيان وراء صديقتي أيضاً، فقد أخبرتك بشـأن كريسـتين، إنّها تعرف معلومات تتعلّق بالتحرّكات العسكريّة على فاتنويوكل، وما يحدث هناك، وهذا الأمر خطير جدّاً بالنسبة إليهم لدرجة أنّهم أرسلوا قاتلين مأجورين مباشرة إلى منزلها، وقد لجأت إلى القاعدة وطلبت مساعدتي، فظهر الرجلان في منزلي بعد ذلك بقليل، ولكنّنا تمكّنا من الهرب منهما».

«لقد هربت إلى القاعدة؟ إنّني لا أفهم شيئاً ممّا تقوله يا ستيف».

جلست في سريرها، وارتعشت من البرد إذ كانت الغرفة شديدة البرودة، لأنّ جهاز التدفئة قد تعطّل مجدّداً.

«أعلم أنّ الأمر معقّد، وسـوف أشـرح لك لاحقاً، ولكن عليك أن تثقي بي».

«أين أنتما الآن؟».

«أنـا لا أزال فـي القاعـدة، ولكـن مـا الذي يجري في السـفارة؟ ما الذي يجري على النهر الجليديّ؟ هل تعلمين شيئاً؟»

«انقلب كلّ شيء رأساً على عقب، وهذا كلّ ما أستطيع قوله لك، وليس لديّ أدنى فكرة عن السبب».

«ماذا يعني رأساً على عقب؟».

«لقـد تولّـت الاسـتخبارات العسـكريّة السـيطرة بطلـب مباشـر من وزير الدفـاع، ومُنـح السـفير إجـازة مفاجئـة، فتحكّم أفراد العمليّـات الخاصّة بكلّ شـيء، وحطّت ثلاث سَـرايا من القوّات الخاصّة في كيفلافيك منذ أكثر من يـوم، وكمـا يبـدو أنّ فرقـاً خاصّة توجّهت إلـى فاتنويوكل، عدا ذلك لا أعرف شيئاً، فقد بدا الأمر وكأنّه انقلاب عسكريّ، وعلينا ألّا نعترض طريقهم، وأن

نُبقي أفواهنا مغلقة، كما أحضروا معهم شحنة من الحواسيب الجديدة وليس لـديّ أدنـى فكـرة عـن الغرض منها، وأقامـوا مركز تحكّم ومراقبـة، ولم يبلّغ طاقم السفارة ما يجري، ولكنّهم بحسب ما ذكروه سيمكثون بضعة أيّام فقط».

«هل صادفت رجلاً اسمه راتوف؟».

«لا لم أسمع باسمه قطّ، من هو؟».

«إنّه اسم سمعته كريستين، وربما يكون هو المسؤول عمّا يجري، مونيكا، علـيّ إنّهـا المكالمـة، فهـل هناك ما يمكنك أن تقومي به من أجل مسـاعدتي؟ أيمكنك فعل ذلك من أجلي؟»

«سـأحاول أن أسـتنبط شـيئاً يمكن أن يسـاعدك، وإذا اسـتولت القوّات الخاصّـة علـى السـفارة فإنّهـم علـى الأرجـح يديـرون القاعدة أيضـاً، لذلك سأكون حريصة جدّاً على ألّا أطلب المساعدة من أحدٍ هناك، هل تتذكّر الحانة الإيرلنديّة التي تقع في وسط ريكيافيك؟».

«أجل».

«اتّصل بها عند السـاعة الرابعة اليوم أو تعالَ إليها بنفسـك، وسـأرى ما الذي يمكنني أن أفعله لكما في الوقت الحالي».

«شكراً مونيكا».

«بالله عليك ستيف كن حذراً».

أنهى المكالمة ونظر إلى كريسـتين التي تراقب من نافذة مكتبه في أحد مبانـي الجيـش الإداريّـة، وقد انعكس جانب وجهها على الزجاج، ثم ما لبثت أن اتّصلـت بالمراقبـة الجوّيّـة في كيفلافيك مدّعية أنّها صحفيّة من ريكيافيك، وسـألت إذا تحطّمـت طائـرة حديثـاً على النهـر الجليديّ، لكنّهـا أُبلغت عدم حصـول أيّ تحطّـم طائـرة منـذ عقود بعـد حادثة لوفتلايدر الشـهيرة، وعندما سُئلت عن الجريدة التي تعمل لديها أنهت المكالمة فوراً.

تذكّرت كريستين الحادثة بشكل غير واضح تماماً وقالت لستيف: «طائرة

لوفتلايـدر، إنّهـا تعـود إلـى شـركة طيران آيسـلنديّة قديمة، وقـد أُجبرت على الهبوط الاضطراريّ على النهر الجليديّ، ونجا كلّ ركّابها».

سألها ستيف: «هل هذه هي الطائرة التي رآها إلياس إذاً؟».

«ليـس لـديّ أدنـى فكـرة، فلا أعرف ماذا حصـل لحطامها، على أيّة حال مـا الـذي يريـده الجيـش الأميركيّ من طائرة لوفتلايـدر؟ لقد مضى على هذه الحادثة أربعون عاماً تقريباً، يا له من أمر غير منطقيّ!».

مكثا في المكتب مدّة عشـر دقائق، وبدأت كريسـتين تشـعر بالقلق، فعلى الرغم من أنّهما ركنا سيّارة ستيف على بعد مئات الياردات من المبنى، وضمن مركبات أخرى خارج بناء سـكنيّ ضخم، فإنّ السـيّارة لن تظلّ مخفيّة طويلاً إذا عـزّز الرجـلان بحثهمـا، وكان الحضور إلى المكتب فكرة سـتيف الأولى، عندما خرج مسرعاً من المبنى تاركاً ريبلي وبيتمن خلفه في مرآب السيّارات، ولكنّه لم يأتِ إليه للاختباء، حيث يشـكّل هدفاً بديهيّاً للبحث فيه عنهما، بل لأنّه يحتوي على بعض سجلّات قوّات الدفاع، وقد أراد الوصول إليها.

جرى ستيف وكريستين مسرعين في رواق الدَّور الأرضيّ، ونزلا إلى القبو الذي كانت تُحفظ فيه السـجلّات، فأدخل سـتيف رمزاً لتجنّب حدوث إنذار، وأدار مفتاحـاً فـي البـاب الفولاذيّ الثقيـل وفتحه، وكان في الداخل باب آخر مغطّى بشـبك سـلكيّ ينفتح على إحدى دوائر المحفوظات، وغرفة التخزين المقسّـمة إلى عدّة مقصورات بواسـطة شـبك سلكيّ صلب يشكّل سلسلة من الأقفـاص، وكلّ منهـا مملـوء بصفـوف طويلة ممتدّة على طول المقصورة من خزائن محشوّة بالملفّات إلى جانب رفوف وصناديق مليئة بها.

همس ستيف إليها قائلاً: «مرحباً بك في ذاكرة أميركا».

سـألت كريسـتين وهـي تحـدّق باسـتياء إلـى صفـوف الخزائـن الممتدّة أمامها: «كيف يفترض بنا أن نجد أيّ شيء في هذه المتاهة؟ عمّ تبحث بكلّ الأحوال؟».

قال ستيف: «ربما يوجد معلومات بينها عن العمليّات التي تجري على فاتنويوكل».

كان على دراية تامّة بالسجلّات إذ عمل في هذا المكان بشكل مؤقّت ذات صيف، وعرف أين يجد السجلّات المتعلّقة برحلات الاستطلاع الجوّيّة فوق آيسلندا خلال الخمسين سنة المنصرمة، واستنتج أنّه لو سقطت طائرة على النهر الجليديّ، فهي على الأرجح تابعة للقوّات الأميركيّة الجويّة أو البحريّة.

كان سعيداً جدّاً لأنّ كريستين التجأت إليه في وقت ضيقها لدرجة أنّه لم يخطر له أن يرفض طلبها، كما أنّه لم يعد يشكّك في الخطر الذي يحوم حولها، فصمّم على أن يقف إلى جانبها، ويساعدها بأيّة طريقة ممكنة، إضافة إلى تحفّز غرائزه الصحفيّة، وتزايد فضوله حول القضية.

سارا مسرعين بمحاذاة الرفوف، وتفحّصا ما كُتب على الصناديق وعلى الملفّات في داخلها، وبعد أن سارا مسافة لا بأس بها باتّجاه آخر القاعة توقّف ستيف، وتناول صندوقاً فنظر إلى داخله ثم أعاده، وتابع بحثه، وقد كرّر هذا الأمر عدّة مرّات، يتناول الصندوق تلو الآخر، فيقلب ما فيه من الملفّات ثم يعيده.

كان الأمر ميؤوساً منه، ولم يكن لديه أدنى فكرة من أين سيبدأ في بحر المعلومات هذا، وسرعان ما عادا إلى مكتبه خاليي الوفاض.

وقف عدّة دقائق إلى جانب النافذة محدّقاً إلى الخارج، وهو يعضّ على شفتيه بانزعاج، ثم أعلن أخيراً: «إنّ صديقي يتمتّع بالقدرة على ولوج الملفّات بصورة أفضل، ويجب أن نستشيره في هذه المسألة».

قالت كريستين وهما يغادران المبنى: «أنا آسفة لأنّني أقحمتك في هذه القضيّة، ولكنّني لا أعرف أحداً غيرك يمكنني اللجوء إليه».

أجابها ستيف، وعيناه ترتعشان من شدّة التوتّر: «لا عليك، أنا متحمّس مثلك لاكتشاف ما الذي يجري هناك».

قرّرا أن يتركا السيّارة، ويسيرا إلى وجهتهما بخطوات حذرة، إذ يعرف ستيف القاعدة جيّداً، واقتصر طريقهما على الممرّات الخلفيّة، وعبرا الحدائق العامّة خلسة مندفعين بسرعة عبر الشوارع المضيئة، حريصين على أن يظلّا متخفّيين، ولم يكن لدى كريستين أدنى فكرة عن وجهتهما، فالقاعدة بالنسبة إليها كبلد أجنبيّ غريب، كما هي بالنسبة إلى معظم الآيسلنديّين، والمرّة الوحيدة التي ذهبت فيها إلى ميدنيشيدي كانت مع والديها إلى المطار الدوليّ قبل أن يُبنى المطار الجديد، فتعرّفت إلى سينما آندروز، ولمحت في الأفق بناء المطار القديم، واستراحة العمّال، فتذكّرت زميلين قديمين لها في المدرسة، اعتادا على القدوم إلى المكان للعمل عند متعهّدين آيسلنديّين في القاعدة، والعودة إلى الديار محمّلين بالسجائر والفودكا التي يشتريانها بسعر بخس من الجنود الأميركيّين المحسودين من أصدقائهم.

تجرّأ ستيف، وهما يشقّان طريقهما عبر الثلج خلف إحدى البنايات قائلاً: «لم أتوقّع أن أراك مجدّداً».

قالت كريستين: «أعلم هذا».

«لقد عزمت دوماً على أن أتكلّم معك بهذا الخصوص، ولكن بطريقة ما...»

«لقد فكّرت في هذا أيضاً، إنّه خطئي».

«لا، لم يكن كذلك، لم يكن خطأ أحد، لماذا يجب دوماً أن نلقي اللوم على أحد؟».

عندما لم تجبه كريستين تجاهل الموضوع، ثمّ توقّف قرب مبنى ليس مختلفاً عن مبناه، ولكن في منطقة مختلفة تماماً عن القاعدة، وقد بدوا متطابقين بالنسبة إلى كريستين، ثمّ لاحظا حركة خفيفة في المنطقة على الرغم من أنّهما شاهدا دوريّتين للشرطة العسكريّة، حينها قال لها أن تنتظر، وأنّه لن يغيب طويلاً، فاختبأت قرب المبنى محاولة ألّا تلفت الأنظار إليها، وشدّت

قبعتها بإحكام لتصدّ الهواء البارد، وهي تحرّك قدميها، وتنفخ في يديها، وبعد خمس عشرة دقيقة، عاد ستيف ومعه رجل قدّمه إليها باسم آرنولد، وهو رجل سمين بعمر ستيف، ذو راحتين متعرّقتين، وعينين ماكرتين، ولديه لثغة، فركبوا سيّارته وانطلقوا.

قال ستيف مبتسماً: «آرنولد أمين مكتبة، وخبير بالوصول إلى السجلّات، ويدين لي بمعروف».

لم تعرف كريستين ما الذي عناه، ولم يعلّق آرنولد على ذلك بل عبس وجهه فقط وهو ينظر إلى ستيف.

توقّف آرنولد عند مبنى إداريّ مكوّن من طابقين لم يكن بعيداً عن مبنى المطار القديم، وبعد أن أدخلهما عبر الباب الخلفيّ، قادهما مباشرة إلى أرشيف القبو الذي كان أكبر بكثير من الذي زاراه سابقاً، وهو يشغل ثلاثة طوابق.

سأل آرنولد بحزم: «ما هي السنوات التي نبحث عنها؟».

أجاب ستيف: «أعتقد عن رحلات جوّيّة فوق فاتنويوكل منذ بداية الحرب، ولكنّني لا أعرف سببها، فهي رحلات مراقبة روتينيّة أو رحلات استطلاع، وصور جوّيّة، وكما قلت لا شيء جسيم أو خطير، ولا شيء يهدّد أمن الولايات المتّحدة الأميركيّة القوميّ».

قال آرنولد ساخراً، من دون أن يخفي انزعاجه: «رحلات مراقبة وصور جوّيّة؟ أنت لا تعلم حقيقة مبتغاك»

«وعمليّات هبوط اضطراريّة أيضاً، وحوادث تحطّم طائرات على النهر الجليديّ، أو أيّ شيء يتعلّق بهذا الخصوص، وأسماء طيّارين من الممكن أنّهم يعلمون بشأن رحلات جوّيّة فوق النهر الجليديّ، أو أيّ شيء من هذا القبيل».

نزل آرنولد إلى الطابق الثاني، وهو يهزّ برأسه، فتبعاه وصوت خطاهم

يرتدّ إلى الجدران الأمر الذي أزعج كريستين، فمرّ قرب صفّ من الرفوف، فتباطأ في مشيه ثم توقّف، وتراجع عنه ثم نزل إلى الطابق السفليّ، وهو يخبط الدرج الحديديّ خبطاً، ثم مشى بمحاذاة أحد الصفوف، وتناول صندوق ملفّات، ففتحه ثم أغلقه مجدّداً، وأخيراً وصلوا إلى خزانة ملفّات كبيرة، ففتح أحد الجوارير، وقال لستيف:

«ثمّة شيء هنا، تسجيلات عن رحلات مراقبة تصويريّة عام 1965 من قبل طائرات تجّسس يو2- القديمة قبل أن يستعيضوا عنها بالأقمار الصناعيّة مباشرة».

عندئذٍ تراجع آرنولد كما لو أنّه يتجنّب الانخراط في هذا الأمر غير القانونيّ أكثر ممّا هو عليه بالفعل، ثم أخبرهما بأنّه سينتظرهما في الأعلى عند المدخل، واختفى بينما أقعى ستيف في جلوسه.

«لنرَ... ماذا لدينا هنا؟ لا شيء، فقط هراء عن رحلات مراقبة قبالة الساحل الشماليّ، لا شيء عن فاتنويوكل، لا شيء عن تصوير جوّيّ»، وتفحّص المزيد من الملفّات.

تنهّد ستيف قائلاً: «تقارير عن الصيانة، ومصطلحات تقنيّة، انتظري لحظة، يوجد هنا أسماء بعض الطيّارين»، ثم أخرج قلماً وورقة، وبدأ بتدوينها.

علّقت كريستين قائلة: «إنّ آرنولد مضحك».

قال ستيف بشكل مباشر: «إنّه يهرّب مخدّرات إلى القاعدة أكثر من أيّ إنسان أعرفه».

«ظننت أنّه أمين مكتبة؟».

مكتبة
t.me/t_pdf

«إنّه ذئب متخفٍّ في ثياب حمل».

«ما الذي قلته له؟».

«كذبة حول كونك -ماذا يطلقون عليها؟ - ابنة غير شرعيّة لجنديّ أميركيّ؟ وإنّك تحاولين العثور على والدك».

«الذي كان طيّاراً؟».

«تماماً».

«ولمَ يستغرب حضورنا في ساعة متأخّرة؟».

تمتم ستيف من دون أن يجيبها: «لا بدّ من أنّ كلّ هؤلاء الطيّارين ميّتون». لا يزال منشغلاً بتسجيل أسماء الطيّارين.

«ماذا تفيد التقارير؟».

«لا شيء يهمّنا، فقط توصيف رحلات المراقبة الجوّيّة الروتينية، ومعلومات محدودة جدّاً، وبشكل بديهيّ إنّهم لا يحتفظون بشيء مهمّ هنا».

«لا شيء عن فاتنويوكل؟ أو صور؟».

«بحسب ما أرى لا شيء».

«هل يمكن لآرنولد أن يعرف شيئاً؟».

«لا مشكلة إذا سألناه، سأتحقّق من معلوماته، وإذا كان لدينا أيّ معلومة عن هؤلاء الطيّارين فسنحصل عليها». وأنهى نقل الأسماء.

كان آرنولد يحوم حول الباب عندما عادا إلى الأعلى.

طلب ستيف من كريستين أن تنتظر ريثما يتكلّم مع صديقه على انفراد، فبدا آرنولد متوتّراً جدّاً، كما بدا أنّهما يتجادلان بحدّة، ولكنّه انتهى باتّفاق، وحين عاد ستيف إليها، قال:

«يقول إنّه لا يعلم شيئاً عن فاتنويوكل، وأنا أصدّقه، وسيعطينا خمس دقائق أخرى لنبحث عن أسماء هؤلاء الطيّارين عبر حاسوبه الخاصّ».

قادهما آرنولد عبر رواق طويل، وهو يشتم كلّ الوقت ثم فتح باب مكتبه، ومشى بحذر إلى حاسوبه حتّى لا يتعثّر بشيء، ثم شغّله، ومدّ يده ليشعل مصباح مكتبه، ولكنّ ستيف أوقفه إذ إنّ الوهج الأزرق المنبعث من شاشة الحاسوب كافٍ في الغرفة. وبعد قليل فتح ستيف سجلّات التوظيف الخاصّة بالجيش، وشرع في البحث عن كلّ اسم على حدة.

قبعت كريستين قرب النافذة لخوفها من أن يجذب وهج الحاسوب أيّ انتباه، وفكّرت في إلياس وفي الذي رآه على النهر الجليديّ.

قال ستيف: «إنّهم إمّا ميّتون، أو عادوا إلى الولايات المتّحدة الأميركيّة منذ زمن طويل»، ثم تنهّد، وكتب اسماً أخيراً،

وفي هذه الأثناء اختفى آرنولد.

وأضاف: «مهلاً، ثمّة شيء هنا، مايكل ثومبسون، متقاعد»، وأضاف وهو ينهض عن كرسيّه مسرعاً: «لا يزال مقيماً في القاعدة، إنّه طيّار، ولد في العام 1921 ويقيم هنا في ميدنيشيدي منذ ستينيّات القرن العشرين، ويعيش في الجوار، هيا بنا، علينا أن نوقظ ذلك المسكين اللعين، فربما كان لديه بعض الأجوبة».

غادرا المكان عبر الرواق الطويل، ولكنّهما لم يستطيعا إيجاد آرنولد في أيّ مكان، فقال ستيف لكريستين إنهّ هرب إلى بيته على الأغلب.

لم يتوقّف هطول الثلج، وهما يشقّان طريقهما عبر الظلام إلى أقدم قسم في المنطقة العسكريّة، فهذه المنطقة صغيرة جدّاً بالمقارنة مع المناطق العسكريّة الأخرى التي بنتها الولايات المتّحدة الأميركيّة، وقد شملت قوّات دفاع حلف الناتو ما بين أربعة إلى خمسة آلاف جنديّ على الأكثر، ولكنّ أعدادهم تناقصت كثيراً في نهاية الحرب الباردة. وفي تلك الأثناء، كانت معظم المباني السكنيّة خالية من السكّان ومهجورة تماماً، وعلى الأخصّ في الحيّ الأقدم، الذي يعدّ بمثابة مخلّفات الحرب المنسيّة، ولم يستغرقا وقتاً طويلاً في الوصول إلى هناك، على الرغم من غوصهما في الثلج الذي يصل إلى الركب على الممرّات التي يقلّ المرور عبرها، ولم يتكلّما وهما في طريقهما إلى وجهتهما باستثناء تعبير ستيف عن تفاجئه بأنّ مايكل ثومبسون لا يزال يعيش في القاعدة على الرغم من أنّ معظم الجنود الذين يرسلون إلى آيسلندا لا يسعهم انتظار إحالتهم إلى المقرّ التالي بعد انتهاء مدّة خدمتهم التي يبلغ أقصاها ثلاث سنوات، وعادة يصلّون بشدّة ليُنقلوا إلى مقرّ استوائيّ.

16

قاعدة كيفلافيك، السبت 30 كانون الثاني، الساعة الثالثة والنصف بتوقيت غرينيتش

كان اسم ثومبسون ظاهراً على الإنترفون، فرنّ ستيف الجرس وانتظر ردّه. لقد عاش الطيّار المتقاعد في مبنى سكنيّ يشبه مبنى ستيف، ولكنّ حالته أسوأ منه، إذ لم تجرَ عليه أيّ عمليّات صيانة منذ سنوات، فالطلاء متقشّر، والمصباح فوق الباب الأماميّ محطّم، وبعض شققه مسكونة فقط.

رنّ ستيف الجرس مجدّداً، وانتظرا وهما يتفحّصان المكان حولهما بارتياب، ثمّ رنّه مرّة ثالثة كابساً على زرّه مدّة طويلة إلى أن أبعدت كريستين يده، وبعد ذلك بقليل سمعا حشرجة عبر الإنترفون.

وقال صوت حادّ بتردّد: «مرحباً؟».

سأله ستيف: «هل معي مايكل ثومبسون؟».

أجابه الصوت: «نعم».

قال ستيف محاولاً أن يتكلّم معه بهدوء قدر المستطاع: «أنا آسف لأنّني أيقظتك، ولكنّ الأمر طارئ، هل يمكنك السماح لي بالدخول؟».

«ماذا؟».

«هل يمكنك السماح لي بالدخول؟».

«ما الذي يجري؟».

«هل لي أن أدخل؟».

«ما الذي تريده بالضبط، أنا لا أفهم».

«إنّني أتحدّث عن فاتنويوكل».

«ماذا؟».

قال ستيف: «فاتنويوكل، أودّ أن أسألك عن رحلات جوّيّة فوق فاتنويوكل، وأنا أعرف أنّ هذا غير متوقّع، ويفوق...».

«رحلات جوّيّة؟».

«هناك أرواح معرّضة للخطر يا رجل، رجاء افتح الباب».

بعد وقفة قصيرة، ومزيد من الحشرجة عبر الإنترفون فتح القفل، وقاد ستيف كريستين أمامه، ولم يشغّلا المصباح في الردهة بل صعدا مسرعين على الدرج وهما يمسكان بالدرابزين إلى أن وصلا إلى الدور الأوّل حيث يسكن ثومبسون.

طرقا على بابه، فظهر مايكل أمامهما وسط ضوء المنزل الخافت محدّقاً إليهما باستغراب، وهو ينتعل خفّين، ويرتدي رداء سميكاً، وقد برزت ساقاه النحيلتان والبيضاوان من تحته، وكان نحيلاً جدّاً وشارباه يشبهان شاربي كلارك غيبل، وبشرة وجهه بيضاء اللون وكأنّه لم يتعرّض لأشعّة الشمس منذ زمن طويل، وبالكاد تظهر الحياة على ملامح وجهه الشاحب.

علّق مايكل، وهو يرشدهما إلى غرفة الجلوس: «لا بدّ من أنّ الأمر خطير لدرجة أن تتطفّلا عليّ هكذا في منتصف الليل».

جلسا على أريكة صغيرة، أمّا ثومبسون فجلس بمواجهتهما ناظراً إليهما وعلامات الريبة جليّة على وجهه.

بدأت كريستين كلامها قائلة: «اتّصل بي أخي مبكراً هذا المساء»، وصمتت هنيهة متنهّدة، وتابعت: «إنّه في رحلة تدريب في فاتنويوكل وقد

شاهد طائرة وبعض الجنود، وبعد ذلك انقطع الاتّصال، ولم أسمع عنه شيئاً منذ ذلك الحين، وبعد ذلك بوقت قصير اقتحم أميركيّان شقّتي، وحاولا أن يقتلاني، ولكنّ الحظّ حالفني وتمكّنت من الفرار، فالتجأت إلى ستيف، لأنّني ظننت أنّه لو كان هناك بالفعل أيّ جنود على النهر الجليديّ، فعلى الأرجح أنّهم أتوا من هذه القاعدة».

«هل تقولين إنّهما حاولا أن يقتلاك؟».

«هذا صحيح».

«ما الذي تتكلّمين عنه؟ ما الذي تسعيان إليه بعد دخولكما منزلي وتلفيقكما قصّة كهذه؟ والأهمّ من كلّ هذا، ما علاقتي بهذه القضيّة؟»

«أنت طيّار، وتمكث هنا منذ زمن طويل، أتعرف شيئاً عن طائرة تحطّمت على فاتنويوكل؟».

أجاب العجوز بغضب: «ليس لديّ أدنى فكرة عمّا تقولانه، اذهبا الآن رجاء قبل أن أتّصل بالشرطة».

قال ستيف: «انتظر، أنا أعلم بأنّنا نبدو مختلّين، ولكنّنا يائسان، وهذه ليست خدعة، ونحن لسنا مجنونين، ولا نقصد أن نكون غير لائقين، إن لم تستطع مساعدتنا فسنذهب مباشرة، ولكن إن استطعت أن تخبرنا بأيّ شيء يمكنه أن يساعدنا فسنكون ممتنّين لك».

قالت كريستين: «شاهد أخي شيئاً لم يكن من المفترض أن يراه، والجنود الذين من المحتمل أن يكونوا قد قدموا من القاعدة، يعتقدون أنّه أخبرني بتفاصيل ما رآه أكثر ممّا قام به بالفعل، والآن هم يلاحقوننا معاً، وقد خطرت لستيف فكرة، وهي إن كان هناك طائرة على النهر الجليديّ، فإنّ طياراً مثلك يمكنه أن يعلم بشأنها».

سأل ثومبسون: «ولكن من هما اللذان لا تنفكّين تتحدّثين عنهما؟».

قال ستيف: «نحن لا نعرف من هما حتّى الآن، ولا من أرسلهما».

أضافت كريستين: «ولكنّنا سمعنا أنّ الاستخبارات السرّية حطّت هنا في كيفلافيك منذ فترة قصيرة، وعناصرها في طريقهم إلى فاتنويوكل».

اخترق ثومبسون الصمت المخيّم للحظات ثم سألها مجدّداً: «كانا سيقتلانك؟».

حدّقا إليه من دون أن يتكلّما.

أخيراً، قال ثومبسون باستسلام: «في العادة تكثر الشائعات، ولم نتأكّد تماماً مَن الذي يبحثون عنه، لقد اعتقدنا أنّها مجرّد طائرة، وأنّها تحمل بضائع خطيرة للغاية، لذا فقد نظّموا رحلات مراقبة جوّيّة منتظمة فوق البلاد والبحر شمالاً، وكنّا نحلّق مرّة كلّ شهر فوق النهر الجليديّ ولا سيّما قسمه الجنوبيّ الشرقيّ، ونصوّر سطح الجليد، وقد نظّم قائدنا ليو ستيلر هذه الرحلات، أمّا أنا فلم أشاهد شيئاً بنفسي، وبين الحين والآخر كان يراودهم الشكّ في أنّهم قد رأوا شيئاً يستحقّ إلقاء نظرة عليه عن كثب».

ردّد ستيف: «ليو ستيلر؟».

«رجل طيّب، قتل في حادث مروحيّة في أثناء عمله في القاعدة، وانتقلت زوجته إلى ريكيافيك بعد موته، واسمها سارة شتاينكامب».

سأله ستيف: «من كان يحلّل الصور التي تلتقطونها؟».

«أعتقد أنّها كانت ترسل إلى قاعدة الاستخبارات العسكريّة في واشنطن، ولا أعرف الكثير بخواتيم الأمور، وكلّ ما أعرفه أنّ كثيراً من الشائعات كانت تنتشر في الأنحاء، حيث إنّهم استمرّوا بإقامة الرحلات من وقت إلى آخر، وقد أعلن ليو عن شتّى النظريّات التي تشير إلى مؤامرة، فلم يتمكّن من ضبط لسانه، وعدم البوح بما لا يجب أن يعلنه، وأنا آسف بشأن أخيك، ونظراً إلى طريقة تصرّفهم في الماضي، أعتقد أنّه معرّض لخطر جسيم».

«إذاً ما هذه الطائرة؟».

«لا أعرف».

«لماذا هي مهمّة جدّاً؟».

«لا أعرف أيضاً».

سألت كريستين: «ولكن في رأيك ما الذي تحتوي عليه هذه الطائرة؟ وما الذي كنتم تفكّرون فيه بصفتكم طيّارين حول هذه الطائرة في الماضي؟».

بدلاً من أن يجيبها وقف ثومبسون ببطء، واقترح أن يصنع بعض القهوة، وهو يقول لهما إنّهما يبدوان متجمّدين، وإنّه لا يستطيع الانطلاق في الصباح إلّا إذا كان قد احتسى قهوته.

صحّح كلامه قائلاً: «ليس وكأنّ الصباح قد حلّ، ولكنّه على وشك الحلول، ولن أخلد إلى النوم بعد ليلة صاخبة كهذه».

وبينما كان يتحرّك في المطبخ الذي ينفتح على غرفة الجلوس، أومأت كريستين إلى ستيف بشكل ثائر.

همست إليه فجأة: «لا نستطيع الاكتفاء بالجلوس واحتساء القهوة التافهة، بينما هو يغوص في بحر الذكريات».

قال: «إلياس في الخارج الآن»، وأشار إليها أن تتمهّل وتسترخي، وأن تترك العجوز يفعل ما يريده.

قال له ستيف بينما لا يزال في المطبخ: «كنت أفكّر، إن لم يكن من الفظاظة، في أن أسألك، ما سبب بقائك هنا؟ توقّعت أن تكون قد عدت إلى منزلك في الولايات المتّحدة منذ زمن بعيد، فأيّ شخص آخر سيترك هذا المكان عند أوّل فرصة تتاح له، أليس هناك نوع من الإجراءات تتعلّق بهذا الخصوص؟».

عاد ثومبسون حاملاً ثلاثة أكواب وسأل: «هل ترغبون في السكر أم في الحليب؟».

أدارت كريستين عينيها بيأس، وهزّ ستيف برأسه.

نظر ثومبسون إلى ستيف وقال: «لا تكون القهوة لذيذة إلّا إذا كانت مرّة

وثقيلـة، ولا أسـتغرب سـؤالك، فقـد أتيت إلى هذه الجزيـرة الصغيرة الغريبة عـام 1955، بعـد أن حلّقـت فتـرة بالمروحيّـات فـي كوريـا، وقد أُرسـلت إلى هنـا بعـد انتهـاء الحـرب، هذا إذا كانت قد انتهت حقّاً، كما خدمت سـابقاً في ألمانيا والفليبّين، وأستطيع أن أقول لك إنّ المجيء إلى أقصى الشمال حيث المناخ الشديد البرودة، والجوّ المعتم طوال نصف العام، كان صدمة حقيقيّة، بالإضافة إلى أنّه ليس هناك ما يمكن فعله في هذا المكان الموحش، كما أنّ المواطنين يحتقروننا، ومع ذلك لا أزال هنا».

سـألته كريسـتين: «لماذا؟»، وأضافت قائلة: «كما أنّني أشـكّ في أنّ كلّ الناس يحتقرون الأميركيّين».

«أنتم الأيسلنديّون لديكم طباع غير ثابتة، وتقطعون بسهولة كلّ العلاقات، وتتصرّفون كما لو أنّ الجيش لم يقدّم خدمات لكم، وبعد ذلك تقولون إنّكم لا تسـتطيعون تدبّـر الأمـور مـن دونـه، إنّنـي لا أفهمكم، لقد حصّلتـم أرباحاً كثيـرة منّـا، فقـد ضخّينا الملايّين لتحسـين اقتصادكم، علـى مدى عقود، ومع ذلـك تتصرّفـون كمـا لو أنّنا لـم نؤثّـر في حياتكم. حقّاً أنتم أمّة صغيرة، وأفهم أنّكـم تريـدون حمايـة اسـتقلالكم، وقـد عبّرتم عن ذلك من خـلال تمرّدكم، فوقفتم خارج بوّابات القاعدة ورفعتم اللافتات، وأطلقتم الشعارات، أمّا الآن فالحرب الباردة انتهت، والعمليّات العسكرية قلّت، وفجأة سكتت الأصوات، وأصبح الجميع يريدون الإبقاء على القاعدة، ومنذ زمن طويل كنتم لا تريدون أن يربطكـم بهـا شـيء، ونحـن الذيـن نعيـش مكرهين على هـذه الجزيرة في ميدنيشيدي».

سألته كريستين: «إذا كان الوضع سيّئاً إلى هذه الدرجة، فلماذا لم تغادر؟».

فجأة قال ثومبسـون باللغة الأيسـلنديّة: «بسـبب امرأة»، ذهلت كريسـتين لدرجة أنّها سكبت القهوة الحارقة التي كانت تحتسيها على الأرض.

توقّفت سيّارة فورد اكسبلورر بيضاء أمام مبنى الإدارة حيث يعمل ستيف،

وفُتح باباها، وترجّل منها ريبلي وبيتمن فوجدا سيّارة ستيف مركونة بين السيّارات، وفي الحال تقفّيا الأثر الذي قادهما إلى المبنى بمرافقة الشرطة العسكريّة وعدد من الجنود في سيّارة جيب، وبالاشتراك مع الأدميرال نظّم ريبلي وبيتمن عمليّة ملاحقتهما، فكانت فرق البحث تتجوّل في القاعدة، فتوقف السير، وتقيم الحواجز، وتفتّش المباني لا سيّما مستودعات الطيران والأبنية السكنيّة، وكذلك جمعت معلومات عن أصدقاء ستيف وزملائه الذين يرجّح أنّه لجأ إليهم في القاعدة، وتوجّه ريبلي وبيتمن إلى مدخل مبنى المكتب، وحاولا فتح الباب فكان مقفلاً، فجالا حول المبنى وتوجّها إلى الباب الخلفيّ، فقال ريبلي: «ها هما هنا»، فشاهدا خطّين متطابقين في الممرّ الثلجيّ مؤدّيين إلى الخارج، وقد ظهرا على الثلج الحديث السقوط، وهما يتّجهان إلى أقدم حيّ سكنيّ، فسأل بيتمن: «ماذا قال؟!»، ثمّ توقّفا عن تقفّي الأثر سيراً على الأقدام.

«اسمها مونيكا غارسيا، وتعمل لدى مفوضيّة فولبرايت».

تكسّر الثلج تحت الأقدام، وقال ريبلي: «نحتاج كلاباً».

وضعت كريستين كوب قهوتها على الطاولة، وحدّقت إلى الطيّار العجوز بتعجّب، ولم يفهم ستيف شيئاً من حديثهما بعد أن تحوّل إلى الآيسلنديّة، وكمعظم الأميركيّين في آيسلندا لم يتعرّف إلى أحد من المواطنين غير كريستين، ونادراً ما غادر القاعدة إلّا عند اضطراره إلى القيام بعمل رسميّ، فكانت القاعدة عالماً بحدّ ذاته، تتوفّر فيها كلّ الخدمات الضروريّة لقيام مجتمع صغير، وبهذا لم تكن تختلف عن أيّة قاعدة أميركيّة أخرى حول العالم.

وقد عمل عدد من الآيسلنديّين فيها، لكنّهم سكنوا في المناطق البعيدة عنها، أو في القرى المجاورة، فكانوا يعودون إلى بيوتهم عند نهاية دوام العمل، وبذلك كانت القاعدة دائماً منفصلة ليس جغرافياً وحسب بل سياسيّاً وثقافيّاً عن باقي آيسلندا.

سألته كريستين: «هل تعني امرأة آيسلنديّة؟».

أجاب ثومبسون: «لديها أحد تلك الأسماء التي لا يمكن أن تلفظ، وهي متداولة كثيراً هنا، وهو ثورجيردور كريستموندزدوتتير، لكنّني أعرفها باسم توبا كونه أسهل بكثير على اللفظ، وقد ماتت منذ سنوات عديدة، وكانت تسكن في قرية ليست ببعيدة عن هنا، وقد علمتني الآيسلنديّة، وكانت متزوجة، ولم تكن ترغب في ترك زوجها. وقد عملت في متجر القاعدة، حيث تعرّفت إليها، وهكذا كان يمكننا أن نلتقي دوماً، فقد أثارت اهتمامي بهذا البلد، وشيئاً فشيئاً صرت مأسوراً بآيسلندا كما كنت مأسوراً بتوبا، ثم بدأت تنتشر الشائعات حول أنّها متورطة مع أحد جنود اليانكي في القاعدة، وهذا على ما أعتقد جعلها على موعد مبكر مع الموت كونها امرأة آيسلنديّة».

نظرت كريستين إلى ستيف الذي كان يراقبهما من دون أن يستوعب ما يقولانه.

«حاولت جاهداً الاستقرار هنا، فعليك أن تجدّدي إقامتك كلّ ثلاث سنوات، وبعد موتها لم أعرف أيّ مكان آخر يمكنني الذهاب إليه، فحصلت على إعفاء خاصّ، والآن لم أعد أواجه أيّ مضايقات، وسافرت ضمن البلاد في الصيف، وعملت مرشداً سياحيّاً حيث أخذت مجموعات صغيرة من الجنود إلى مواقع تاريخيّة، وكذلك سياحيّة مثل غالفوس، وغيسر، وثينغفيلر»، وفجأة سكت ثومبسون ثم أضاف: «أحياناً كنت أزورها في المقبرة».

قالت كريستين: «أعتذر سيد ثومبسون، ولكنّنا على عجلة من أمرنا».

قال ثومبسون، وهو يستجمع قواه: «أجل بالطبع، أكبر حملة للبحث عن تلك الطائرة كانت عام 1967».

بدا وكأنه عاد إلى الحاضر، فعاود التحدّث بالإنكليزيّة قائلاً: «أظنّ أنّ أربعة جنود خسروا حياتهم على النهر الجليديّ في ذلك الوقت، هل أنت كبيرة كفاية لتتذكّري رجال الفضاء؟».

«رجال الفضاء!».

«أرمسترونغ، ورفاقه».

«نيل أرمسترونغ! أوّل رجل وطأ سطح القمر!»

«تماماً، هو نفسه».

«هل علمت أنّه أتى مع عدد من رجال الفضاء الأميركيّين الآخرين إلى آيسلندا للقيام بمهمّات تدريبيّة قبل سنتين من نزولهم على سطح القمر؟».

«بالتأكيد كلّ الناس تعرف ذلك».

«حسناً، في مرحلة معيّنة من عام 1967 تولّى ليو رحلات المراقبة الجوّيّة، وكان هذا العمل روتينيّاً، فكلّ الطيّارين توجّب عليهم القيام بذلك، ولكن في إحدى الجولات اعتقد ليو أنّه وجد شيئاً تحته على الجليد، فصار يحلّق جيئة وذهاباً ملتقطاً صوراً لما يشاهده، ولم أكن ضمن الطاقم، ولكن ليو أخبرني بذلك فيما بعد، فحاولوا أن يهبطوا بالمروحيّة ولكنّهم فشلوا، وكان ذلك خلال الشتاء القارس كما الحال اليوم، لذلك أرسلوا قوّة استطلاع صغيرة إلى هناك مع كشّافات عن المعادن، وبعد ذلك بدأت التحضيرات لعمليّة كبرى تدار بشكل سرّيّ إلى أقصى حدّ، ولكنّ الجميع عرفوا بها، إذ إنّ المجتمع صغير هنا».

«من هؤلاء؟».

«الاستخبارات العسكريّة بشكل رئيسيّ، فقد عرفوا أنّ الآيسلنديّين حسّاسين تجاه تحرّكات الجيش خاصّة في تلك الأيّام، فخطر لأحدهم فكرة إرسال أرمسترونغ ورجال الفضاء إلى آيسلندا للتدريب في الحرّة شمال النهر الجليديّ. وبالطبع رحّب الآيسلنديّون برجال الفضاء بشكل كبير، وكانوا متفهّمين للمناورات العسكريّة المتعلّقة بالمهمّة، ولا يخفى عليك أنّ الأرض في الداخل تشبه سطح القمر بتكوينها، وهذا التصرّف مستهجن، ولكنّكم ابتلعتم الطعم يا أصدقائي. وفي الحقيقية كان من المقرّر صرف الانتباه

عن أكبر تحرّكات الجيش، والمعدّات المستخدمة من قبل الأميركيّين في آيسلندا منذ الحرب، وأيّاً كان محتوى تلك الطائرة فقد تحضّر الجميع من أجل إيجادها».

سأل ستيف: «ولكن لماذا لم يذهبوا إلى هاواي إذا لم يكن من الضروريّ إجراء التدريب في الحرّة؟».

تابع ثومبسون، وبدا نشطاً بعد أن استرجع الأحداث القديمة قائلاً: «لديّ تصوّر عن مصدر الفكرة، فقد كان هناك طيار من قوّات الدفاع في العام 1960 على ما أذكر، وكان يقود طائرات سكوربيون الحربيّة، واسمه كابتن باركر. وعندما توقّفت مجموعة من رجال الفضاء لإعادة تزويد الطائرات بالوقود في كيفلافيك بشكل متخفٍّ في صيف عام 1965، تمكّنت الصحافة من أن تغطّي تلك الواقعة، فجذبت هذه القصّة العامّة فعلاً، وكان باركر ذاك مسؤولاً عن المجموعة، لذلك عندما احتاجوا إلى أن يرسلوا بعثة استطلاع إلى فاتنويوكل عام 1967 من دون جذب أيّ انتباه، خطر لباركر فكرة لمّاحة، وهي أن يحضر أرمسترونغ، فيُحدث حضوره مزيداً من الجلبة، وبحلول ذلك الوقت كان باركر قد ترأس رحلة فضائيّة كانت تسمّى مهمّة جيميني 8».

سأله ستيف قائلاً: «ولم يعلم أحد بذلك؟».

«اشترك في هذه الواقعة كثير من الناس لدرجة أنّ شيئاً كان قد تسرّب حتماً، ولكن لم يتمّ تأكيد أيّ شيء، فقد فشلوا في العثور على الطائرة – هذا في حال كانت موجودة أساساً- وفشلت المهمّة برمّتها فشلاً ذريعاً، وانتشرت شائعات عن أنّ الاستخبارات السرّية قد استلمت السفارة في ريكيافيك، كما استلمت القاعدة هنا في كيفلافيك أيضاً، وكان قائد العمليّة اسمه فيتاوتاس كار، وهو رجل تقليديّ للغاية، وحازم جدّاً».

«ولكنّهم لم يجدوا الطائرة؟».

«لم أعرف ما الذي حصل، كانت المهمّة في شهر نيسان، ولكنّ الشتاء

كان أبعد ما يكون عن الانتهاء حيث هبّت عاصفة ثلجيّة شرقيّة كما تسمّونها، وقد هبّت فجأة، واستمرّت لأيّام طويلة، وفي الحقيقة، لم يكونوا مستعدّين للمناخ القطبيّ في شهر نيسان، فأعاقت الريح العاتية، والثلج المتساقط عملهم، فتوجّب عليهم أن يغادروا النهر الجليديّ فوراً، بعد أن خسروا أربعة رجال في تلك الأثناء، وقع اثنان منهم في شرخ على الجليد، وضاع الآخران، وقد توفّيا بعد ذلك بسبب شدّة البرد، وهكذا عادوا من النهر الجليديّ منهكين وخائبين، وعندما تحسّنت أحوال الطقس كانت الطائرة قد اختفت في الجليد، إن كانت موجودة بالفعل، وكما قلت سابقاً، فقد اعتاد ليو على أن يتحدّث كثيراً، أمّا الآخرون الذين شاركوا في هذه المهمّة فلم ينبسوا بكلمة، ولكنّني لا أعرف مدى مصداقيّتها، أمّا بالنسبة إلى رجال الفضاء فقد حضروا بالفعل إلى هنا».

قالت كريستين: «إذا كانت الطائرة قد ظهرت على الجليد، ورأى الجنود أنّ أخي...»، ولم تكمل كريستين جملتها.

أجاب ثومبسون: «لا أعلم، لا أعلم ما أقول يا عزيزتي، عليك أن تفكّري في الأفضل، ولكن ثمّة أمر ما بخصوص هذه الطائرة، قال أحدهم إنّها تحطّمت بعد انتهاء الحرب بوقت قصير، وكانت الخطّة تكمن في تفكيكها، بعد نزعها من الجليد، وقد ادعّى أنّها كانت قادمة من برلين. ولمدّة طويلة انتشر كلام عن ذهب كان آخر مخزون من ذهب الرايخ الثالث، تشير القصة إلى أنّ الجنود الأميركيّين سرقوا هذا الذهب من الألمان، وعزموا على أن يطيروا به فوق المحيط الأطلسيّ، كما انتشرت شائعات أيضاً تشير إلى أنّ هذه الطائرة كانت تحمل حمولات من التحف الفنيّة التي سرقها الألمان من كافّة أنحاء العالم».

في نهاية المطاف سألت كريستين: «في رأيك ما الذي كانت تحمله الطائرة؟».

«لقد سمعت ما قلته، الاحتمالات عديدة».

«ما الاحتمال الذي ترجّحه؟».

«قال أحدهم إنّها كانت تحمل قنبلة صنعها النازيّون كنّا قد فكّكناها قبل أن يضع الروس أيديهم عليها، وكنّا نحاول أن نعيدها إلى الولايات المتّحدة الأميركيّة».

سأل ستيف: «قنبلة؟ ما نوعها؟».

«لا أعلم، ولكن ربما يستطيع ذلك شرح سبب إصرارهم الشديد على العثور على تلك الطائرة اللعينة».

سألت كريستين: «هل تعلم من هو راتوف؟».

قال ثومبسون: «لم يسبق لي أن سمعت بهذا الاسم»، كان ذهنه أصفى حينها، وكانت لديه ذاكرة قويّة، ولم يواجه صعوبة في استرجاع الماضي السحيق ما إن انطلقت الذكريات.

«هل تعلم من أين دخلوا إلى النهر الجليديّ؟».

«من الجنوب، ولكنّني لا أعلم ما اسم المكان بالضبط، وقد عاش أخوان في الجوار، وكانا مرشدين للجيش الأميركيّ. إنّهما مزارعان، وأقسم بالله إنّ هذا كلّ ما أعرفه، وهذا كلّه ليس سوى شائعات، وأنصاف حقائق، ولا أعتقد أنّ أحداً يمتلك كامل الحقيقة».

رجع رأس آرنولد بقوّة إلى الخلف عندما ضربه بيتمن بعنف على وجهه، وظهر جرح جديد فوق حاجبه، ولم يتمكّن آرنولد من أن يصرخ لأنّه كان مربوطاً إلى الكرسيّ، وهو مكمّم الفم بواسطة شريط لاصق، وكان يتنفس بصعوبة عبر أنفه، وعيناه تتفحّصان الرجلين في بذلتيهما البيضاوين، والدم يسيل من جبهته.

لقد اقتحما شقّته طالبين أن يعرفا إن كانت سيّارة التويوتا المركونة في المرآب أمام المبنى له.

توقّفت كلابهم المتعقّبة بجانب السيّارة، وأبت أن تتزحزح، بينما لا يزال غطاء محرّكها دافئاً، ولم يتطلّبهما الأمر سوى مكالمة هاتفيّة واحدة ليعرفا صاحب السيّارة، وكان اسم آرنولد مدوّناً على الجرس، وهي المرّة الثانية التي يتمّ فيها إيقاظه في تلك الليلة، فكان في مزاج عكر عندما حاول الرجلان أن يستجوباه عبر الإنترفون لدرجة أنّه أبى أن يدخلهما إلى المبنى، وقبل أن يستوعب ما الذي يجري خلعا باب شقّته وهجما عليه.

قال لهما ما يعرفه وإنّه قد أخذ الثنائيّ إلى الأرشيف، وتركهما هناك، ولكنّ الرجلين كانا يريدان معرفة أكثر من ذلك بكثير – ما الذي كانا يبحثان عنه، وأين هما الآن، وكيف سيغادران المنطقة- فشتم آرنولد ستيف اللعين في قلبه.

كان وجهه مغطّى بالدماء حيث إنّ هذين الرجلين لم يضيّعا الوقت، ولم تكن تلك المرّة الأولى التي يتورّط فيها آرنولد بمشاكل مع الشرطة العسكريّة، ولكن لم يسبق له أن رأى هذين الرجلين أو اختبر منهجيّتهما في الاستجواب، فقد قيّداه إلى كرسيّ، وضرباه ببساطة حتّى تورّم، ولكنّه لم يكن يعرف مكان ستيف والآيسلنديّة، ولا عمّا يبحثان عنه، وقد قاوم قدر المستطاع مصمّماً على ألّا يعطي مستجوبيه أيّ معلومة يمكن أن تفيدهما، ولكنّ قدرة تحمّله كانت محدودة.

استخرج بيتمن لفافة ثخينة من لاصق فضّيّ، وقصّ قطعة بطول عشرة سنتيميترات، وهو يغطّي يديه بقفّازين أبيضين مثل ريبلي.

أمسك بالقطعة من طرفيها ووضعها على أنف آرنولد، ثم وقف بمواجهته مراقباً محاولاته الفاشلة في الحصول على الأوكسجين بدقّة علميّة، وعندما بدا أنّ آرنولد سيغيب عن الوعي أمسك بيتمن بطرف القطعة ونزعها تاركاً ندبة حمراء ناجمة عن انسلاخ الجلد معها.

اتّسعت فتحتا أنف آرنولد بسرعة وهو يستنشق بصعوبة الهواء، بينما لا

تزال قطعة اللاصق تغطّي فمه، وقد حاول أن يلتقط أنفاسه ويأخذ نفساً عميقاً، قبل أن يمسك بيتمن ببكرة اللاصق مجدّداً، ويقصّ قطعة أخرى، ويضعها على أنف آرنولد من دون أن ينبس ببنت شفة.

وقال ريبلي لآرنولد: «لن أدعك تعيش إذا استمررت بالمماطلة يا آرنولد».

تلوّى آرنولد في كرسيّه لشعوره بالضيق والاختناق، وأصبح وجهه الملطّخ بالدماء منتفخاً كالبالون، فنزع بيتمن اللاصق عن أنفه، وفي هذه المرّة نزعه عن فمه أيضاً.

أخيراً، صرخ آرنولد وهو يلهث وقد انقطعت أنفاسه، وعندما استطاع الكلام قال: «لديّ زورق زودياك، وستيف يعلم بمكانه، وسيستخدمه لمغادرة القاعدة، ولا تفعل هذا مجدّداً أتوّسل إليك، بحق المسيح دعني أتنفّس».

سأل بيتمن: «زورق زودياك؟».

«أستخدمه للتهريب، فأنا أُهرّب مخدّرات من وإلى القاعدة، وأعمل في هذا المجال منذ سنوات، وبشكل رئيسيّ أهرّب الكوكايين، بالإضافة إلى الأمفيتامين، والحشيش...وأبيعها في ريكيافيك، ولديّ اثنان من معارفي هناك اسمهما...».

قال ريبلي بصوت رزين: «آرنولد، أنا لست مهتمّاً بمخطّطاتك الملتوية، أخبرني أين هو القارب».

«إنّه في خليج يقع غرب القاعدة، فهناك فتحة في السور المحيطيّ حيث ينعطف شارع متجر معدّات كبير إلى الحرّة، والزورق مخبّأ على بعد خمسمئة ياردة تقريباً أسفل الفتحة في السور».

«ممتاز، وإلى أين هما متّجهان يا آرلوند؟».

«إلى شاطئ خارج هافنير، وستجده على الخريطة».

17

ريكيافيك، السبت 30 كانون الثاني،
الساعة الرابعة وخمس عشرة دقيقة بتوقيت غرينيتش

لاحظ المحقّق الذي كان يرتدي ثياباً غير مرتّبة، ويبلغ من العمر خمسين عاماً، وهو يتفحّص شقّة كريستين: «هناك أحداث غريبة جرت هنا».

فقد تلقّت الشرطة قبل منتصف الليل بقليل اتّصالاً هاتفيّاً من رجل يسكن في الحيّ أبلغ عن اقتحام امرأة يافعة منزله وهي في حالة هيستيريّة وقد اندفعت إلى استخدام الهاتف، وهي تتحدّث بشكل غير مفهوم عن جريمة قتل -جرت في منزلها على الأرجح- قبل أن تطلب أن تستعير بعض الثياب، وتغادر منزلهما، ولم يكن ينوي أن يبلّغ عن الحادثة التي مرّ على حدوثها ثلاث ساعات، ربما بسبب إلحاح زوجته، ولكنّه على الرغم من إبلاغ الشرطة بالأمر، فقد ظلّ محرجاً من نفسه لسماحه بحصول هذا الهجوم على أفراد عائلته.

دوّنت الشرطة إفادته، وتفحّصت دليل الهاتف للتعرّف إلى الرقم الذي اتّصلت به المرأة، ولكن لم يجب أحد على المكالمة الهاتفيّة التي أجرتها الشرطة لاستجواب صاحب الرقم، وفي أثناء تفتيش المنزل، اكتشف رجال الشرطة أنّ صاحب المنزل لديه ابنة، وبدا عمرها موافقاً لمواصفات المرأة

التي اقتحمت منزل الأسرة، وهي تعيش أيضاً في الحيّ نفسه وهذا ما استدعى تعيين شرطيّين لمراقبته، وحين توجّها إلى منزل كريستين لم يفتح أحد باب الشقّة الموجودة في بناء مؤلّف من طابقين، وقد استجوبا قاطني الشقّة العليا إلّا أنّهم يجهلون تماماً ما حدث، إذ كانوا خارج المنزل طوال المساء.

وعندما لاحظا وجود ثقب في باب كريستين سبّبته رصاصة على الأرجح، اتّصلا بخبير أقفال لفتح الباب، كما طلبا الدعم من عناصر الشرطة، وعندما اقتحموا الشقّة كان أوّل ما شاهدوه جثّة هامدة على المكتب.

وقفوا فوق جثّة الرجل وتفحّصوا محتوى محفظته، واستناداً إلى بطاقة عمله تبيّن أنّ اسمه رونولفور زوفانياسون، وكان يعمل في مجال الاستيراد والتصدير، وقد احتوت محفظته إلى جانب هذه البطاقة على رخصة قيادة، وبعض النقود، وحزمة من فواتير المطاعم، وبطاقة مدين، وبطاقة ائتمان، فعاين المحقّق الشقة، ووجد أنّ الأثاث لا يزال في مكانه، وكلّ الصور مثبتة بشكل منظّم على الجدران، ولم يبدُ أنّ شيئاً على السطوح مخرّب كما لم يكن هناك أثر لأيّ سلاح، وقد بدت الجثّة وكأنّها هبطت من السماء، فتفحّص المحقّق الجرح الناجم عن الرصاصة على جبهة الرجل، والمسدّس الذي في يده بعد أن أمسك به بحذر.

سأل المحقّق زميله الأصغر سنّاً منه، وأكثر أناقة: «ألا تظنّ أنّها زاوية غريبة؟ إذا كنت تعتزم أن تنتحر بواسطة إطلاق رصاصة في رأسك، هل كنت ستوجّه المسدس مباشرة إلى جبهتك؟».

أجابه زميله: «لم يسبق لي أن فكّرت في الانتحار».

«إذا كان قد وجّه المسدّس إلى جبهته، ألا يجب أن يكون هنالك علامات حرق أو علامات بارود؟ أو حتّى آثار ارتداديّة على ذراعه؟».

«حسناً، أنت لا تعتقد أنّه انتحر، على الرغم من الملاحظة المطبوعة على الحاسوب؟».

«بالاستناد إلى رخصة قيادته فهو يعيش في برايدهولت، وإن كنت تريد الانتحار هل ستذهب إلى منزل شخص آخر لتقوم بذلك؟».

سأل المحقّق اليافع، وهو يمرّر يده على ربطة عنقه التي تتماشى مع بذلته: «لماذا تستمرّ بسؤالي ما كنت سأفعله إن كنت سأقدم على الانتحار، هل هذا ما تتمنّاه ضمنياً؟».

ردّ الرجل الأكبر سناً الذي كان يرتدي سترة مفتوحة أزرارها، ويعتمر قبعة عف عليها الزمن: «لا أتمنّاه ضمنياً بل علناً، ما عمل كريستين التي تقيم هنا؟».

«محامية في وزارة الخارجيّة».

«وكان رونولفور يعمل في مجال الاستيراد والتصدير، وأيّاً كان ما يعنيه هذا، فليس هناك أثر لنزاع، وسكّان الشقّة العليا قالوا إنّهم لم يكونوا في المنزل، ومع ذلك كان المسدّس صغيراً، وما كان ليصدر عنه صوت قويّ».

«أنت الخبير في الأسلحة الناريّة».

«جارِني رجاء في محاولتي إعادة استعراض الأحداث»، وأضاف المحقّق الأكبر سناً متجاهلاً سخرية الأصغر: «إذا أردت الانتحار، هل ستطلق الرصاصة على الباب الأماميّ أولاً؟».

«لنرَ، كان الباب مفتوحاً، وكان ينوي على الأرجح أن ينتحر عبر إطلاق رصاصة في رأسه، ولكنّه أخطأ تصويبها نحو الهدف، فاخترقت الباب، وبعدها صوّب مباشرة نحو جبهته ليتأكّد من إصابة نفسه، ألا يمكن أن يكون ذلك ما حصل؟».

«إذاً أطلق النار على نفسه، وباب الشقّة مفتوح؟».

«على الأرجح».

«هذه إحدى أكثر عمليّات الانتحار غرابة شهدتها في حياتي، ولماذا سينتحر هنا؟ هل كانت تربطه علاقة بكريستين هذه؟».

«أتوقعّ أنّ تجيبك كريستين عن هذا السؤال بشكل أدقّ».

«أقترح أنّ علينا أن ننشر إعلاناً يشير إلى أنّها مطلوبة للعدالة، ولكن من دون أن نذكر شيئاً عن تورّطها في تحقيق يتعلّق بجريمة قتل، بل نكتفي بالقول إنّنا نحتاج إلى أن نتحدّث إليها».

«هل يعقل حقّاً أن تكون محامية تعمل في وزارة الخارجية قد قتلت هذا الرجل؟».

أجاب الرجل الأكبر سنّاً وهو يتفحّص الثقب في جبهة الرجل بعناية: «إذا كنتُ سأقتل أحداً فسيكون بائعاً حتماً».

مكتبة
t.me/t_pdf

18

قاعدة كيفلافيك الجوّيّة، السبت 30 كانون الثاني، الساعة الخامسة صباحاً بتوقيت غرينيتش

كانت توجيهات آرنولد دقيقة، فقد دلّ ستيف على طريق مختصر للخروج من القاعدة من دون عبور البوّابة أو تسلّق الأسلاك الشائكة، ولم تستطع كريستين أن تتخيّل نوع المعروف الذي كان يدين به لستيف، ولكن لا بدّ من أن يكون كبيراً لدرجة أن يعرّض نفسه للخطر من دون تردّد، ولكنّها فضّلت ألّا تفكّر في ذلك كثيراً.

بعد أن غادرا شقّة ثومبسون اتّجها غرباً مبتعدين عن المطار، ومبنى ليلفور ايريكسون، حيث اشتدّت الحركة العسكرية في المنطقة، فأقيمت حواجز على مسافات قصيرة في أرجاء القاعدة، وراقب الجنود في تلك الأثناء السور المحيطيّ بجانب كيفلافيك، وشاطئ البحر الذي يحدّ القاعدة من الجنوب والغرب.

تنقّل ستيف وكريستين من بناء إلى آخر متجنّبين الطرق المأهولة وقد حجبتهما الظلمة عن الأنظار إلى أن تلاشت المناطق المبنيّة، وظهرت الحرّة التي غطّتها حقول الثلج الممتدّة إلى الشاطئ.

كانت السماء خالية من الغيوم، ومليئة بالنجوم، وبفضل ضوء القمر

الذي أنار دربهما اجتازا المسافات الطويلة بسرعة، إن وصف آرنولد الدقيق أوصلهما إلى زورق زودياك بسهولة، وكلّ ما توجّب عليهما فعله هو اتباع الشاطئ جنوباً متجاوزين هفالسنس، وخليج كيركتجوفوكور إلى قرية هافينير حيث سيتسنّى لهما أن يتركا القارب، ويحصلا على وسيلة نقل تقلّهما إلى ريكيافيك، وقد كان لزورق زودياك محرّك خارجيّ ساكن، بقوّة عشرين حصاناً، وقد عمل من المحاولة الأولى، وعندما انطلق ستيف من الشاطئ شعرت كريستين بأنّ هذه ليست المرّة الأولى التي يبحر فيها ستيف على امتداد الساحل، فلفح الهواء القارس وجهها، وعلى الرغم من اعتدال سرعة الزورق فقط تلاعبت الريح القويّة به على مسافات منتظمة، ما أجبرها على أن تتمسّك بالحبال المربوطة إلى قوس القارب، وسرعان ما تبلّل معطفها بالرذاذ.

وبعد ربع ساعة، تركا القارب في هافينير.

ولم ينطقا خلال الرحلة سوى بكلمات مقتضبة.

فقد سألت كريستين ستيف عندما زاد سرعة الزورق المطّاطيّ: «أهكذا يهرّبون المخدّرات؟».

فأجابها: «لا أعرف»، وأنهيا المحادثة بهذا الردّ المقتضب.

عندما كانا يشقّان طريقهما نحو مسربي ريكجينز المتعاكسين شاهدا وهجاً بنّياً مائلاً إلى الحمرة ينير السماء فوق كيفلافيك، ونياردفيك، وبعد أن سارا مدّة خمس وأربعين دقيقة والصمت التامّ يسود المكان، لاحظا مصابيح أماميّة تقترب منهما وسط الظلمة الحالكة، فأبطأت السيّارة سرعتها عندما أصبحت قريبة منهما، وأخيراً توقّفت أمامهما بمسافة قصيرة، وكان صاحبها خبّازاً لديه مخبز في كيفلافيك، فعرض عليهما توصيلهما إلى الشارع الرئيسيّ، وهكذا لم يصعب عليهما العثور على من يوصلهما إلى ريكيافيك.

كان مايكل ثومبسون قد أعطاهما عنوان أرملة ليو ستيلر في ريكيافيك سارة شتاينكامب التي قد تستطيع أن تُسلّط الضوء على بعض الأمور المتعلّقة

بنظريات ستيلر، عدا ذلك أبلغهما أنّه لا يعرف الكثير عن وضعها، وبأنّه لا يودّ أن يتحدث عنها، ولكنّه قال إنّه يزورها كلّ عدّة سنوات إكراماً لذكرى الضابط الذي كان رئيسه في الخدمة، وقد حذّرهما من التعامل مع هذه المرأة الصعبة المراس والمحبطة والناقمة على الجميع، إذ يشتدّ غضبها على الزوّار دائما، لذلك لا يمكث لديها طويلاً.

عاشت في منطقة ثينغهولت القديمة في الطابق الأرضيّ في منزل خشبيّ متداعٍ ذي طابقين، وكان الإكساء المعدنيّ المموّج يعاني من الصدأ عند نقطة التقائه بالأرض، وكانت النوافذ الصغيرة ذات لوح زجاجيّ واحد، ومنذ زمن كان الباب الأمامي مطلّياً باللون الأخضر، ولكن معظم الطلاء أصبح مقشوراً الآن، وكان هناك شجرة شوح في منتصف حديقة صغيرة سوّرت بسياج خشبيّ باتت أوتاده متعفّنة وأغلبها قد انهار.

اقترب كلّ من كريستين، وستيف من المنزل بحذر، ولكنّهما لم يشاهدا أيّ آثار لملاحقيهما، وعلى الرغم من ذلك تفحّصا محيطهما في الظلام بتوتّر، وعلى الرغم من ثقتهما بأنّهما هربا من دون أن يشاهدهما أحد من القاعدة إلّا أنّهما لم يكونا مستعدّين للمخاطرة بحياتهما.

دخلا دائرة مضاءة إضاءة خافتة بواسطة مصباح صغير فوق باب سارة شتاينكامب، وقد لفحت الريح القارسة وجهيهما، وكانت الساعة تشير إلى السابعة صباحاً.

رنّ ستيف الجرس، فكانت هناك لوحة نحاسية حُفر عليها اسم بهت لون طلائه، وكان هذا الاسم غير مفهوم تقريباً، ولكنّ كريستين اعتقدت أنّه سارة شتاينكامب.

لم يكن هناك أسماء أخرى فالشقّتان في الطابق الثاني غير مسكونتين على الأرجح، والنافذتان مظلمتان، فحدّقت إليهما كما لو أنّهما محجرا عينين.

رنّ ستيف الجرس مجدّداً، وعندما وضع أذنه على الباب لم يستطع

سماع أيّ صوت يدلّ على وجود أحد في الداخل.

رنّ الجرس مرّة أخرى، ولكن بشكل متواصل هذه المرّة، ومع ذلك لم يفتح أحد الباب، فتراجعا بضع خطوات إلى أن وقفا في وهج مصابيح الشارع محاولين جاهدين النظر إلى نوافذ الطابق الأرضيّ، ولكنّهما لم يتمكّنا من رؤية أيّ ضوء في الداخل، فرنّ ستيف الجرس مرّة رابعة للتأكّد من خلوّ المنزل من قاطنيه، فسمعا صوت الجرس داخل المنزل، وما إن تراجعا بضع خطوات بعد أن فقدا الأمل من وجود أحد في داخله حتّى فُتحت نافذة الطابق الأرضيّ، فأفزعهما الصوت غير المتوقّع في الصباح الساكن، وسألهما صوت امرأة مرتعش: «ماذا يجري؟»

سأل ستيف: «هل أنت سارة شتاينكامب؟»، فلم يتلقَّ أيّ جواب، وأردف قائلاً: «أنا آسف لمجيئنا في الصباح الباكر، ولكنّ الأمر طارئ».

«ما الذي تريده منها؟».

بدأ ستيف: «إنّ الأمر... هل يمكنك أن تسمحي لنا بالدخول؟ اسمي ستيف، وهذه كريستين، وهي آيسلنديّة».

قال الصوت المرتعش: «آيسلنديّة؟».

لم يستطيعا تبيّن ملامح وجهها في الظلام بل كان كلّ ما رأياه خيال غير واضح الملامح أمام النافذة.

«وماذا عنك أنت؟ لا تبدو آيسلنديّاً».

«أنا أميركيّ، ونحن بحاجة إلى مساعدتك، هل تسمحين لنا بالدخول؟ أنت أرملة ليو ستيلر أليس كذلك؟».

«ليو؟ ما الذي تريدانه منه؟ إنّه ميت».

قال ستيف، وهو يحاول جاهداً أن يكون لطيفاً: «نحن نعلم ذلك، ولكنّنا نودّ التحدّث إليك عنه».

وقفا من دون حراك لمدّة طويلة أمام المنزل غير قادرين على رؤية

ملامحها في الظلام الدامس وهي لا تزال قرب النافذة، وعندما فقدا الأمل انشقّ الباب قليلاً فظهرت امرأة قصيرة القامة مثل القزم تقريباً، وهزّت سلسلة القفل.

فسألت المرأة، وعيناها تنظران إلى كريستين: «ما الذي تريدينه من زوجي ليو؟»، تكلّمت الإنكليزيّة بلكنة أوروبيّة ثقيلة لم تستطع كريستين تحديدها بدقّة، ولكنّها اعتقدت أنّها أوروبية شرقيّة.

قال ستيف: «للأمر علاقة بعمله بصفته طيّاراً، نريد بعض المعلومات عنه».

«ما نوع هذه المعلومات؟ وما الذي تتحدّث عنه؟».

سأل ستيف: «هل نستطيع الدخول، والتحدّث إليك؟».

قال المرأة بانزعاج: «كلا، لا تستطيعان».

قالت كريستين، وهي تتقدّم خطوتين نحو الباب: «من الضروريّ جدّاً أن نتحدّث إليك، أنت سارة أليس كذلك؟ سارة شتاينكامب».

«من أنت؟ وكيف تعرفين اسمي؟».

«اسمي كريستين، وحياة أخي معرّضة للخطر، وقد اقترح علينا الطيّار المتقاعد مايكل ثومبسون أن نتحدّث إليك، فأنت تعرفينه أليس كذلك؟ إنّه يعيش في القاعدة».

قالت المرأة: «أعرف ثومبسون، فقد كان صديقاً لزوجي، ولماذا أخوك في خطر؟».

قالت كريستين: «بسبب ظهور طائرة محطّمة، وكان زوجك طيّاراً في القاعدة أليس كذلك؟».

«أجل، كان ليو طيّاراً».

قالت كريستين: «لذلك نحن نودّ التحدّث إليك حول تلك الطائرة»، كانت كريستين قد اقتربت منها، ووقفت في بقعة إلى جانب الباب الأمامي، ومن مكانها تمكّنت من رؤية ملامح المرأة بشكل أوضح، فشعرها أشيب

طويل، ووجهها متجعّد، وجسدها نحيل جدّاً وهي محنية الظهر قليلاً، وكانت ترتدي ملابس نوم رثّة، وعلى الرغم من أنهما أزعجاها من خلال قدومهما عند طلوع الفجر، ولكنّ كريستين شعرت بأنّ ظهورهما المفاجئ أزعجها لسبب أعمق من ذلك، فقد كانت المواجهة غير مريحة حيث كانت المرأة تختبئ تقريباً وراء الباب وكأنّها تشعر بتهديد جسدي.

ردّدت المرأة: «أي طائرة؟».

أجابت كريستين: «طائرة سقطت على النهر الجليدي فاتنويوكل».

قالت المرأة العجوز بدهشة: «على فاتنويوكل؟».

«أجل، فقد رأى أخي طائرة على النهر الجليدي ثم فقدتُ الاتصال به، كما رأى جنوداً أيضاً».

لفّت المرأة رداءها حولها بشدّة أكثر، وقالت بصوت خافت وهي تفكّ السلسلة، وتفتح الباب لهما على مصراعيه قائلة: «تفضّلا بالدخول»، تردّدت كريستين، ثم دخلت وتبعها ستيف، فوصلا إلى ردهة مشتركة بين الشقّتين، ثمّ سلكا مدخل درج يؤدّي إلى الطابق الأوّل، ولكنّ باب شقّة المرأة العجوز كان مفتوحاً أمامهما، وكان المنزل في الداخل مظلماً، ودافئاً بشكل خانق لأنّه يبدو أنّ المرأة شغّلت المدفأة على أعلى درجة طوال الليل، ولم تعد كريستين قادرة على رؤية العجوز التي اختفت في الظلام، فوقفت بلا حراك لا تجرؤ على أن تتقدّم، ثمّ نظرت باتّجاه المرأة التي كانت تُشعل عود ثقاب، فرأت وجهها الذي أنارته بشكل جزئيّ تلك الشعلة، وقد بدأت بإشعال شموع كثيرة، الشمعة تلو الأخرى إلى أن عجزت عن عدّها لكثرتها، وقد سلّط نور هذه الشموع وهجاً خفيفاً على الغرفة، ما جعل كريستين تلاحظ وجود بيانو وكمان وصور عائليّة محتشدة على الطاولة بالقرب من الجدار، بالإضافة إلى أريكة رثّة، وكراسٍ عديدة، وسجّادة سميكة تغطّي الأرضية، فدعتهما المرأة إلى أن يجلسا، ولكنّها ظلّت واقفة بجانب البيانو.

همست كريستين إلى ستيف قائلة: «أشعر وكأنّني غريتيل».

همس ستيف في المقابل وقال: «حسناً، وأنا هانسل، ولا بدّ من أن تضعنا لاحقاً في الفرن».

قالت كريستين عندما اعتادت عيناها على ضوء الشموع: «اعذري تطفّلنا سيّدة شتاينكامب، ولكن لم يكن لدينا بديل آخر، ونعدك ألّا نمكث طويلاً».

سألت المرأة: «أنا لا أفهم علاقة ليو بكما».

أجابها ستيف: «إنّها قصّة طويلة، ومعقّدة».

علّقت المرأة قائلة: «ولكنّه مات منذ أكثر من ثلاثين سنة».

«أجل، ولكن كيف مات؟».

«قتل في حادث تحطّم مروحيّة، وقالوا إنّه نتيجة خطأ ما، ولكنّني لم أتلقَ أيّ تفسير، ولم يجروا أيّ تحقيق، ولديّ شكوك حول الحادث، وقد انتقلت من القاعدة إلى ريكيافيك، وهم يرسلون إليّ معاشه التقاعدي كلّ شهر».

سألت كريستين: «ما الذي جرى؟».

قالت المرأة، ووهج الشموع الخافت يداعب ملامحها: «كان ليو طيّاراً لامعاً»، يبدو جليّاً أنّ سارة كانت في شبابها أنيقة وجميلة، ولكنّ كريستين ظنّت أنّ الحياة لم تكن سهلة بالنسبة إليها، فالتقدّم بالعمر قد ترك بصماته واضحة عليها، وكان في عينيها عزم جليّ يشير إلى أنّها قاست عذاباً شديداً في الماضي، وهي في أواخر السبعينات على الأرجح.

تفحّصت كريستين البيانو، والصور العائلية على الجدار التي يبدو أنّها التقطت في النصف الأوّل من القرن، وهذه الصور كانت لبالغين، أو لكبار سنّ، ومحاطة بأطر سوداء ثخينة، لم ترَ في الصور أولاداً أو صوراً حديثة أو ملوّنة، بل كلّها تعود إلى رجال ونساء مستعدّين لالتقاط الصور لهم وهم في أبهى حلّتهم، فلاحظت المرأة أنّ كريستين تحدّق إلى الصور، فقالت لها: «كلّهم أموات لذلك لا توجد صور حديثة، وهذه أطر الحداد، فهل هذا

الجواب كافٍ لك؟».

قالت كريستين: «آسفة لم أقصد التطفّل».

«طلب منّي ليو أن أغيّر اسم عائلتي، وهذا هو طبعه، فقد كان يهوديّاً مثلي، وقد تقابلنا في المجر بعد الحرب، ثمّ تزوّجنا، وكان كلّ أفراد عائلتي موتى، وجلّ ما تبقى لي منهم الصور، وكلّ شيء آخر ولّى، وقد حفظ جارنا في بودابست هذه الصور، فتعقّبه ليو، وأتاني بها، فبقيت تلك الصور معي منذ ذلك الوقت».

قالت كريستين: «إنّها صور جميلة».

«هل تحقّقان في قضيّة ليو؟».

قال ستيف: «نحقّق؟ لا بالطبع، نحن فقط نريد معلومات».

«لم يحقّقوا في حادث المروحيّة قطّ، وقالوا إنّ الحادث نجم عن خطأ ارتكبه ليو، ولكن ما كان زوجي ليرتكب الأخطاء، فقد كان بارعاً في عمله، ويتفقّد كلّ شيء قبل الإقلاع، وقد أنقذ حياتي مرّة، ولا أعلم ما الذي كان سيحلّ بي لو أنّه لم يعثر عليّ حينها...».

ظلّت صامتة لفترة ثم سألت: «أيّ نوع من المعلومات؟».

«معلومات عن الطائرة التي على فاتنويوكل، هل أخبرك ليو شيئاً عنها؟».

«لقد عرف ليو كلّ شيء عن الطائرة التي على النهر الجليدي، وقال إنّها كانت تابعة للنازيين».

حدّقا إلى المرأة بدهشة.

ثم أضافت: «وبعد ذلك مات».

ردّدت كريستين: «النازيون؟ ماذا تقصدين، بل ماذا كان يقصد؟».

«كان هناك طائرة للنازيين على النهر الجليدي، هذا ما قاله ليو، ثم مات بعد تحطّم المروحية، ولكنّه كان طيّاراً ماهراً، ومن الغريب أن تأتيا، وتطرقا بابي بعد كلّ هذه السنوات، وتسألا أسئلة غريبة، فلم يعد يذكر أحد هذه

الطائرة منذ تلك الأيّام».

قالت كريستين محتارة: «ولكنّها تحطّمت بعد انتهاء الحرب».

صحّحت سارة، وهي تنظر إلى عيني كريستين بثبات قائلة: «لا، لقد تحطّمت قبل انتهاء الحرب، وكان النازيون يحاولون الفرار في كلّ الاتجاهات، للنفاذ بجلدهم من الهلاك».

قالت كريستين: «قال ثومبسون إنّها كانت تحمل جنوداً أميركيّين سرقوا بعض الذهب».

«بالطبع قال لك هذا».

«هل أخبرك ليو بالقصّة ذاتها؟»

«لا، لقد عرف ما الذي كان يجري تماماً، ولم يكن يُخفي أسراراً عن زوجته».

«ما الذي قاله بالضبط؟».

لا تزال المرأة تبدو متشكّكة وغير متيقّنة، وكأنّها محتارة في أمرها، هل تخبرهما أم لا، ولكن بعد ذلك بدت وكأنّها قد حسمت أمرها.

«أثار ليو جلبة حول الطائرة في القاعدة، فهم كانوا يحاولون إخفاء أمرها، ولكن ليو أراد أن يعرف ما الذي يجري، فلم يستطع تجاهل الأمر، لأنّه لم يتحمّل كلّ هذه السرّيّة».

سألها ستيف: «وماذا حدث بعد ذلك؟ هل حصل على إجابات؟».

أجابت سارة شتاينكامب: «لا، لا شيء، فقد ظهرت الطائرة من الجليد ثم اختفت مجدّداً».

سألت كريستين: «ماذا تقصدين؟».

«قال ليو إنّ النهر الجليدي كان على هذا النحو، وقال أيضاً إنّ الطائرة كانت مدفونة فيه وهي عاودت الظهور، وهذه نهاية القصّة».

«هل كان هذا في العام 1967؟».

«أجل، 1967 تماماً».

«حسناً لماذا اعتقد ليو أنها كانت طائرة نازية؟ وما الذي كان يقصده بنازية؟».

انفعلت المرأة، وقست تعابير وجهها: «حتّى أنت بالتأكيد تعرف من هم النازيون أيّها الشابّ، أم أنّ الجميع يتظاهر بأنّهم لم يكونوا موجودين قطّ».

وقفت كريستين، وارتعشت عندما استوعبت كلّ أبعاد تاريخ المرأة: الصور، وبودابيست، وشتاينكامب.

صرخت المرأة متألّمة، فأدركت كريستين المعاناة البالغة التي تظهر من خلال صوتها المتحشرج، وهي تقول: «قتلة! قتلة سفّاحين! لا تنسوا أبداً ما الذي فعلوه».

ثم بكت، ولمعت عيناها، وهي تقف هناك محاطة بالصور العائليّة ذات الأطر السوداء السميكة، وأضافت: «لقد قتلوا كلّ عائلتي، وأحرقوهم في الأفران، وقتلوا أطفالنا، هكذا كان النازيون، لا تنسيا هذا أبداً».

نظرت كريستين إلى ستيف بدلاً من أن تقابل نظرة سارة شتاينكامب.

لقد ندما، وشعرا بالعار لإيقاظهما هذه العجوز من سريرها الدافئ، وتأجيجهما آلام حياة كاملة، وقد أدهش كريستين متابعة ستيف أسئلته الهائمة في تعقيدات الأحجية التي كانا يحاولان جاهدين حلّها.

فقال: «ولكن لماذا اعتقد ليو أنّ الطائرة كانت تابعة للنازيين؟ وما الذي دعاه إلى أن يفكّر في ذلك؟».

سألت المرأة العجوز، ونبرتها قد تتحوّلت فجأة وصارت أشدّ فظاظة، وكأنّها استرجعت رشدها: «من أنت؟ فأنا لا أعرفك، وأنا تعبة، وأنتما تضايقانني، رجاء اذهبا حالاً، اذهبا واتركاني وحدي من فضلكما».

أشارت كريستين إلى ستيف إلى أنّ ذلك يكفي، فغادرا شقّتها من دون أيّ إضافات، ووقفت المرأة إلى جانب البيانو، وهي تراقبهما حين استدارا واتّجها نحو الباب الأمامي، وأغلقا الباب خلفهما، وقد غمرهما شعور ممزوج بالراحة والحزن معاً، وهما يغوصان أكثر في ثلوج الشتاء القارس.

19

غرفة التحكّم، واشنطن العاصمة، السبت 30 كانون الثاني

اندفع فايتاوتاس كار إلى داخل قاعة التحكّم، وأُغلقت الأبواب المدعّمة خلفه، وقد رافق الإغلاق صوت سحب ثقيل، وكانت الغرفة مظلمة وباردة كالعادة، أمّا الضوء الوحيد فكان قادماً من الشاشات التي يومض معظمها، وجلس عدد من الموظّفين يعملون على وحدات التحكّم، وعلى الوحدات التي كانت تدير الأقمار الصناعية الخاصّة بالمنظّمة، بينما كان موظّفون آخرون يتكلّمون عبر الهاتف، أو يحدّقون إلى الشاشات التي تنعكس صورها على عيونهم، فدعا كار مساعده فيل إلى أن يتبعه، وقد سارا عبر غرفة التحكّم إلى غرفة أصغر ثمّ أغلقا الباب وراءهما.

قال فيل وهو رجل نحيل ومتوتّر يضع دائماً سيجارة في فمه: «سنبدأ باستلامهم في أيّة دقيقة الآن سيّدي».

كان فيل أحد المشغّلين للأقمار الصناعية، وكان يرتدي قميصاً مرفوع الكمّين، ويضع نظّارة سميكة الإطار، ملطّخة دوماً ببصمات أصابع، ولكن لم يبدُ عليه أنّه قد لاحظ هذا أبداً.

استغرب كار أن يحصل ذلك مع رجل مسؤول عن رؤية الأشياء بوضوح

تامّ، فكان من الغريب أيضاً أنّه لم يفكّر في أن ينظّف عدساته.

سأل كار: «متى سنحظى بهم؟».

«تستغرق الأقمار الصناعية حوالي سبع وثلاثين دقيقة لتمسح المنطقة، والجّو حالياً خالٍ من الغيوم، ولكن هناك عاصفة تتشكّل».

«هل يعرف راتوف أنّنا نراقبه؟».

«أعتقد أنّه يعرف سيّدي».

ظهرت حدود أيسلندا الباردة على الشاشة أمام كار، وإلى جانبها ساحل غرينلاند الشرقي، ثمّ اختفت الصورة، واستبدلت بأخرى تظهر الزاوية الجنوبية الشرقية من الجزيرة، فضغط فيل على زرٍّ، وظهرت صورة أخرى كانت توضح هذه المرّة النصف الجنوبي لفانتايوكول، فكبّر الصورة إلى أن أصبح السطح الذي يغطّيه الثلج مرئيّاً، وقد كان مخدّداً بالشروخ، وأخيراً ظهرت نقاط صغيرة تتحرّك على الجليد، فشعر كار وكأنّه ينظر من خلال ميكروسكوب إلى كائنات دقيقة تسبح على شريحة، فبدا وكأنّه عالم ينفّذ تجربة معقّدة. لقد رأى خلال أيّام خدمته الطويلة العالم، وهو يتغيّر بشكل جذري، ولم ينفكّ الجيش الأميركي يبهره بمستوى قدراته، وكانت الصورة قد كُبّرت مجدّداً إلى أن استطاع أن يتبيّن ما الذي يجري على سطح مياه النهر المجلّدة، فرفع نظّارته عن عينيه ليمسحها ثم أعادها، وركّز بشدّة.

عندما لاحظ الطائرة، وهي شبه بارزة خفق قلبه لوهلة، وقد رأى الرجال، وهم يحفرون عند جانبي الطائرة وخيمهم ومركباتهم التي تشكّل شبه دائرة حول الحطام، كما رأى أيضاً وهج القاطعات المعدنيّة، التي تشطر هيكل الطائرة إلى نصفين.

فسأله كار: «هل نسجّل هذا؟».

أجابه فيل: «بالطبع»، ثم أضاف وابتسامة عريضة مرتسمة على وجهه: «أعتقد أنّنا سنلقي عمّا قريب نظرة على الحمولة؟».

«أجل، الحمولة، بالضبط»، وراقب كار الرجال بصمت وهم يعملون لعدّة دقائق.

كانت الصورة مشوّشة، ولم يكن الرجال أكثر من نقاط تتحرّك فوق الجليد، كما لم تكن الطائرة واضحة المعالم أيضاً، ولكنّ العمل مستمرّ على قدم وساق، وبدا أنّه يسير بانتظام، ويتقدّم بشكل حثيث، حيث إنّ راتوف كان يمشي وفقاً للمخطّط، والطائرة توشكّ أن تتحرّر من الجليد قريباً.

تغيّر تواتر حركة الرجال على الشاشة من دون سابق إنذار، وحدثت جلبة على النهر الجليديّ، فشاهد كار الرجال على مسافة آلاف الأميال وهم يهرعون إلى الطائرة، فبدا له وكأنّها انقسمت إلى نصفين، وانفتح بابها، على الرغم من تلك المسافة البعيدة التي تفصله عنها.

خرج راتوف مسرعاً من خيمة الاتّصالات عندما سمع الهتافات، واتّجه إلى الحطام، وعندما شقّ طريقه عبر الحشد رأى الجنود وقد تحلّقوا حول حطام الطائرة، وهم منصرفون عن أعمالهم بعد أن تمكّنوا من شطر هيكلها إلى نصفين فانحنت مقدّمتها، ما إن انهار نصف هيكلها تحت تأُثير ثقله على الجليد وسط الصياح وتحطّم مدوٍّ يصمّ الآذان، أمّا ذيلها فظلّ نصفه غاطساً في الجليد، فحدّق راتوف إلى الفجوة الكبيرة في كبينة الطائرة، ثم اتّجه نحو الجنود، وأمرهم بأن يجهّزوا الجزء المقطوع لرفعه عن الجليد.

وفي الوقت ذاته، أصدر أوامراً تمنع أيّاً كان من دخول الطائرة من دون إذن خاصّ منه.

تنحّى الرجال الذين يحملون قاطعات المعدن جانباً ليفسحوا المجال لراتوف حتّى يصعد إلى الطائرة، فانحنى قليلاً لكي يتمكّن من أن يدخل إلى كبينة الطيّار، فكان أوّل من يدخلها منذ نصف قرن، وفي أثناء دخوله خيّم صمت ثقيل لم يُخترق منذ سنوات، فكانت تلك التجربة بمثابة عودة الزمن إلى الوراء، وهذا منحه الشعور بالحماسة الممزوجة بالترقّب، وكان قد أعطى

أوامره لأربعة جنود من قوّات الدلتا ليحرسوا المكان في الخارج أمام الطائرة.

في تلك الأثناء، تفرّق الجنود في الأرجاء، وعاد كلّ منهم إلى مهمّته، وكأنّ شيئاً لم يحدث.

عثر راتوف تحت ضوء النهار الضعيف، الذي كان يتسلّل إلى ذلك القسم من الطائرة على جثّتين لرجلين في منتصف العمر، كان أحدهما يرتدي زيّ ضابط ألماني، والآخر يرتدي زيّ ضابط في الجيش الأميركي ما أثار دهشته واستغرابه، إنّه أميركي يحمل شارة لم يستطع راتوف التعرّف إليها، وبدا وكأنّه في أواخر الخمسينيّات من عمره، كما كانت هناك حقيبة من الألمنيوم في حالة جيّدة، وعليها أقفال مربوطة بمعصمه الأيسر.

أحصى راتوف ثلاث جثث حتّى الآن، كانوا ممدّدين على الأرض قرب بعضهم، وكأنّهم كانوا مصفوفين بعناية، وبدت بشرتهم بيضاء شاحبة، ولكنّه لم يتمكّن من رؤية أيّ أثر للتفسّخ، حيث إنّ الجليد يحفظ الجثث وكأنّها في المشرحة، واعتقد راتوف أنّ هذه الجثث كانت للذين لم ينجوا من التحطّم، ولعلّ الذين نجوا منه هم من مدّدوهم بهذا الشكل، وكان هناك جرح كبير في رأس أحدهم، ورجّح أن يكون قد مات في أثناء الهبوط، ولكنّ الآخر بدا وكأنّه سليم تقريباً، لذلك اعتقد أنّ إصاباته المميتة كانت داخلية غالباً، كما بدا أنّه كان مستعدّاً لمواجهة البرد القارس أكثر من غيره حيث إنّه كان متلحّفاً بمعطفين، ويعتمر قبعة من الفرو، ومع ذلك لم تنقذ حياته.

استدار راتوف، وعاد أدراجه مجتاحاً ضوء النهار مرّة أخرى، فلا يزال قسم من ذيل الطائرة عالقاً إلى حدّ كبير في الجليد، فاحتاج إلى مساعدة أحد جنود الدلتا كي يتمكّن من إن يصعد إلى المدخل، حيث يعمّ الظلام الحالك في الداخل، لذلك أشعل مصباحاً ووجّهه نحو القسم الخلفيّ من المقصورة، فرأى ثلاث جثث كانت ملتفّة حول بعضها، كما لو أنّ هؤلاء الرجال كانوا يحاولون تشارك حرارة أجسامهم في الساعات الأخيرة التعيسة من حياتهم،

وهكذا تكون قد احتوت الطائرة على ستّ جثث بعد إضافة الجثّة التي كانت في الخارج إليها.

وتبعاً لمعلومات راتوف كان يفترض أن يكون عدد الجثث سبعاً.

وهذه المرّة أيضاً كان جلد الجثث المكشوف ذا بشرة بيضاء شفّافة وشاحبة، وقاسي الملمس، وكالسابق لم يجد راتوف علامات تفسّخ، وقد لاحظ آثار شظايا حادّة على أرجل جثّتين، وصعق مجدّداً عندما رأى أنّ أحد الرجال كان يرتدي زيّاً أميركياً، ولا بدّ من أنه كان الطيّار، لأنّ السترة الجلدية كانت زيّ الطيّارين الحربيين الأميركيين في الحرب العالمية الثانية، كما لاحظ علماً أميركياً صغيراً معلّقاً على أحد كمّيه، وكان اسمه مطرّزاً على قطعة قماش سوداء إلى اليسار من صدره، وكذلك الاسم يبدو أميركياً أيضاً، فلم يكن هناك أيّ لغط حول ذلك، ولم يكن عمره يتعدّى الخمسة والعشرين عاماً.

لم يجد تفسيراً مقنعاً للأمر فتساءل، لماذا يمكن أن ينقل طيّار حربي أميركي برفقة ضابط أميركي ضبّاطاً ألمان فوق المحيط الأطلسي على متن طائرة نازية مطلية بألوان التمويه الأميركي؟ انحنى راتوف كثيراً ليصل إلى أعماق ذيل طائرة اليانكرز، وبفضل مصباحه لم يستغرقه الأمر وقتاً طويلاً حتّى يجد صندوقين خشبيين بحجم صناديق الجعة، فسحب أحدهما إلى مقدّمة الطائرة حيث كان الضوء أقوى.

كان الغطاء مثبّتاً بالمسامير، ولكنّه وجد قطعة معدنيّة من دعامة حديدية على الأرض، فاستخدمها كمقبض ليتمكّن من خلع الغطاء، وأصدرت المسامير صوت صرير وهي تنتزع ببطء من الخشب، وسرعان ما فتح الصندوق تماماً ليكشف عن صفوف من أكياس صغيرة بيضاء، كلّ منها مربوط من طرفه، وقد أحصى قرابة عشرين كيساً ثقيلاً، فالتقط كيساً منها ولاحظ أنّه مصنوع من مخمل ناعم، ففكّ رباط الكيس، وانزلقت منه سبيكة ذهب متجمّدة وقد دُمغ وسطها بصليب معقوف، وكان هذا الصليب رمز الرايخ الثالث، فحدّق

راتوف إلى السبيكة وتفحّصها وقد ارتسمت ابتسامة على شفتيه ثم ألقى نظرة فاحصة في الأرجاء.

ولكنّه ما لبث أن فكّر في أنّها غنيمة ضئيلة حيث لا يوجد سوى صندوقين، فأين الصناديق الأخرى؟ كان راتوف ينتظر أن يعثر على أكثر من هذين الصندوقين، إذ كان يظنّ أنّ الطائرة محمّلة بالسبائك التي تحمل شعار النازية، فأرجع السبيكة إلى الكيس وأعادها إلى الصندوق وأغلق الغطاء، ثم ثبّته بالمسامير مجدّداً.

أيمكن أنّهم نقلوها من الطائرة؟ أنقلوا جميع البضائع، وطمروها في مكان قريب، أو ربما في مكان أبعد في حقل؟ عندما كان يفكّر في الأمر لاحظ أنّ الطائرة لم تكن كبيرة الحجم إلى درجة تحميلها بكمّيّة الذهب التي أكّدوا له أنّه كان موجوداً على متنها، ويُقدّر بسبعة أطنان على الأقلّ، ثم فكّر بمنطقية وتساءل إن لم يكن الذهب اليهوديّ الذي دفعهم إلى أن يراقبوا هذه الصحراء المتجمّدة اللعينة لمدّة نصف قرن، محطّ اهتمام المنظّمة، فما هدفهم بحقّ الله. من غير المحتمل أن يُشعل صندوقان من الذهب حرباً عالمية ثالثة، صندوقان مثيران للاستغراب، ما الأسرار الخفية التي كانت تحملها هذه الطائرة؟ وماذا كان يحمل هذا القبر المتجمّد ليتسبّب بنوبة قلبية لرؤسائه في كلّ مرّة اعتقدوا فيها أنّه عاد ليظهر على سطح الجليد؟ كانت عينا راتوف قد اعتادتا على الظلمة داخل الحطام، ولكن على الرغم من بحثه في كلّ مكان لم يتمكّن من العثور على صناديق أخرى، وكانت الحقيبة التي وجدها هي الغرض الشخصي الوحيد الموجود فيها، وقد تكون لأيّ من الراكبين. وكان كار قد أعطاه تعليمات خاصّة بأن يخرج أيّ نوع من الملفّات من الطائرة، ولكنّه كان محبطاً بسبب اكتشاف أنّ الكنز الدفين الذي كان قد تصوّره في عقله لم يكن له أيّ أثر، فهمّ بفتح الحقيبة بقطعة الحديد ذاتها التي استخدمها لفتح الصندوق، ونجح على الرغم من مواجهته بعض العوائق بفتح القفل،

فلم يجد فيها سوى ملفّات، وأوراق عديمة القيمة، وسيتفحّصها لاحقاً بشكل مفصّل. كما أسفر تفتيش الجثث عن مجموعة غير مهمّة من المحفوظات، وجوازات السفر، أظهرت أنّ عمر الرجلين اللذين كانا يرتديان الزيّ الألماني يتراوح بين الأربعين والستّين عاماً، وكان لأحدهما ما اعتقد راتوف أنّها رتبة جنرال، كما كان يضع عدّة ميداليات غير مألوفة على صدره، وصليباً معدنيّاً حول عنقه يصل إلى عظمتي رقبته مثل الرجل الذي كان ممدّداً إلى جانب الطائرة، وكان هذا الصليب رمز الشرف لدى الجيش في الحرب.

وما إن خرج إلى الضوء والقنوط يسيطر عليه حتّى لاحظ أنّ رجاله يجهّزون لنقل القسم الأمامي من الطائرة إلى القاعدة، فأمر أن تنقل الجثث من داخل الحطام إلى القاعدة ليتمّ وضعها في أكياس خاصّة، ثم توجّه مباشرة إلى مقصورة الطيّار وهو مصرّ على أن يجمع القطع الناقصة ليستكمل الصورة النهائية، فكان هناك مقعدان لمساعد طيّار، وملّاح ولكن بدا من جثث الجنود الآخرين أنّ الطيّار الأميركي كان قد قاد الطائرة بمفرده، فوضع مخطّط الرحلة الذي أعدّه الطيّار في جيبه حين عثر عليه بالإضافة إلى دفتر التسجيلات، وعندما كان يهمّ بمغادرة المقصورة لمح دفتراً أحمر صغيراً يظهر طرفه قليلاً من تحت مقعد مساعد الطيّار، فانتشله من الأرض ووضعه في جيبه أيضاً.

كان كار على الهاتف عندما عاود الخروج من الطائرة.

فقال راتوف بصوت حادّ عندما أمسك بالسمّاعة: «هل تتجسّس علي؟».

«لماذا نحن ننفق المليارات على هذه المعدّات إن لم نستعملها؟ حسناً ما الذي وجدته؟».

أشار راتوف إلى ضابط الاتّصالات أن يخرج من الخيمة، فقد كانت تُجرى كافّة الاتّصالات عبر شبكة قوّات الدلتا المغلقة.

t.me/t_pdf

انتظر راتوف إلى أن أصبح بمفرده ثم تكلّم مجدّداً.

«ما الذي يجري يا سيّدي؟».

مكتبة

«ماذا تقصد؟».

«لقد وجدت صندوقين فقط من السبائك، وأنت قلت إنّ الطائرة كانت مليئة بها، إنّهما صندوقان فقط؟! هل هذه هي الكمّيّة الكبيرة؟!».

«لعلّهم دفنوها في الجليد، وربما لن يُعثر عليها أبداً».

اقترح راتوف قائلاً: «ولعلّ الذهب ليس كلّ ما في الأمر».

عمّ الصمت، ثم تابع راتوف: «لم تقل لي أبداً إنّه كان هنالك طيّار أميركي على متن الطائرة، بالإضافة إلى لواء في الجيش».

«احذر يا راتوف، ليس من واجبي أن أخبرك بكلّ شيء».

قال راتوف: «يبدو وكأنّ بعضهم قد نجا من الهبوط الاضطراري، كطيارنا واثنين من الألمان، وبالاستناد إلى الأرقام التي أعطيتني إيّاها فأحد الألمان مفقود، وعلى كلّ حال ما كانوا لينجوا طويلاً هناك في أعماق الجليد، فهم لم يكونوا يرتدون ثياباً سميكة، ولا يحملون أيّة مؤن، وأشكّ في أنّهم استطاعوا تدفئة أنفسهم، وهم يحملون الذهب معهم، وأيّاً يكن الأمر فالطائرة صغيرة جدّاً ولا يمكن أن يُنقل على متنها بضائع ثقيلة، وإن لم تكن تبحث عن الذهب، فما الذي تبحث عنه؟ لعلك تريد أن تخبرني بما أفعله في هذه الخرابة؟».

«هل قلت إنّ هنالك ستّ جثث فقط؟».

«صحيح ذلك».

«ولكن يجب أن يكون على متنها سبع جثث».

«هل هناك شيء ما يجب أن نقلق بشأنه؟».

«حسناً، إنّ الرجل السابع لم يظهر أبداً، لعلّهم دفنوه في مكان بعيد، أو ربما كان يحاول الوصول إلى المدينة».

ردّد راتوف: «إن لم تكن الطائرة تحمل ذهباً، فما الذي تسعى وراءه يا سيّدي؟».

قال كار محذّراً: «راتوف، إن كنت أريد شخصاً يسأل كثيراً ما كنت

لأستعين بك، وأنت تعلم ذلك».

«في الحقيبة؟».

قال راتوف بنبرة تذمّر واضحة: «راتوف! لا تعبث معي، نفّذ فقط ما تؤمر به، لقد اخترناك لتنفيذ هذه المهمّة لسبب وجيه».

فقرّر راتوف ألّا يتمادى في طرح الأسئلة بعد ذلك.

«الشيء الوحيد الذي وجدته كان حقيبة الجنرال التي لم أفتحها، وهناك أيضاً دفتر التسجيلات، ودفتر آخر ولا أعرف ما كُتب فيهما، فلم أنظر إلى أيّ منهما».

«حسناً، أكرّر، اجلب كلّ الملفات والحقائب والكتب وجوازات السفر والأسماء، وأيّ شيء مكتوب تجده على متن الطائرة، واتركه أمانة لديك، راتوف، لا تسمح لأحد أن يصل إلى هذه الأشياء ولا تسلّمها لأحد غيري، وأشرف على العملية حتّى نهايتها، واجلب لي المطلوب حتّى آخر قصاصة».

«بالطبع سيّدي».

«خذ بنصيحتي، ستسدي لنفسك معروفاً إذا ظللت تجهل محتوى هذه الملّفات، لقد سبق وخضنا في هذا الموضوع، فاتبع الخطّة وحسب».

«يمكنك دائماً أن تعتمد عليّ يا سّيدي».

تجاهل كار الحساسّية التي اعتقد أنّها كانت واضحة في صوت راتوف، وقال: «متى ستصل إلى كيفلافيك؟».

«سأطير في غضون ساعتين، ولا أظنّ أنّ العاصفة ستؤخّرنا «.

«ممتاز»، وأنهيا المحادثة.

تفحّص راتوف الحقيبة والمخطّط والدفترين وباقي الأغراض التي كان قد كدّسها على كرسيّ. لقد سمع على مرّ السنوات قصصاً لا تعد ولا تحصى حول محتوى الطائرة، ولكن عندما وصل إلى هدفه وجد أنّ هذا المحتوى كان عبارة عن ملفّات فحسب، وكلّ الحماسة والترقّب والتعطّش إلى اكتشاف

محتواها الذي لطالما دفعه إلى القيام بالمهمّة قد تلاشى، فلا ذهب ولا قنبلة ولا سلاح نوويّ، ولا شيء معهود عن النازيين الذين يعدّون مجرمي حرب بحسب ما استطاع معرفته عنهم، كما لا تحف فنّية ولا ألماس حتّى، وكلّ ما فيها الملفّات فقط.

ملفّات عديمة القيمة، وقصاصات من ورق أصفر لا فائدة لها.

أخذ الملفّات إلى خيمته، وهو لا يزال غاضباً ومرتبكاً من شدّة خيبته، وداخل الخيمة حيث سرير السفر، والكرسي والمكتب القابل للطيّ، جلس وحده وتفحّص أوّلاً دفتر التسجيلات ملاحظاً زمان ومكان انطلاق الطائرة، ومسارها المقرّر، ثم تفحّص بعد ذلك الدفتر الأحمر، فتفاجأ بأنّ الطيار كان قد احتفظ بمذكّرة دوّن فيها أيّامه الأخيرة على النهر الجليديّ، ثم نحّى هذا الدفتر جانباً، وفتح الحقيبة، وأخرج منها ثلاثة ملفّات مربوطة بخيوط بيضاء رفيعة، ففتح الملف الأوّل، وقلّب صفحاته بسرعة وقد تبيّن أنّها كانت مكتوبة بالألمانية وكانت تلك الصفحات الصفراء خشنة، ومهترئة، واحتوى الملفّ الثاني على أوراق مشابهة للأوّل.

فكان يعرف القليل من اللغة الألمانية إذ سبق له أن خدم في شبابه لسنتين في القاعدة الأميركية ضمن رامشتاين، ولكنّ معرفته لم تخدمه في استيعاب المعنى الدقيق للصفحات.

احتوى الملفّ الثالث على عدّة أوراق أيضاً، وكلّها كانت مصنّفة على أنّها سرّية، وكانت كلّ النصوص المكتوبة فيها باللغة الإنكليزية، ومن ضمن الأوراق تلك تقرير وحيد غير موقّع، فانهمك راتوف في قراءته، واطّلع على المادّة بسرعة، وبدأ تدريجياً بفهم محتوى الملفّات، فنهض بسرعة عن كرسيّه، وشرع يروح جيئة وذهاباً ضمن حدود خيمته الضيّقة، وهو يهمس إلى نفسه: «هل هذا ممكن؟».

بدا راتوف مصدوماً بعد أن انتهى من القراءة، وحدّق بذهول إلى الأوراق

والحقيبة وجوازات السفر والدفتر، لقد استغرقه الأمر بعض الوقت قبل أن يستوعب ملابسات القضيّة، ويربطها بالذي كان يعرفه مسبقاً، فتفحص الأسماء المذكورة، ودقّق في التواقيع مجدّداً، فكانت مألوفة إلى درجة كبيرة.

استجمع شيئاً فشيئاً أفكاره المبعثرة، واستوعب الأكاذيب، والمعلومات المضلّلة التي نُشرت، كما استوعب في الحال أهمّيّة الطائرة، ولماذا بحثوا عنها طيلة عقود.

استاء راتوف عندما اكتشف كامل الحقيقة، إذا كانوا قد نفّذوا هذه الخطّة حقّاً، وشرعوا في ترتيب هذه العملية العسكرية الضخمة ليحموا هذا السرّ الدفين، فمن المؤكّد أنّه في خطر؟ وأدرك أنّه سيتمّ التخلّص منه عند أوّل فرصة متاحة، وأنّهم سيقتلونه سواء أقرأ الملفّات أم لا. وقد أدرك كار منذ البداية أنّ نجاح العملية سيكون إنذاراً بموته فابتسم بأسى لسخرية القدر، فهو كان سيفعل الشيء ذاته لو كان مكانهم، ثم نظر إلى الملفّات مجدّداً، وهزّ برأسه.

هزّت الريح الخيمة بقوّة فشقتها، وبدأت تتلاعب بها جيئة وذهاباً معيدة راتوف إلى الواقع مجدّداً، وعندما خرج كان الثلج يتساقط بغزارة لدرجة أنّه لم يستطع حتّى أن يرى يده أمام وجهه.

شاهد كار النهر الجليديّ، وهو يتلاشى إلى أن اختفى أخيراً عن الشاشة، إنّ من يعرفون راتوف حقّ المعرفة قليلون، أمّا كار فعرف مباشرة ما الذي كان يفعله مدير العملية في تلك الأثناء.

غادر كار الغرفة، وهو يمشي بتثاقل عبر غرفة التحكّم إلى الرواق عائداً إلى مكتبه، وأغلق الباب خلفه بإحكام، وجلس إلى مكتبه، ثم أمسك بسمّاعة الهاتف فكان الوقت قد حان للشروع في الخطوة التالية.

لقد طلب رقماً من بوينس آيرس، ثم طلب تذكرة ذهاب إلى آيسلندا.

20

وزارة الخارجية، ريكيافيك، السبت 30 كانون الثاني، الساعة السابعة، والنصف صباحاً بتوقيت غرينيتش

لقد اعتنت كريستين بإلياس منذ أن جاء إلى هذا العالم، وكان عمرها حينها عشر سنوات، فاهتمت بالرضيع كثيراً منذ اللحظة الأولى، وفي الحقيقة اهتمّت به أكثر من والديها، فهي تتذكّر أنّها لطالما تمنّت أن تنجب أمّها لها أخاً صغيراً، لأنّها كانت مستاءة من البقاء فتاة وحيدة، فحسدت رفاقها على إخوتهم وأخواتهم، ولكنّ والديها لم يستطيعا أن يتحمّلا الضوضاء، لذا كان المنزل عبارة عن جنّة من الهدوء والسكينة، فهما كانا يقضيان ساعات طويلة في المكتب، وعندما يعودان في المساء يجلبان عملهما إلى المنزل، وهكذا لم يكن لديهما الوقت للاهتمام بكريستين، ما جعلها تتعلّم أن تطوف في المنزل من دون إحداث جلبة، وأن تعتني بنفسها وألّا تزعجهما، ولكنّ هذا لم يشكّل فارقاً في نهاية المطاف، حيث إنّ كل ما تمنّته كان قريباً منها.

وعندما كانت تعود بالتفكير إلى الوراء لم تستطع أن تفهم لماذا أنجبا إلياس، فعندما كبرا تناقشا مطوّلاً في هذا الأمر ولكن من دون الوصول إلى سبب منطقيّ.

بدا أنّ ولادة إلياس شكّلت صدمة لهما، فعندما كان أخوها يشاغب

لاحظت كريستين مدى انزعاج والديها وكأنّهما كانا يمقتان كلّ لحظة يمضيانها برفقته، فقد وجداه مصدر إزعاج، وتعاملا معه بلا مبالاة، وشعور كريستين تجاه هذا الإهمال قرّبها أكثر من أخيها، ومع ذلك فإنّ والديهما لم يكونا عنيفين قطّ، ولم يضرباهما أبداً، كما لم يفرضا عليهما أيّ عقاب قاسٍ، وكان الأصعب من ذلك ازدياد درجة لامبالاتهما عندما كان الولدان يسيئان التصرّف، فتشتدّ وطأة الصمت حينها، ويستحوذ الهدوء والسكينة على الجوّ.

في الوقت الذي اعتادت فيه كريستين أن تتحرّك بهدوء في المنزل محاولة ألّا تزعج والديها من دون داعٍ معتمدة على نفسها تماماً، كما كان هنالك بعض الدروس التي لم يستوعبها إلياس قطّ، بالإضافة إلى كونه مشاغباً ومتطلّباً، ولديه حركة مفرطة بحسب ما قاله والداها. وكان انزعاجهما واضحاً أكثر عندما كان إلياس يبكي كثيراً خلال أشهره الثلاثة الأولى بعد إحضاره من المشفى إلى المنزل، وفي بعض الأوقات كانت كريستين تبكي معه، وخلال فترة طفولته كان يسكب الحليب دوماً على الأرض، ويوقع حساءه، أو يكسر التحف، ما حمّل كريستين مسؤولية كبيرة جعلتها تشعر بالاختناق والضيق، فكانت تلحق به دوماً محاولة أن تحدّ من أذاه وتنظّف ما لوّثه، وعندما بلغت الرابعة عشرة كانت مربّية إلياس الوحيدة، فهي من توصله إلى الحضانة النهارية وهي في طريقها إلى المدرسة، وتعيده إلى البيت بعد انتهاء دوام مدرستها فتطعمه، وتلعب معه، ثمّ تضعه في الفراش في الوقت المناسب، وتقرأ له القصص، ما جعلها تشعر وكأنّه ابنها، والأهمّ من ذلك أنّها كانت تحاول جاهدة أن تحافظ على الهدوء، وتحرص على ألّا ينزعج والداها، فهي تتحمّل تلك المسؤوليّة.

استغرق الأمر عدّة سنوات لتكتشف سبب لامبالاتهما وإهمالهما لهما، حين لاحظت بعض الإشارات التي لم تستوعبها تماماً إلى أن كبرت، فكانت تنتشر قوارير في أماكن غريبة إمّا فارغة أو نصف ممتلئة بسائل شفّاف ملوّن،

إمّا في خزانة المطبخ، أو في خزائن الحمام، أو تحت سريرهما، ولم تتعرّف إلى محتواها في ذلك الحين، وكانت تتركها مكانها، ولا تحرّكها من مخبئها، ثم لا تلبث تلك القوارير أن تختفي من تلقاء نفسها.

كانت هنالك أيضاً إشارات أكثر إحباطاً حيث كان والدها يذهب في رحلات عمل طويلة أو يظلّ طريح الفراش لأيّام معدودة، كما كانت أمّها في بعض الأوقات تظلّ طوال اليوم في حالة خمول، وترى أشياء لم يستطع أحد غيرها رؤيتها، ولكنّ هذا كان نادر الحدوث، وفي وقت لاحق اعتادت كريستين على أن تتعايش مع هذا الوضع، كما اعتاد إلياس عليه لاحقاً.

ذات مرّة قالت لها أمّها: «أنا أتمنّى حقّاً أن نتمكّن من قضاء وقت أطول برفقتك، والشهادة لله نحن فعلنا ما في وسعنا» ففاحت وهي تكلّمها تلك الرائحة الغريبة التي كانت تنبعث من فمها، وكانت أمّها ثملة عندما اصطدمت سيّارتها بعمود إنارة وهي تقود بسرعة 90 كيلومتراً في الساعة.

اجتاحت كلّ هذه الذكريات ذهن كريستين، وهي تقف وراء مكتبها، تصغي إلى توصيف حالة أخيها من قبل شخص غريب تماماً، فبعد أن غادرت وستيف شقّة سارة شتاينكامب في ثينغهولت توجّها مباشرة إلى الوزارة التي لا تبعد أكثر من عشر دقائق سيراً على الأقدام.

أعادت السمّاعة إلى مكانها ببطء، وعيناها مغرورقتان بالدمع، فهي لم تنم منذ أربع وعشرين ساعة، ولا تزال هناك تكتّلات من الدم على أذنها ووجنتها، وقد طغى عليها شعور بالأسى والندم.

قالت بصوت خافت: «إنّهم لا يعتقدون أنّه سيعيش».

أخذ ستيف السمّاعة منها، وعرّف بنفسه إلى يوليوس وهو قائد فريق الإنقاذ، وكان الوقت مبكراً جدّاً، ولم يكن قد أتى أحد إلى العمل بعد، ولكنّ الحارس سمح لهما بالدخول لأنّه يعرف كريستين، ولم ينويا أن يمكثا طويلاً.

في تلك الأثناء، عرف ستيف الأمر برمّته، فقد وجدوا جسد جوان

المضروب بشدّة في شرخ ما، إلى جانب إلياس الذي وقع في الشرخ نفسه، ولكنّه لا يزال على قيد الحياة، وعلى الرغم من هذا فقد كان يوليوس مجبراً على أن يقول إنّ فرصته في البقاء حيّاً ضئيلة، وإنّ حالته سيّئة جدّاً، وإنّه وفريقه في طريقهم إلى المخيّم حيث يتوقّعون قدوم مروحية من قوات الدفاع قريباً، ولكنّهم لم يكونوا متأكّدين من وصولهم إلى المخيّم قبل هبوب العاصفة.

سأل ستيف: «هل تمكّن إلياس من قول أيّ شيء يتعلّق بالحادث؟»، أجاب يوليوس: «لم يذكر سوى اسم شقيقته».

استجمعت كريستين قواها إلى حدّ يمكّنها من الإمساك بالسمّاعة مجدّداً، وقالت برزانة: «لم يتعرّض إلياس لحادث، فهناك جنود أميركيون، وطائرة غارقة في الجليد تربطهم بها علاقة ما في منطقة على سطح النهر الجليدي، ومن سوء حظّ إلياس وجوان أنّهما رأياهم فاعتقلوهما، وألقوا بهما في الشرخ.

سأل يوليوس: «هل تعلمين أين بالضبط؟»، لقد سمعت كريستين صفير الرياح ينبعث من الهاتف، فكان يوليوس على زلّاجة، واضطرّ إلى أن يصرخ لتسمعه.

«نحن نعتقد أنّهم في القسم الجنوبي الشرقي من النهر الجليدي، لقد تحدّثنا مع طيار قديم اعتاد أن يقوم برحلات استطلاع في المنطقة، وسوف أذهب إلى هناك، ولكنّني لا أعلم ما المساعدة التي يمكننا الحصول عليها، حيث إنّ القوات الأميركية قد سيطرت على القاعدة في ميدنيشيدي، والسفارة في ريكيافيك، وليس لديّ أدنى فكرة إن كانت الحكومة الأيسلندية متورّطة في هذا أم لا، وتريد الشرطة أن تحقّق معي بشأن جريمة قتل لذلك لا أستطيع اللجوء إليهم».

«جريمة قتل؟».

قالت كريستين: «إنها قصّة طويلة».

كانت كريستين قد سمعت بلاغ الشرطة عبر الراديو الذي يعلن أنّها

مطلوبة للتحقيق في جريمة قتل رجل وُجد في شقّتها غرب ريكيافيك، فشعرت فوراً بأنّهم يحاولون توريطها بطريقة ما.

تابعت كريستين: «إنّ الشيء الأهمّ الآن، هل أستطيع أن ألجأ إليكم إذا توصّلنا إلى شيء؟ وإذا وجدنا الجنود، والطائرة هل من الممكن أن يساعدنا فريقك؟».

«لك هذا، ولكن كريستين...».

«ماذا؟».

«إنه نهر جليدي ضخم للغاية».

«أعلم هذا، ولكن كم عدد أفراد فريقك؟».

«نحن سبعون شخصاً، ولكن علينا أن ننقل جوان وإلياس جوّاً إلى البلدة، وبعدها يمكننا الشروع في البحث عن هؤلاء الجنود، ولكن في المقام الأوّل يجب أن ننتظر مروحية قوات الدفاع».

«لماذا لا تستعينون بمروحية خفر السواحل؟».

«إنهّا مشغولة.»

«يوليوس، أنا لست متأكّدة من أنك ستحصل على أية مساعدة من القاعدة في هذه الأثناء، فهناك طاقم آخر يتولّاها الآن، وحسب ما أعتقد أشكّ في أنّهم سيؤمّنون أيّ مساعدة.»

«إنهّم يسوّون الأمر في المخيّم، وليس لدي أدنى فكرة عمّا يجري في القاعدة، ولكنّني خسرت بالفعل رجلاً من رجالي، والآخر -عليّ أن أكون صريحاً معك كريستين- في حالة حرجة جدّاً، وهناك عاصفة على وشك الهبوب في هذا المكان، وأنت تقولين لي إنّني لن أحصل على المساعدة التي أحتاج إليها بسبب انقلاب ما للقوّات الخاصة؟ أنا أتساءل-وعليّ أن أسألك بصراحة-هل فقدت صوابك؟ لم أحظَ بمثل هذه المحادثة الغريبة في حياتي إلّا عندما تحدّثت إليك خلال هاتين المرّتين».

«أنا أعلم ذلك، وقد تساءلت حول الأمر ذاته بدوري، ولكنّ هناك سبباً لاحتضار أخي المستلقي بين يديك، والسبب معقّد جدّاً، ولا نعلم لا أنا ولا أنت ما هو، وأنا أقول بوضوح إنّني لست متأكّدة من أنّك ستحظى بمروحية قوّات الدفاع، واتّصل بخفر السواحل، ولا تستسلم قبل أن يرسلوا إليك مروحية، وأصرّ على إرسالها مهما قالوا لك من أعذار، كي لا تستعين بمروحية القاعدة».

صرخ يوليوس: «لقد فهمت ذلك».

«وبعد ذلك ترقّب أن تسمع منّي أخباراً مجدّداً»، والتفتت كريستين نحو ستيف، وقالت: «ستيف متى سنقابل صديقتك؟ هل كان اسمها مونيكا؟».

أجاب ستيف: «لاحقاً، وعلينا أن نرتاح حتّى ذلك الوقت».

«نرتاح؟».

قال ستيف بحذر: «إلياس لا يزال على قيد الحياة، وهناك أمل بنجاته».

قالت كريستين: «لم يفلحوا في قتله، ولن يفلتوا بفعلتهم هذه، سوف نقابل مونيكا ثم سنذهب إلى النهر الجليدي».

سأل ستيف بتخوّف: «إذاً سنحتاج إلى عتاد ودليل وسيارة دفع رباعي، ولكن أين سنجد كلّ هذا؟».

«علينا أن نجد الأخوين اللذين ذكرهما ثومبسون، وإن كانا لا يزالان على قيد الحياة فسيساعداننا، أليس كذلك؟ وإن لم نستطع أن نجدهما فسنسأل الناس الذين يعيشون هناك، وأعتقد أنّني أعرف كيف يمكنني الحصول على سيارة دفع رباعي».

«علينا أن نفكّر مليّاً حول ما يمكننا تجهيزه ضدّ عدد كبير من الجنود».

أجابت كريستين: «ليس لديّ أدنى فكرة حول ذلك، ولكن عليّ أن أرى ماذا يجري بأمّ عينيّ، وعليّ أن أكتشف أيضاً ما الذي يخطّطون له».

على الرغم من إحباطها بسبب حالة إلياس، ولكن لم يعد الأمر يقتصر

على حالة أخيها، بل كان غضبها الشديد حافزها، كما كان هناك دوافع أخرى لم تستطع أن تحدّدها تدفعها إلى المضيّ قدماً.

لقد خارت كلّ قواها، ووصلت إلى حالة تخطّت فيها مستوى التعب، لقد أرادت أن تعرف ماذا احتوت تلك الطائرة، وعزمت على أن تكتشف ذلك، وعندما ستكتشف السرّ، ستعلنه أمام الجميع، وتفضح هؤلاء الأوغاد الذين حاولوا أن يقتلوا أخاها، وأفلحوا في قتل صديقه.

تابعت كريستين: «ولكن عليّ أن أتبيّن الحدث الذي جرى في العام 1967».

كانت غرفة المطالعة التابعة للمكتبة الوطنية خالية، والصوت الوحيد الذي يخترق الصمت كان صوت كريستين وهي تحرّك عجلة جهاز غير متطوّر بسرعة، وهي تبحث في أفلام مصغّرة عن عناوين صحف من ستينيّات القرن العشرين.

جلست أمام الجهاز القديم لقراءة الميكروفيش، وهي تشاهد الأوراق تتوالى أمامها الواحدة تلو الأخرى.

إنّ رقم النسخة المكتوب على كلّ فيلم مصغّر كان يعتمد على حجم الصحيفة حيث كانت تحفظ أعداد سنوات عدّة على الفيلم ذاته، فراقبت كريستين العناوين الرئيسة، وهي تمرّ أمامها، فكان التاريخ يُعرض أمام كريستين سريعاً: حرب فيتنام، واغتيال مارتن لوثر كينغ، وبوبي كينيدي، واحتجاج الطلّاب في باريس عام 1968، وحملة نيكسون الانتخابية، لقد ارتاحت في هذا المكان، حيث نعمت بالسكون الذي ساد غرفة المطالعة، وكانت شاكرة لمساعدة ستيف لها، ومقدّرة عونه، ومواقفه الرزينة، ولكنّها حظيت أخيراً بوقت يمكّنها من أن تتمالك نفسها، وتستوعب الذي حصل خلال الساعات القليلة الأخيرة، لتفكّر في الخطوة التالية.

في تلك الأثناء، ذهب ستيف إلى فندق صغير في شارع خلفيّ قريب،

وقال إنّه يحتاج إلى الغرفة ليوم واحد، وكانت معه بعض الدولارات فأسرع الموظّف إلى أخذ النقود منه، ولم يتكبّد عناء وضع اسمه في سجّل الزوّار، وقد خطّط وكريستين للذهاب في وقت لاحق من هذا اليوم إلى النهر الجليدي، ولكنّه عزم قبل هذا على أن يجمع معلومات أكثر عن العملية التي على السطح الجليديّ عبر اتّصاله ببعض الأشخاص، ومعرفة ما الذي يستطيعون إخباره به، فلم يتسنَّ له الوقت للتفكير منذ أن قرعت كريستين بابه مساء أمس، في تلك الأثناء اغتنم الفرصة ليستوعب أحداث الليلة محاولاً أن يسترجع ما مرّ به، فقد كانت كريستين بوضوح في خطر، وكان سعيداً بقدرته على مساعدتها على الرغم من أنّه لم يفهم تماماً ما الذي كان يجري، ولكنّه كان راضياً ما دامت كريستين في حاجة إليه.

وجدت كريستين زيارة روّاد الفضاء عام 1968، وكان هناك خمسة وعشرون رجلاً، وقد تتبّعت الصحافة كلّ تحرّكاتهم، وكان اسم أحد الطيارين الذين معهم إيان باركر، وهذا هو اسم الشخص الذي اعتاد أن يقود طائرات السكوربيون حسب ما ذكره ثومبسون، وكان عضواً أيضاً في المجموعة السابقة حيث إنّ الصحيفة ذكّرت قرّاءها بأنّ ثمانية روّاد فضاء كانوا قد أتوا إلى أيسلندا في مهمّة تدريبية في العام 1968، وفي هذه الحادثة كانت المجموعة قد أخذت إلى المناطق الداخلية غير المأهولة، وإلى الصحراء البركانية حول هيرديبرايدارلينديراند اسكجا، وأعيدت هذه الرحلة عندما زار نيل أرمسترونغ، وروّاد الفضاء زملاؤه البلاد، فكان هو العضو الوحيد من فريقه الذي قد تلقّى وسام أجنحة الفضاء، والوحيد الذي طاف في الفضاء حقّاً حيث كان قد قاد مركبة الفضاء جيميني 8 عام 1966 خلال أوّل عملية تتمّ بواسطة إنسان داخل مركبتي فضاء تنطلقان ضمن المدارات الفضائية.

وبشكل بديهي كان أرمسترونغ الأكثر أهمّية.

وصفه المقال على أنّه رجل رزين ذو قصّة شعر قصيرة، وهادئ وجادّ

ومهتمّ بالتحدّيات التقنية التي يشكّلها السفر في الفضاء، كما نقل عنه أن على برنامج الولايات المتّحدة الأميركية الفضائي أن يضع في اعتباره كمّية الانتباه الكبيرة التي كان يجذبها أينما ذهب.

خاطبت كريستين نفسها قائلة: «كمّية الانتباه الكبيرة التي كان يجذبها أينما ذهب».

في بادئ الأمر، لم يكن لدى صديقها السابق المحامي عمر أيّة رغبة في إعارتها السيارة، وفي الواقع كان يميل إلى أن يتّصل بالشرطة عندما ظهرت كريستين من دون سابق إنذار في مكتبه في مركز البلدة.

كان قد سمع البلاغ عبر الراديو، وكان من المؤكّد ستُنشر صور لها عبر أخبار التلفاز ذلك المساء، وفي صحف اليوم التالي.

اندفع عمر عندما رآها تقف عند باب مكتبه قائلاً: «بالله عليك كريستين ما الذي يجري».

سألته كريستين: «ماذا سمعت؟».

قال عمر، وهو ينهض عن كرسيّه وراء مكتبه: «كلّ ما أعرفه أنّك مطلوبة للتحقيق بشأن رجل مقتول في شقّتك».

أكّدت له قائلة: «لا علاقة لي بالأمر».

«لم يبدُ الأمر هكذا، لماذا تهربين من العدالة؟ لا بدّ من أنّ هناك سوء تفاهم أليس كذلك».

قالت كريستين، وهي تغلق الباب: «هدّئ من روعك، قصدتك لطلب خدمة منك».

«خدمة؟».

«أجل، أريد استعارة سيّارتك الجيب».

«سيّارتي الجيب؟».

«أجل. انظر سوف أخبرك بالقّصة كاملة عندما يتسنّى لي الوقت، ولكنني

الآن في عجلة من أمري، وليس لديّ من ألجأ إليه سواك».

وقف وحدّق إليها، وكأنّها غريبة عنه. كان رجلاً طويلاً، ووسيماً وذا عينين بنّيتين جذّابتين، وقد سحرها سابقاً خلال حفلة أقامتها جمعية قانونية، وبعد تلك الحفلة بات يشكّل جزءاً مهمّاً من حياتها خلال ثلاث سنوات.

قالت كريستين: «أنا يائسة، وإن أعرتني سيّارتك فستسدي لي معروفاً كبيراً».

سألها بصوت رقيق: «هل أنت في خطر ما؟»، وتذكّرت بعد ذلك أنّه وعلى الرغم من كلّ عيوبه يمكنه أن يكون إنسانيّاً في تعامله مع الآخرين أحياناً.

فكذبت وقالت: «لا، أنا أفعل هذا لكي أتواصل مع الشرطة في أقرب وقت ممكن، ولكن عليّ أن أفعل شيئاً أوّلاً، وأنت تستطيع مساعدتي».

«ما الذي تخطّطين للقيام به بواسطة سيّارة الجيب».

«سأزور الريف لفترة قصيرة، ولن أمكث طويلاً صدّقني».

تردّد عمر في ردّه بعد أن أدرك مدى يأس كريستين، ولأنّه لم يملك سبباً مقنعاً ليرفض طلبها، أردف قائلاً: « حتّى نهاية اليوم فقط؟».

هزّت رأسها موافقة.

«وستعيدينها إلى مكانها في نهاية هذا اليوم؟».

«أجل، شكراً جزيلاً عمر، أعرف أنّني أستطيع الاعتماد عليك».

«إن لم تعيديها فسأتوجّه إلى الشرطة مباشرة».

قالت كريستين، وهي تقبّله على خده: «لا مشكلة، لا تقلق «.

«هل أنت من قتل الرجل؟».

«بالطبع لا، لا تكن سخيفاً، أعدك أنّني سأخبرك بالتفاصيل عندما أعود».

إنّها تجلس الآن وستيف في سيّارة باجيرو زرقاء فخمة وجديدة، فقد كانت الجيب مجهّزة بهاتف للسيّارة، ونوافذ معتمة، وبالإضافة إلى الفترة

القصيرة التي أمضتها بارتياح في المكتبة، فقد كانت تلك المرّة الأولى خلال الثماني عشرة ساعة الأخيرة التي لم تشعر فيها كريستين بأنها مطاردة، لقد قاومت رغبتها في عدم مغادرة مقعد السيّارة الجلدي الدافئ.

وجدت مكاناً ركنت فيه السيارة أمام بائع زهور قرب المطعم حيث مكّنهما من مراقبة الحركة الوافدة، والخارجة من الحانة، وأوشكت الساعة أن تبلغ الرابعة، وكان الغسق يغشى المكان.

كان هناك مجموعة من الرجال يقفون خارج الحانة، ويرتدون سترات سميكة، ومعاطف جلدية، وبناطيل جينز، فاعتقدت كريستين أنهّم صيّادون، وبعد قليل دخل الرجال المطعم ثم تبعهم ثنائي يافع، وخرج رجل سمين يرتدي سترة مطرية سميكة.

كانت الساعة الرابعة وعشر دقائق عندما وكز ستيف كريستين.

قال ستيف وهو يشير إلى امرأة طويلة، ونحيلة في الأربعينات من عمرها ذات شعر داكن، وترتدي معطفاً قشدي اللون، وتضع حزاماً حول خصرها: «هذه هي مونيكا».

لقد أسرعت إلى الداخل ثم انتظرا ليراقبا ما إذا كان أحد يتبعها، وبعدها ترجّلا من السيارة، فرأى ستيف، وهو ينظر من النافذة أنّ مونيكا قد جلست في زاوية في القسم الأخير من المطعم، وكان قد اجتمع الصيّادون أمام البار محدثين جلبة، فكانوا يضحكون بصوت عال، ويصرخون. وقد جلس أربعة رجال بجانب إحدى النوافذ الكبيرة المواجهة للشارع محاولين أن يتجاهلوا الصيّادين، عدا ذلك فإنّ الطاولة الفردية كانت هي الوحيدة المشغولة.

استُخدمت الألواح الخشبية في الديكور الداخلي للمطعم، وكان المكان مفروشاً بطاولات من خشب ريفي، وكراسٍ ثقيلة، وكانت هذه محاولة بائسة لإضفاء جوّ إيرلندي، وكان هناك سلّم صغير يؤدّي إلى صالة عليا تُعزف فيها الموسيقى في الأمسيات، فاتّجه كلّ من كريستين، وستيف إلى الزاوية، وجلسا

إلى جانب مونيكا.

سألت مونيكا في اللحظة التي رأتهما فيها، والكلمات تنطلق ببطء من فمها، وقد بدت مضطربة، وحبيبات من العرق تتجمع فوق شفتها العليا: «ماذا يحصل يا ستيف؟ ما الذي يجري بحقّ الجحيم؟».

قال ستيف: «لا أعرف، أقسم بالله إنّني لا أعرف».

بينما كانا ينتظران مونيكا في الخارج، وهما في الجيب شرح ستيف لكريستين طبيعة علاقته بها، فهو ومونيكا قد اعتادا على أن يعملا معاً عندما كانت تعيش في القاعدة قبل أن تحصل على عملها في مفوضية فولبرايت.

وقد سردا لها أحداث النهار وما جرى ليلة الأمس، واستمعت إليهما وهي في غاية التوتّر والقلق، ولم تكفَّ عن فرك راحتيها، وكأنّها وجدت التركيز صعباً، فلاحظ ستيف أنّها تنظر وراءه بشكل مستمرّ، وهو يتكلّم.

سأل ستيف، وهو ينهي قصّته: «هل عثرت على شيء؟».

أجابت مونيكا، وهي تمرّر يدها عبر شعرها: «لم يقبل أحد أن يتفوّه بكلمة، وكأنّ السفارة في حالة حصار تامّ، فلم أعتد على رؤية الأسلحة هناك، ولكنّ الجميع بات مسلّحاً الآن، وأعتقد أنّ هنالك قوات خاصّة، والوضع يشبه وجود قنبلة من الممكن أن تنفجر في أيّ لحظة، وقد أُجبر معظم موظّفي السفارة على أخذ إجازة، وعندما سألت عمّا يجري قال لي موظّف إنّ الوضع سيسوّى في غضون أيّام قليلة، وإنّ كلّ شيء سيعود كما كان، كما طلب منّي أن أتحلّى بالصبر، فكان لبقاً جدّاً، ولكنّه عكس شعوراً بأنّه لن يتردّد في قتلي في أيّة لحظة إذا سنحت له فرصة للقيام بذلك».

ردّدت كريستين: «في غضون عدّة أيام؟ في غضون عدّة أيّام سيكونون على الأرجح قد غادروا النهر الجليدي، والبلاد أيضاً».

سأل ستيف: «ماذا عن راتوف هذا؟ هل عثرت على أيّ شيء يخصّه؟».

«لا شيء، في الحقيقة لم تتسنَّ لي الفرصة لأبحث عنه أصلاً، ولكن إذا

كان يعمل في الاستخبارات السرّية فمن البديهي ألّا نستطيع أن نتقفّى أثره بسهولة، وأنا لا أعرف حتى إذا كان هذا اسمه المسيحي أو العائلي أو حتى إذا كان هذا اسمه الحقيقي».

أضافت كريستين، وصبرها يوشك أن ينفد: «ولا نحن نعرف، إنّ هذا مجرّد كلام قد سمعته خلسة، وبالنسبة إلى ما نعرفه عن تحرّكات الجنود على النهر الجليدي؟».

«لقد تحدّثت مع صديق لي في القاعدة اسمه إيستمان، وهو أحد الرجال المسؤولين عن عنابر الطائرات، وقال لي إنّ الوضع هناك يكتنفه الغموض، والكلام المنتشر هو أنّ القوات الخاصّة قد وصلت مع طائرة نقل سي- 17 التي تنتظر الآن في تأهّب على أحد المهابط، وإنّه شيء غير معهود حيث لم يسمح لأحد بالاقتراب من الطائرة- لديهم حرّاس لحراستها- ولا بدّ من أنّ هذه القوّات التي وصلت، تضمّ الرجال ذاتهم الذين رآهم أخوك على النهر الجليدي. ولم يعرف إيستمان وجهتهم، إذ إنّ السرّية تحيط بتحرّكاتهم».

سأل ستيف: «ماذا عن الرجلين اللذين حاولا أن يقتلا كريستين؟».

«إنّ السفارة تعجّ بالأشخاص المريبين، وعلى حدّ علمي، فإنّ أيّ واحد منهم قد يكون قاتلاً مأجوراً».

«هل يتعقّبون الهواتف؟».

«أجل يا ستيف، إنّهم يتعقّبون الهواتف».

«هم يعرفون إذاً بكلّ اتّصال هاتفيّ من وإلى السفارة؟».

«هذا الذي أحاول أن أقوله لكما».

«ماذا تقصدين في قولك إنّك تحاولين قول ذلك لنا؟ بالله عليك! إذاً إنّهم يعرفون بشأننا، وبشأن محادثتنا أنا وأنت!» ثم تابع ستيف مذهولاً: «هل خنتنا يا مونيكا؟ هل نصبت لنا هذا الفخّ؟».

عندها نهض ستيف، وهو يسحب كريستين التي لم تكن قد استوعبت

بعد أبعاد ما كانت تقوله لهما مونيكا، ونظر حوله، وهو يتبع مسار نظر مونيكا ليرى ريبلي، وهو يدخل إلى المطعم مرتدياً بذلة تزلّج مبطّنة، لقد سار ببطء، وهو يتّجه إلى حيث يجلسون، فنظر ستيف مجدّداً إلى مونيكا.

وقفت مونيكا وقالت بأسف: «لقد هدّدا بقتل ولدي».

لم تستطع كريستين تصديق ما تراه، وعندما نظرت إلى الباب رأت ريبلي، وهو قادم نحوهم، كما رأت أيضاً بطرف عينها بيتمن، وهو ينزل على الدرج، وكان يرتدي ثياباً مثل ثياب ريبلي، فهما لم يعودا يشبهان شهود يهوه، بل يشبهان الآن السيّاح، ولم يجدا مهرباً من هذا الفخّ، فقد أصبحت هي وستيف محشورين في زاوية المطعم، وفي المكان الذي اختارته مونيكا، لم يكن من مجال للفرار.

قال ريبلي، وهو يدفع كريستين إلى كرسيّها مجدّداً: «المرّة الثالثة ثابتة»، فحدّقت إليه كريستين، وركبتاها ترتعشان، وهوت منهارة على كرسيّها، وجلس ريبلي بجوار مونيكا، وانتشل بيتمن كرسيّاً، وانضمّ إليهم مشيراً إلى ستيف كي يجلس مجدّداً.

قال ريبلي، وهو يبتسم بإشراق: «أليس هذا أليفاً؟ هل الجعة جيّدة هنا؟ قبل أن تفكّرا في فعل أيّ شيء أحمق عليّ أن أعلمكما بأنّنا مسلّحان، ولن نتردّد في قتلكما، لذلك دعونا نفعل هذا بطريقة أكثر تحضّراً».

أضاف بيتمن: «لدينا سيّارة في الخارج، ونودّ أن ندعوكما -من دونك أنت مونيكا بالطبع- للقيام بجولة برفقتنا».

قال ستيف، وهو لايزال يتفحّص وجه مونيكا: «وماذا لو رفضنا الذهاب معكما؟».

ابتسم ريبلي مظهراً صفّاً من الأسنان البيضاء المَقيتة، وقال: «أه، أنت هو الفارس المغوار الذي قابلته في القاعدة أليس كذلك؟».

تابع بيتمن، وهو ينظر إلى كريستين: «يا لهما من ثنائي ساحر»، ثم مدّ يده،

وكأنّه سيداعب خدّها، وأضاف قائلاً: «هل لديك عادة مصاحبة الأميركيين أو ستيف هذا هو الاستثناء؟».

أرجعت كريستين رأسها، ولم يحرّك ستيف ساكناً، فغضّت مونيكا طرفها وهي تشعر بالعار.

قال بيتمن: «حسناً كان هذا اللقاء ممتعاً للغاية، ولكن مع الأسف علينا أن نتحرّك، مونيكا المستعدّة لخيانة أصدقائها بطرفة عين ستغادر أوّلاً، وتنجو بنفسها، وبعدها سأقف ببطء وستيف، ونغادر بكلّ هدوء ثم سيلحق بنا ريبلي، وكريستين، وهذا هو كلّ ما في الأمر، ولا يمكن أن يكون أسهل من ذلك».أن

سأل ستيف: «إلى أين ستأخذاننا؟».

قال بيتمن: «لا تقلق فسنجد بقعة جميلة جدّاً تناسبكما».

سألت كريستين: «ماذا تحوي الطائرة التي على النهر الجليدي؟».

«هذا هو الفضول الذي نجده مثيراً جدّاً، ولكن ألا تعتقدين أنّه من الأفضل أن تدعينا نكمل عملنا؟».

وقف بيتمن ليدع مونيكا تمرّ، فاندفعت مبتعدة عن الطاولة وهي تنظر إلى الأرض، وما إن تجاوزتهم حتّى أسرعت الخطى لتبلغ الباب، من دون أن تلتفت خلفها.

فتحت الباب، واختفت في ظلمة الشتاء.

قال بيتمن وهو يقف ممسكاً بكتف ستيف ويسحبه: «هيا ستيف، انهض»، فوقف ستيف، وهو ينظر بيأس إلى كريستين ثمّ أدار وجهه نحو الباب، ودفعه أمامه، ولكنّه لم يفعل ذلك بعنف كي لا يلفت أيّ انتباه.

قال ريبلي: «حان دورك».

لم يبدُ أنّ الصيّادين، أو أيّاً من الزبائن الآخرين قد لاحظوا ما يحصل، فوقفت كريستين ببطء ثم انطلقت، وقد شعرت بأنّها مرهقة، وأنّ رجليها

ضعيفتـان، وكأنّهمـا لـم تعـودا تقدران علـى حملها، وبدا كلّ مـا يحدث غير حقيقـي، وكأنّـه يحـدث لأحـد آخـر، وكأنّ الزمـن قـد تباطـأ، فاعتـرض أحد الصيّاديـن طريقهـا فجـأة، عندمـا وصلا إلى المشـرب، وهـذا أجبرها على أن تتوقّف، فحاول ريبلي أن يبعده، ولكنّه لم يتزحزح كما لو أنه لم يعره أيّة أهمّيّة، فرأت كريستين ستيف وهو يصعد إلى سيّارة الفورد إكسبلورر البيضاء خارج المطعم، إذاً هكذا كانت ستنتهي القصّة، مجرّد مخطوفين من مطعم مزدحم من دون أن يبديا أدنى مقاومة، يا لها من نهاية مؤلمة!

قالت كريستين بالأيسلنديّة قبل أن يتسنّى للصيّاد الوقت ليقول أيّة كلمة: «لقـد نعتـك بالشـاذّ»، لاحظـت أنه كان يحـدّق إليها عندمـا كانت تجلس مع سـتيف ومونيـكا، ولكنّهـا حاولـت ألّا تنظـر إليه، فقد كانت تعـرف جيّداً نوع الرجـال الذيـن ينظـرون إلى النسـاء برغبة من مسـافات قصيرة، فهم يسـبّبون المتاعب دوماً.

سألها الصياد وهو يتأهّب للهجوم بالفعل: «أحقّاً هذا؟ من قال ذلك؟».

قالت كريستين مشيرة إلى ريبلي: «قال إنّك شاذّ، فقد نعتك بشاذّ لعين».

قـال ريبلـي وهـو يشـدّ على كتف كريسـتين: «لا تتفوّهـي بكلمة أخرى، سيُقتل حبيبك إذا حدث خطب ما هنا».

صرخت كريستين في المطعم، وهي تخلّص نفسها من ريبلي: «لقد قال إنّكم جميعاً مخنّثون».

لقد حاز في تلك الأثناء على اهتمام الصيّادين التامّ، وكان ريبلي يستعدّ إلى أن يشهر سلاحه، ولكنّه لم يتمكّن من ذلك إذ رأت كريستين فوهة مسدّسه وهي تتمايل في يده بعد أن قام الصيّاد الذي كان يتأمّلها بإعجاب، بلكمه على وجهه بقوّة.

وقال الصياد: «سأريك من هو الشاذّ».

وقع ريبلي على الأرض، وعندما أحاط الصيّادون به انسلّت كريسـتين

من بين الحشـد، ونظرت خارجاً إلى سـيّارة الإكسـبلورر، فكان ستيف يجلس في المقعد الخلفيّ، وبيتمن في مقعد السائق وهو يتساءل ما الذي أخّر زميله، وحين مدّ رقبته ليتبيّن ما يجري في المطعم، لم تكن كريستين واثقة ممّا استطاع رؤيته في الداخل.

ثـم لاحظـت وجـود باب خلف المشـرب فوثبت فـوق الطاولة، وهربت عبره، فتبيّن أنّه يؤدّي إلى مطبخ، ثم شاهدت بطرف عينها ريبلي، وهو يحاول أن يبعد عنه الصيّادين قبل أن يسـقط مجدّداً بعد أن انهال الأيسـلنديّون على وجهه وجسـده ضرباً. جرت كريسـتين مسـرعة عبر المطبخ إلى الباب الذي يـؤدّي إلـى فنـاء خلفـيّ صغيـر كان متّصلاً بالشـارع عبر زقـاق ضيّق، وعبرته ثم اختلسـت النظر إلى الشـارع، وهي تختبئ خلف الجدار، فرأت أنّ سـيارة الإكسبلورر البيضاء لم تتحرّك بعد، وتمكنّت من رؤية بيتمن، وستيف داخلها.

أخـذت تتقـدّم نحـو السـيارة، فـرأت بيتمن يومئ إلى سـتيف، ويصرخ في وجهه، ثمّ خرج من السيّارة بعد ذلك، وصفق الباب خلفه بقوّة، وركض صوب المطعم، فركضت كريستين بسرعة، وحاولت بلا تردّد فتح الباب الخلفي، ولكنّها وجدته مقفلاً، وعندما لاحظ ستيف وجودها بدأ يخبط على زجاج النافذة، فهو لم يستطع أن يفتح الباب من الداخل أيضاً، فكان محبوساً داخل السيّارة.

قالـت كريسـتين، وهـي تلهـث: «بحـقّ الله!». ناظـرة حولهـا باضطـراب فوجدت إشارة إنذار صغيرة كانت قد نصبت أمام أعمال طرقيّة قريبة، فجرّتها إلى السيارة، وضربت بها بأقصى ما استطاعت نافذة ستيف، فتحطّم الزجاج، وتناثـرت شـظايا صغيـرة علـى مقاعد السـيارة، وعلى الطريـق، وانطلق جهاز الإنذار في الحال، فرأت ريبلي في المطعم، وهو يلتفت نحوهما.

كان بيتمـن يعاونـه، والصيّـادون قد التفّوا حول المشـرب، فصرخ بيتمن عندما كان ستيف يخرج من النافذة ممزّقاً سترته بالحواف الحادّة للزجاج.

صرخت كريستين، وهي تجري أمام ستيف متجاوزة المطعم: «سيّارتنا!».

لم تجرؤ على النظر خلفها، وكان ستيف يقترب منها وقد استطاعت أن تسمع وقع خطواته خلفها، وهو يتنفّس بصعوبة.

خرج بيتمن من المطعم وأسند رأس ريبلي ثمّ أجلسه على الدرج، وهو يحمل مسدّسه في يده، ويمسح ما يحيط به من غبار، فشاهد كريستين وستيف يقفزان في سيارة الجيب المتوقّفة أمام بائع الزهور.

وصاح شاب مراهقٌ يمسكُ بلوح تزلّج وهو يشير إلى بيتمن: «إنّها الدورية الخاصّة».

تجاهله بيتمن وركض في الشارع ولم يلاحظ أنّ الناس قد توقّفوا وهم يراقبونه وهو يركض حاملاً مسدّسه بيده، لقد ركض منحنياً مثل صيّاد يطارد فريسته، وأسدل ذراعيه إلى الأسفل حتّى كادت فوهة المسدّس تلامس الأرض.

جلست كريستين خلف مقود الباجيرو، وأدارت المفتاح في المشغّل ضاغطة على دوّاسة البنزين، فهدر صوت المحرّك بقوّة، وتراجعت من مكان وقوفها وانطلقت إلى آخر الشارع مخلّفة وراءها دخاناً كثيفاً وصوت صرير الدواليب، وعلى وقع صوت الرصاصات التي أطلقها، ظهر ثقب صغير عند مصدّ الرياح على يمين الرأس وآخر مباشرةً في أسفله، وعلى وقع إطلاق النار من مسدّس بيتمن الذي يركض خلف الباجيرو، تجاوزت كريستين سيّارة تقترب في الاتّجاه المعاكس، الأمر الذي جعل سيّارة الباجيرو تدور خمساً وأربعين درجة، فوضعت مبدّل السرعة على وضعيّة المحرّك التلقائيّة فترافق ذلك مع صوت دويّ قويّ، إلّا أنّ صوت هسهسة الطلقات التي اخترقت الهيكل المعدنيّ جعل كريستين تنخفض آملة بالنجاة، بينما استلقى ستيف على المقعد الجانبيّ، وعيناه متّسعتان من الألم، ومرّت لحظات من الخطر الحقيقيّ، وبيتمن يطاردهما في الشارع ويطلق عليهما وابلاً من الرصاص، لكنّه سرعان ما تخلّى عن المطاردة، وانكمش مظهره وبدا بشكلٍ أصغر في مرآة الرؤية الخلفيّة قبل أن يتوارى عن الأنظار.

21

جنوب آيسلندا السبت 30 كانون الثاني
الساعة 18:00 بتوقيت غرينتش

في رحلتهما شرقاً، توقفا مرتين للتزود بالوقود، وقادت كريستين السيارة طوال الطريق. هناك عاصفة عاتية تعصف بشرق وشمال شرق البلاد وفقاً لما أفادت به مصلحة الأرصاد الجوية، ولكن هنا في الأراضي الجنوبية المنخفضة التي كانا يقودان السيارة في أحضانها، كانت الظروف الجوية جيدة، إذا ما استثنينا تساقط الثلج. يغطي الظلام كلّ شيء، وحركة السير خفيفة على طريق سودورلاند السريع، وكلما توغلا شرقاً قلّت السيارات التي قابلاها. وبعد قليل من الوقت، لم يعد يمر بهما سوى أزواج قليلة من أضواء السيارات التي أنارت سيارة الباجيرو قبل أن تختفي فجأة تماماً كما ظهرت مغرقةً كريستين وستيف في الظلام مجدداً.

أحاطت بهما الهواجس، لم يتحدثا إلا قليلاً عدا عن تلك المرة عندما سمعا تقريراً من المذياع عن حادثة إطلاق النار في وسط المدينة، وترجمت كريستين التقرير لستيف. أدخل رجل يُعتقد أنه على صلة بمطلق النار إلى المستشفى بسبب إصاباته، واعتُقل ثمانية صيادين، ولكن التحقيق معهم غير ممكن في الوقت الحالي لأنّهم لا يزالون تحت تأثير الكحول. كانت الشرطة

تحقق بالروابط بين إطلاق النار وجريمة قتل رونولفور زوفاناسون وتوجه نداءات إلى الشهود في الحادثتين للإدلاء بإفاداتهم. وهناك محامية تعمل في وزارة الخارجية ومطلوبة للتحقيق في أمر علاقتها بجريمة قتل رونولفور لم يقتفَ أثرها بعد. أكدت المصادر أنّها مشتبه بها في جريمة قتل رونولفور الذي كان متورطاً في أعمال غير واضحة المعالم مع الوزارة، وهناك معلومات أنها على صلة بحادثة إطلاق النار في وسط المدينة، ولم تُقدم أية تفاصيل بشأن مطلق النار. لم يُسمع بالحادثة أبداً تقريباً في ريكيافيك حيث تعتبر جرائم إطلاق النار نادرة الحدوث تماماً.

اتصل ستيف بمايكل تومبسون من هاتف السيارة. وفي هذه الأثناء، بحث تومبسون عن معلومات عن المزارع الذي يعيش عند أطراف النهر الجليدي، واستطاع إخبارهما باسم مزرعته.

وبعد أن حصلت كريستين على رقمه من استعلامات الهاتف، اتصلت به لتتأكد من أنّه في المنزل، وقال إنه يرحب بمجيئهما على الرغم من أنّه لا يعرف كيف يمكنه مساعدتهما.

جلسا لفترة من الوقت دون أن ينطقا ببنت شفة.

أخيراً، سألها ستيف وهو يضيّق عينيه بسبب ضوئي سيارة تمر بهما تاركةً إياهما وسط الظلام: «هل فكرت بشأني منذ ذلك الحين؟». كان يجلس طوال الوقت صامتاً وعيناه مركزتان على رتابة الطريق الأبيض أمامهما منذ أن غادرا ريكيافيك.

قالت كريستين: «من وقت لآخر، وحاولت حقّاً أن أشرح لك».

«بالطبع، لم تريدي أن تظهري بمظهر الوضيعة».

«الأمر ليس بهذه البساطة».

«لا أعتقد أنّه بسيط».

«أنا آسفة لجرّك إلى هذه الفوضى الغبية».

«أي فوضى؟ تلك اللعبة بين رعاة البقر والهنود؟». لم يكن هناك فكاهة

في صوته، ولم يكن هناك سوى الضجر.

تاهت كريستين في أفكارها لدقائق.

«جزء من السبب سياسي، أنا معارضة لوجود الجيش الأميركي في ميدنيشيدي. أستطيع فهم أهميته الاستراتيجية خلال الحرب الباردة، ولكن هذا لا يعني أنّني أتفق مع وجوده. لطالما نظرت إليه كلطخة قذرة وسط منظر خلاب. الأمر بهذه البساطة. لا يجب أن يكون للآيسلنديين جيشٌ ومن المؤكد أنّه يجب أن لا يكونوا على علاقة مع جيش ما. لقد باع أشخاص كُثُر ضمائرهم للجيش الأميركي، رجال الأعمال بالأخص. ما كان عليّ أن أسمح لعلاقة ما بيننا أن تكبر إلى هذا الحد ولكن...»

بحثت عن الكلمات الصحيحة.

قال ستيف: «أنت ضد وجود الجيش، وماذا في ذلك؟».

كررت كريستين: «الأمر ليس بهذه البساطة، أنا معارضة لقاعدة الناتو. وليس السبب في ذلك انتمائي إلى منظمة أو شيء كهذا، ولكنّ السبب ينبع من داخلي. لا أستطيع أن أطيق فكرة وجود جيش على أرض آيسلندية، وسواء عندي إن كان هذا الجيش أميركياً أو بريطانياً أو فرنسياً أو روسياً أو صينياً، لن أقبل وجوده أبداً ولو على جثتي. وكما ازداد دوران النقاش حول المال والبطالة والمخزون الاحتياطي والاقتصاد، ازداد شعوري بهذا. ما كان ينبغي أن تؤول الأمور إلى ما آلت إليه. من غير المعقول أن نكون معتمدين مالياً على جيش، ما الذي يجعل منّا هذا؟ ما الذي أصبحنا عليه؟».

«ولكن...»

«مستغلو حروب، لسنا أفضل من مستغلي الحروب، الأمة الآيسلندية اللعينة كلّها».

سأل ستيف بابتسامة ساخرة: «هل أنت شيوعية لعينة؟».

«بالطبع يجب أن أكون شيوعية، ولكنّني لست كذلك، أنا...»

«قومية؟».

«معارضة للجيش».

«ولكنّ نشـاطات القاعدة قلّصت إلى حد هائل، قد يغلقونها في أي يوم قريباً».

«أعتقد أنها وُجدت هنا لتبقى. سـتبقى لألف سـنة، ألا تفهم؟ إلى الأبد. ولا يمكنك تخيّل كم أجد هذا الأمر مرعباً».

تسارعت سيارتهما على الطريق كأنّها سهم من الضوء يثقب عباب الظلام بسرعة مئة وعشرين كيلومتراً في الساعة.

قال ستيف في النهاية: «أنا لست الجيش الأميركي في ميدنيشيدي».

«لا، أعرف، ربما سـرنا في العلاقة أسـرع من اللازم، ربما كان يجب أن يتعرف أحدنا على الآخر بشكل أفضل».

قال ستيف: «دعيني أخبرك من أنا، حتّى لا يكون هناك شكوك في الأمر. أنا نيويوركي، لا هذا ليس صحيحاً تماماً، أنا من ألباني، في نيويورك، وكنت ستعرفين ما الذي أتحدث عنه لو قرأت أي كتاب لويليام كينيدي».

قاطعته كريستين: «أيرون ويد؟».

«هل شاهدت الفيلم؟».

«نعم».

«الكتاب أفضل، ولكنّني لا أستطيع أن أتخيل كيف كان بإمكانهم تصويره بغير هذا الشـكل. أياً يكن الأمر، ألباني مليئة بالإيرلنديين مثلي، والكثير منهم مـن كويـن، هـم ملـح الأرض. هاجر أجدادي في مطلـع القرن هرباً من الفقر، واستقروا مع عائلتهم في ألباني وعاشوا عيش الكفاف ولكنّهم تركوا أطفالهم بحالٍ أفضل. امتهن جدّي التجارة بالجملة واستورد البضائع من إيرلندا وحقق كسـباً محترمـاً منهـا، وتولّـى والـدي العمل من بعده. لا يمكنـك أن تقولي إنّ هذا العمل عظيم ولكنّه جيد. حارب إيرلنديو ألباني وماتوا في الحروب التي

خاضتها الولايات المتحدة في أوروبا واليابان وكوريا وفيتنام. لم يكونوا جنوداً إلا أنّهم انضموا إلى الجيش لأنهم آمنوا بأنّ وطنهم بحاجة إليهم. بالنسبة إليّ، اخترت أن أدرس العلوم السياسية لأنّني أردت أن أفهم ما الذي قاد الولايات المتحدة إلى أن تؤسس قواعد في أماكن مثل هذه، وأن أفهم ما الذي حوّلنا إلى قوة الشرطة في العالم. أعلم كل شيء عن عدائية الناس هنا، ولكن ماذا عن حشر أنوفهم في كلّ شيء؟ الحقيقة أنّني بالكاد عرفت هذا المكان، ومع ذلك، أخبرني أحدهم ذات مرة أنّكم جميعاً منحدرون من الإيرلنديين، لذلك فمن المحتمل أن يكون تشاركك لهذه السيارة معي آمن برغم كلّ شيء».

«عاش بعض الرهبان الإيرلنديين هنا قبل ألف سنة».

«ها أنت ذا تؤيدينني».

«ولكنّني لا أعتقد...».

عندما بدأ هاتف السيارة بالرنين. حدّقا إليه ولكن عندما تحرّك ستيف للإجابة عليه قالت كريستين: «اتركه، إنّه صديقي السابق وحسب، يزعج نفسه بشأن سيارته الجيب الفاخرة».

عندما قادا السيارة إلى ساحة جون، كانت العاصفة الثلجية التي هبّت خلال طريقهم إلى هناك قد تطورت إلى جو عاصف تماماً. وقف المزارع العجوز عند الباب، يمكن رؤيته من خلال ستائر الثلج السميكة، ينيره ضوء الشرفة، شخص أحدب يرتدي بنطالاً من الجينز وينتعل حذاءً. لم يكن هناك أثر للجنود، لقد نقلوا كل معداتهم إلى النهر الجليدي وملأت الرياح التي كانت تعصف عند أطراف الغطاء الثلجي آثارهم وآثار عجلات سياراتهم بالثلج. ركض ستيف وكريستين من سيارة الجيب إلى منزل المزرعة، وأغلق جون الباب خلفهما. ودلّهما إلى غرفة الجلوس حيث رأت كريستين على ضوء المصابيح الخافت صوراً قديمةً للعائلة ورفوفاً من الكتب وستائر سميكة. كانت أجهزة التدفئة على أعلى درجاتها، وعبقت في الهواء رائحة قوية منبعثة

من الإسطبلات. ذهب جون إلى المطبخ ليجهز بعض القهوة بينما ارتاحا.

قال بهدوء: «سمعت بشأن إطلاق النار في ريكيافيك». كانت عيناه مثبتتين على كريستين بينما دعاهما للجلوس. صوته أجش ومتهدّج بعض الشيء، ويداه غليظتانجففهما العمل الشّاق، أما ساقاه فمقوستان قليلاً وملامحه قاسية.

أضاف: «وأعتقد أنّك كريستين التي يسألون عنها في الراديو».

قالت كريستين ببطء وشفافية: «أخي يموت على النهر الجليدي، سقط بين أيادي بعض الجنود الأميركيين هناك، أخذوه ورموا به في أخدود. وجده فريق البحث عنه، وهم يعتقدون أن فرص نجاته تكاد أن تكون معدومة. مات صديقه الذي كان معه. سمعنا أنّك ساعدت هؤلاء الجنود على مرّ السنوات، ودللتهم على طرق النهر الجليدي، وفعلت ما يجب فعله».

لم تهرب لهجة الاتهام في صوتها من جون وبدا متفاجئاً. يا لها من امرأة استثنائية. دائماً ما حافظ هو وأخوه على وعدهما الذي قطعاه لميلر قبل وقت طويل. لم يخبر أي أحد بما عرفه. حتّى بعد أن مات كارل. وها هي هذه المرأة جالسة هنا الآن، تتهمه بالتواطؤ بطريقة ما في موت أخيها. سأل نفسه: ما الذي كان كارل ليفعله؟

قال طواعيةً: «اسم قائد البعثة راتوف».

صاحت كريستين منتصرة: «راتوف! هذا هو، هذا هو الرجل الذي ذكروه».

«لا يشبه ميلر».

سأل ستيف بعد أن التقطت أذناه الاسم على الرغم من أنّهما يتحدثان بالآيسلندية: «من هو ميلر؟».

«كولونيل في الجيش الأميركي، كان مسؤولاً عن البعثة الأولى في عام 1945».

سألت كريستين بعد أن ترجمت إجابة جون: «هل كانت الطائرة الموجودة على النهر الجليدي أميركية وليست ألمانية؟»

قال جون ببطء: «لا، على العكس، أعتقد أنّه من المرجح أكثر أن تكون

ألمانيـة. تحطّمـت فـي نهايـة الحـرب العالميـة الثانية، طارت مـن فوق منزلنا واختفـت فـي الظـلام. علمنـا أنّها سـقطت، كانت تطير علـى ارتفاع منخفض جداً، أخبرنا ميلر أنّ الطائرة كانت تحمل أسـلحة بيولوجية خطيرة، نوعاً من الفيروسـات التي طوّرها الألمان. لهذا السـبب كانوا مضطرين لإيجادها. لم يطرأ على فكرنا ألّا نساعدهم».

«هل تحطّمت قبل نهاية الحرب؟»

«قبل أن يُعلن السلام بوقت قصير».

قالت كريستين وهي تنظر إلى ستيف: «هذا يتلاءم مع ما أخبرتنا به سارة. قالـت إنّـه كان هنـاك ألمان على متنها، انتظر، فيروس؟» توجهت بحديثها إلى جون: «أيّ نوع من الفيروسات؟»

«كان ميلر غامضاً بشدة بشأن هذا. شعرت أنّه أفصح بأكثر مما كان يجب أن يفصح به، كنّا متفقين، لم نحلم أنا وكارل أبداً بخيانة ثقته».

نقّل جون نظره بين كريستين وستيف.

أضاف: «قال ميلر أنّ الطيار كان أخاه».

قالت كريستين: «أخوه؟ على متن طائرة ألمانية؟».

أجـاب جـون: «لا أعـرف، لم يقصـد أن يخبرنا، كان تحت وطأة ضغوط هائلة وسقط الكلام سهواً منه».

«هل أخبرك ميلر أنّ الطائرة ألمانية؟».

«نعم».

سألت كريستين محتارة: «لماذا كان يقودها طيار أميركي؟».

وضّـح جـون: «عندمـا رأيت وأخي الطائرة تطيـر من فوق منزل المزرعة في الظلام قبل كل هذه السنوات عرفنا أنّها كبيرة بما يكفي لأن تكون من نوع (جو 52) بالطبع لم يكن أحد ليعرفها هذه الأيام. كانت من نفس نموذج طائرة هيملر الخاصة. لم نعلم حينها أنّها كانت ألمانية».

نظرت إليه بريبة.

«كانت الحرب شيئاً كالهواية بالنسبة إليّ وإلى أخي، وتحديداً الطائرات، عرف كارل كل شيء عن الطائرات التي استخدموها وقال على الفور أنّها تبدو كطائرة من نوع جو 52».

تابعت التحديق إليه، لا تزال غير واثقة تماماً ما الذي يتحدث عنه.

«لم يكل ميلر في بحثه عن تلك الطائرة. لم نفهم السبب حتّى أخبرنا عن أخيه. التقط كارل صورة لميلر ما زلت أحتفظ بها في مكان ما».

نهض جون عن كرسيه، ومشى إلى الخزانة الكبيرة. كان النصف العلوي منها يحتوي كؤوساً وصحوناً، والقسم السفلي يضمّ دروجاً ثقيلة منحوتة. انحنى وسحب الدرج السفلي وبحث فيه حتّى وجد ما يبحث عنه.

ناولهما الصورة الفوتوغرافية.

«اعتاد أن يأتي إلى هنا من وقتٍ إلى آخر، قائلاً إنه في عطلته الصيفية وأنّه سيصعد إلى النهر الجليدي. تركناه يبقى معنا. وكان يظلّ هنا لأسبوع أو أسبوعين، كان يأتي كل ثلاث أو خمس سنوات ليبحث عن تلك الطائرة، ولكن لا بدّ من أنّ ثلاثين سنة مرّت منذ زيارته الأخيرة. أُخبرنا أنّه مات. ظل يراسلنا طيلة سنوات». أضاف جون مناولاً إياهما رسائل صفراء: «هذه رسائل الشكر التي اعتاد كتابتها لي ولأخي بعد بقائه عندنا. ميلر رجل لطيف استثنائي».

كانت الرسائل موجهة إلى جون ومكتوبة بخط أنيق، كما اهتمّ المرسل بأن يكتب اسم العائلة واسم المزرعة بشكل صحيح. عليها ختم واشنطن وتظهر الطوابع صورة أبراهام لينكولن.

سألت كريستين وهي تتفحص الصورة: «ما كان اسمه المسيحي؟».

أجاب جون: «روبرت، روبرت ميلر، قال لنا أن نناديه باسم بوب، أليس معظم الأميركيين يدعون بهذا الاسم؟».

مكتبة
t.me/t_pdf

«هل وجد شيئاً؟».

«ولا أي شيء، ذلك المسكين».

«هل أراد أن يجد أخاه؟».

«لا حاجة لقول هذا».

«هل أخبرك بأي شيء عن أخيه؟».

«ولا أي كلمة أخرى، ولم نسأل أي أسئلة، طلب منا ألا نلتقط صوراً أخرى له. هذه هي الصورة الوحيدة لدينا».

التُقطت الصورة خارج إسطبل الأخوين في يوم صيفي. وقف ميلر ممسكاً بلجام حصان ووجهه نحو الكاميرا، كان رجلاً نحيلاً يرتدي قميصاً طُبع عليه أشكال مربعات وبنطالاً من الجينز. رفع يده المغطاة بقفاز ليحمي عينيه من الشمس ولكنّ ملامحه مرئية بوضوح، أنف بارز وفمٌ فوق ذقن متراجع وجبهة واسعة وشعر خفيف.

قال جون وهو يشير إلى الحصان: «كان ذلك الحصان أهوج تقريباً واقترب كثيراً من قتل ميلر. اندفع في الساحة حالما امتطاه ميلر واتجه مباشرةً إلى السلك المكهرب الذي كان ممتداً بين الأبنية. لحسن الحظ، لاحظ ميلر السلك في الوقت المناسب واستطاع أن يرمي بنفسه عن الحصان».

بقي جون صامتاً لبعض الوقت، كما لو أنه يفكر في ما لو كان عليه أن يقول المزيد أو أن يتوقف عند هذا الحد. رفعا بصرهما إليه باستفسارٍ، فعدل وقفته من قدمٍ إلى أخرى بجاربيه الصوفيين قبل أن يدعوهما للحاق به.

قال: «ما أهمية ذلك؟ تعالا معي. أستطيع أن أريكما شيئاً يؤكد أن الطائرة كانت ألمانيةً».

انتظرا بينما لبس سترةً سميكةً وقفازين واعتمر قبعة صوفية. كان معطفاهما في السيارة فأخبرهما أن يحضروهما بينما انتظر عند الباب، ثم قادهما خارجاً إلى البياض الذي يعمي الأبصار. وسرعان ما اختفى المنزل

عـن النظـر ولـم يعـودوا قادرين على رؤية أبعد من ياردةٍ واحدةٍ إلى الأمام في تلـك الليلـة كثيفـة الثلوج. سـارت كريسـتين خلف جون، وهـي تضع قدميها بحذرٍ على مساره. بالكاد كانت قادرةً على رؤية شكله أمامها وعندما توقفت بشكلٍ مفاجئٍ، تعثرت به وشعرت بستيف يصطدم بها من الخلف. وصل جون إلى بابٍ ما، فتحه تاركاً إياه يرتطم بالحائط. التمس طريقه في الظلام وشغل ضوءاً، ليتضح أنهم كانوا داخل حظيرةٍ أصبحت الآن تستخدم كإسطبل. تطلب إغلاق الباب خلفهم كل القوة التي يملكها ستيف بسبب الرياح العاتية.

كان هنالك ستة من الخيل في الإسطبل، تطلق حرارةً جعلت المكان في الداخل دافئاً. وقفت الخيل في حجراتها الخشبية تراقب الزوار غير المتوقعين بتعابيـر متسـائلةٍ، البخـار يتصاعـد من فتحات أنوفها، وكانت الشـتوية صوفيةٌ وسميكةُ بطريقةٍ فكاهيةٍ تقريباً.

توقفت كريستين التي لطالما أحبت الخيل بالرغم من أنها لم تمتطِ واحداً من قبل لتربت على فرسٍ ذات لونٍ كسـتنائي. قادهم جون على طول الممر الذي امتد خلف الحيوانات، موازياً لقناة الروث. دهشـت كريسـتين من قوة الرجـل العجـوز ورشـاقة حركاتـه. كانت الحجـرات الثلاث الأخيـرة فارغةً، ولكـن يوجـد فـي إحداهـا صندوقٌ ضخمٌ مع مفتاحٍ موضـوعٍ في القفل أداره جون قبل رفع الغطاء.

قال: «لا بد أن ذلك كان قبل عشرين عاماً».

كان الغطاء ثقيلاً بشكلٍ لا يُصدق. قال: «قد لا يكون الناجي الوحيد من حادث التحطم. ربما انحرف مبتعداً أكثر من اللازم إلى جهة الشرق، أو ربما يكون قد وجد المزرعة صدفة».

سألت كريستين: «من هو؟».

قال جون رافعاً سـترة بذلةٍ ألمانيةٍ ممزقةٍ من الصندوق عالياً ليتمكنا من رؤيتها: «الألماني».

22

النهر الجليدي فاتنويوكل،
السبت 30 كانون الثاني، مساءً

ذهب الكونت فون مانتوفيل بحثاً عن المساعدة. أخذ لوحين من الشوكولا، وحاولنا تدفئته بقدر ما استطعنا. إنه الأشد صلابةً بين أعضاء المجموعة وهو في حاجةٍ مستميتةٍ للخروج من الجليد. اعتقدنا أنه إذا توجه إلى الجنوب الشرقي قد يكون قادراً على إيجاد طريقٍ، ولكن ليس هنالك أملٌ كبير. إنه يعلم ذلك وكذلك نحن. سيؤدي البرد إلى موته.

سيؤدي البرد إلى موتنا جميعاً.

كان راتوف جالساً في خيمته، يقرأ المذكرات التي وجدها تحت مقعد مساعد الطيار على الضوء الخافت لمدفأة الغاز. هزّت العاصفة الخيمة ومزقتها، كان عويلها مرتفعاً بحيث أصبح الحديث مستحيلاً. حملت العاصفة اثنتين من خيم الجنود بعيداً، وربما أصبحتا في منتصف المحيط الأطلسي الآن. كان معميين من الرياح والثلوج، لم يكن هنالك شيءٌ يفعلانه أكثر من ذلك حتى تخمد العاصفة.

كان الطيار يحمل أوراقاً تعرّف عنه على أنه يدعى ويليام ميلر. وعلى الفور عرف راتوف أين سبق له أن رأى ذلك الوجه؛ كان الكولونيل ميلر

الرئيس السابق للمنظمة؛ لابد أن الطيار كان شقيقه.

بدا راتوف مصدوماً بسبب غرابة رؤية تلك الجثث تنبثق من الجليد محفوظةً بحالةٍ جيدةٍ وغير متحللةٍ بعد مرور عدة سنواتٍ. بدا الطيار كما لو أنه نام نصف قرنٍ. أصبح بإمكانه الآن تخيل شكل الكولونيل ميلر في شبابه بشكلٍ دقيق. أسرته الفكرة.

كانت المذكرات مكتوبةً بقلم رصاصٍ، بنودها متقطعة، لم تقسّم حسب التاريخ أو الوقت، كما لو أن الكاتب فقد كل إحساسٍ بالأيام وهي تمر. وكان بعضها قصيراً جداً، مجرد جملةٍ مدونةٍ أو أفكار أو رسالة مبعثرة من الطيار إلى أولئك الذين وجدوا الطائرة في النهاية. لم يستطع راتوف معرفة كم من الوقت مضى على تلك المذكرات، ولكن وفقاً لحساباته لم يستغرق الأمر طويلاً حتى تجمّد الرجال. قلب الصفحات، كان يغوص فيها هنا وهناك، محاولاً اكتشاف تسلسل الأحداث. كان الطيار من وقتٍ لآخر يخاطب قارئاً محدداً، من المحتمل أنه شقيقه، كما لو أنه أراد منه إيجاد المذكرات.

إنها مظلمةٌ على مدار الساعة هنا. باردةٌ ومظلمةٌ. وضعنا ديتريك في الخارج على الجليد. مات وهو يعاني. إنني خائف. لن نضع مزيداً خارجاً في الوقت الراهن. امتلأت الطائرة بالثلج تقريباً. يا لها من رياحٍ لا تصدق. لكن ما من شيءٍ يستطيع إيقاف فون مانتوفيل. قال إنه لا يريد الموت هنا، أخشى أنه كان محقاً، وأن أحداً لن يأتي لإنقاذنا. لكنني مسرورٌ لذهابه. كان وجوده مزعجاً، وهو يؤدي دور المنتصر بالرغم من خسارته للحرب. أما الباقون فهم أكثر تهذيباً. نحن جميعاً نموت، هذا ما يجعل الرجال مهذبين. لا أستطيع تخيل كيف يمكن إنقاذنا. أنا فقط لا أستطيع تخيل ذلك.

قلب راتوف الصفحات.

...كانت فكرة أن نرتفع قليلاً أمراً ميؤوساً منه. كانت الأجنحة متجمدةً بشدةٍ وهنالك مطباتٌ هوائيةٌ خطيرةٌ تتناوب صعوداً وهبوطاً. الطيران في ذلك

الطقس مرعبٌ: الرياح العاتية، تساقطت الثلوج وكان الظلام دامساً. ومن حيث لا أدري، شعرنا بالطائرة تصطدم بالثلج.

حصل الأمر فجأةً، لا أزال غير قادرٍ على فهم كيف حدث ذلك. على الأرجح أن الجناح الأيسر أصيب أولاً، وبعد ذلك أصبح الأمر عبارةً عن فوضى صاخبة. قفزنا في الهواء وعلقت المروحة في الجليد، انكسر الجناح في وابلٍ من الشرر وطار جسم الطائرة لكنه لم يتحطم...

قرأ راتوف. ورفرفت خيمته بعنفٍ، وكان ضوء الغاز يتراقص على صفحات المذكرة.

رأيت برلين أمس للمرة الأولى في حياتي.

أعتقد أنه كان أول أمس. من الغريب أن تزور العاصمة الألمانية في خضم الحرب. هل رأيتَ ما فعلتَه عبر إقناعي بالطيران فوق المحيط الأطلسي؟ ما الذي تخطط له؟ هل سيعقدون اتفاقاً مع النازيين؟ هل يحاولون تقليص مدة الحرب؟ يخططون للهجوم على روسيا؟ تسمع الكثير من الشائعات. لا يريد الألمان الحديث بهذا الخصوص. أعلم بأنهم طرفٌ في فريقٍ للمفاوضات من نوعٍ ما، لكن ما الذي سيتفاوضون عليه.

توفي الجنرال على أثر الاصطدام. نهض من مقعده قبل اصطدامنا بوقتٍ قصيرٍ، وحذا حذوه أحد الألمان. لا أدري ما الذي كانا يفكران به. صرخا عليّ لأفعل شيئاً ما، لكن لم يكن هنالك ما أستطيع فعله.

رباه، الجو بارد، بالكاد أستطيع الإمساك بقلم الرصاص.

فُتحَ الباب من الخارج، مما سبب انتفاخ الخيمة، تمددت الأقمشة بشكلٍ مشدودٍ للغاية لدرجة أن الوصلات الداخلية أصدرت صريراً وكأنها ستنفصل. كان بيتمن على الخط مرةً أخرى في خيمة الاتصالات. وقف راتوف، أغلق سحاب الخيمة بإحكامٍ خلفه وتبع الرجل. بالكاد كانا قادرين على المحافظة على ثبات قدميهما في تلك العاصفة الثلجية العنيفة حتى ضمن تلك المسافة

التي لا تتجاوز بضع ياردات بين الخيمتين.

صرخ راتوف محاولاً جعل صوته مسموعاً فوق صوت الرياح: «أخبرني أنك عالجت تلك المشكلة».

قال بيتمن: «سلبي، سيدي. ريبلي في المستشفى غائبٌ عن الوعي. المرأة هربت مع صديقها. إنه واحدٌ منا...»

«ما الذي تعنيه؟».

«إنـه أميركـي. أعتقـد أنهمـا فـي طريقهما إليك. هنالك طيـارٌ متقاعدٌ في القاعدة كان يطرح أسئلةً عن الإخوة اللذين يعملان في مزرعة بالقرب من النهر الجليدي. لم يستغرق الأمر طويلاً حتى اعترف لمَ أراد تلك المعلومات. قال إنهما أتيا إليه طلباً للمساعدة. وقال إنهما كانا متوجهين إلى النهر الجليدي».

قال راتوف بصوتٍ عالٍ: «هل تعرضت مهمتنا للخطر؟».

«لا يبدو أنهما تحدثا إلى أحدٍ سوى الطيار. وحتى الآن لم تتلق السفارة أي ردٍّ رسـميٍ مـن الحكومـة أو مـن أي مؤسسـةٍ أخرى فـي ريكيافيك. الفتاة مشـغولةٌ بالهـرب منـا كونهـا لـم تحظ بفرصـةٍ كافيةٍ لتحذيـر أي أحدٍ حول ما سـيحدث. علـى أيـة حالٍ، أعتقد أننا تمكنا مـن الإيقاع بها بتهمة جريمة قتل، إنها نقطةٌ إضافية».

أعاد راتوف سـماعة الهاتف إلى حامل السـماعة، وتنفس باشمئزاز. كانا مثيريـن للشـفقة؛ تفوقـت عليهما امرأةٌ بالدهاء وأدخلتهما إلى المستشـفى. يا للعار إنها آيسلندية وفوق ذلك امرأة وموظفة حكومية.

23

مركز العاصمة ريكيافيك، السبت 3 كانون الثاني، السادسة مساءً بتوقيت غرينيتش.

وقف المحققان اللذان فتشا شقة كريستين الليلة السابقة الآن عند المشرب في المطعم الأيرلندي. كانت المنطقة المحيطة بالمبنى مطوقةً بشريط الشرطة، وتجمع حشدٌ من المتفرجين الفضوليين في الظلام في الجهة المقابلة من الشارع. وُضِعت الأضواء الكاشفة في الداخل والخارج، كان المراسلون والمصورون يطوقون المكان برغبةٍ مستميتةٍ للحصول على تصريح، كانت المباني محاطةً بسيارات الشرطة ذات الأضواء الساطعة.

أُدخِل ريبلي وأحد الصيادين إلى المستشفى.

كانت نُدف الثلج الناعمة تتساقط بتكاسلٍ، لتذوب فور هبوطها على الأضواء الكاشفة. نزع المحقق الأكبر سناً قبعته وحك رأسه.

علّق قائلاً: «إنه مثل فيلمٍ غربيٍ قديم».

ردّ المحقق الأصغر قائلاً: «كنتَ محقاً بخصوص كريستين. لقد كانت هنا. إفادة الشاهد تتطابق مع صورتها الموجودة لدينا».

«لست واثقاً من أنني فهمت الأمر تماماً حتى الآن. كان هنالك أربعة أشخاصٍ على الأقل مع كريستين في موقع الجريمة، ثلاثة رجالٍ وامرأة.

أحدهم هو الذي يدّعي الصيادون أنه أميركي، وها هو يستلقي على الدرج في الخارج بعد تعرضه للضرب المبرح من قبل أحد الصيادين. المرأة الأخرى اختفت. رجلٌ آخر ركض بعد محاولته نجدة رفيقه في شارع تريفاكاتا مطلقاً النار على كريستين ورجلٍ ثالثٍ. الرجل المسلح أميركي أيضاً، إذا كان بمقدورنا أن نصدق الصيادين. دخلت كريستين وصديقها سيارةً عسكريةً وقادا بعيداً. والأميركي المرمي على الدرج لا يحمل بطاقة هوية. سيارته مركونةٌ في الخارج ولوحتها مسجلةٌ باسم الجيش في كيفلافيك. ما الذي يحدث؟ لقد درستَ في أميركا. أنت تعرف شعبها، أنا فقط شاهدت أفلامها فقط».

«لا أستطيع أن أفهمه أكثر منك، ربما سنحصل على بعض الإجابات من السفارة».

«هذا مُلهم، ستحلّ السفارة اللغز، سنتحدث إلى السفارة ببساطة، وسيوضحون كلّ شيء، وبعدها يمكننا العودة إلى أسرّتنا في منازلنا».

«هل تعاني من سوء الهضم مجدداً؟».

استدار رجل الشرطة الأكبر سناً لينظر إلى شريكه. كانت ملامح وجهه حزينة بشكل غريب على الرغم من نظرة السخرية في عينيه اللتين يعلوهما حاجبان أصهبان، وكان شعره أصهب أيضاً وهذا ما أظهره بمظهر الذكي، والعنيد والمصمم.

سأل بسخرية: «ماذا؟ ألست ممتعاً بما يكفي بالنسبة إليك؟».

«ومتى كنت ممتعاً في حياتك كلّها؟».

بعد وصولهما إلى السفارة الأميركية في لوفاسفسجور، قيل لهما أن السفير والملحق الثقافي ليسا في البلاد. والملحق الصحافي متوعك ولكن يمكنهما أن يتحدثا إلى الجنرال ويسون من قاعدة كيفلافيك، وهو الضابط الأعلى رتبةً في السفارة في غياب السفير. هزّ المحققان أكتافهما غير مكترثين.

أبقاهما الجنرال منتظرين لمدة ساعة وخمس عشرة دقيقة في ردهة خارج

مكتب السفير. في النهاية، فُتح الباب وحياهما رجل بدين في قرابة الخمسين من عمره، خفيف الشعر عريض الوجه ناتئ الأسنان.

قادهما إلى المكتب، ودعاهما للجلوس. اهتمّ المحقق الأصغر سناً بأمر طرح الأسئلة، بما أنّ شريكه ضعيف في اللغة الإنكليزية.

سأله الجنرال: «كيف يمكنني مساعدتكما أيها السيدان؟». كان برفقة الجنرال شاب نحيف عرّف عن نفسه بأنه سميث، ووقف بحرص، على مسافة مدروسة خلف الجنرال.

تنحنح المحقق: «لا أعرف إن كنت قد سمعت، ولكن كان هناك حادثة إطلاق نار في وسط المدينة في وقت سبق من هذا اليوم، ربطت الحادثة بسيارة تحمل لوحة تسجيل خاصة بالجيش الأميركي، أصيب مواطن أميركي وهو الآن في المستشفى».

«لقد أطلعت على الأحداث أيّها المحقق، وفاجأني أن هؤلاء الرجال عوملوا بهذه القسوة، هل اكتشفت أيّ دافع لهذا الغضب؟ سمعت أنّه كان شجاراً بين الصيادين وأنّ رجلنا علق في وسطه، من الطبيعي أن نطالب بتحقيق مكثّف».

«حسناً أيّها الجنرال، يدّعي الصيادون أنّ رجلكم، لم يبدأ الشجار وحسب، بل إن صاحبه الذي يبدو أنه أميركي أيضاً دخل المطعم شاهراً مسدساً، وبعدها أطلق النار في الشارع».

«هذا منافٍ للعقل، هل تحاول إلصاق هذا برجلنا».

«أود أن أطلعك فقط على مذكره الشهود».

«ولكنّ هذا سخيف، سمعت أنّ الصيادين كانوا ثملين، هل تقصد لوم مواطن أميركي على تصرفهم البربري؟».

«نحن منفتحون على الاحتمالات يا سيدي، ولكن تشير التقارير إلى أنّ مرافق الرجل لحق بامرأة آيسلندية، وأطلق النار عليها، لوحة سيارته تعود إلى

الجيش، هل يمكنك إخبارنا بما يحدث؟».

«لا، أخشى أنّني لا أستطيع، لم أتصل بالجيش حتى الآن. إذا اتّضح أنّ الرجل اضطر إلى مساعدة رفيقه في المطعم من خلال إشهار مسدسة، فسيستحق الرجل التوبيخ، ولكن ربما يكون هذا الفعل مفهوماً في ظل تلك الظروف».

قاطعهما المحقق الأكبر سناً باللغة الآيسلندية: «اسأله إن كان يعلم هوية الرجل في المستشفى». كان يجلس بهدوء حتّى الآن، يتفحص الغرفة بلا مبالاة مميزة.

استمع الجنرال إلى السؤال، ولكنّه لم يُجب.

«ما الذي قصدته عندما قلت رجلنا؟».

«عفواً؟».

«قلت رجلنا، وكأنّه يعمل في السفارة».

«لم أقصد هذا».

مكتبة
t.me/t_pdf

«اسأله إن كان من الطبيعي أن يتولى جنرال بثلاث نجوم السفارة عندما يسافر السفير».

سأل المحقق الأصغر سناً السؤال، فابتسم الجنرال ابتسامة عريضة، لمعت أسنانه القوية، ومال إلى الأمام.

«لا أعتقد أن طريقة إدارتنا لسفارتنا لها علاقة بالموضوع».

«اسأله هل يعرف من هي كريستين».

أجاب الجنرال: «لا، لا أعرف أي شيء عنها».

«اسأل صاحب الأسنان الناتئة هل يمكن أن يكون مطلق النار ورفيقه كانا يؤديان مهام عسكرية عندما زارا المطعم».

تردد المحقق الأصغر سنّاً، ثمّ كرر السؤال بالإنكليزية. انحنى سميث نحو الجنرال الذي ابتسم ابتسامة أعرض من المرة السابقة.

«أخشى أنّكما كنتما تشاهدان كثيراً من أفلام هوليوود. نحن لا نطلق النار على الآيسلنديين، نحن نحميهم ونعتبرهم أصدقاء للولايات المتحدة. كما أنّنا نرسل مبالغ كبيرة من المال إليهم عن طريق العقود الكريمة، أخشى أنّني لا أستطيع أن أساعدكما أيّها السيدان أكثر من هذا. إن جئتما إلى هنا لإهانة أمّة صديقة، فقد قمتما بهذا على أكمل وجه، أتمنى لكما يوماً سعيداً».

وقف. تقدم سميث إلى الجهة الأمامية من المكتب، وانتظر أن يقف رجلا الشرطة. وهذا ما فعلاه متأخرين. نظر المحقق الأكبر سناً الذي يضع على رأسه القبعة إلى سميث من رأسه حتى أخمص قدميه، ثم استدار إلى ويسون.

سأل: «تدعيان سميث وويسون؟ هل هذه مزحة من نوع ما؟».

ابتسم سميث، وأجاب بلغة آيسلندية طليقة: «أنت المزحة يا صديقي».

التقت أعين الرجلين.

«من أنت؟ ما الذي تخفيه؟».

«يجب أن تعذراني أيّها السيدان، سيريكما سميث طريق الخروج، ليس لديّ ما يمكنني أن أضيفه».

بينما قاد المحققان السيارة بعيداً عن السفارة، بدأ هاتف السيارة بالرنين. جاءت المكالمة مباشرةً من مركز الهواتف في مركز الشرطة الوطني. قدّم الرجل المتحدث نفسه على أنّه محامٍ قبل أن يبدأ خطبة بشأن سيارته المسروقة.

أعلن قائلاً: «أعرت سيارتي إلى صديقتي السابقة، المرأة التي تبحثون عنها، ولم تُعدها».

سأل رجل الشرطة الأكبر سنّاً: «هل تتحدث عن المرأة المطلوبة للتحقيق كريستين؟».

أجاب المحامي بانزعاج: «نعم، هي، الحمد لله أن أحدكم سريع في الفهم، كنت أتنقل من فاشل إلى آخر بسبب مركز الهواتف».

«ما الذي أرادت فعله بسيارة الجيب؟».

قال المحامي بسخط: «لا أفهم ما الذي يهمك في ما أرادت فعله، أنا أطلب منكم أن تجدوا السيارة».

«هل قالت إلى أين هي ذاهبة؟».

«لو عرفت إلى أين هي ذاهبة أو أين هي الآن، لما أضعت وقتي بتقديم بلاغ».

كان صبر المحقق ينفد: «هل هناك هاتف في السيارة؟».

«بالطبع».

«هل حاولت الاتصال به يا سيدي؟».

«بالطبع، اتصلت بالهاتف، ولكن أحداً لا يرد».

أعطاهما المحامي الرقم. وسأل: «هل ستجدونها؟».

قال المحقق بقلق: «سيدي، لن ترتاح شرطة ريكيافيك حتّى تُستعاد سيارتك الثمينة». وأنهى المكالمة. لم يمضِ وقت طويل قبل أن يرن الهاتف مجدداً. كان رئيس المحققين هذه المرة.

سأل بغضب: «هل كنتما تهينان أصدقاءنا في السفارة الأميركية؟».

أجاب الشرطي: «لم نفعل ذلك على حدّ علمي». بدا مذهولاً بصدق، فكّر بأنّ الأخبار تسافر بسرعة.

«اتصل بي وزير العدل، تلقّى اتصالاً من بعض الرجال الذين يقولون أنّكم سخرتم من مظهر أعلى الضباط رتبةً في السفارة، وسخرتم من أسمائهم أيضاً، هل هذا صحيح؟».

«نحن نحقق في جريمة، وكان بإمكانهم أن يكونوا متعاونين أكثر، لدينا جثة وحادثة إطلاق نار بين أيدينا، هل تعتقد حقّاً أن الوقت مناسب للقلق بشأن رجل يمكنه مضغ الجزر ماداً فكّه عبر السياج الشائك؟».

«لا تتصرف بهذا الأسلوب أيها المحقق، أخبروني أنّك كنت وقحاً

ومتعجرفاً».

«لم أكن أتحدث مع السفير بل مع ضابط بدا شكله كالسمكة، وتعاون معنا كما كانت السمكة لتتعاون».

حاول رئيس المحققين الضرب على وتر آخر لأنّه يعرف الشرطي الأكبر سناً، ويدرك أنّ هذه متابعة عقيمة.

«هل لديكما أيّة فكرة حول مكان تلك المرأة التي تدعى كريستين والتي تروجان أنّها مطلوبة للتحقيق؟».

اعترف المحقق وهو يحكّ رأسه: «لا دليل لدينا».

24

جنوب شرق آيسلندا، السبت، 30 كانون الثاني مساءً

رفعت كريستين سترة البذلة الألمانية الرثّة، ومررت يديها على قماشها، شاعرةً بالأزرار والجيوب، والتلابيب. كان القماش ناعماً بشكل مفاجئ. من الغريب أنّها كانت لضابط ألماني مات على النهر الجليدي مرتدياً إياها. كان هناك ثلاث ميداليات مثبتة على الصدر الأيسر. ناولت ستيف السترة، الذي تفحصها بدوره بحرص.

قال جون ببطء وعيناه تتنقلان بينهما: «وجدته في جدول لا يبعد أكثر من خمسة كيلومترات إلى الأعلى من المزرعة وإلى الشرق، دفنته في تلك البقعة، دفنت القطع القليلة المتبقية منه، ووضعت صليباً صغيراً، كان واحداً منهم كما أظن، أنتما الشخصان الوحيدان اللذان أخبرتهما. لم يتبقَ شيء من الرجل المسكين سوى العظام».

سألته كريستين: «منذ متى حصل ذلك؟».

«منذ عشرين عاماً تقريباً».

«انتظر، هل تقول إنه بقي مستلقياً على عتبة بابك لأكثر من ثلاثين عاماً؟».

«بالكاد على عتبة بابي. لا، لقد كان بعيداً بعض الشيء من هنا، مخبأ بين الصخور بشكلٍ جيد».

«لماذا لمْ تبلغ عن اكتشافك؟».

«لـم يكـن الأمـر يخص أحداً آخر. كان ذلك بعد عشـر سـنواتٍ من بعثة الإنقـاذ الرئيسـية، وبالـكاد كان هنالك أثـرٌ للجيش هنا منذ ذلك الوقت. ليس من شيم أمثالي الذهاب للتواصل مع كبار الضباط في الجيش. لم أعرف من أين أبدأ».

«لماذا أخذت السترة إذاً؟ لماذا لم تدفنها هي الأخرى؟».

«لا أدري. ربما لأنني أردت تذكاراً، وكما قلتُ، إنني مهتمٌ جداً بالحرب وبأي شيءٍ له علاقة بها. كانت تلك هواية كارل أيضاً قبل موته. أتذكر عندما حلقت الطائرة فوقنا، لم أكف أنا وكارل عن التكهن بخصوصها. من السـهل تسـلق النهر الجليدي من هنا، إنه بالكاد أكثر من انحدارٍ خفيفٍ بالنسـبة إلى من يعرفه جيداً، بالرغم من أنه ينبغي عليك الحذر من الفجوات. مشطناه مراراً وتكـراراً بحثـاً عـن الطائـرة، لكننا لم نعثر عليها. هكذا هو النهر الجليدي. إنه سريعٌ في ابتلاع كل ما يغرق فيه».

أضافت كريستين: «ثم يبصقه مجدداً بعد مئة عام».

«نعم. أو أكثر من ذلك، أو لا يبصقه أبداً».

بينمـا اعتقـدت كريسـتين أنه من المسـتحيل معرفة مـا كانت تفعله طائرةٌ ألمانيـةٌ هنـا فـي أقصى الشـمال، أكد لها جون أن رؤيـة طائراتٍ معاديةٍ تحلق فوق الجهة الجنوبية الشرقية من البلاد لم يكن أمراً خارجاً عن المعتاد خلال فتـرة الحـرب. شـرح لهـا الأمـر؛ لقـد أتت من مطار سـتافنجير فـي النرويج، وكانت مؤهلةً خصيصاً لحمل الوقود الإضافي، اسـتغرقت رحلة العودة عبر شـمال الأطلسـي أكثر من إحدى عشـرة سـاعة، خلال هذه الفترة قد تنخفض درجة الحرارة في مقصورة الطيار إلى ثلاثين درجةٍ تحت الصفر أو أدنى من ذلك. كانت أغلب الطائرات من نوع يونكرز يو 88. بشـكلٍ عام، كانت تلك مهمات اسـتطلاع ولكن من حينٍ إلى آخر كان الألمان يشـنون غاراتٍ جويةٍ،

تذكرَ طائرة هينكل إيتش 111 المقاتلة، على سبيل المثال، وهي تشن هجوماً بالمدفع الرشاش على المخيم البريطاني في قرية سيلفوس عام 1941، قُتِلَ رجلٌ خلالها. كما شوهدت أيضاً الطائرة الألمانية في مناسباتٍ خاصةٍ تحلق فوق هورنافودور، تعانق سلسلة الجبال قبل أن تتوارى عن الأبصار خلف جبل إيستراهورن. كما قصفت طائرة فوكيوولف 200 محطة المتابعة البريطانية على مشارف بلدة هوفن. ولهذا لم يكن جون متفاجئاً من تحطم طائرةٍ ألمانيةٍ فوق النهر الجليدي. لكن ما سبب له الحيرة هو أنّ هذا حدث في المرحلة الأخيرة من الحرب، عندما لم يكن باستطاعتها الإقلاع من النرويج، التي لم يكن النازيون يحتلونها، لا يمكن إلا أن تكون قد أتت من ألمانيا.

أخبر جون كريستين عن الطائرة العسكرية الأميركية التي تحطمت على النهر الجليدي في إيافيالايوكول خلال فترة الحرب. لم يكن لدينا سوى قدرٍ ضئيلٍ من المعلومات بخصوص الحادث في ذلك الوقت نظراً للتعتيم الإعلامي على الأخبار، لكن الجميع نجوا وعادوا إلى المدينة بسلام. قال: «عند أتى ميلر إلى هنا للمرة الأولى، تذكرت أنا وكارل حادث إيافيالايوكول وكنا حريصين على فعل أي شيءٍ لمساعدته. أعتقد أن إحساسنا بالولاء كان مبالغاً به بعض الشيء، لكننا أعطيناه كلمتنا ووفينا بها. هذا كل ما في الأمر».

مرر ستيف يده على السترة الألمانية مجدداً، كان يتفحص الأوسمة الثلاث على الصدر. لم يتمكن من التعرف إليها أو من معرفة سبب منحها، لكنها دلت على أن من امتلك هذه السترة كان شخصاً رفيع المستوى في الجيش الألماني. تساءلَ ما الذي كان الضابط الألماني يفعله هناك على النهر الجليدي خلال كل تلك السنوات المنصرمة.

أخيراً، قال جون، وكأنها فكرةٌ طارئةٌ: «كان هنالك صندوقٌ نصف مدفونٍ في الأرض بالقرب من الألماني. أخذته أيضاً. بدا وكأنه كان مقيداً بمعصمه. لا تزال الأصفاد حول معصمه، لابد أنه سحبه وجره نزولاً عن النهر الجليدي».

قالت كريستين بتعجب: «صندوق!».

«نعم، أو شيءٌ من هذا القبيل. يجب أن يكون هنا أيضاً».

فتّش جون الصندوق من جديد. نظر كل من كريستين وستيف حولهما إلى الأحصنة التي كانت تراقبهم بآذانٍ مثقوبةٍ.

قال جون: «لا أدري إن كان عليّ تسميته صندوقاً أم حقيبةً. إنه مصنوعٌ من معدنٍ ما. ها هو».

رفع صندوقاً معدنياً منبعجاً ومخدوشاً، بحجم حقيبةٍ صغيرةٍ، عليه مقبضٌ وقفلٌ من الواضح أنه قد عُبِث به. كان الصدأ على المعدن قد نُظِّف في بعض الأماكن. فتح جون الصندوق.

«وجدتُ بعض الأوراق بداخله. كلها تالفة. ما من شيءٍ آخر. لم أستخرج منه شيئاً». مرر الصندوق إلى كريستين. تفحصته بحثاً عن أي علاماتٍ خارجيةٍ، ثم نظرت بداخله ورأت الأوراق. كانت متضررةً إلى حدٍ كبيرٍ بسبب الطقس، سنواتٌ من تعاقب الحرارة والبرودة عليها بلا هوادة، وعند أي محاولةٍ لفصل الأوراق عن بعضها كانت تتمزق، لكن لا يزال بالإمكان فهم تلك الكلمة الغريبة الموجودة على القطعة السليمة من الورقة.

كانت الوثائق مطبوعة، ولكن الحروف مشوهة وغير مقروءة، يمكنهم أن يعرفوا أنّها مكتوبة بالألمانية. كان من الممكن معرفة الكلمات في مكان ما الأوراق: «عملية نابوليون»، سألت جون: «هل لديك أي فكرة عما يعنيه هذا؟».

قال: «لا أعرف أي كلمة ألمانية، ولكن لا بدّ أنّها كانت مهمة لأنه ربط تلك الحقيبة بمعصمه كل الطريق على النهر الجليدي وسط عاصفة».

ذكّر ستيف كريستين: «قال تومبسون شيئاً عن قنبلة على متن الطائرة».

سأل جون: «ماذا؟». كان مزارعاً طوال حياته، ولم ير أبداً أيّ سبب لتعلم الإنكليزية أو الألمانية أو أي لغة عدا الآيسلندية المحلية.

«سمعنا أنّه كان هناك قنبلة نازية على متنها وكان الأميركيون ينقلونها إلى الولايات المتحدة».

«قنبلة».

«نعم، قنبلة هيدروجينية كان الألمان يخططون لإسقاطها على لندن في نهاية الحرب، أو على روسيا، من يعلم؟».

سألت كريستين: «انتظر قليلاً، ألم تقل أنّك وضعت صليباً على قبر الألماني؟ هل لا يزال هناك؟».

«لا، ليس هناك، أخشى أنّني لم أقم بعملي على خير ما يرام، لا أعرف لماذا فعلت ذلك حتّى، كان مجرد قطعتين من الخشب مثبتتين بمسمار. لم أذهب إلى هناك منذ مدة طويلة، لكنّ الصليب سقط قبل سنوات...»

توقف جون عن الكلام.

حثّته كريستين: «ماذا؟».

«لا أود أن أقول، أنا خجل من نفسي».

«لماذا؟».

«وضعت إشارة على الصليب».

«وضعت إشارة؟».

«حفرت اسماً عليه».

«اسم؟ هل تعني أنّك عرفت اسم الألماني؟».

«اللعنة، لا، لم أحفر اسم رجل».

«لم تحفر اسم رجل؟ ماذا تقصد؟».

«كان لدي كلب عجوز أجبرت على قتله في ذلك الوقت، لذلك دفنته مع الألماني. لا أعرف ما اعتراني حينها. هذا تقليلٌ لعينٌ للاحترام، أعرف، من الأفضل أن أندم على هذا الآن، ولكنّني أواسي نفسي بفكرة أنّه على الأغلب لم يستحق أفضل من هذا. قلّه منهم يستحقون أفضل من هذا».

«وضعت إشارة على الصليب باسم كلبك إذاً؟».

«نعم، أوغري».

«أوغري؟».

نظر جون إلى قدميه، وابتسم بأسف بينما تذكر صديقه المزاجي الأجرب العجوز. «كان كلباً متعباً».

نظرت كريستين إلى ستيف الذي هزّ كتفيه.

سألت جون: «هل يمكنني استخدام هاتفك؟».

تمتم موافقاً. عادوا إلى العاصفة الثلجية، تحمل كريستين صندوقاً معدنياً ويحمل ستيف سترة البدلة الألمانية، ويتبعان جون إلى المنزل. غافلين عن رنين الهاتف المتواصل في الجيب.

25

نهر فاتنويوكل الجليدي السبت 30 كانون الثاني مساءً

نحن محبوسـون داخل الطائرة، لا أسـتطيع أن أسـمع الرياح بعد الآن، ولـم يعد الجو بارداً كالسـابق، لدينا مصباحان من الكيروسـين، لا أعرف كم من الوقت سيكفياننا. لا أعرف كم من الوقت مضى علينا هنا؟ لا أعرف حتّى أين نحن؟ على الأغلب نحن على نهر فاتنويوكل الجليدي، يئنّ جسم الطائرة أحياناً وكأنّه سيتمزق. أملنا الوحيد هو مع الكونت فون مانتوفل ولكنّه ليس بالأمل الكبير. لن يُعثر علينا أبداً على الأغلب. أخذ الصندوق المعدني معه، علّقه بقيود بمعصمه، وكأنّه لا يمتلك مفتاحاً للقيد. وإن لم يكن لديه مفتاح، فمن لديه؟

ربمـا يحتـوي الصنـدوق على شـيء مهـم جداً فلم يجرؤ علـى تركه. أنا جالس في مقصورة الطيار بعيداً عن الألمان.

هناك اثنان منهم لا يزالان على قيد الحياة، يتحدثان بالهراء، يشـتمونني أحياناً، يلومونني على كل شيء.

إن استطعنا خلع الباب ربما نستطيع حفر طريق الهروب. النوافذ صغيرة جـداً، لنخـرج مـن خلالها، لم ندرك أنّنا سـنكون محاصريـن في هذا الطقس المجنون كل الوقت. لم نبدأ بالتفكير بعقلانية بعد. من الرعب وجود الجثث

هنا، حطّمها السقوط. لم أر النهر الجليدي حتى اصطدمنا به. يا إلهي! لم أستطع رؤية شيء. اعتقدت أنّني فوق السواحل الجنوبية.

كنّا في الهواء في إحدى الدقائق ثم أصبحنا نجرف الثلج في الدقيقة التي تلتها. قُذف الرجلان اللذان كانا واقفين ورائي في مقصورة الطيار إلى القمرة وقُتلا على الفور. طلبت منهما مراراً وتكراراً الجلوس.

نحن نحاول تدفئة أنفسنا. لا نتحدث كثيراً. أحياناً أسمعهم يذكرون فون مانتوفيل. لم أخبرهم بعد، ولكن هنالك فرصة لأن يتم اكتشافنا. كنت أطير على ارتفاعٍ منخفضٍ جداً بحيث تمكنت من رؤية بعض المباني تحتنا خلال العاصفة الثلجية. وعندها أدركت أننا انتهينا.

حاولت الارتفاع لكننا كنا قريبين جداً من النهر الجليدي. كان هنالك رجلان يقفان قرب منزل ويحدقان إلى الأعلى إلى الطائرة. لابد أنهما شاهدانا. إنهما ملزمان بالإبلاغ عن ذلك. يجب عليهما الإبلاغ عن ذلك.

كانت برلين قد قُصفَت بالكامل كحال لندن. كان المطار مدمراً. لذلك أقلعنا من خارج المدينة. الوفد الذي وصلت معه بقي خلفنا. من كان ذلك السويدي؟ إنه رجل محترمٌ للغاية. يبدو أنهم جميعاً نبلاء. سأحاول كتابة ما حدث في حال عثرتَ علينا. كما أن هذا يساعد في تمضية الوقت أيضاً.

بعد مغادرتنا كوبنهاغن ذهبتُ لمقابلة ضابطي الاستخبارات اللذين ذكرتَهما لي. لم يخبراني باسميهما أبداً. كانا بانتظاري في المتنزه تماماً كما قلت. قادا بي في سيارةٍ عسكريةٍ خارج المدينة، توجهنا جنوباً إلى بلدةٍ تدعى فلينسبورغ حيث التقينا باثنين من الألمان، ملازم ورائد، والكونت السويدي، يبدو أنه أحد أفراد العائلة الحاكمة. من هناك قدنا باتجاه الخط الأمامي. كانت الطرقات مليئةً بالنازحين وبالحفر التي أحدثتها القنابل، عند هذه النقطة كانت معركة آرون مستمرةً منذ بضعة أيامٍ. قدنا عبر شليسفيغ هولشتاين حيث أعطوني بذلةً ألمانيةً لأرتديها. ثم عبرنا هامبورغ حيث تزودنا بالوقود، انتظرنا

وبعد ذلك تبعنا مسار نهر الإلب إلى برلين، وصلنا إليها في تلك الليلة. عندما كان يوقفنا أحدٌ ما، كل ما كان على الكونت السويدي فعله هو التلويح بأوراقه وعندها يُفتَح الطريق أمامنا.

أعادوا إليّ ستر تي، ثم عِقد اجتماعٌ طويلٌ في المطار. لم أتمكن من التعرف إلى أي منهم، كانوا جميعاً من النازيين المهمين، وكان من الواضح أن الرجل السويدي على معرفةٍ قديمةٍ بهم. كان هنالك جنرالان ألمانيان معه، وواحدٌ من طرفنا، وكما قلتَ، لا أدري من أين أتى.

لم يُسمح لي بحضور الاجتماع، فأنا مجرد سائق. حمّل بعض الجنود صندوقين من سبائك الذهب إلى الطائرة، ومؤن من نوعٍ ما. كان هذا كل شيء.

كانت الطائرة مطليةً بألواننا للتمويه. يا لها من آلةٍ رائعةٍ، طائرة ذات محركاتٍ قويةٍ، مع مساحةٍ وقدرةٍ هائلةٍ على تحمل الحمولات.

طال الاجتماع، بدا وكأنه سيستمر إلى الأبد. ولهذا فنحن الآن في هذه الورطة اللعينة. لولا هذا كنا اجتزنا العاصفة والجليد، إنني مقتنعٌ بذلك. في مرحلةٍ ما انسحب رجلنا من الاجتماع لكن الرجل السويدي حثه على العودة إليه. وبعد وقتٍ طويلٍ عاود الرجلان الخروج، وأجريا محادثةً بالقرب من الطائرة تدور حول الروس والأرجنتين، والرب يعلم ماذا أيضاً. على أي حال، طال الاجتماع أكثر فأكثر. حاولت التحدث مع الجنود الألمان لكنهم لم يفهموا كلمةً واحدةً بالإنكليزية.

قدمت لهم بعض السجائر. كانوا مجرد فتية، لم يبلغوا العشرين بعد. ابتسموا لي.

كان هنالك تعتيمٌ كاملٌ في المدينة، ككل مكانٍ آخر، ساد صمتٌ غريب. كانوا يعلمون أنه انتهى. لم أفهم ما الذي كانوا يستطيعون التفاوض بشأنه. نهاية الحرب؟ هل سينهون الحرب بتوقيع معاهدة؟ نحن نعلم أنها لن تستمر طويلاً. هل يستطيعون اختصارها؟ سينقذ هذا آلاف الأرواح. سيسبقنا الروس

إلى برلين.

هل هذه هي المشكلة؟ لم هذه الأحاديث السرية؟

إنني شبه متأكدٍ أنني رأيت غوديريان في الاجتماع، تمكنت من تمييزه من نشرات الأخبار. انطفأ أحد المصابيح. أعلم أنك اخترتني لأنك تثق بي للمحافظة على السر، ولأنك احتجت أحداً منا ليقود الطائرة عبر المحيط الأطلسي. أنا لا ألومك لذا لا تندم على ذلك. لا تندم على ذلك أبداً.

أعتقد أننا نختفي في الجليد. نحن ندفن أحياء.

أغلق راتوف الكتاب. كانت الرياح تتراجع، لم يعد الصوت صاخباً كما كان من قبل. وقف، وفتح باب الخيمة ونظر إلى الخارج. كان الظلام دامساً إلا أن العاصفة وتساقط الثلج أصبحا أقل كثافةً الآن. يأتي الضوء الوحيد من المصابيح الكاشفة الموجودة على قمة خيمة الاتصالات. أدركَ أن الأمر سيستغرق وقتاً طويلاً قبل اتخاذ خطوةٍ ما، حيث أنه ربما من الضروري استخراج الطائرة من جديد، لكن كلما طال وجود الجنود على النهر الجليدي، زاد خطر لفت الانتباه إليهم. وكلما سارعنا بإعادة الحطام والعمال إلى القاعدة، كان أفضل. فكرَ باستدعاء مروحيات الجيش. كان ذلك جزءاً من الخطة الاحتياطية، إلا أن العقبة كانت في أن أنشطتهم تميل لجذب الاهتمام الشديد، ليس فقط من قبل المراقبة الجوية الآيسلندية، التي ستطرح أسئلةً لا حصر لها، ولكن أيضاً من قبل وسائل الإعلام، التي ستتفحص بدقةٍ كل حركةٍ يأتون بها. كان عليه اتخاذ قرار.

أجلت العاصفة القيام بالعملية ليومٍ على الأقل وقد كُشف وجودهم على النهر الجليدي. كان هنالك فريق إنقاذٍ من آيسلندا في المنطقة وخسر اثنين من أفراده، ومن المرجح أنّ هذا الفريق يقترب منهم كل دقيقة.

دخل راتوف خيمة الاتصالات وطلب وصله بالأدميرال في كيفلافيك.

26

جنوب شرق آيسلندا السبت 30 كانون الثاني، مساءً

«هل مات؟».

لم تعد تسمع شيئاً، فقد ساد الصمت المطبق.

صرخت كريستين عبر الهاتف: «هل مات إلياس؟ أمازال برفقتك؟».

كان الاتّصال سيّئاً للغاية، ولم تستطع أن تسمع إلّا بعض الكلمات الغريبة غير المفهومة، فقد استمرّ صوت يوليوس -قائد فريق الإنقاذ- يتقطّع بينما كانت تقف أمام مدخل كوخ جون، وهي تحمل جهاز استقبال ثقيلاً يشبه هاتفاً أسود قديماً، وتضغط جبهتها على الجدار فوقه، فأغمضت عينيها، وركّزت على محاولة سماع ما يقوله يوليوس.

كان جون يجلس على كرسيّ في المطبخ، أمّا ستيف فظلّ واقفاً.

صرخت كريستين: «يوليوس!».

«هيلي.. لا...»، علا الصراخ، وسمعته يقول: «... يسقط... الطبيب في الفريق، إلياس.. حيّ».

«هل هو على قيد الحياة؟ هل إلياس لا يزال حيّاً؟».

«...صامدة... مروحية خفر السواحل في طريقها إلينا، العاصفة... إلى حدّ كبير... في الأسفل، هل ستبحث عن الجنود؟».

وأردف قائلاً: «... البحث عن أشخاص...».

«بالكاد أستطيع سماعك، ولكن عليك بالحذر فقد يكون الجنود الأميركيون لا يبعدون أكثر من عشرة أو خمسة عشر كيلومتراً عن حافة النهر الجليدي الذي يقع مباشرة فوق مزرعة برينيغيردي، وهم مسلّحون ويخرجون طائرة ألمانية من الجليد، والأمر يعود إليك حول ما ستقرّر فعله، ولكنّهم قد يكونون شديدي الخطورة، وسنصعد من عند سفح النهر الجليدي، آملين أن نلتقي بك هناك»، ومرّة أخرى كان الاتّصال كثير الضوضاء والكلمات غير مفهومة، فأوقفت عمل جهاز الاستقبال، وعادت إلى جون وستيف في المطبخ.

قالت وهي تتنهّد: «أعتقد أنّه لا يزال على قيد الحياة».

منحتها الأخبار الجديدة شرارة من الأمل، وقوّة خارقة دفعتها إلى الصمود والمضيّ قدماً، لأنّها ما كانت لتتحملّ خسارة شقيقها، فارتسم الارتياح على ملامح وجهها، على الرغم من أنّ الاتّصال كان ضعيفاً للغاية ومعظم الكلمات لم تكن واضحة، إلّا أنّها لم تشكّ لحظة في أنّ ما سمعته كان حقيقة ثابتة، فهي كانت مقتنعة تماماً بأنّ يوليوس تمكّن من إنقاذ حياة شقيقها.

«أعتقد أنّهم يخطّطون لمواجهة الجنود، وسنحاول التوجّه إلى هناك والالتقاء بهم في الأعلى».

قال جون: «حسناً، يمكنني أن أعطيك توجيهات مفصّلة، فالطريق ليس صعباً من هنا».

قال ستيف: «كريستين، هل يمكننا التحدّث قليلاً؟»، وطلب من جون أن يعذرهما، فذهبا إلى غرفة الجلوس، وبدأ كلامه قائلاً: «هل أنت متأكّدة تماماً من رغبتك في القيام بذلك؟ ففريق الإنقاذ سيقوم بهذه المهمّة، وسيبلغ ريكيافيك بما يجري هناك، والأُفضل أن ننتظر حتّى نتأكّد ممّا سيحدث معه؟ فذهابنا يعدّ مخاطرة، كما أن وصولنا لن يقدّم أو يؤخّر مجرى الأحداث».

كان ستيف على وشك أن يتابع كلامه عندما قاطعته قائلة: «أتطلّع إلى النظر إليهم بعينيّ، ستيف، أريد أن أرى أيّ نوع من البشر هم، وأريد أن أتأكّد من أنّهم لن يفلتوا بفعلتهم، لذا يجب أن أكون حاضرة برفقة فريق الإنقاذ للتأكّد من حصول ذلك».

«لن يُسمح لك بالخوض في مغامراتك والنجاة في اقتحام أيّ مكان تريدينه، لقد تعرّفت إلى الرجلين في الحانة، وأنتِ تدركين ما يفعلونه على الجبل الجليدي، فما الذي تستطيعين القيام به لمواجهة هذه النوع من الناس؟ وأنت من لجأت إليّ كريستين، فلا تنسي ذلك».

«لقد لجأت إليك من أجل الحصول على المعلومات».

«والمساعدة، وهذا ما أقصده، ولكنّك ترفضين تقبّل الحقيقة».

«هراء!».

«لا، لماذا تتصرّفين على هذا النحو، فأنت تعتبريننا الغزاة ومجرّد قوّة عسكرية تقاتل في ساحات الحروب، كما أنّنا بنظرك الأشرار، ولكن بمجرّد حدوث خطب ما، يُفترض بنا أن ننقذ الموقف. نحن ننفق المليارات في بلدك، وأنت لا ترين فينا أكثر من كوننا معتدين، ويجدر بنا البقاء خلف السياج، ولكنّكم ترحّبون بمشاركتنا في حرب عالمية بدأتها الدول الأوروبية، والمطلوب منا كبح جماح الدبّ الروسي، بالإضافة إلى الإرهابيين العرب، ولكنّ كلّ المهلّلين بنا ينقلبون علينا بلحظات».

«تباً لك ستيف، لا تدّعي المثالية، وسأذهب إلى النهر الجليدي وحدي إن اضطررت إلى ذلك».

«سنواجه جنوداً مسلّحين يا كريستين».

«سيساعدنا فريق الإنقاذ، وسيكونون عاجزين عن قتلنا جميعاً، وعلى أيّ حال، فقد وجّه يوليوس تحذيراً إلى ريكيافيك، ولن يكونوا قادرين على إخفاء ما يقومون به لفترة أطول».

سـألهما جون وهو يدخل عبر باب غرفة الجلوس: «هل كلّ شـيءٍ على ما يرام؟»، كان الرجل العجوز قد جلس بمفرده لفترة طويلة منذ عودتهم من الإسـطبل، فتسـاءلت كريسـتين إن كان يعاني من تأنيب الضمير بسـبب ولائه لميلـر، فربما شـعر بالذنب لمسـاعدة الأميركييـن، والتزامه بالصمت بدلاً من كشف الحقيقة.

طمأنتـه كريسـتين: «كلّ شـيء علـى مـا يرام الآن، ومـاذا عنك؟ هل أنت على ما يرام؟».

قـال مـن دون أيّ شـعور بالأسـى: «لا يهـمّ ذلـك، فلـم يعد لـديّ الكثير مـن الوقـت؟»، ثـم أردف قائلاً: «إن كنـت لا تزالين تريدين الذهاب إلى النهر الجليدي فيجب عليك الاستراحة لمدّة ساعة أو ساعتين».

أومأت كريسـتين إليه على مضض، وتابع قائلاً: «يمكنكما الاسـتلقاء في غرفة كارل».

لم تشـعر كريسـتين بالتعب، على الرغم من عدم قدرتها على تذكّر متى نامت آخر مرّة، وكان من الطبيعي أن تتعثّر قليلاً في أثناء توجّهها إلى الطابق العلوي برفقة جون الذي اصطحبها وستيف إلى غرفة تحتوي على سرير كبير ومكتب ومشمّع أصفر مفروش على الأرض، وكانت الكتب تغطّي الجدران، أمّـا حـرارة الغرفـة فبدت معتدلة مقارنة بالحرارة الشـديدة الارتفاع في الطابق السفلي.

اسـتلقت كريسـتين علـى السـرير، ومـا إن أدركـت أنّ سـتيف كان ينوي الاسـتلقاء علـى الأرض حتّـى أفسـحت له المجـال على السـرير، فتمدّد إلى جانبها، ولكنّها لـم تستطع الاسترخاء، فعندما أغمضت عينيها شعرت بالتعب يتسلّل إلى ساقيها وينتشر في كلّ جسدها كالمخدّر.

تمتمت قائلة: «شكراً على مساعدتك ستيف».

أجاب: «لا شكر على واجب».

ففتحت عينيها، واستدارت نحوه، ثمّ قالت: «لم يكن عليك أن تساعدني، بـل كان عليـك أن تتركنـي أحـزم الأمتعة وأغادر وحدي، لتتجنّب الغوص في مشاكلي، فلا أستحقّ منك أيّ مساعدة».

«أيعقل أن أترك فتاة التجأت إليّ تواجه محنتها وحدها؟».

ضحكت بهدوء، وقالت: «نعم، وهذا يجعلك الفارس ذا الدرع الحصين».

«أنا لست فارساً، بل مجرّد شخص من القاعدة».

«نعم، أنت مجرّد شخص من القاعدة».

لقد تغيّرت نبرة صوتها، فنظر إليها نظرات دافئة، وكاد وجهاهما يتلامسان، فعلـى الرغـم مـن كلّ مـا جرى لها مـن مطاردة الأميركييـن ومواجهة الخطر، وقلقها على إلياس، ومخاوفها التي استبدّت بها، وغضبها ونقمتها على الجنود المسلّحين، فلم يسبق لها أن شعرت بأنّها لا تزال على قيد الحياة، ومسيطرة علـى كلّ المشـاكل التـي تحيـط بها، وواثقة بقدراتها علـى التغلّب عليها، لقد بدا الأمر كما لو أنّ محنتها قدّمت إليها فرصة جديدة لتحيا حياة سـعيدة بعد أن انحسـر الضباب وتلاشـت الغشـاوة عن عينيها، وتمكّنت من السيطرة على حياتها وعلى مشاعرها التي عليها إطلاق العنان لها.

قالت: «هل تتذكّر يوم افترقنا؟».

«وكيف لي أن أنسى؟».

فهو لم يستطع إلّا الإعجاب بشجاعتها وولائها لأخيها والتضحية بحياتها من أجل إنقاذه.

يبدو أنّها اكتشفت القوّة المخفية التي كانت مدفونة في داخلها، ففي المرّة الأولـى التـي التقيـا خلالها لاحظ هذه القوّة المكبوتة في أعماقها، وبينما كان يتأمّلها، أدرك مدى شجاعتها، وما تستطيع القيام به من أجل تحقيق أهدافها، فشعر بأنّه يقع تحت تأثير سحرها من جديد.

سألها: «لماذا تركت الأمور تتّجه إلى هذا الاتّجاه؟».

«لـم يكـن لـديّ شـكّ فـي شـعوري تجاهك حتّى مسـاء ذلـك اليوم في القاعـدة، ربمـا كان الوقـت والمـكان غير ملائمين لاسـتمرار علاقتنا، ولا بدّ أنّـي كنـت بحاجـة إلى المزيـد من الوقت لأعتاد على الفكرة، ولكن فجأة لم أستطع الاستمرار بتلك العلاقة، فلم يرتبط الانفصال بشعوري تجاهك، كما أنّك لم تك المقصود بشكل مباشر، وإنّما الأمر برمّته ارتبط برفضي وجود عناصر الجيش على أرض بلادي، كم يبدو هذا غبياً!».

لم ينطقا بكلمة واكتفيا بالنظر إلى بعضهما.

تنهّد بعمق وقال: «حسناً، لا أظنّ أنّ الساعات الأربع والعشرين الماضية قد غيّرت رأيك في الأميركيين».

«أنـا لا أكـره الأميركييـن، إنّـه الشـعور برفـض وجود جيـش غريب على الأرض الآيسلندية، وهذا كلّ ما في الآمر».

لقد كانت حريصة على ألّا تسـيء إليه، فقد اندفع إلى مسـاعدتها طوعاً ومن دون مقابل، وهي مدينة له الآن، ولا سيّما بعد أن اكتشفت صفاته الحميدة التي ميّزته عن غيره خلال الأربع وعشرين ساعة الماضية، وكان أهمّها رزانته وشجاعته ومروءته وقدرته غير المحدودة على استيعابها.

عندها قال: «لننسَ الموضوع، ويجب أن نحاول الحصول على قسط من الراحة من أجل خوض المعركة غداً».

قالت كريستين: «أنا سعيدة لوقوفك إلى جانبي، ومساعدتي على مواجهة مشاكلي، فلا أعرف كيف كنت سأتدبّر أمري من دونك، شكراً لك».

«أحسنتِ بفعل ذلك، فلطالما تمنّيت أنّنا بطريقة ما... ولو علمت بسبب قرارك السابق لكنت تصرّفت بطريقة مغايرة..»، ثمّ صمت من دون أن يكمل كلامه.

«عندما ينتهي هذا الكابوس، وتُحلّ كلّ الأمور، يمكننا أن نحاول مجدّداً، لأكتشف كيف سيكون تتصرّفك، فهل ستكون جاهزاً لذلك؟».

أومأ ستيف إليها برأسه موافقاً، فقبّلَته.

قال متفاجئاً: «ما كان هذا؟!».

همسَت إليه: «لا أعرف، ربّما هي قبلة الصّداقة بين أمّتينا العظيمتين»، ثمّ قبّلته مرّة أخرى، لكنّ القبلة كانت على شفتيه هذه المرّة، محرّرةً زمام ملابسه الشّتويّة.

مكتبة
t.me/t_pdf

27

بحيرة ثينغفاليفاتن، السّبت الواقع 30 كانون الثّاني، السّاعة 21:00 بتوقيت غرينتش

عُقد الاجتماع الثاني بين رئيس الوزراء الآيسلندي والسلطات العسكرية بسرّية تامّة في منتجع رئيس الوزراء الواقع على بحيرة ثينغفاليفاتن، وهو عبارة عن منزل مؤلّف من أربع غرف نوم ومجهّز بجميع وسائل الراحة بما في ذلك الساونا وحوض الاستحمام الساخن، كما يطلّ المنتجع على منظر بانورامي واسع للبحيرة.

انضمّ وزير العدل إلى الفريق الآيسلندي، وحضر الاجتماع الأدميرال الذي يمثّل الجيش الأميركي في قاعدة كيفلافيك، وإلى جانبه إيمانويل ويسون، المسؤول المؤقّت عن السفارة الأميركية في ريكيافيك.

أشارت الساعة المعلّقة على الحائط إلى الساعة التاسعة مساء تماماً. وفي ذلك المساء، أبلغت الشرطة والسلطة المسؤولة عن الملاحة الجوّية رئيس الوزراء أنّ فريق الإنقاذ الموجود حالياً في فاتنويوكل، أرسل رسالة مفادها أنّ الجنود الأميركيين المسلّحين شوهدوا على النهر الجليدي، وأنّه قد عُثر على اثنين من أعضاء الفريق، أحدهما كان ميتاً، بينما كان الآخر مصاباً بجروح بالغة ومن المتوقّع ألّا يعيش.

قال أحد المساعدين لرئيس الوزراء وهو يسلّمه التقرير: «الناجي يدعى إلياس، وهو شقيق كريستين المرأة التي غادرت منزلها تاركة وراءها جثّة رجل يدعى روفلونور».

سأله رئيس الوزراء: «هل القضيّتان مرتبطتان ببعضهما؟».

أكّد المساعد الذي قال: «يبدو الأمر وكأنّهما كذلك، فقد نُشر اسمها عبر وسائل الإعلام الوطنيّة، ويُعتقد أيضاً أنّ كريستين لها علاقة بحادث إطلاق نار قد جرى في وسط المدينة في وقت سابق اليوم».

«ما المعلومات المتوفّرة لديك حول هذا الأمر؟».

«حتّى الآن ليس لدينا الكثير من المعلومات، ولكن قد اتّضح أنّ أميركيَّين متورّطان في الحادث، أحدهما يرقد في المستشفى متأثّراً بجروحه البليغة، والآخر نعمل جاهدين على تقفّي أثره، أمّا كريستين فلا نعرف مكان وجودها».

وبعد وقت قصير، وصل تقرير إلى رئيس الوزراء يفيد أنّ مروحيتين للجيش الأميركي كانتا تحلّقان في الجوّ، ولم ترده أيّ معلومات عن مسارهما أو وجهتهما، كما لم تتلقّ مراقبة الحركة الجوّية أيّ طلب للحصول على إذن بالتحليق عبر المجال الجوّي الآيسلندي وفقاً للبروتوكول المتّفق عليه، وعلاوة على ذلك، عرف رئيس الوزراء أنّ مروحية تابعة لخفر السواحل الآيسلندية كانت في طريقها إلى نقل اثنين من أعضاء فريق الإنقاذ اللذين عُثر عليهما على النهر الجليدي إلى المستشفى، بعد فشل الجيش الذريع في الاستجابة لاستغاثة الفريق.

في هذه الأثناء، بدأت العاصفة الثلجية تنحسر فوق النهر الجليدي، وكان أعضاء فريق الإنقاذ يتّجهون نحو المنطقة التي تنتشر فيها القوّات المسلّحة بعد أن تمّ إبلاغهم بمكانها بدقّة.

انتشرت أخبار الأحداث التي تجري في فاتنويوكل بسرعة فائقة، ولا سيّما بعد أن عرضت محطّة الإذاعة الرسميّة خلال نشرة الأخبار المسائية

ملخّصاً قصيراً يتناول الأحداث الجارية في المنطقة بدقّة متناهية، وقد وعدت المستمعين بتزويديهم بآخر المستجدّات وأحدثها.

وكان ردّ فعل رئيس الوزراء عندما عَلِم بهذه التطوّرات استدعاء الأدميرال من كيفلافيك ليعقد معه اجتماعاً طارئاً.

لكنّ الأدميرال خذله عندما اتّصل برئيس الوزراء طالباً عقد اجتماع سرّي عاجل خارج ريكيافيك، مضيفاً أنّ وزير الدفاع الأميركي مستعدّ للمشاركة في الاجتماع عبر الهاتف إذا اقتضى الأمر، وقد فاجأ ذلك رئيس الوزراء، ولكنّه قد فهم من خلال الاجتماع السابق أنّ العملية التي تجري على النهر الجليدي كانت مسألة حسّاسة بالنسبة إلى الأميركيين، ولكن بالتأكيد لم يعد هناك فرصة للحفاظ على سرّية الأمر.

أخبره وزير العدل، بأنّه أبلغ الأميركيين بما يعرفه عن الأحداث الجارية على النهر الجليدي وفي ريكيافيك، ولكنّ الأميركيين اكتفوا بالاستماع إليه من دون أن يدلوا بأيّ رأي.

عندما وصل الأميركيون كان استقبالهم رسمياً.

بدا الأدميرال متوتّراً، بخلاف الجنرال الذي لم تشِر ملامحه إلى أيّ تعابير، وكان الأميركيان يرتديان الزي العسكري، بينما كانت ملابس الآيسلنديين غير رسمية.

سأل رئيس الوزراء: «هل صحيح أنّ هناك قوّات أميركية مسلّحة في فاتنويوكل؟».

أجاب الأدميرال: «أنت تعرف جيّداً سبب وجود قوّاتنا على النهر الجليدي، واعتقدت أنّنا توصّلنا إلى اتّفاق خلال اجتماعنا الأخير، فما يجري يُعرف باللغة العسكرية بعملية عسكرية تتضمّن زيارة قوّات الناتو من هولندا وبلجيكا من أجل نقل حطام طائرة، وهناك قرابة مئة عسكري، وهم مسلّحون بالفعل، ولكنّهم لا يسعون إلى القتال مهما اشتدّت الظروف».

فسأله رئيس الوزراء: «لماذا لم يتمّ إبلاغنا بوجود الأسلحة؟ لقد ذكرت في اجتماعنا السابق أنّ هدفكم الوحيد نقل تلك الطائرة اللعينة من النهر الجليدي والعبور بها عبر المحيط الأطلسي، وكان من المفترض أن يحدث ذلك من دون أن يعلم أحد به، ولكنّه قد مات رجل الآن، كما أنّكم قد ادّعيتم سابقاً أنّ للأمر علاقة ببعثة استكشافية لا بعملية عسكرية، فكيف تفسّر هذا السلوك؟ إنّه انتهاك جسيم للمعاهدة التي تمّ الاتّفاق عليها، وهذا التصرّف يعدّ إهانة كبيرة بحقّ بلادنا؟ وسلوككم المشين يضغط بشدّة على العلاقة الوديّة بين بلدينا، وهذا الضغط يشتدّ يوماً بعد يوم، ونحن لم نعد مسؤولين عمّا يمكن أن يحدث بأيّ حال من الأحوال».

ردّ الأدميرال: «بغضّ النظر عمّا حصل لعضو فريق الإنقاذ، فسيتمّ إنهاء العمليّة قبل ظهر يوم غد، وسيكون حينها جنودنا بعيدين عن النهر الجليدي، من دون أن يتركوا أثراً يدلّ على تواجدهم هناك، ولا أظنّ أنّ الأمر يعدّ خطباً جللاً، بل أظنّ أنه يمكنك شرح الأمر وفقاً للتفسير الذي سبق أن قدّمناه إليك، وهو أنّ ما يحصل مجرّد مناورة لمدّة يومين لا أكثر».

علّق زير العدل الرجل الملتحي والمراوغ، وعيناه الصغيرتان تدلّان على شدّة قلقه قائلاً: «أفاد رجال فريق الإنقاذ أنّ جنودك المسلّحين هم الذين ألحقوا الأذى بالرجلين، وقد كان ذلك عقاباً لتطفّلهم على عملكم».

أجاب الأدميرال: «ليس لدينا معلومات تشير إلى أنّ هذا ما حصل»، ولم يُدلِ الجنرال بكلمة إذ انشغل بتأمّل أرجاء الغرفة، واللوحات الآيسلندية المعلّقة على الجدران، والشرفة في الخارج المطلّة على حوض الاستحمام الساخن حيث الظلام الدامس يخيّم على المكان، من دون أن تخترقه أيّ أضواء.

تابع الأدميرال: «نحن نعمل في ظلّ ظروفٍ صعبةٍ للغاية في الميدان، ولكنّني أؤكّد لكم أنّه لم يُكلّف أحدٌ بإطلاق النار على الآيسلنديين، أو

بالتقليل من احترام أيّ مواطن يقيم على هذه الأرض».

سأل رئيس الوزراء: «وماذا عن حادث إطلاق النار الذي جرى في وسط المدينة اليوم؟ فرجالكم قاموا بإطلاق النار على الآيسلنديين، كما تشير الأدلّة إلى أنّهم باتوا هدفاً لنيران رجالكم نوعاً ما».

أجابه الأدميرال: «نحن على دراية بإطلاق النار، ولكن يمكنني أن أؤكّد لك بشكل قاطع أنّ ما حصل لا علاقة له بعملية فاتنويوكل».

«وماذا بشأن المروحيتان اللتان انطلقتا من القاعدة؟».

«ثلاثة من رجالنا تعرّضوا لحادث، ولكنّه غير خطير، والمروحيتان في طريقهما إلى المكان لنقلهم من هناك».

«لقد بلغنا أيضاً أنّ مروحيات الجيش قد رفضت الاستجابة لنداء الاستغاثة بعد اشتداد العاصفة التي هبّت في منطقة النهر الجليدي».

علّق وزير الدفاع قائلاً: «أليس ذلك ما حصل بالفعل؟».

قال الأدميرال وهو ينظر إلى الطاولة ويجمع أوراقه: «لستُ على علمٍ بذلك، ولا أعتقد أنّ شيئاً من هذا القبيل قد حدث، على الرغم من أنّه من الطبيعي أن يتمّ التحقيق في كلّ ما تقوله».

أخيراً، فتح الجنرال فمه ليتكلّم، فشدّ إليه كلّ الأعين، وهو يقول: «لدينا طلب بسيط أيّها السادة، ويتمثّل بجعل فريق الإنقاذ يغادر المنطقة فوراً»، لقد تحدّث بفظاظة تظهر تعاليه، وكأنّه بدا شديد الانشغال ولا نيّة لديه في هدر وقته بالردّ بدبلوماسية واختلاق الأعذار كما يفعل الأدميرال.

سأل رئيس الوزراء بقلق: «ما الذي تعنيه؟».

أغمضَ الأدميرال عينيه ببطء، وقال:

«لقد طلبت خروج الفريق من هناك، لأنّهم قد يفسدون عمليتنا إذا بدأوا بالتدخّل في عملنا، ولا نريدهم أن يحوموا حولنا، فهل لديك مشكلة في ذلك؟».

نظر الآيسلنديين إلى بعضهم في ذهولٍ، وقد خيّم صمت مطبق.

فكرّرَ ويسون قوله: «هل لديك مشكلة في ذلك؟».

أجـاب رئيـس الوزراء: «ليس لدينا سـلطة على فريـق الإنقاذ، ولا يمكننا ببساطة أن ندعوه إلى التوقّف عن أداء مهمّته، وأيّاً يكن الأمر، فقد كان بالفعل يقـوم بعملـه علـى النهـر الجليدي قبل اجتماعنا الأخيـر، ولو أحطتنا علماً بما تقومون به، لكنّا أغلقنا المنطقة ومنعنا التجوّل فيها، ولكن بما أنّك لم تخبرنا سابقاً بما يحصل، فلا يمكننا أن نعاقب أفراد فريق الإنقاذ من دون أن يرتكبوا أيّ خطأ».

قاطعه الجنرال قائلاً: «ولكنّني متأكّد من أنّهم سيفكّرون مليّاً في التراجع إذا تلقّوا مكالمة من رئيس الوزراء تبلغهم بذلك».

قـال رئيـس الوزراء بنبرة حاسـمة: «أقترح أن تهتمّ بالأضرار التي ألحقها جنـودك بالآخريـن، يـا جنرال، فقد مات رجلٌ على النهـر الجليدي، وأُصيب آخر بجروح خطيرة، لِذا من فضلك لا تستخفّ بذكائي من خلال قولك إنّك لست على اطّلاع على الأمر».

تحـدّث الجنـرال بنبـرة خافتـة، ووجـه يخلـو من أيّ تعابيـر: «هل لي أن أذكّـرك، حضـرة رئيس الوزراء، بأنّ نسـبة كبيرة مـن الدخل القومي الإجمالي لهذا البلد مستمدّة من بلدنا بشكلٍ مباشر أو غير مباشر».

قال رئيس الوزراء: «لا أعتقد أنّ هذا الاجتماع سيؤدّي إلى نتائج إيجابية، لذا سنقدّم احتجاجاً رسمياً على انتهاك بنود الاتّفاقية القائمة بيننا، وسنطالب بإجراء تحقيق عام وشامل ومشترك بين بلدينا في الحوادث التي تجري على أرضنا، وسنغلق جميع الطرق التي تربط النهر الجليدي بالقاعدة حتّى نحصل على تفسـير واضح ودقيق حول يحدث، كما سـنُطلِعُ وسـائل الإعلام على ما يجري من أحداث، وبالطبع يمكنك أن تتخيّل كيف سيوجّه اللوم إليكم، بعد أن أخاطب الأمّم بشكل مباشر».

«يمكنك أن تفعل ما تريده، طاب يومكم أيّها السادة».

جمع رئيس الوزراء أوراقه عن الطاولة، ووضعها في الحقيبة، ثمّ أغلقها مباشرة، وحذا وزير العدل حذوه.

وقال الجنرال من دون أن يتحرّك من مكانه، وقد ثبّت نظراته أمامه مباشرة: «هناك قنبلة على النهر الجليدي، لذا يجب أن تتّصل بفريق الإنقاذ، وتطلب منه المغادرة في الحال».

«قنبلة؟ ماذا تقصد، بقنبلة؟ ما نوع هذه القنبلة؟».

«النوع الذي ينفجر ويخلّف دماراً شاملاً، إنّها قنبلة ألمانية قديمة، ونحاول إزالتها من المكان، لكنّ ذلك يتطلّب عملية دقيقة، فلدينا خبراء يعملون على ذلك في الموقع، وهم من أفضل رجالنا، لكنّ فريق الإنقاذ معرّض لخطر كبير، ولديك القدرة على جعله يغادر المكان لمنع وقوع كارثة محتملة».

«هناك قنبلة على متن الطائرة؟ أيمكن توضيح الأمر أكثر».

«لقد أحضرها العلماء الألمان معهم، ونعتقد أنّنا نتعامل مع قنبلة هيدروجينية بدائية».

بدا رئيس الوزراء مصعوقاً، ولم يصدّق ما تسمعه أذناه.

أضاف الأدميرال: «إنّه سهمنا المكسور الأوّل، ونسمّي هذه القنابل بالأسهم المكسورة، لأنّها أسلحة الدمار الشامل التي فقدناها خلال حوادث الطيران، أو خلال حوادث أخرى، وهناك عدد كبير منها منتشر في هذه البلاد وفي جميع أنحاء العالم، وسوف تدرك أنّنا سنذهب إلى أبعد الحدود من أجل السيطرة على هذه المعلومات المتعلّقة بها، وقنبلتنا الأولى قد عثرنا عليها في فاتنويوكل».

أضاف ويسون: «وهي خطرة جدّاً».

28

فاتنويوكل، النهر الجليدي، السبت، 30 كانون الثاني
23:00 بتوقيت غرينيتش

كانا على أتمّ الاستعداد للقيام بمهمّتهما، فقد تجهزّا بمصباحين قويين، وحذاءي تسلّق مناسبين، وسترتين سميكتين قدمّها جون إليهما، لكنّ درجة الحرارة كانت قد ارتفعت قليلاً، وهذا جعل الثلج ناعماً وهشّاً تحت أقدامهما، فخاضت كلّ خطوة من خطواتهما صراعاً مع الثلوج، بينما كان القمر يسبح في السماء، فيطفو تارة على سطح الغيوم، وطوراً يغطس في أعماقها، ما جعله ينشر ضوءاً باهتاً على حافة النهر الجليدي، أدّى إلى انخفاض درجة الحرارة مجدّداً.

لم يتمكّنا من النوم في تلك الليلة، ولكنّ أخذهما قسطاً من الراحة أفادهما كثيراً قبل الانطلاق إلى النهر الجليدي، كما أنّ كريستين قد حاولت أكثر من مرّة الاتّصال بوالدها، ولكن من دون جدوى، وأخيراً استجمعت قواها واتّصلت بمركز الشرطة، فحُوّلت مباشرة إلى المسؤول عن التحقيق في إطلاق النار الذي حصل وسط المدينة، فاستمع باهتمام إلى روايتها وإن كانت متأخّرة، فبدت الأحداث التي أطلعته عليها بتفاصيلها الدقيقة غير منطقيّة، كما أثارت شكوكه حول سبب عدم اتّصالها في وقت سابق، ثمّ ختمَتْ حديثها

بإخباره بأنّها موجودة الآن عند سفح فاتنويوكل.

فعلّـق المحقّـق عندما أنهت كريسـتين كلامها، قائـلاً: «إذاً فالرجل الذي وجدنـاه فـي شـقّتك -رونولفـور- لا علاقة له بكلّ ما يجـري»، متجنّباً إظهار شكوكه في صدق روايتها، فخرج عن المألوف ليترك لديها انطباعاً بأنّه أخذ ما قالته على محمل الجدّ، فلم يكن يريد المجازفة بتضييع فرصة التواصل معها مـن خـلال مجادلتهـا، على الرغم من تأخّر وقت التبليغ عمّا دار من أحداث، بعد أن استنفرت كلّ القوّى وبدأت تعمل على مدار الساعة على التحقيق في إطلاق النار وسط المدينة وجريمة القتل التي ارتُكِبت في منزلها.

أكّدتْ كريسـتين كلامها قائلة: «لا علاقة له على الإطلاق»، لقد حاولَتْ تقديم تقرير واضح وحيادي قدر الإمكان، ثم أردفت قائلة: «في الواقع، أعتقدُ أنّه قد أنقذ حياتي».

«لقد أخبروني في الوزارة بأنّكِ قد تكونين القاتلة، لأنّ المدعو رونولفور كان يهدّدكِ، وإذا حصل ذلك فعلاً، فيمكن اعتبار قتله دفاعاً عن النفس»، لقد كان تأثير صوته الودود، ولهجته الهادئة، وكلامه المنطقي والمعقول كبيراً على كريستين، فشعرتْ بأنّه يمكنها الوثوق به، وحاولت أن تتخيّل شكل وجه ذلك الصوت، ولكنّها لم تتمكّن من فعل ذلك.

«لذلـك لـم أعـرف مـا عليّ أن أفعلـه، وإلى أين أتّجـه، فالرجلان اللذان هاجماني أشارا إلى مؤامرة تُحاك ضدّ آيسلندا، وقتلا رجلاً في شقّتي، وكنتُ أشعر بيأس شديد».

لقد اسـتوعب الأحداث وتفهّم موقفها، فرواية كريسـتين التي بدت غير منطقية، ارتبطت بما اكتشفه حتّى الآن، لذا لم يرَ سبباً يدعو إلى اتّهامها، كما أنّ استعدادها للتعامل مع الشرطة بدا واضحاً، وقد شعر بصعوبة وضعها.

تابـع المحقّـق قائـلاً: «لقـد احتجزْنـا الرجـل الذي أطلق النار في وسـط المدينة لفترة وجيزة، لكنّ السفارة أصرّت على نقله إلى المستشفى العسكري

الأميركي في القاعدة، وقد استجابت الحكومة الآيسلندية لرغباتها، شرط ألّا يغادر البلاد».

قالـت كريسـتين: «هـذا جنـون! أظنّه الآن قد أصبح فـي طريقه إلى بلاده عبر المحيط الأطلسي».

«أوافقك الرأي، وربما يكون على متن مقاعد الدرجة الأولى».

«وماذا عن الآخر؟».

«لا نعـرف شـيئاً عنـه، لقـد ذهبتُ إلى السـفارة التي -كمـا قلتِ- تزدحم بالجنـود، وتحدّثـتُ إلـى الجنـرال، وهو البديل عن السـفير حاليـاً، لكنّني لـم أسـتطع الحصول على أيّ معلومة منه، ونحن نعلم تماماً أنّ لدى الأميركيّين ما يخفونه، ونحتاج إلى مساعدتك لمعرفة ما الذي يخفونه عنّا».

كان أسـلوبها مقنعاً لدرجة أنّه قرّر أن يتواصل معها لاكتشـاف الحقيقة، فهو على الأقلّ يثق بها أكثر ممّا يثق بالأميركيين.

قالـت كريسـتين: «أعـرف مـا يخفونـه، فهـو يرتبـط بحطـام طائـرة على فاتنويوكل، وأنا في طريقي إلى هناك الآن».

علّق المحقّق قائلاً: «لقد حصلت على اسمٍ واحدٍ فقط، وهو راتوف وهذا كلّ شيء، وربما يكون المسؤول المباشرعن العملية».

«لقد رأى أخي ما يحصل هناك»، فانقطع كلام المحقّق لوقت قصير في أثناء تحدّثه عبر الهاتف.

ثـم تابـع قائـلاً: «لمـاذا لا تأتين لمقابلتي في المدينة؟ وسـأحاول ترتيب الأمور بعد تنسيقها بعناية بمساعدتك».

«سـيكون الأوان قد فات، لذا من الأفضل أن ترسـل بعض الرجال إلى فاتنويوكل، ولماذا لا تتّصل بفريق الإنقاذ المتوجّه إلى ذلك النهر الجليدي؟ الرجل المسؤول يُدعى يوليوس، ويمكنه تأكيد أقوالي، فقد أخبرتك عن إلياس وجوان».

«أنـتِ تعلميـن أنّـه تمّ الإعلان للتوّ عن حظر تجوّل في منطقة فاتنويوكل بسـبب التحذيـر مـن ثـوران بركانـي؟ وقـد بثّـت جميـع القنوات هـذا الخبر المستعجل، كما أُعلنت حالة الطوارئ».

«إنذار؟ يا له من هراء! وماذا يفعل الجنود الأميركيون هناك إذا كان خطر الانفجـار البركانـيّ حقيقيـاً ؟ مـا تقولـه يعنـي أنّ الحكومـة الضعيفة خضعتْ لليانكيز مرّة أخرى».

كتم المحقّق ضحكته، وقد أعجبته شخصيّتها الفذّة.

«أعتقدُ أنّ العبارة الأصحّ هي تعزيز العلاقات الإيجابية بين الدولتين».

قالت كريستين مرّة أخرى: «أنا في طريقي إلى هناك».

«يجب عليكِ حقّاً أن تحضري إلى المركز وتطلعيني على المزيد».

وتابع قائلاً: «ما نوع الطائرة التي لا تكفّين عن الحديث عنها؟».

«ليس لـديّ الوقـت للدخـول فـي التفاصيل، ولكن من المؤكّد أنّ شيئاً خطيراً داخل الحطام، ولا أعرف ما هو، يجعلهم مصمّمين على إخفائه «.

«وهذا هو السرّ الكبير؟».

«بالضبط، إنّ الأمر متروك لك، أمّا أنا فذاهبة إلى النهر الجليدي لاكتشاف مـا يخفونـه»، وأنهـت المحادثـة. لقد أرادت أن تثـق بالمحقّق الذي بدا رجلاً محترمـاً، لكنّهـا عرفـت أنّ الطريقة الوحيدة لكشـف الحقيقة كاملة تكمن في الذهاب إلى ذلك المكان للعثور على ما تسعى إليه بنفسها.

كان الطقس لا يزال بارداً، وسـتيف يبعد عنها مسـافة أربعة أمتار، ثم ما لبثـت أن اتّسـعت هـذه المسـافة أكثر فأكثـر، أمّا كريسـتين فكانت تصغي إلى صـوت احتـكاك ملابسـهما ببعضهـا، وخشخشـة الثلوج تحـت أقدامهما، ثمّ شعرت كما لو أنّ رئتيها تصدران صفيراً أيضاً، لقد أعطاهما جوان توجيهات دقيقة للغاية لسلوك أسهل الطرق للوصول إلى النهر الجليدي، وهذا ما جعل مسـيرتهما سـهلة، وعلى الرغم من كلّ ذلك، كان الشـيء الوحيد الذي يعيق

تقدّمهما بسرعة افتقارهما إلى اللياقة البدنية. كما كانت طوال الوقت تسمع لهاث ستيف خلفها بشكل متواصل، وهو يُطلقُ الشتائم بغزارة بين الحين والآخر، بينما كانت تتنفّس بعمق لتلتقط أنفاسها مع كلّ خطوة تخطوها وهي تبذل جهداً كبيراً لمتابعة طريقها.

لم تعرف كريستين ما يمكن أن تتوقّعُهُ عندما تصل إلى النهر الجليدي.

إنّها تأملُ أن تجد يوليوس هناك، وربما تتوقّع وصول عناصر خفر السواحل إلى جانب الشرطة، وكانت قد اتّصلت بمعارفها في مكتب الأخبار التابع لإحدى المحطّات التلفزيونية للتأكّد من أنّ وسائل الإعلام ستبدأ بملاحقة شائعات القوّات الأميركية المتعلّقة بفاتنويوكل واحتمال وجود طائرة ألمانية تعود إلى الحرب العالمية على النهر الجليدي، ولن يكون في إمكان اليانكيز التستّر عليها لفترة أطول.

قبل يومين بالكاد غفت قبل أن تستيقظ عند الفجر خائفة من مواجهة رونولفور في المكتب، وقد بدأ الإرهاق ينال منها ويضعف قوّتها، ولا سيّما وهي تتسلّق المنحدر الحادّ وصولاً إلى قمّة الجليد.

كان قد سألها ستيف عندما كانا مستلقيين على السرير: «هل تعرفين ما الذي أثار إعجابي بك منذ أن تعرّفت إليك؟».

«أثار إعجابك بي؟».

«خلال أوّل لقاء بيننا».

«في ذلك الاستقبال؟».

«لقد بدوتِ وحيدة، كما لو أنّك لا تعرفين أحداً من الناس».

«إنّ حفلات الاستقبال ليست المفضّلة لديّ...»

«لم أتلقَّ أبداً مثل هذه الإجابة من أيّ شخص».

«ماذا تقصد؟».

«لستُ متأكّداً ممّا شدّني إليك، ومن الصعب أن أوضحه».

«قل أيّ شيء؟».

«في الحقيقة، أردت أن أتعرّف إليكِ، لِأكتشف شخصيّتك، وأسمعكِ وأنت تتحدّثين، وأراكِ تضحكين وتبتسمين، لقد أردت أن نكون وحدنا معاً، ومن دون أيّ شخص آخر».

ابتسمت كريستين: «أنتَ لستَ بارعاً في المغازلة، أليس كذلك؟».

أجاب مبتسماً: «لا، لا أعتقدُ ذلك، أحاول فقط أن أخبرك بما شعرت به منذ المرّة الأولى التي رأيتك فيها».

انتقلت أفكار كريستين من ستيف إلى إلياس، الذي كان يتسلّق هذا النهر الجليدي بخفّة، ويصف عدم رغبتها في مرافقته بالجبن، حسناً، لقد نجح أخيراً في إجبارها على التحرّر من مخاوفها والقيام بما رغب في أن تقوم به دوماً.

لقد تخيّلت شقيقها بين أيدي الجنود المسلّحين، وهم يلقون به في قاع الصدع وهو مصاب بجروح خطيرة، فلم تكن هذه المرّة الأولى التي تعاني فيها من الإحساس بالاختناق والضيق خوفاً على أخيها إلياس.

كانت في الثامنة عشرة من عمرها، وإلياس في الثامنة من عمره حين أرسلته إلى المتجر ليجلب لها زجاجة كوكاكولا، وعرفت لاحقاً أنّه ما إن خرج من المتجر وهو يركض باتّجاه الطريق من دون أن ينظر حوله حتّى صدمته سيّارة مسرعة، فارتطم جسده بغطاء المحرّك، وارتدّ من الزجاج الأمامي الذي حطّمه، إلى سطح السيّارة قبل أن يسقط على الطريق، ويفقد الوعي، وقد تجمّعت تحت رأسه بركة كبيرة من الدماء.

لم يكن منزلهما بعيداً عن المتجر، لذلك سمعت كريستين صافرات الإنذار الحادّة التي رافقت وصول عناصر الشرطة والإسعاف، فأنبأها إحساس داخليّ بأنّ للأمر علاقة بإلياس، فتوجّهت بسرعة إلى مكان الحادث لتتفاجأ بالمسعفين وهم يرفعون جسده الصغير عن الطريق، ويدخلونه إلى سيّارة

الإسعاف. فلم تستطِعْ كريستين أن ترى ما يدلّ على أنّ أخاها لا يزال حيّاً، وقد جلس السائق الذي صدمه على الرصيف ممسكاً برأسه وهو في حالة يأس، وقد تجمّع حوله مجموعة من الناس، فتوجّهت إلى سيّارة الإسعاف وهي في حالة ذهول، فسُمِحَ لها بركوبها ومرافقة إلياس إلى المستشفى.

خضع إلياس لعملية جراحية لمدّة ثماني ساعات، فقد ألحق الحادث ضرراً كبيراً بجمجمتهُ، وأُصيبَ بنزيفٍ حاد في المخّ، كما أصيبَ بكسرٍ في ساقهِ وفي ضلعين، وقد اخترقَ أحدهما رئته اليمنى، كما كُسِرت ذراعه اليمنى في موضعين، فجلستْ كريستين في غرفة الانتظار، وهي غارقة في الندم، والشعور بالذنب يكاد يقتلها، فراحت تمشي جيئةً وذهاباً، وتحدّقُ إلى السقف بين الحين والآخر، وهي تئنّ من الألم، وتفكّر بأسى في أنها أرسلتْ شقيقها بنفسها إلى الهلاك من أجل جلب زجاجة كوكاكولا، وها هو الآن يرقد بين الحياة والموت.

قطع والداها إجازتهما في جزر الكناري، وعادا إلى المنزل، وذلك بعد أن أخبرتهما بأنّ إلياس تعرّض لحادث خطير، وفي الحال لاما كريستين ليس فقط لِما أصاب أخاها بل لإِفسادها إجازتهما أيضاً، وقد وجدت صعوبة في تحديد ما الذي أزعجهما أكثر، فافترضت أنّه عليها الاعتناء بشقيقها وحدها، ولطالما كان الأمر على ذلك النحو، وكالعادة ألقيا المسؤولية كاملة على عاتقها، معتبرين أنّها قد فشلت في تحمّلها.

على الرغم من أن إلياس تعافى بشكلٍ تامّ في وقت لاحق، إلّا أنّ الشعور بالذنب ظلّ ينمو في داخلها مثل الورم الخبيث الذي لا يمكن استئصاله. والغريب أنّها لم تستطع التخلّي عن إدانة نفسها، على الرغم من أنّها لم تكن مسؤولة عن وقوع ذلك الحادث، وظلّت تفكّر في أنّ أيّ أذى يصيب إلياس في وقتٍ لاحقٍ من حياته، سيكون بسبب الحادث الذي تسبّبت بوقوعه، بسبب إصابة رأسه، وربما سيجعله ذلك الحادث أكثر عرضة للخطر عند وقوع

أيّ حوادث أخرى مهما كانت بسيطة، ولهذا السبب لم تسطعْ تحمل حبّه للمغامرة -القفز بالمظلّات، والغوص باستخدام جهاز التنفّس، والرحلات الجليدية- وقد بذلت قصارى جهدها للحدّ من هذه الأنشطة، على الرغم من شعورها في كثير من الأحيان بأنّه يتجاوز حدوده في استفزازها، ومع ذلك لم تخبره أبداً بمخاوفها، أو بشعورها بالذنب الذي يسيطر كلّياً عليها، كما لم تجرؤ يوماً على صياغة مخاوفها بكلمات واضحة بالنسبة إليه.

ربما خزّنت مخاوفها في داخلها طوال الوقت، إلى أن تحتاج إلى إطلاقها من دون تحفّظ، كما يحصل معها الآن.

صاح ستيف من بعيد، فأدركت أنّها تقدّمت عنه كثيراً: «انتظريني».

كان العمل يسير على النهر الجليدي بأقصى سرعة مرّة أخرى، فقد أزيل الجليد من أحد جانبي الطائرة، ولكنّ الآخر لايزال مُحاطاً بانجرافات عميقة. ومع ذلك، كان الرجال منهمكين في العمل حول النصف الأمامي من الطائرة، وقد توقّع راتوف وصول مروحيتين، وبمجرّد تثبيت الرافعات حول جسم الطائرة، ستعاد الجثث إلى داخل المقصورة وستغلق الفتحة، وهذا سيتيح لهما رفع الحطام دفعة واحدة، ولكن من المؤكّد أنّ إرسال المروحيتين سيساهم بالحدّ من سرّية المهمة، لكنّ الرجال سيغطّون الحطام بالقماش المشمّع محاولين إخفاءه.

ولكنّ راتوف لم يعد قلقاً بشأن انتشار الشائعات، لأنّه بات يرى أنّه كلّما زاد عدد الذين سيعرفون بالأمر، كان ذلك أفضل.

أشار مسؤول الاتّصالات إلى شاشة الرادار حيث ظهرت مجموعة من النقاط الخضراء الصغيرة تزحف عبرها، فكانت حركتها بطيئة جدّاً لدرجة أنّها تكاد تكون غير مؤثّرة.

«إنّ فريقَ الإنقاذِ يتحرّك يا سيّدي».

أمره راتوف قائلاً: «صِلني بالسفارة».

ثمّ شـاهد راتوف نقطتين تقتربان من الجنوب، وهما تزحفان ببطء على شاشة الرادار الخضراء الموجودة في خيمة الاتّصالات، بينما كان فريق الإنقاذ يتقدّم من الشمال، وهو يتسلّل عبر أسفل الشاشة خلسة نحوهم، كان مستعدّاً كعادته، إذ أرسل جنوداً لاعتراض طريقه ومحاولة إيقافه أو على الأقلّ تأخير تقدّمـه، لكـنّ النقطتيـن الظاهرتيـن في الجنوب كانتا لغزاً محيّراً بالنسـبة إليه، فتسـاءَلَ إن كانـت الفتـاة من ريكيافيك، أخت الشـابّ هـي التي تتّجه نحوهم برفقة أحدهم، فلجم ابتسـامته، وهو يفكّر في أنهّا قد خدعت بيتمن وريبلي، حتّى إنّها وضعت أحدهما في المستشفى، وكان قد أرسل فريقاً لمقابلتها على حافة النهر الجليدي، ثمّ لاحظ عبر الشاشة أنّ القوات التي أرسلها في الاتّجاه المعاكس إلى فريق الإنقاذ قد توقّفت.

29

فاتنويوكل، النهر الجليدي، السبت 30 كانون الثاني، 23:15 بتوقيت غرينيتش

شاهد يوليوس الجنود يقتربون منهم، والمصابيح الأمامية القوية لعربات الثلوج الخاصّة بهم تضيء الظلام، وكانوا قرابة عشرين شخصاً، يرتدون الخوذات ويضعون النظّارات الواقية التي حجبت وجوههم تماماً، وقد تدلّت الحقائب من أكتافهم، وخلال دقيقة واحدة، توقّفوا في انسجام تامّ عن التقدّم، في انتظار تراجع فريق الإنقاذ، كما لو أنّهم رسموا خطّاً غير مرئي من أجل حماية حدود لا ينبغي تخطّيها. أمّا فريق يوليوس فقد تكوّن من سبعين رجلاً وامرأة، وكانوا يركبون الزلّاجات وعربات ثلجية ومركبتين، وعندما اقتربوا من الجنود أشار إليهم يوليوس إلى التباطؤ في سيرهم، وفي النهاية، توقّفوا على بُعد عشرة أمتار عنهم.

كان الجنود المسلّحون مدجّجين بالبنادق الآلية والمسدّسات، وقد ارتدوا ملابس القطب الشمالي للتمويه، وبالمقابل لم يكن فريق الإنقاذ الآيسلندي غير المسلّح يرتدي سوى بذلاته البرتقالية، لأنّ طبيعة عمله تتطلّب أن يكون مرئياً.

طلب يوليوس الذي كان على متن أولى المركبات من فريقه التوقّف عن

متابعة سيره، ريثما يتحدّث إلى الجنود، فترجّل من مركبته وتوجّه صوبهم، فلاحظ أنّ أحدهم قد ترجّل من عربته وتقدّم نحوه أيضاً، وقد حذا الجنود الآخرون حذوه بسرعة.

التقيا في منتصف الطريق، فسحب الضابط غطاء الرأس إلى الأسفل كاشفاً عن فمه، ومع ذلك وجد يوليوس صعوبة في تمييز ملامح وجهه التي تخفيها نظّارته الواقية، ولكنّه بدا شابّاً وأصغر سنّاً منه.

أعلن الضابط باللغة الإنكليزية بلكنة أميركية: «لقد دخلت منطقة عسكرية أميركية محظورة، ولديّ أوامر صارمة بمنعك من المضيّ قدماً».

«ماذا تقصد بمنطقة عسكرية محظورة؟ لم نسمع أبداً بوجود مناطق محظورة هنا».

«ليس لديّ الصلاحية للكشف عن أيّ تفاصيل أخرى، ولكن لن يظلّ الحظر لفترة طويلة، ونصرّ على احترامه الآن. وقد يكون الأمر أسهل على الجميع إذا تعاونت والتزمت بهذه التعليمات».

فشعر يوليوس بالغضب يجيش في داخله، وهو الذي اكتشف منذ قليل تحطّم عظام عنصرين من عناصر فريقه، كانا ملقّيين بين الصدوع، أحدهما جثّة هامدة والآخر يرجّح ألّا ينجو، وقد كان مقتنعاً بأنّ الرجال الذين يرتدون الملابس البيضاء المموّهة وراء هذا الحادث المميت، وهم يحاولون الآن حرمانه من حرّية التنقل في بلده.

«أتعاون؟! لماذا أنت هنا؟ ولماذا قتلت أحد رجالي؟ وما هذه الطائرة الغامضة المحطّمة على النهر الجليدي؟ وما كلّ هذه السرّية اللعينة؟».

أمره الضابط متجاهلاً سؤاله: «عليك أن تسلّمني جميع معدّات الاتّصالات، والهواتف المحمولة، وأجهزة الاتّصال اللاسلكي، ومشاعل الطوارئ التي في حوزتكم».

«تريدنا أن نعطيك معدّات الاتّصالات؟ هل أنت مجنون؟ وكيف

سنستجيبُ لإشارة الاستغاثة التي تردنا ممّا تسمّونه المنطقة المحظورة؟ فهناك آيسلنديون معرّضون للخطر».

قاطعه الضابط الذي ظلّ هادئاً، على الرغم من أنّ نبرة صوته كانت تدلّ على الغطرسة: «أنتم مخطئون، فلا سكّان في هذه المنطقة يحتاجون إلى مساعدتكم».

اعترض يوليوس على أسلوبه الفظّ وتعاليه في مخاطبته، ولو كان في موقف آخر لشعر بسعادة كبيرة بضربه، ولكن ذلك لا يعني أنّه كان خائفاً من الجنود الذين يحملون أسلحتهم، وإنّما بدا استدراجه إلى خوض معركة ضدّه هزلياً وغير متوازن أكثر من كونه خطيراً.

«وماذا لو رفضنا؟ هل سيطلق الجيش الأميركي النار علينا؟».

«لدينا أوامر صارمة».

«حسناً، يمكنك دفع أوامرك إلى مؤخّرتك، فليس لديك الحقّ في إيقافنا، ولا توجد منطقة محظورة على النهر الجليدي، وكلّ ما سمعناه كان عبارة عن تنبيه من انفجار بركاني، ولكنّني أراهن أنّ هذا الخبر ملفّق، وليس لديك الحقّ في منع التحرّك على الأراضي الآيسلندية ذات السيادة الداخلية، وبالتالي لا تملك حقّ مصادرة معدّاتنا».

هبت رياح شمالية فوق النهر الجليدي، وتناثرت بلّورات جليدية على السطح مثل الدخان، بينما كانا يقفان وجهاً لوجه، وفريق الإنقاذ يترقّب الأحداث بصمت خلف يوليوس، من دون أن يُظهر أيّ علامة من علامات الخوف من الجنود المسلّحين وقد حذا حذو قائده، الذي لم تكن لديه النية بالتراجع أمام الجنود.

أعلنَ يوليوس قائلاً: «سنواصل العمل»، واستدار نحو فريقه، لذلك لم يتمكّن من ملاحظةِ الضابط وهو يشير إلى الجندي الأقرب إليه، ليشهر البندقية المتدلّية من كتفه، ويركع متّخذاً وضعية إطلاق النار، فكاد يوليوس يصل إلى

مركبتـه عندمـا انطلـق وابلٌ من الرصاص، وقد اخترق الزجاج الأمامي وغطاء المحرّك ما أدّى إلى ثقبهما ثقوباً كثيرة، بعد أن حلّ مكان الصمت صوت أزيز الرصاصات وهي تخترق الفولاذ، فتمدّد يوليوس في الحال على الجليد، بينما اشتعلت النيران في المحرّك، ثم فتح أفراد فريق الإنقاذ أبواب العربة، وألقوا بأنفسـهم علـى الجليـد، قبل أن ينفجر المحرّك دافعـاً بغطائه نحو الأعلى، ثمّ هبط محطّماً السقف، وسرعان ما التهمت النيران العربة كلّها، فأضاء اللهيب عتمة الظلام الحالك.

توقّـف إطلاق النار بالسـرعة التـي بدأ فيها، فنهض يوليوس عن الجليد، متفاجئاً ممّا حدث للتوّ، ومرّة أخرى توجّه بهدوء نحو الضابط الشابّ، فكان الجنود لا يزالون يشهرون أسلحتهم.

كـرّر الضابـط: «الهواتف المحمولة، وأجهـزة الاتّصال وأجهزة الطوارئ الخاصّة بكم».

حدّق يوليوس إلى الحطام المشتعل والذي لم يسبق له أن رأى شيئاً مثله، فلم يسبق له أن تواجه مع جنود مسلّحين أو رأى الأسلحة وهي تستخدم في القتال، فسمح لغضبه أن يتوارى، مفسحاً المجال لمشاعر الخوف ممّا يمكن أن ينتظره وفريقه.

حـاول تفحّـص ملامح الضابط الشـابّ التي تخفيهـا نظّارته، ثم تفحّص وجـوه الجنـود خلفـه، ولكنّ ملامحهم جميعاً لـم تكن ظاهرة، وبعد ذلك نظر إلـى وجـوه أعضـاء فريقـه الذين فرّ بعضهم من السـيّارة المحترقـة، بينما كان الآخـرون فـي حيـرة مـن أمرهم، وعلى الرغم من أنّ درجة الحرارة على النهر الجليدي كانت دون العشر درجات تحت الصفر إلّا أنّه أحسّ بالدفء بسبب قربه من النيران المشتعلة.

رصدتهـم كريسـتين أوّلاً، عندمـا اقتربـت وسـتيف مـن نقطـة على النهر الجليـدي لـم تكـن مرتفعة أو شـديدة الانحدار بشـكلٍ خـاصّ، لذلك بالكاد

لاحظوا تغيّر التضاريس من الصخور المغطّاة بالثلوج إلى السهل الجليدي الممتدّ أمامهم، وعندما وصلا إلى سطح الجليد شاهدا الأضواء التي تخترق الظلام أمامهم، فقد كانت أربع عرباتٍ ثلجية تظهر من بعيد، فتابعت كريستين تقدّمها من دون انتظار ستيف الذي تخلّف عن اللحاق بها مرّة أخرى.

وعندما تلاقت أعينهما كانا يفكّران في الشيء نفسه، فهما يعرفان أنّ النهر الجليدي قيد المراقبة، لذلك لم يتفاجآ بإرسال فرقة لاستقبالهما، ولكنّ السرعة التي اعترضت بها طريقهما كانت مذهلة.

لم يكن هناك أمل في التغلّب على عربات الثلوج، كما لم يكن لديهما النيّة في المحاولة، ومع تزايد إحساس كريستين بالخوف، ذكّرت نفسها بأنّها أوصلت المعلومات إلى من كان عليها إبلاغهم بها، فشعرت بأنّ ذلك بمثابة ضمانة لحياتها، ولكن، هل ستردّ هذه الضمانة الأذى عنها؟ ووقفت وستيف بثبات وانتظرا اقترابهم منهما، ولكن أكثر ما كان يشغل بالها أنّ قدميها اللتين أصبحتا خدرتين بسبب شدّة البرد لم تعودا تقدران على حملها، بالرغم من الجوربين الصوفيين اللذين زوّدها بهما جون.

حاصرهما أربعة رجال يركبون عربات، فأطفأ من توقّعت كريستين أنّه قائدهم محرّك عربته، وكان يضع نظّارة واقية، ويرتدي ملابس مموّهة، ويحمل معدّات القطب الشمالي، شأنه شأن رفاقه الآخرين، وسحب الوشاح الذي يغطّي فمه، وقال:

«أطلب منكما أن تستديرا وتغادرا الجبل الجليدي في الحال، فقد دخلتما منطقة عسكرية محظورة».

كرّرتْ كريستين بازدراء: «منطقة محظورة؟»، فقد أنبأها حدسها بأنّ هؤلاء هم الجنود الذين رآهم شقيقها، وربما كانوا الجنود أنفسهم الذين اعترضوا طريقه على النهر الجليدي، وربما هم الذين ألقوا به في الصدع.

كرّر الجندي: «صحيح، منطقة محظورة من قِبَلِ الجيش الأميركي،

والمنطقـة مغلقـة فـي وجه جميع الأفراد غير المصـرّح لهم بالمرور، ويرجى ان تعودا من حيث جئتما «.

نظـرت إليـه كريسـتين، فوجـدتْ صعوبـة فـي إخفـاء مشـاعر الازدراء، وشـعرت بالغضب يجيش في داخلها، فبعد كلّ ما جرى معها منذ أن اقتحم الرجـلان شـقّتها، تقـف أخيراً وجهاً لوجهٍ أمـام الحقيقة، فهؤلاء الجنود كانوا دليلاً على أنّ الجيش الأميركي متورّط في أنشطة سرّية على النهر، كما كانوا دليلاً على أنّ شقيقها لم يتعرّض لحادث، ولكنّه رأى شيئاً لم يكن يفترض به أن يراه، فعاقبوه بأسـلوبهم الهمجي. والآن يقف هذا الرجل أمامها، ويأمرها بالتراجع، وهو مجرّد جندي أميركي يقف على أرض بلادها ويتحكّم بها.

صرخت: «ارجع إلى الوراء»، فحاولت سحب نظّارته عن عينيه، فحرّك رأسـه إلى الخلف بسـرعة معيداً النظّارة إلى مكانها بعد أن شـعر بلسـعة البرد، ففقد السيطرة على نفسه للحظة، وضرب كريستين بعقب بندقيته على وجهها، وطرحها على الجليد، فحاول سـتيف أن يهجم عليه، فأمسـكهُ بكتفيه، ولكنّ الجندي ركله على بطنه بكلّ قوّة، فانحنى ستيف من الألم، وسقط على ركبتيه، وانكمش على نفسه، وفي الوقت الذي حاولت فيه كريستين التقاط أنفاسها، لاحظت أنّها تنزف من فمها وأنفها، لكنّ الضابط دفعها بقدمه، وطرحها على ظهرها مرّة أخرى.

أمرهما قائلاً: «تراجعا».

صرخت كريسـتين وهي تكاد تختنق من الألم: «أخبر راتوف بأنّني أريدُ مقابلته».

سألها الضابط من دون أن يتمكّن من إخفاء دهشته، وقد أدرك أنّها تطلب الكثير: «ما الذي تعرفينه عن راتوف؟».

ابتسمت كريستين على الرغم من جروح شفتيها.

أجابت: «أنا أعلم أنّه دنيء».

حدّق الجندي إليها ثم إلى ستيف، كما لو كان يتساءل عن الإجراء الذي يجبُ اتّخاذه بعد تقييم الخيارات، فأخرجَ هاتفاً محمولاً من جيب بذلته، واتّصل براتوف، وما إن تلقّى ردّاً ابتعد قليلاً ما جعل كريستين تجد صعوبة في سماع ما يقوله.

قال بصوتٍ منخفض: «إنّهما ذكر وأنثى سيّدي، والأنثى تعرف اسمك، دقيقة سيّدي»، فاستدار، وعاد إلى الخلف حيث كانت كريستين مستلقية، ومستندة إلى مرفقيها على الثلج.

مكتبة
t.me/t_pdf

«هل أنتِ كريستين؟».

نظرت إليه من دون وجل.

«هل لديكِ أخ كان على النهر الجليدي البارحة؟».

هسهسَتْ كريستين من بين الأسنان المشدودة: «لا أعرف، أنتَ أخبرني».

قال الضابط عبر الهاتف: «هذا صحيح يا سيّدي، عُلِم»، ثم أنهى المكالمة، والتفتَ إلى رجاله، وأعلنَ قائلاً:

«سنأخذهما معنا».

30

فاتنويوكل، الأحد، 31 كانون الثاني، 00:00 بتوقيت غرينيتش

لقد فقدَ الذي يبدو أصغر سنّاً السيطرة على كروتز، على الرغم من رتبته، وفي البداية تحدّث بهدوء مع رفيقه، لكنّ غضبه ازداد أكثر فأكثر حتّى صرخ في وجهه.

لم أستطع فهم كلمةٍ ممّا يقولانه، ولا أعرف ما الذي كانا يتحدّثان عنه، لكنّ شيئاً ما جعله مجنوناً تماماً، فقفزَ على قدميه وبدأ يسير ذهاباً وإياباً، وهو يركل باب المقطورة، ويهزّه، ويضرب هيكل الطائرة بجنون، فطرقَ على أحد مصابيح الكيروسين، فلم نتمكّن من إعادة تشغيله منذ ذلك الحين. فواجهه الألماني الآخر، وفي النهاية تغلّب عليه. بينما أنا حافظت على المصباح في غرفة القيادة، إذ لم يتبقَ ما يكفي من الضوء للكتابة، لأنه لم يكن لدينا سوى مصباح واحد فقط ذلك الذي يعمل الآن، فالكيروسين ينفد، وقريباً سنكون في ظلامٍ دامسٍ.

ربما كانا يتناقشان إن كان من الخطأ بقاؤهما جالسين، بدلاً من أن يلحقا بالكونت فون مانتوفل، وكانت العاصفة والبرد قاسيين للغاية عندما هبطنا بحيث لم يكن في إمكاننا الوقوف في الخارج. وعلى الرغم من أنّ فون

مانتوفل لم يدَعْ ذلك يعوقه، فمحاولات فتح مفصّلات الباب لم تعد تجدي نفعاً، فالطائرة ستكون قبرنا، وأعتقد أنّ هذه الحقيقة أدركناها جميعاً، فنحنُ سنموتُ ببطءٍ داخل تابوت مصنوع من المعدن والجليد.

لقد فقدنا إحساسنا بمرور الوقت الذي يمكن أن يكون قد مرّ يومين أو ثلاثة منذ أن وصلنا، وربما مع امتداد الفترة ستتفاقم مشكلة الجوع.

لا يوجد شيء لأكلِهِ والهواء في المقصورة عِفِنٌ جدّاً، وكم تمنّيت أن أفهم المزيد من اللغة الألمانية، كما رغبْتُ في أن أعرف أسباب هذه المَهَمّة، فكلّ ما كنت أعرفه أنّها مُهِمّة سرّية، وإلّا لما كنت قد أوكلت بها، ولكن لِمَ كلّ هذا الغموض؟ ولماذا نتعاون مع الألمان؟ ألم يعودوا أعداءنا؟

توقّف راتوف عن القراءة.

استدعاهُ جندي وهو في خيمته، وقال: «مكالمة هاتفية من كار، سيدي».

مشى راتوف المسافة القصيرة ذاتها عائداً إلى خيمة الاتّصالات، وتناول جهاز الاستقبال.

بدأ كار كلامه من دون أيّ ديباجة، وكان يتحدّث من القاعدة في كيفلافيك: «الحكومة الآيسلندية تتعرّض لضغوطات متزايدة بشأن المهمّة على النهر الجليدي».

لم يكن لديه من الوقت سوى عشرين دقيقة وهي المدّة الفاصلة بين هبوط طائرته وإعادة إقلاعها بعد تزوّدها بالوقود، فقد سعى كار إلى مراقبة نقل الطائرة بنفسه، وكان قد عقد اجتماعاً قصيراً مع الأدميرال الذي أخبره بغضب الآيسلنديين المتصاعد من وجود الجيش في فاتنويوكل، وبأنّه لن يفيد الإنذار بالثوران البركاني لفترة طويلة، فكان الوقت ينفد والوضع يتدهور مع مرور كلّ دقيقة، كما كان خائفاً من أن تنقطع كلّ سبل استعادة الطائرة الألمانية والجثث والسرّ المرتبط بها، بعد أن بدأ صبر الحكومة ينفد أكثر من أيّ وقت مضى، منذراً ببداية أزمة دبلوماسية من شأنها أن ترسل موجات صادمة في

جميع أنحاء العالم.

طمأنهُ راتوف قائلا: «سنغادر بلمح البصر ما إن تصل المروحيتين».

قال كار: «لا نريد مزيداً من الجثث، كما لا نريد مزيداً من حالات الاختفاء، وابتعدوا عن النهر الجليدي وانتشروا في محيط ضيّقٍ، هل كلّ شيء واضح؟».

أجاب راتوف: «نعم يا سيّدي»، وتجنّب ذكر فريق الإنقاذ وكريستين ومن يرافقها.

«جيّد»، ثمّ سلّم راتوف الهاتف إلى ضابط الاتّصالات وخرج من الخيمة، فسَمِعَ من بعيد صوت المحرّكين الهائلين لمروحيتي باف-هاوك، وهما يهدران في أثناء وصولها من الغرب، فبدتا نقطتي ضوء تزدادان لمعاناً في الظلام. وقد أُعدّ موقع الهبوط على الجليد بواسطة حلقتين من المشاعل التي ألقت ضوءاً برتقالياً أصفر لامعاً على المشهد بأكمله، وحلّقت المروحيتان من طراز باف-هاوك في الوهج الناجم عن المشاعل للحظة فوق الخيام قبل أن تستقرّ بدقّة متناهية على الجليد مثل الحشرات الفولاذية العملاقة، وكانت الضوضاء الناجمة عنهما تصمّ الآذان، فتساقطت سحابة من الثلج الكثيف وغمرت المكان كلّه، وانبطح الرجال على الأرض حتّى انطفأ المحرّكان، وتوقّفت الشفرات عن الدوران أخيراً، وتلاشى صوتها في الهواء البارد، وعندما فُتح بابا المروحيّتين خرج أفراد الطاقم منهما، وتوجّهوا فوراً إلى راتوف، وسرعان ما خيّم الهدوء مجدّداً.

نظر الطيّارون حولهم بدهشة إلى المشهد المُضاء.

مدينة الخيام التي نُصبَتْ على شكل نصف دائرة حول الطائرة، دليل على التنقيب في الجليد، ويمكن التعرّف إلى الصليب المعقوف على الفور أسفل غرفة القيادة، كما أنّ طلاء التمويه قد انكشط ليكشف عن اللون الرمادي اللامع تحته، وأفراد القوات الخاصّة يحتشدون في كلّ مكان حول الحُطام،

وقد شطروا جسم الطائرة إلى نصفين، لكنّهم لم يتمكّنوا من رؤية ما في داخلها لأنّ الأغطية البلاستيكية كانت مثبتة فوق المدخل المثقوب للمقصورة المكشوفة. فنظروا إلى بعضهم ثمّ إلى الحطام، وهم يجهلون سبب استدعائهم في منتصف الليل إلى فاتنويوكل، فقد طُلب منهم ببساطة نقل بعض المعدّات الثقيلة جوّاً من منطقة الجليد من دون طرح أيّة أسئلة، ووجهتم طائرة النقل سي 17 التي كانت في حالة تأهّب في مطار كيفلافيك خلال ثلاث ليالٍ.

استقبل راتوف طاقم المروحيتين، فكانوا أربعة رجال، اثنين لكلّ مروحية، وتتراوح أعمارهم بين خمسة وعشرين وخمسين عاماً، يرتدون الزي الرمادي والأخضر الخاصّ بالقوّات الجوية الأميركية، وقد أزالوا بالفعل السترات والخوذات الجليدية المبطّنة التي كانوا يرتدونها عندما دخلوا خيمة راتوف. فلم يتعرّفوا إلى مدير العملية، ومن الواضح أنّه ليس لديهم أيّة فكرة عمّا يحدث على الجبل الجليدي، فتبادلوا النظرات والحيرة ترتسم على وجوههم.

درس راتوف شخصيّات الطيّارين، فبدوا من خلال ملامحهم أنّهم لم يحاطوا علماً بالعملية التي أتوا لتنفيذها، كما بدوا غير واثقين من أنفسهم، ينتقلون من قدم إلى أخرى وهم يتأمّلون ما حولهم بعدم ارتياح، لكن لم يكن لديه نيّة في شرح الأمر لهم.

قال لهم: «يجب أن ننقل حطام هذه الطائرة من هذه المنطقة الجليدية إلى مطار كيفلافيك».

سأل أحد الطيّارين: «ما هذه الطائرة يا سيّدي؟».

أجاب راتوف: «هدية تذكارية، ولا تقلق بشأن ذلك، فقد شطرناها إلى قسمين، لذا يمكن أن تنقل كلّ مروحية قسماً منهما، ونحنُ ممتنون لمساعدتكم، وأنصحكم أن تلزموا خيمتكم».

استفسرَ أحد الطيّارين، وهو ينظر إلى الآخرين لمعرفة ما إذا كان وحده يشعر بالحيرة من هذه التعليمات: «ماذا تقصد؟ هل لي أن أسأل ما الذي

يحدُثُ هنا؟».

قـال راتـوف: «هـذا بالضبـط ما أعنيه، كلّما قـلّ ما تعرفهُ كان ذلك أفضل لك، وشكراً لكم أيّها السادة»، وختم كلامه مُشيراً إلى أنّ الحديث قد انتهى، لكنّ الطيّار لم يكن راضياً عن ذلك.

سأل بتردّد: «هل هذه الطائرة ألمانية يا سيّدي؟».

حدّق راتوف إلى وجه من سـأله، مندهشـاً من أنّ هذا الرجل يسـتوضح كثيـراً، فسـأله: «ألـم يكـنْ واضحاً ما قلته بما فيه الكفايـة؟ وماذا تقصد بطائرة ألمانية؟».

أجاب الطيّار: «الطائرة الألمانية التي تحطّمت على فاتنويوكل»، كانَ شاباً ذا وجهٍ نضر، وافتقارهِ إلى المكر قد صعّب على راتوف دراسة شخصيّته.

«لقد سمعتُ عنها من قبل، ورأيْتُ الصليب المعقوف».

سأله راتوف وهو يدنو منه: «ما الذي سمعته عن الطائرة الألمانية؟».

«سمعت شيئاً يتعلّق بروّاد الفضاء يا سيّدي».

«ماذا عن روّاد الفضاء؟».

«أرمسترونغ، سيّدي، نيل أرمستروننغ، ذهب للبحث عنها في الستينيات، أو هكـذا تفيـد القصّـة، ومـن المفترض أن يكون على متنهـا قنبلة، وهي قنبلة هيدروجينية، وإذا كانت هذه هي القضية، فأودّ أن أعرف عنها، وهذا من حقّنا من وجهة نظري، بالطبع يا سيّدي».

تأمّل راتوف وتابع: «هل هذه شائعة انتشرت في القاعدة؟».

«نازيون، أرمسترونغ وقنبلة هيدروجينية؟».

«إذاً هل هناك قنبلة؟ هل يمكننا رؤية ما في داخل الطائرة؟ تشير اللوائح إلى أنّ علينا بالتحقّق ممّا سننقله، سيّدي».

«أخشى أنّك ستضطرّ إلى الوثوق بي، أيّها الملازم الطيّار، عندما أُخبركَ بأنّه لا توجد قنبلة على الطائرة. فمن الواضح أنّها طائرة ألمانية، ويعود تاريخها

إلى الحرب العالمية الثانية، ولكنّها آمنة تماماً، وما إن سمعنا عنها حتّى ارتبط ذلك ببحث أرمسترونغ، وبالتأكيد سمعنا عن قنبلة النازيين، ولكنّنا لم نعثر على أيّ شيء من هذا القبيل، هل اقتنعت بكلامي؟».

قال الطيّار: «أظنّ ذلك يا سيّدي».

سأل طيّار آخر: «إذا كان الأمر لا يلحق أيّ ضرر بأحد، فلماذا لا نلقي نظرة يا سيّدي؟».

صرخ راتوف بصوتٍ عالٍ، ثم تنهّدَ بعمق: «يا يسوع، كيف يمكنني أن أشرح لكم، أيّها السادة؟ لستُ ملزماً بإعطائكم أيّ تفسيرات»، ثم خرج وأمر ثلاثة جنود بالدخول إلى الخيمة، وهو يقول: «أطلِقوا النار على أيّ شخصٍ يحاول المغادرة».

وقف الطيّارون وسط رهط من الجنود، يتجوّلون مذهولين، وقد أصابهم هذا التطوّر الأخير بالحيرة، فقد جُلبوا إلى هذا المكان عند منتصف الليل، وشاهدوا بعض الحفريات التي لا يمكن تفسيرها، وتحيط بالطائرة السرّية التامّة، والآن هم محتجزون رهائن لدى راتوف، فحدّقوا إلى بعضهم بصمت ثمّ إلى آسرهم.

أخيراً سأله قائدهم: «ما معنى هذا؟ ما هذه المعاملة السيّئة؟ كيف تجرؤ؟ ومن سيقود المروحيتين الآن؟».

قال راتوف: «لدينا طيّارونا»، وخرج من الخيمة، ثمّ نزل من المروحية رجل انتظر أن يقترب منه راتوف.

«كيف كانت الرحلة؟».

أجاب بيتمن بابتسامة: «مثل الحلم».

31

فاتنويوكل، الجبل الجليدي، الأحد، 31 كانون الثاني، 00:15 بتوقيت غرينيتش

قوبِلَتْ كريستين بمشهد غير عادي وسريالي تماماً، وهو مشهد خيال علمي، وربما كان الإرهاق الذي ساد أطرافها الآن جعلها تبدو وكأنّها تناولت عقاراً دفعها إلى الشعور في الحال بأنّها تفقد قواها وتستسلم لإحساسٍ طاغٍ بالعجز.

كلّ ما حدث لها تحوّل إلى مزيج من الهلوسة، وكأنّ كابوساً مرعباً يلازمها وهي تحاول الفرار منه، لكنّها لم تستطع التحرّك بالسرعة الكافية، فهل كانت في الواقع مستلقية على الأريكة في المنزل؟ لقد أزّم المشهد الذي رأته عيناها الأحداث في أيّ سياق وردت، وأصبح من الصعب التمييز بين هذا الواقع الغامض وتخيّلات هذيانها.

رأت مروحيتين من طراز باف-هاوك تقفان جنباً إلى جنب، تمتدّ شفراتهما الدوّارة الطويلة في جميع الاتجاهات. وقد تمّ ترتيب الخيام الصغيرة ذات الأحجام المتباينة على شكل نصف دائرة، وهناك مركبات ثلجية متحرّكة، ومقطورات تحمل محرّكات تعمل بالنفط، بالإضافة إلى المولّدات وأضواء كاشفة، وأطباق استقبال الأقمار الصناعية، ومجموعة من المعدّات الأخرى

التي لم تستطع معرفتها بسبب كثرة تناثرها في الأرجاء. وكان العشرات إنْ لم يكن المئات من الأشخاص يتجوّلون على الجليد. وقد لاحَظَتْ الآن أنّ بعضهم بدأ برفع الخيام وتوضيبها، ففهمت أنّهم أنهوا مهمّتهم، وقريباً لن يكون هناك أيّ أُثر لهم، وسيمحو الثلج مساراتهم، وبعد أن فهمت ما يجري انطلق جرس التحذير، فاستفاقت تدريجياً من شرودها الغريب، بعد أن أدركت أنّهم يغادرون النهر الجليدي.

رأَتْ الطائرة مقسومة إلى شطرين، وكانت مجموعتان منشغلتين في تثبيت الرافعات القوية حول كلّ قسم، ومدّت الكابلات نحو المروحيتين، ومن الواضح أنّهما كانتا تعملان على إزالة حطام الطائرة، وبعد ذلك لن يستغرق اختفاء هؤلاء الجنود وقتاً طويلاً.

كانت الحرارة قد تدنّت درجات عدّة تحت الصفر، وتقوّست قبّة السماء السوداء المظلمة فوق المنطقة، وانعكس وهج الأضواء عليها وهجاً ساطعاً.

لقد كانت رحلة كريستين وستيف هادئة، على الرغم من أنّهما أُجبرا على ركوب زلّاجة الجليد خلف خاطفيهما الذين واظبوا على الاتّصال بالمخيّم عبر جهاز لاسلكي طوال الوقت. وبعد خمس عشرة أو عشرين دقيقة، صعدوا سلسلة من التلال الصغيرة، وظهرت الخيام أسفلها، فانزلقت المركبات من التلال إلى المخيّم، ثم توقّفت أمام الخيمة الكبرى.

دخلت وستيف إلى الخيمة، التي وقف جنديان أمام مدخلها.

وبمجرّد وصولهما سألها ستيف من الجزء الخلفي من الخيمة، وقد وقف أبعد ما يمكن عن الحرّاس: «هل أنتِ بخير يا كريستين؟».

«نعم، وأنتَ؟ هل أنتَ بخير؟».

عندما نظرت إليه، تذكّرت ما حدث بينهما في مزرعة جون، فتلاشى محيطها الداكن الحالي، وفكّرت في مستقبلهما المشرق معاً.

قال ستيف: «كان يمكن أن أكون أفضل، فكان يمكن أن أكون في المنزل

أشاهد كرة السلّة».

قالت كريستين: «هناك مباراة الليلة، بين الليكرز وشيكاغو بولز»، بالكاد استطاعت قول ذلك، فلم يبتسم أيّ منهما.

نظرَتْ إلى ستيف، ولاحظت كيف انعكس قلقها على وجهه، فبدا وكأنّ قناعاً من اليأس قد غطّى وجهيهما.

وُضِعَ على الطاولة مصباح كبير أضاء الخيمة، وانبعثت منه حرارة خفيفة، ولكن بخلاف ذلك كان الجوّ بارداً في الداخل، وكان هناك أربعة كراسٍ، وعندما توغّلا في الخيمة، لاحظا عدّة بطّانيات سميكة منتشرة فوق الجليد، ثمّ نظرت نحو مدخل الخيمة حيث وقف الجنديان وهما يراقبانهما.

فصاحتْ كريستين: «أريدُ التحدّث إلى راتوف»، ولكنّ أحداً لم يردّ عليها.

سأل ستيف وهو يلهث، والقلق بادٍ في صوته: «ألا يجبُ أن يكون فريق الإنقاذ هنا الآن، وخفر السواحل أو مهما كان اسمه؟ بالإضافة إلى الشرطة والمراسلين وأطقم التلفاز؟ وأين السي أن أن؟ وأين سلاح الفرسان؟».

قالت كريستين: «أعرف، ما سيحدث قريباً، دعنا نفكّر لمدة دقيقة، كيف سنخرج من هنا؟ وما هذه الخيمة على أيّة حال؟ ومن أجلِ ماذا يستخدمونها؟».

نظرَتْ إلى البطّانيات، وسألت بصوتٍ منخفض: «ما هذا؟»، وتراجعت أكثر فتحرّك ستيف صوبها بشكلٍ خفي، وبسبب الاضطرابات في الخارج، فقدَ الحارسان الاهتمام بهما، وذهبا لمشاهدة إجراءات محو الجنود أيّ أثر لهم في المكان.

يمكنها رؤية حافة كيس الجسد الرمادي من تحت إحدى البطّانيات.

همسَ ستيف إليها: «ماذا لديهم هنا؟».

خطَتْ كريستين أوّل خطوة ببطء، ثم خطت مجدّداً خطوة ثانية، فكانت ساقاها متصلّبتين من كثرة المشي إلى النهر الجليدي، كما كانت تشعر بالوهن بسبب الجوع، وقد استغرق الأمرُ تركيزاً كبيراً لمنع عضلات فخذها من

التشنّج، وحاولت قلب البطّانية بقدمها حتّى كشفت جزئياً عمّا يكمن تحتها، فرأت حقيبة مفتوحة من الأعلى، وبرز من فتحة الحقيبة قبعة تحمل صورة نسر وصليباً معقوفاً، وعندما حرّكت كريستين قدمها أكثر قليلاً، ظهر وجهاً تحت الغطاء، فحدّقت إلى الجثّة بصمت، فكان رجلاً في منتصف العمر، شحوبه شبه شفّاف مثل الجليد، وبالكاد استطاعت أن تُدركَ ما رأته عيناها، فشعرت بالحيرة، وانصبّ اهتمامها على هذا الاكتشاف الجديد.

كاد قلبها أن يتوقّف عندما تحدّث صوت أجشّ خلفهما.

دخل راتوف الخيمة، وخلفه بيتمن: «إنّه مشهدٌ جميلٌ، ألا تعتقدان ذلك؟ كما لو أنّه مات منذ أسبوع»، تعرّفت كريستين على الفور إلى الرجل الذي حاول قتلها مرّتين، كما عرفت أنّها كانت تقف في النهاية وجهاً لوجهٍ أمام راتوف. لم تكن الصورة التي رسمتها له في خيالها تناسبه، فقد كان قصيراً جدّاً، بينما تخيّلته رجلاً يزيد طوله عن ستّة أقدام، وبدت ملامحه سلافية غامضة، وعلى الرغم من ارتداء بذلة التزلّج المبطّنة، إلّا أنّه كان في إمكانها أن تقول إنّه ليس سوى جلد وعظام، وخطر ببالها للحظة أنّه قد يعاني من مرض عضال.

وجه نحيل، وعظام الخدّ والذقن بارزة من خلال الجلد المشدود، وأنف ضيّق مستقيم وحادّ، وعينان عميقتان. وعندما اقترب منها لاحظَتْ وجود حلقات بيضاء حول بؤبؤ عينيه وهذا جعلهما تبدوان ساطعتين، وكانت أذناه صغيرتين وقريبتين من رأسه، لكن أكثر ما لفت انتباهها هو الندبة أسفل عينه اليُسرى، فلم تستطعْ التوقّف عن التحديق إليها، كانت مستديرة مثل الشمس الصغيرة، وقد تشكّلت أخاديد صغيرة أسفل خده.

قال راتوف بصوتٍ غريبٍ خشنٍ، مُشيراً إلى ما تنظر إليه: «أنتِ لستِ الأولى، إنّه مُلفت للغاية»، وخدشَ المخطّط الأرجواني المرتفع للحرق القديم إحدى أصابعه.

ردّت كريستين: «آملُ أن تكون مؤلمة».

قال راتوف: «حادث بسيط، لقد اخترقت الرصاصة وجهي وخرجت من خلف أذني، فقدتُ صوتي جزئياً، ولا شيء أكثر من ذلك».

ردّتْ كريستين قائلةً: «من المؤسف أنها لم تقتلك».

دنت منه، فابتسم ابتسامة خبيثة: «هل تبحثين عن شقيقك الأصغر يا كريستين؟ أخشى أنك تأخّرت كثيراً عن إنقاذه».

«لا تكن متأكّداً من ذلك، لقد كان على قيد الحياة في آخر مرّة سألت خلالها عن حاله، فقد أجريت مكالمة منذ فترة وجيزة، ولكن إن بقي خنزير مثلك على قيد الحياة بعد أن أُطلقت عليه رصاصة، فأعتقد أنّ أمله بالحياة كبير».

أخيراً قال وهو ينظر إلى ستيف: «لقد قرأتُ عن النساء الآيسلنديات، إنّهنّ مغرمات بمعاشرة الأجانب».

«هل أنتِ كريستين؟».

زمجرت كريستين غضباً: «اللعنة عليكَ».

بالكاد ارتعشت شفتا راتوف غضباً.

قال: «لا يهمّ فقد انتهينا من عملنا في هذا المكان، وأفضل ما في الأمر أنّ أحداً لن يعرف أننا كنّا هنا، على الرغم من علم الجميع بقصّتك وبقصّة الطائرة على فاتنويوكل، ولكنّها مسألة وقت فقط قبل أن يزحف النهر الجليدي ويختفي كلّ أثر، لهذا السبب يتعيّن علينا الإسراع، ومن المؤسف أنّني لن أقضي المزيد من الوقت معكما، ولكن سيستمتع بيتمن بقضاء وقته معكما بشكلٍ خاصّ».

استفسرت كريستين قائلة: «إذاً هذا الحمار له اسم».

لم يتحرّك بيتمن، ولكنّ راتوف سار نحوها، فتراجعت لا إرادياً خطوة إلى الخلف، وما إن لامسَ وجههُ وجهَها، حتّى نظرَتْ بعمق إلى العينين

الصغيرتين، فلم ترَ شيئاً سوى انتفاخٍ باردٍ، كما لم تفح منه أيّ رائحة.

صرخ راتوف من بين شفتيه النحيفتين: «يبدو أنّ لديك شجاعة تفوق شجاعة أخيك الصغير، الذي لم يكفّ عن العويل والبكاء والنحيب، أوّلاً عندما فقأت عين صديقه، ثم عندما بدأتُ بالتعامل معه، فبكى لتسمعه أخته الكبرى، لكنّها كانت منهمكة بممارسة الجنس مع هذا الأميركي»، فبصقت على وجهه، وتابع كلامه: «كان يجدر بك أن تسمعيه، فقد كان بكاؤه مؤثّراً، وقد نادى كريستين، ولكنّ أخته الكبرى لم تأتِ أبداً»، ثمّ ظهرَ جندي من القوّات الخاصّة عند باب الخيمة، وقال بصوت مرتفع: «إنّ المروحيتين جاهزتان يا سيّدي».

استدار راتوف، ومسح اللعاب عن وجهه، ثمّ نظرَ إلى بيتمن وأومأ إليه برأسه.

«انقل أكياس الجثث إلى المروحية»، وبدأ في الابتعاد، وما إن اجتاز نصف المسافة متّجهاً إلى خارج الخيمة حتّى صرخت كريستين من خلفه ظهره:

«أعرفُ بشأن نابليون!»، فتوقّف راتوف، ثم استدار.

كرّرت كريستين: «قلْتُ إنّني أعرف كلّ شيءٍ عن نابليون».

فعاد راتوف إلى داخل الخيمة وقال: «ليس لدي فكرة عمّا تتحدّثين عنه».

واصلت كريستين كلامها بغضبٍ أعمى: «أعرفُ بوثائق نابليون، أو بعملية نابليون، كما كانت معروفة».

قال راتوف ساخراً: «أخبريني يا كريستين، ما الذي تعرفينه بالضبط عنها، أم أنّها مجرّد كلمة سمعتِها؟ أخشى أنّك لم تسمعي الكثير».

قال كريستين وهي تشعر بأنّ أفكارها قد تشوّشت، ولكنّها ما لبثت أن استعادت تركيزها: «أعرف كلّ شيء، ما كان الألمان يخطّطون له، وأعرفُ ما تخفيه طائرتك الثمينة، فالسرّ في الحقيبة لا يتعلّق لا بقنبلة ولا بذهب ولا

بفيروسات، وإنّما بأوراق ومستندات لا غير».

بعد أن وقف أمامها مجدّداً سألها: «حسناً، حسناً، دعونا نتخيّل أنّكِ تعرفين، ومن يعرفُ أيضاً عن نابليون؟»، فنظر إلى عينيها، وكرّر سؤاله، فأدركت كريستين أنّها لمستْ وتراً عصبياً، ولكنّها لم تعرف كيف تضغط عليه من خلال هذه المعلومة، فقد كان عقلها فارغاً، وتحت وطأة نظرته شعرت بأنّها ورقة رقيقة وشفّافة ولا يمكنها الصمود أمامه.

سألها راتوف: «من أخبرتِ عن نابليون؟»، فرأت كريستين وميضاً مفاجئاً ينبعث من قطعة من الفولاذ كان يحملها بيده.

مكتبة
t.me/t_pdf

32

مطار كيفلافيك، الأحد، 31 كانون الثاني، 00:15 بتوقيت غرينيتش

وقف فيتاوتاس كار عند مدخل حظيرة الطائرات رقم 11 في مطار كيفلافيك، وهو يحدّق إلى ظلام الليل مشغول البال ومتوتّر الأعصاب.

على الرغم من أنّه لم يستطعْ رؤية الطائرة سي 17 في الظلام، إلّا أنّه كان يعلم أنّها كانت جاهزة للإقلاع، وسيتمّ نقل نصفي الطائرة من النهر الجليدي قريباً، وإذا سارت الأمور وفقاً للخطّة، فهم سيغادرون الأراضي الآيسلندية خلال ساعات قليلة، وعندها سينتهي الأمر.

فقد أصبحت السلطات الآيسلندية مضطربة بشكلٍ متزايد.

والأهمّ من ذلك، كانوا واثقين من أنّ لديهم أسباباً مشروعة للاحتجاج على ما يقومون به على أراضيهم، بعد أن تجاهلوا منذ فترة طويلة أيّ تلميح يدلّ على التساهل مع الأميركيين، وكانت وسائل الإعلام قد استفسرت من السفارة الأميركية في ريكيافيك عن إطلاق النار في المطعم، وقد وصفتْهُ الصحافة بالعمليات العسكرية في فاتنويوكل، كما أنّ هذا لم يكنْ كافياً، فقد علمَتْ شرطة ريكيافيك بتحرّكات القوّات على النهر الجليدي، وقام أحد أفرادها بالاستفسار عن المدعوّ راتوف لدى السفارة والجيش في كيفلافيك،

وأُرسلت مروحية خفر السواحل لنقل رجلين ورد أنّهما تعرّضا لحادثٍ على النهر الجليدي. وعلاوة على ذلك، أدرك خفر السواحل أنّ الجيش أخفق في الاستجابة لنداء استغاثة، وفي الوقت نفسه، كان التحكّم الجوي في ريكيافيك يتعقّب تحرّكات مروحيتين من طراز باف-هاوك. ولن يمضي وقتٌ طويلٌ حتّى تنتشر هذه المعلومات، ويبدأ الناس بربطها بإنذار الانفجار البركاني المزعوم الذي بثّته محطّات الإذاعة، وخلال وقت قصير سيعلم الأميركيون انّه لا يمكن التستّر على ما ما قاموا به في الأراضي الآيسلندية.

لقد فكّرَ منذ فترة طويلة في العواقب المحتملة إذا تمّ الإعلان عن الغرض من العملية، وهي لا ترتبط بالغضب الدولي فقط، ولكن أيضاً بانعكاساتها عليه شخصياً، فقد كانت مسؤوليته ضمان الحفاظ على سرّية وجود الطائرة، وهو الذي كان مسؤولاً عن هذه المهَمّة التي تفرّغ لها منذ خمس سنوات، ما دفعه إلى نشر قوّات خاصّة أميركية في أراضي دولة صديقة بشكل غير قانوني، كما حاك شبكة من الأكاذيب والافتراءات وتلاعب بالمسؤولين، والمسؤول عن ذلك سوف يقف إلى جانبه. وبينما كان قبل أيّامٍ قليلة يخطّط بسعادة لتقاعده، بات يشعر بالخوف من المستقبل.

كانت الأولوية تأمين حطام الطائرة ومحتواها، ولم يكن مهمّاً ما سيحصل بعد ذلك. وكان الجنود سينسحبون بعد ذلك، وسيخترع الأدميرال بعض الأكاذيب المقنعة لتبرير وجود رجاله على النهر الجليدي، فهو كان يمطر الآيسلنديين بمعلوماتٍ مضلّلة حتّى لا يتمّ اعتبار أيّة أنباء عن الجيش مشبوهة، وبدأتْ العملية بالفعل، وكان في إمكانه توقّع غضب العامّة وإدانتهم الانتهاكات المتواصلة وحتّى معاداة دولته، لكنّ كلّ ذلك لن يظهر من قبل المسؤولين، لأنّ آيسلندا لا تزال غير قادرة على تقرير ما إذا كانت تريد بقاء الجيش الأميركي على أراضيها أم لا، وإن لم يكن كار يهتمّ بردّ فعل العامّة، فالاعتبارات الاقتصادية تودّي دوراً خلال أسبوع أو أسبوعين، ولن يهتمّ أحد

بعد ذلك بالمناورات العسكرية الأميركية على فاتنويوكل.

جاء الخطر الحقيقي الوحيد من التعرّض لتلك المرأة كريستين، ولكن من سيهتمّ بأمرها بعد مغادرة الطائرة البلاد؟ ومن سيصدّق قصّتها المجنونة عن طائرة الحرب العالمية الثانية الألمانية التي دُفِنَتْ في فاتنويوكل لمدّة نصف قرن، والتي تخفي شيئاً خطيراً وغير مفهوم وغير منطقي؟ كان كار واثقاً من أنّها لا تعرف حقيقة السرّ، ولكن كيف له أن يعرف تحرّكاتها بدقّة، ومَن الذين تحدّثت إليهم قبل أن تذهب إلى النهر الجليدي، لا، لم يكن هناك ما يشير إلى أنّها تعرف الحقيقة كاملة، ولن تلحق ضرراً كبيراً به أو بغيره، وقد استمرّ كار بإقناع نفسه بتلك الفكرة، راغباً في أن يكون على يقين بأنّها الحقيقة.

انحرفت أفكاره إلى مدير العملية، وتساءل عمّا إذا كان قد وضع ثقته في الرجل الخطأ عندما اختار راتوف، فهو يمكن الوثوق لإنجاز بعض الأشياء. ففي أوائل السبعينيات، جنّدَهُ كار شخصياً للعمل في الاستخبارات العسكرية، وقد أثبتَ جدارته، ولكن لم يشعر أيّ شخص عمل معه بأيّ عاطفة تجاهه، فقد كان رجلاً غامضاً يفضّل تجنّب الناس وعدم التقرّب منهم، وبالمقابل كانوا يفضّلون غضّ الطرف عنه. وفي النهاية، أصبح نشطاً ولكنّه غير مرئي داخل المنظّمة.

كان كار يعرف أكثر من كلّ الناس خلفية راتوف قبل انضمامه إلى المنظّمة، ولكن على الرغم من ذلك لا تزال معرفته به سطحية، وخلال الوقت الذي جاء فيه من فيتنام للقاء كار كانت الندبة موجودة على وجهه، وكان لدى راتوف تفسير بسيط، وهو أنّ سببها حادثٌ مؤسِفٌ، جرى بعد أن علقت بندقيته بين الباب وإطاره في ثكنته، فأُنطلقَتْ الرصاصة في وجهه، وقد وصف الأطباء نجاته بأنّها معجزة، لأنّ الرصاصة لم تصطدم بدماغه أو بعموده الفقري، ولم يتضرّر أكثر من بعض حباله الصوتية مؤقّتاً، وقد أرسل كار رجلاً للتحقّق من قصّته، فاستجوب الرجال في فصيلة راتوف، وسمع

منهم روايات متنوّعة ومتناقضة.

كان راتوف سادياً يمكن الوثوق به دائماً فهو يذهب بعيداً أكثر من أيّ شخصٍ آخر في محاولة استخراج المعلومات من العدوّ، حتّى في حالة عدم وجود معلومات، فقد كان يشوّه من يحقّق معهم حتّى قيل على الرغم من عدم وجود أدلّة إنّه جمع أجزاء من ضحاياه كمكافآت لانتصاراته، وكان قد شاع في قصصهم أنّ راتوف أصيب بجرحه عندما تمكّنت سيّدة فيتنامية شابّة من الاستيلاء على بندقيته لإجباره على الركوع أمامها، وقد أطلقت النار على رأسه، وانتحرت بعد ذلك مباشرة.

أثبتَ راتوف أنّه لا يقدّر بثمن بالنسبة إلى استخبارات الجيش في أميركا الجنوبية في أوائل السبعينيات. فقد خدم في السلفادور ونيكاراغوا، ثم تشيلي وغواتيمالا، عندما قرّرت الحكومة الأميركية دعم الدكتاتوريين وحكوماتهم، ولكن عندما قلّصت الحكومة دعمها لهؤلاء، نُقل راتوف إلى الشرق الأوسط حيث استمرّ بممارسة عاداته القديمة، فجمع المعلومات عن طريق استخدام الوسائل الوحشية التي فضّل كار أن يظلّ بعيداً عنها، كما أقام فترة في لبنان وعمل مع الموساد، وبحلول ذلك الوقت لم يكن راتوف موجوداً رسمياً، فلم تكن سجلّاته متاحة للعامّة، وأصبح كار واحداً من مجموعة صغيرة من كبار السنّ الذين عرفوا بوجوده، وهذا ما جعله مؤهّلاً لقيادة هذه العملية، من دون أن يفتقده أحد.

لفحت الريح وجه كار وهو يقف بجانب الحظيرة، متسائلاً عن الجنس الذي يمكن أن يتحمّل العيش في مثل هذا الظلام والبرد، فلم يسمعْ الجندي يقترب منه أو يتكلّم معه، بل ظلّ غارقاً في أفكاره غير شاعر بوجوده حتّى تمكّن الوافد من لمس معطفه الصوفي الثقيل بحرّية.

قال الجندي، الذي يرتدي زي القوّات الجوية: «هناك رجلٌ يطلب التحدّث إليك يا سيّدي».

كرّر الرجل: «لقد جاء من الولايات المتّحدة ليقابلك يا سيّدي».

«ليقابلني؟».

قال الرجل: «لقد هبطَتْ طائرته قبل خمس عشرة دقيقة، وقد وصل على متن طائرة مدنية، وأُرسلت لأُعلِمَكَ بذلك».

سأله كار: «مَنْ يكون؟».

قال الرجل: «اسمه ميلر يا سيّدي، الكولونيل ميلر، لقد هبط في مطار كيفلافيك قبل خمس عشرة دقيقة، على متن طائرة مدنية».

«ميلر؟ أين هو؟».

قال الرجل: «لقد كان متحمّساً لرؤيتك، لذلك أحضرناه إلى هنا، إنّه في الحظيرة، سيّدي».

استدار وفتح الباب فدخل ميلر، وكان يرتدي سترة خضراء سميكة مصنوعة من الفرو، فكان آخر من توقّع كار قدومه هو ميلر، فلم يناقشوا في مشاركته هذه الرحلة، في الواقع لم يسمع عنه منذ اجتماعهم السابق وقد فاجأه ظهوره غير المتوقّع في الحظيرة.

صاحَ بينما كان واقفاً على بعد عشر ياردات: «ما الذي يحدث؟».

«ما معنى هذا؟ ماذا تفعل هنا؟».

«النقاء نفسه، الهواء النقي»، وأردف ميلر قائلاً: «أنا لم أتمكّن أبداً من نسيانه».

كرّر كار: «ما الذي يحدث؟»، فنظرَ إلى الرجال الذين أحضروه إليه، فكانوا ثلاثة عملاء استخبارات في لباس مدني وهم يرافقون كار أينما ذهب.

قال ميلر: «استرخ فيتاوتاس، لطالما أردتَ زيارة آيسلندا مرّة أخرى، كما أردتَ دائماً أن أستنشق هذا الأوكسجين النقي البارد».

«الأوكسجين؟ ما الذي تتحدّث عنه؟».

قال ميلر: «في المرّة الأولى التي أتيت فيها إلى هذا البلد، كان ذلك

بمثابة عذاب طويل الأمد. ففي نهاية الحرب، أرسلت أخي في مهمّة سرّية، وكنتُ أنوي أن أكون هناك لمقابلته، وبعد توقّف الألمان للتزوّد بالوقود في ريكيافيك، وكنتُ سأعود برفقتهم، فقد كانت تلك هي الخطّة، ولكنّني ألوم نفسي على ما حدث له، لأنّني كنت أنانياً من خلال جعله يواجه ظروفاً قاسية، خارج ساحة المعركة. حسناً، لقد عوقب على ذلك، وفقد حياته هنا في القطب الشمالي في الحادث، أو قد يكون تجمّد حتّى الموت بعد ذلك، وكلّ ذلك بسبب تلك العملية غير المنطقية والتي لم يكن يجب إطلاقها أبداً»، فسأله كار وقد نفد صبره: «ماذا تريد؟».

«لم تصلني أيّ أخبار منك، ما الذي عثرت عليه هناك؟ هل عثرتم على أيّ جثث؟ وما حالتها؟ هل تعرف ما الذي حصل؟ أخبرني أيّ شيء، هذا كل ما أطلبه منك».

نظر كار إلى قائده السابق، وفهم ما الدوافع التي تقوده إلى هذه المكان، وأدرك أنّه قد أمضى جلّ حياته من أجل معرفة ما حلّ بالطائرة، فرأى عيناه تشعّان أملاً ولم يكن قد لاحظه كار من قبل، فحاول ميلر إخفاء بصيص الأمل، لكنّه أخفق في ذلك.

قال: «بقي أغلبهم بحالة سليمة، وأخوك من بينهم، فقد حفظهم الجليد، ومن الجلي أنّ الهبوط لم يكن بهذا السوء، فقد شبّت النيران في الطائرة لفترة قصيرة. وكما تعلم، فقد كان الطقس سيّئاً عندما تحطّمت الطائرة، فغمرتهم الثلوج بلمح البصر وعلقوا داخلها. وفي كلّ الأحوال كان ذلك غير ذي أهمّية، إذ لم يكن ليُكتب لهم النجاة في البرد القارس حتّى ولو تدبّروا أمر الخروج من الطائرة، كما لا يوجد أيّ دليل على العنف، وقد بدا الأمر كما لو أنّهم فارقوا الحياة بسلام وهدوء واحداً تلو الآخر، وقد حملوا جميعاً جوازات سفرهم، ويبدو أنّ أحدهم فقط كان مفقوداً، وهو فون مانتيفيل، فلم يكن على متن الطائرة أو في أيّ مكان قريب منها».

«وما الذي يعنيه ذلك؟».

«يعني أنّه قد حاول الحصول على المساعدة، من خلال الوصول إلى منطقة مأهولة».

«لكن لم يكتب له النجاح أبداً».

مكتبة
t.me/t_pdf

«كلا، لا أعتقد أنّ علينا القلق بشأنه».

«ربّاه، لابدّ أنّه تجمّد حتّى الموت».

«بالتأكيد».

«هل تمّ العثور على أيّ مستندات شخصية على متن الطائرة؟».

«لم يبلّغني راتوف بأيّ شيء، هل تقصد رسالة من أخيك؟».

« كنّا مقرّبين وقد تبادلنا الرسائل بشكل أسبوعي طوال فترة الحرب، فأصبح الأمر عادة درجنا على القيام بها، وأفترض أنّها الطريقة التي اتّخذناها لنفسّر لأنفسنا الأمور التي نشهدها، واعتقدت أنّه ربما كتب شيئاً ما، بضع كلمات أو أفكاراً في حال نجاته من التحطّم ولو لفترة وجيزة، أو ربما كتب ما ندم على ما ارتكبه من بعض الأخطاء».

«كلا، لا أظنّ ذلك».

«وهل وجدت أيّ وثائق أخرى؟».

«إنّها في حوزة راتوف».

لم ينبس أيّ من الرجلين ببنت شفة.

قال كار: «أنت تعقّد الأمور، وأنت تعرف ذلك».

استدار ميلر وبدأ بالسير مبتعداً عنه، فأجابه من خلف كتفه: «لا أريد أن أخسره مجدّداً».

33

فاتنويوكل: الأحد، 31 كانون الثاني
الساعة 00:30 بتوقيت غرينتش

اندهشـت كريسـتين مـن حركة راتـوف، وبدأت تتلوّى مثـل الأفعى أمام عـازف المزمـار، فقـرّب وجهـه من وجههـا، وأخذ يتلاعـب بالمخرز صعوداً علـى عنقهـا، وذقنهـا، وخدّيها وصولاً إلى عينيها، فلم تملك أدنى فكرة حول كيفيـة الإجابـة عـن الأسـئلة المتعلّقـة بنابليون، ولكن توجّـب عليها أن تقول شـيئاً مـن أجـل المماطلـة، شـيئاً ما قد يرغب في سـماعه، ولا يهـمّ ما يكون، فانتابها إحساس مفاجئ بأنّها أصبحت الآن في الوضع ذاته الذي خبره أخوها، فشـعرت بالإحسـاس الذي انتابه حينها، كما اسـتوعبت مدى ذعره من الرجل المتوحّش، وهلعه من الموت، وفهمت ما يعنيه أن يكون المرء قريباً من رجل مختلّ لا تقيّده المشـاعر الإنسـانية، وتسـاءلت: هل حصل هذا حقّاً منذ فترة قصيرة؟ هل كان ذلك مساء أمس أم أوّل أمس؟ وما الذي يمكنها أن تقوله؟

قال راتوف: «إنّ محاولاتك إعاقتنا مبهجة، لكنّها بلا فائدة يا كريستين».

تراجعت كريسـتين إلى العامود في نهاية الخيمة، فقام الحارسـان بتقييد حركة ستيف، ووجّه بيتمن مسدّسه نحوه.

تابـع راتـوف قائـلاً: «تظنّيـن أنّ المـكان سـيمتلئ بفـرق الإنقـاذ، وبأنّك

ستنجين من الموت، وأنّ العالم برمّته سيعلم بما يحصل هنا. حسناً، يؤسفني أنّ هذا هو العالم الحقيقي، لا يمكن لأحد أن يطالنا، فالحكومة في جيبنا، وقد تمّ اعتراض فريق الإنقاذ. فماذا ستفعلين يا كريستين؟ سنغادر النهر الجليدي، ولن يعرف أحد بأيّ شيء قد حصل على سطحه. لماذا تضعين على عاتقك مسؤولية إنقاذ العالم؟ ألا يمكنك أن تري كم أنّك مثيرة للسخرية؟ والآن أخبريني منذ البداية...»

ناداه أحد الجنود داخل الخيمة، وقال: «بدأت المروحيتان بالإقلاع».

«...كيف عرفت بأمر نابليون؟».

سمعوا ضجيج محرّكي المروحيتين عند تشغيلهما في الخارج، وأخذ هدير شفراتهما يتعاظم وهما تدوران بسرعة أكبر.

صرخ ستيف: « لقد أخبرنا طيّار متقاعد من القاعدة بشأن نابليون، فأنا الشخص الذي يعرف ماذا يعني ذلك لا هي».

قالت كريستين: «إنّه يكذب».

همس راتوف: «كم هذا مؤثر!».

لم تدرك كريستين على الفور أنّه طعنها، فشعرت كما لو أنّها وخزة خفيفة، فقد غرس المخرز بحركة واحدة في خاصرتها أسفل أضلعها مباشرة، واخترق بذلة الثلج وملابسها، فتغلغل النصل بضع سنتيمترات داخل جسدها، فشعرت بألم مبرّح، وتدفّقت الدماء بقوة، فأمسك بالمخرز وهو داخل جسدها وبدأ بتحريكه يميناً ويساراً.

بكت وحاولت أن تبصق عليه مرّة أخرى، ولكنّ فمها كان جافّاً للغاية، واستمرّ يلوي المخرز لتجحظ عيناها كما لو أنّ نوبة من الألم قد اجتاحت جسدها كلّه، ما دفعها إلى إطلاق صرخة مدوّية من شفتيها المتشقّقتين، ثم شاهدت ستيف بطرف عينيها وهو يصرخ ويكافح للتحرّر من قبضة الحرّاس.

كرّر راتوف وهو يراقب ردّ فعل كريستين إزاء الألم بتجرّد: «من يعرف

أيضاً بأمر نابليون؟».

ووقفت على أطراف أصابعها وهي تحدّق إليه، ثمّ أجابته وهي تتأوّه: «الجميع».

«من تقصدين بالجميع؟».

«الحكومة والشرطة ووسائل الإعلام... الجميع من دون استثناء».

«أعتقد أنّك تكذبين، أليس كذلك».

أجابته بالآيسلندية: «كلا، كلا».

«إذاً في إمكانك أن تخبريني من يكون نابليون».

ثمّ حرّك المخرز من جديد.

لم تجبه كريستين، وقد شعرت بألم لا يحتمل، فلابّد أنّ عمق الجرح قد بلغ عشرة سنتيمترات، واعتقدت أنّه سيغمى عليها، بعد أن أضحى عقلها مشوّشاً، ما صعّب عليها مهمّة التركيز على انتقاء الأجوبة المناسبة حتّى تجاريه في لعبته، وكي تستمرّ بالمماطلة.

كرّر راتوف سؤاله: «من يكون نابليون؟».

آثرت كريستين التزام الصمت.

«هل سألت نفسك ماذا فعلوا بنابليون؟».

أجابته قائلة: «بشكل دائم».

«وماذا يمكنك أن تخبريني بهذا الشأن؟».

«الكثير».

«من يكون نابليون إذاً؟».

أجابته وهي تتأوّه: «أنت تعرف بماذا اشتهر».

أجابها راتوف: «بكونه إمبراطوراً عظيماً، وجنرالاً قويّاً».

قالت له كريستين: «كلا، كلا، ليس هذا ما قصدته».

«ما الذي قصدته».

«كان قصيراً، وقزماً مثلك».

هيّأت نفسها لموجة جديدة من المعاناة، ولكن لم يحصل ما توقّعته، بل أخرج المخرز من الجرح لتختفي هذه الأداة فجأة كما ظهرت.

وقال وهو يشهر مسدّساً: «لا يهمّ».

تمتّعت كريستين بالطول الكافي لتلاحظ مدى صغر حجمه ودقّة صنعة، فبدا لها أنّه من الأسلحة التي صممت لتتّسع داخل حقيبة يد.

«سأترك لك ذكرى جميلة، على الرغم من أنه لم يكن يفترض أن تأخذ الأمور هذا المنحى، فكان في وسعك إنقاذه، لذا فكّري في هذا الأمر في الليالي الباردة عندما تكونين بمفردك، لأنّ هذا سيكون خطأك».

استدار نصف استدارة من دون سابق إنذار، وأطلق رصاصة واحدة على وجه ستيف، فظهر ثقب صغير تحت عينه اليمنى، بينما انفجرت جمجمته ليتلطّخ جدار الخيمة برذاذ مقزّز، وهوى على الأرض في الحال، مفتوح العينين، وقد علت وجهه نظرات جامدة مليئة بالدهشة، فشاهدت ذلك المنظر كما لو أنّها تعيش حالة هذيان. لقد صمَّ صوت الطلق الناري أذنيها، وبدا الوقت للحظة كما لو أنّه يتباطأ، فلم تفهم ما الذي حصل. ووقف راتوف من دون حراك، وأخذ يراقبها، بينما تركّز اهتمام الرجال الموجودين في الخيمة على ستيف في أثناء استقرار الرصاصة في هدفها. راقبته وهو يسقط على الثلج، ويرتطم رأسه بالأرض المتجمّدة مصدراً صوتاً مكتوماً، وقد تركّزت نظرات عينيه الجامدتين على وجهها، وشاهدت الخطّ الشديد الفحش على جدار الخيمة، ثم بدأ الثلج يمتصّ الدماء السائلة تحت رأسه.

اندفعت العصارة الصفراء من معدتها، وخرّت على الأرض، فتقيّأت، ثم انتفض جسدها، وغابت عن الوعي.

كان آخر ما رأته عيني ستيف الخاويتين، ولكنّ آخر ما سمعته كان صوت راتوف.

«هذا خطؤك، يا كريستين».

34

فاتنويوكل الأحد، 31 كانون الثاني
الساعة 23:30 بتوقيت غرينتش

استقرّ أعضاء الفريق، بعضهم داخل العربتين، وبعضهم الآخر إلى جوارهما، بانتظار معرفة ما الذي قد يحدث، فلم يجرؤ أيّ منهم على مقاومة الجنود أو القيام بأيّ حركة استفزازية تسوّغ استخدام بنادقهم مرّة أخرى، وبعد أن صادر الجنود جميع معدّات الاتصالات التي كانت في حوزتهم لمنعهم من متابعة تقدّمهم، أجروا عملية تفتيش شاملة سواء للأشخاص أو المركبات، حتّى أصبحوا على يقين من أنّهم صادروا كلّ ما حملوه من شعلات ضوئية أو أجهزة لاسلكيّة أو هواتف محمولة، قبل أن ينسحبوا عائدين إلى موقعهم الأصلي، وقد بدا أنّهم راضون لإعاقتهم تقدّم الفريق، عبر الوقوف إلى جوار عربات الثلج، وهم ثابتون في مواقعهم مبدين حرصاً شديداً على ألّا يتابع الآيسلنديون طريقهم.

صعد يوليوس إلى مؤخّرة المركبة الثانية، وحرص على الجلوس إلى جانب أحد الأبواب، وقد فتحه بحذر بعد أن انتظر بعض الوقت ثمّ انسلّ إلى الخارج. هدأت المواجهة، واستشعر أنّ الحرّاس قد استرخوا، فرقد لفترة طويلة على الثلج تحت السيّارة من دون أن يحرّك أي عضلة، إلّا أنّ البرد تسلّل

في النهاية إلى ساقيه على الرغم من ارتدائه بذلة التزلّج السميكة التي تقتل البرد القارس، ولكنّ لسعات البرد بدأت تؤلم أصابع قدميه، وتنخر عظامه، فتخدّرت يداه بشكل خطير، وتوجّب عليه أن يتحرّك سريعاً، عسى أن يبعث ذلك بعض الدفء في جسده.

سمع الجنود وهم يتحدّثون مع بعضهم، ولكنّه لم يستطع أن يفهم ما الذي يقولونه، فزحف بعد عشر دقائق، مبتعداً عن المركبة، وعبر بين عربتين، ثمّ اختفى بعيداً في الظلام، ونهض على ركبتيه عندما أصبح في مأمن، فاختلس نظرة إلى الخلف، فلم يتبيّن أنّ أحداً لاحظ غيابه، وأخيراً نهض على قدميه، والتفّ التفافة كاملة حول الجنود، متوخّياً البقاء بعيداً عنهم القدر الكافي الذي يخوّله الاستتار تحت جناح الليل.

كان قد استشاط غضباً من تعاليهم وتكبّرهم، فهو لن يسمح لأيّ يانكيز لعين ينتمي إلى القاعدة بتهديده، وتفتيشه وتجريده من معدّاته، وإساءة معاملته، والاعتداء على أصدقائه، ومنعه من التحرّك على أرض بلاده.

ناهيك عن ذلك، فإنّ كريستين تعتمد عليه، وسوف يتمكّن من تحقيق إنجاز كبير إن أتيح له تأييد روايتها حول نشاطات الجيش على سطح النهر الجليدي، فاعتصر صدره شعور خانق بالعار والذنب لأنّه كاد يفقد إلياس، كما كان احتمال تعرّض كريستين لخطر جسدي أمراً لا يطيق تحمّله، فحاول قدر استطاعته طرد هذه الأفكار من رأسه، واستحوذت عليه احتمالات أن يكون المسؤول عن الأذى الذي لحق بالأخ وأخته.

لم يمضِ وقت طويل حتّى انطلق الجنود في أعقابه، مدفوعين بمزيج من الغضب والضيق، فاندفع راكضاً فوق الجليد نحو الضوء الذي أنار السماء على بعد ثلاثة كيلومترات تقريباً، فأدرك أن الأميركيين سيراقبون النهر الجليدي عن كثب، وتوقّع أن يظهر الجنود في الظلمة في أيّ لحظة ليلقوا القبض عليه، أو ربما ليصوّبوا أسلحتهم نحوه.

تمتّع يوليوس بلياقة بدنية عالية مكّنته من قطع المسافة بسرعة قصوى، وقد أشعل الهواء البارد نشاطه وأنعش رئتيه، وازداد توهّج الضوء أمامه دفعة واحدة، فسمع صوت هدير يقترب، فاخترقت المروحيتان الهواء خلفه وهما تحطّان في منتصف بقعة الضوء، فأصغى إلى تضاؤل صوت شفراتهما إلى أن اختفى بالكامل ليعمّ السكون من جديد. وأسرع في سعيه، ليبلغ محيط المنطقة المضاءة، ثم تباطأ وألقى بنفسه في النهاية على الجليد، قبل أن يزحف المسافة المتبقّية ليرتقي مرتفعاً ضئيلاً أتاح له رؤية المنطقة كلّها.

لم يعرف ما الذي ينظر إليه، لكنّ المشهد بدا مهولاً، فهناك مروحيتان من طراز باف هوك، وحطام طائرة قديمة شُطر إلى نصفين مغطّى بالقماش، وقد انتشر حشد من الجنود على سطح النهر الجليدي، كما تناثرت الخيام والمعدّات في كلّ مكان، وكان ذلك عصيّاً على الفهم. كما لاحظ أنّ طياري المروحيتين قد اصطُحبا إلى إحدى الخيم، وشهد بعد ذلك امرأة تُقتاد إلى خيمة أخرى، فلم تقع عيناه على كريستين من قبل، ناهيك عن الرجل المكبّل بالأصفاد خلفها، وكان من الواضح أنهما أسيران لدى الجنود.

في تلك اللحظة، سمع صوت خطى على الثلج إلى جواره، فالتفت ليرى قبالته ثلاثة أزواج من الأحذية السوداء اللامعة، وبعد أن تتبّعها صعوداً رأى ثلاثة رجال يصوّبون بنادقهم نحو رأسه، وقد ارتدوا ملابس مموّهة بيضاء، ووضعوا نظّارات واقية تحجب وجوههم، وأوشحة ملتصقة بأفواههم لتقيهم من البرد، مثلهم مثل الجنود الذين اعترضوا فريقه.

نهض يوليوس بحذر على قدميه، ولم يعلم ما الذي يتعيّن عليه فعله، فاكتفى برفع يديه في الهواء، ما جعل الجنود راضين عن خضوعه، وأشاروا ببنادقهم نحو المخيّم من دون أن ينطقوا بحرف واحد، فقد تعقّبوه منذ اللحظة التي بدا خلالها نقطة صغيرة على شاشات الرادار، وهي تقترب من المنطقة المحظورة.

بـذل جهـوداً مسـتميتة ليحفـظ كلّ ما شـاهده طوال الطريـق، فلاحظ أنّ الجنـود بـدأوا بفـكّ خيامهـم وجمع المعـدّات والأدوات، وكأنّ عملهم على النهر الجليدي، أيّاً كانت طبيعته، قد شارف على الانتهاء.

عندمـا وصلـوا إلـى المخيّـم المؤقّت عرضوه على رجـل بدا واضحاً أنّه ضابـط ذو رتبـة عاليـة، ولـم يكن هناك أحد سـواه داخـل الخيمة، فحدّق إلى الآيسـلندي كمـا لـو أنّـه آتٍ من كوكـب آخر، فخطر على بـال يوليوس أنّ ما يحصل في هذا المكان ليس سوى الحقيقة التي أطلعته عليها كريستين سابقاً، فشرح للضابط عندما استجوب، كيفية هروبه من فريقه، والطريق الذي سلكه وصـولاً إلـى هـذا المـكان تحت جنح الظلام، وقد حرص علـى تأكيد ادّعائه بوجود آيسلنديين آخرين في المنطقة، كما ادّعى أيضاً أنّ رجاله تلقّوا رسالة من ريكيافيك، قبل أن يصادر الجنود أجهزة الراديو والهواتف الحمولة من عناصر فريقه، مفادها أنّ فرق الإنقاذ الأخرى تتّجه في طريقها إلى النهر الجليدي في تلك الأثناء، جنباً إلى جنب مع الشرطة وأفراد حرس السواحل.

أنصت الضابط إليه، وهو يهزّ برأسـه، وشـرع في طرح أسـئلته التقليدية الرتيبة: «هل هرب أيّ شخص آخر من قبضة الحرّاس؟».

أجابه يوليوس: «كلا، ولكن هل تحقيقاً في قضية ما؟».

«هل أنت واثق؟».

«لماذا تحقّق معي؟».

«أجب عن السؤال من فضلك».

«إنّني أدين بأشـدّ العبارات طريقة تعاملكم مع فريق الإنقاذ الآيسـلندي، فمن تعتقد نفسـك لكي تقوم بالتحقيق معي بحقّ الجحيم؟ ومن سـمح لكم بالإساءة إلى الآيسلنديين؟».

استمرّ الضابط في حديثه متجاهلاً فورة غضبه: «هل أنت وحدك؟».

«هل تظنّ أنّ هذا سيمرّ مرور الكرام، أعدك بأنّني سأبذل قصارى جهدي

لإخبار الصحافة بما يجري هنا على وجه التحديد، وكيف تتجوّلون بحرّية على الأراضي الآيسلندية، معرّضين حياة الآيسلنديين للخطر».

سمعوا صوت هدير يتعالى كما لو أنّ إحدى المروحيتين قد بدأت بالتحرّك.

فأمره الضابط قائلاً: «لا تتحرّك».

سار إلى باب الخيمة، حيث رأى راتوف يدخل المروحية، وثمّ ارتفعت عن الأرض مصدرة مزيداً من الضجيج وهي تحوم على ارتفاع ثلاثين أو أربعين قدماً فوق الجليد، وكانت الضوضاء صاخبة للغاية، كما أثارت حولها عاصفة من الثلج حجبتها عن الأنظار، فصار المشهد ضبابياً، ولم يعد في الإمكان رؤية تفاصيلها من خلاله، وقد شُدّت الكابلات الفولاذية السميكة المتدلّية من أسفلها، وسرعان ما بدأ هيكل الطائرة القديم في التحرّك، بوصة بوصة، من فوق الجليد، متأرجحاً في وهج الأضواء المشعّة، وارتفع رويداً رويدا، فاستدارت الطائرة عقب ذلك نحو الغرب، قبل أن تنطلق في مسارها لتختفي على مهل في الظلمة، وتبعتها المروحية الأخرى بعد دقائق.

لم يجد الضابط عند عودته إلى الخيمة سوى شقّ بطول رجل في جدار الخيمة القماشي، وقد يكون خرج من خلاله إذ إنّه لم يجد أيّ أثر ليوليوس.

كان يوليوس على يقين من أنّها الخيمة التي شاهد كريستين تُقتاد إليها، فاندفع مسرعاً نحوها، ومزّق القماش من الأعلى إلى الأسفل من دون أدنى تردّد، وولج عبر الفتحة، فاعترضه مشهد مروّع، فقد وجد وسط الخيمة رجلاً ملقى على الأرض، وقد تلطّخ أحد جدرانها بدمائه، وقد وجد فجوة كبيرة في مؤخّرة رأسه، فيما استلقت امرأة فوق الجليد على مسافة قصيرة منه، بدا أنّها فاقدة الوعي، فانقبض قلبه، وتساءل: من عساهما يكونان سوى كريستين وستيف؟

انحنى يوليوس فوق جسد كريستين المرتخي، وصفع خدّها بشكل

متكـرّر، وقـد شـاب جلدها الشـاحب باللـون الأزرق، واتّصـف بالبرودة عند لمسه، ففتحت عينيها على نحو مفاجئ بعد بضع ثوانٍ، وحدّقت إليه، فسارع إلى وضع يده على فمها وقرّب وجهه من أذنها.

قال لها: «أنا يوليوس، وأنا وحدي».

35

فاتنويوكل الأحد، 31 كانون الثاني

كان ذلك وشيكاً، فقد كادت المروحية أن تفشل في رفع الحطام عن الجليد، ولوهلة بدا وكأنّه سيغرق مرّة أخرى في النهر الجليدي، كما بدا واضحاً أنّ هذا القسم من الطائرة الألمانية لم يحفر حوله بالقدر الكافي، وأنّ انتباه الرجال الواقفين حوله تركّز على المعركة التي تخوضها المروحية مع حمولتها.

وجد راتوف لنفسه مقعداً في عنبر طائرة باف هوك وجلس عليه، وانحنى بتوتّر داخل كوّة نافذةٍ صغيرة محاولاً إلقاء نظرة على الكابلات الفولاذية وحمولتها، فارتفعت المروحية ببطء شديد، وقد تأرجحت قليلاً، ثمّ توقّفت عن الارتفاع مؤقّتاً في أثناء رفعها القسم الأماميّ من جسم الطائرة بوزنه الثقيل، فارتفع حطام الطائرة رويداً رويداً من مقبرته الثلجية إلى أن تحرّر بالكامل. وبعد ذلك بدأت تتحرك المروحية بشكل متسارع، وراتوف يراقب من مكانه النقطة الباهتة التي يمثّلها المعسكر وهي تنحسر بشكل مطّرد في كنف الليل المخيّم عليها.

كانت الضوضاء في المقصورة تخدّر العقل، ولكن راتوف قد وضع سمّاعتي الأذنين ليحجب الصوت، أو ليتّصل عبرهما بالطيّارين في المقصورة.

وقد حلّقت المروحية بوتيرة متّزنة، على ارتفاع خمسة آلاف قدم، مع الحمولة التي تدلّت من ثلاثة كابلات فولاذية سميكة، والتي شكّلت النصف الأمامي من الطائرة الألمانية، على أن تقلع المروحية الثانية عقبها مباشرة حاملة الجزء الخلفي الذي يحتوي على جثث ضحايا حادثة التحطّم، وقد سُحب كلا القسمين من الجليد من دون أن تُمسَّ محتوياتهما، وتمّ إغلاق الفتحات بأغطية بلاستيكية متينة. وها هو راتوف يتنفّس الصعداء، بعد أن وصلت المهمّة إلى خاتمتها، وحقّقت نجاحاً كبيراً رغم الإزعاج الذي سبّبته كريستين وفريق الإنقاذ، ولكن قد تمّ استخراج الطائرة بأمان في مطلق الأحوال، وها هو ذا في طريقه إلى الديار، وسرعان ما سينتهي الأمر، أو ستنتهي هذه الواقعة على أقلّ تقدير.

كان راتوف الراكب الوحيد على متن الطائرة، فحاول ترتيب أفكاره استعداداً لما هو مقبل عليه، وهو يستمع إلى اتّصالات الراديو بين الطيّارين ومراقبة الحركة الجوية في قاعدة كيفلافيك، وقد تمّ جدولة موعد الوصول المرتقب إلى كيفلافيك بعد خمس وعشرين دقيقة، وقد اتّسمت الأحوال الجويّة بالمثالية- الطقس بارد وبلا رياح ــ فمرّت الرحلة من دون حوادث، وسوف تحلّق الطائرة المروحية مباشرة إلى حيث تقف طائرة سي 17 لتضع حمولتها على منصّة خاصّة ليصار إلى تحميل كلّ من نصفي الطائرة الألمانية على متن طائرة النقل، وقد أطلقت القوّات الجوية على هذه الطائرة اسم طائرة كيكو، تيمّناً بالحوت القاتل الذي سافر مؤخّراً إلى آيسلندا قادماً من نيوبورت بولاية أوريغون، وقد تابع هذا الحدث محبّو الحيوانات على مستوى العالم.

تزوّدت الطائرة سي 17 بالوقود في الجوّ لتوفير الوقت، وتجنّب إزعاج الراكب غير العادي على متنها، وستقوم بالشيء نفسه في أثناء رحلة العودة، وستقلع قريباً وستنتهي المرحلة الآيسلندية التيّ انطلقت منها العملية، وستكون رحلتها التالية الطيران حول نصف العالم.

لكنّ النصف الآخر من ذهنه كان شارداً في مكان آخر، فقد عمل راتوف على افتراض أنّهم سيتركونه وشأنه إلى أن يصلوا إلى وجهتهم النهائية، لكنّه لم يستطع أن يعوّل على ذلك بعد تحقيق هدفهم، فتمعّن في السبب الذي دفع كار إلى اختياره للمهمّة، فهذا الأخير هو الذي جنّده في الأساس لصالح المنظّمة، إلّا أن الجنرال أخذ بالابتعاد عنه بشكل متواصل على مرّ السنين لدرجة أنّه بدا خلالها غير مستعدّ للاعتراف بوجوده، وقد تقبّل راتوف هذه الحقيقة. وعلى الرغم من أنّه لم يكن سيّد نفسه بأيّ حال من الأحوال إلّا أنّه امتلك القدرة على اختيار تحرّكاته، وتمتّع بقدر معيّن من الحرّية في إطار وظيفته، مع أنّه أدرك حقيقة كره الناس له. ولا شكّ أنّه عكّر صفو ضمائرهم، وأيّاً يكن الأمر، فقد أنجز راتوف أعمالهم القذرة، وجمع المعلومات، أمّا الطريقة التي أنجز بها عمله فهي أمر يخصّه وحده، وكلّما قلّت معرفة الاستخبارات بأساليبه، ولا سيّما كار كان ذلك أفضل.

توصّل في أثناء تواجده على النهر الجليدي إلى استنتاج مفاده أنّ السبب الذي دفع كار إلى اختياره قيادة البعثة أنّه اعتبره غير ذي أهمّية، وأنّه من السهولة بمكان أن يخفيه عن الوجود، وربما اعتبره وصمة عار، وبقايا رجل لم يرغب أحد في تذكّره، وافترض راتوف أنّ كار علم على وجه التحديد بمحتويات الطائرة، فضلاً عن رهط من كبار ضبّاط الاستخبارات العسكرية، وما لم يتمكّن من معرفته إن علم أيّ شخص آخر بالسرّ، فلم يكن واثقاً من مدى إدراك أيّ شخص خارج الجيش ما يحدث. وكانت تلك المرّة الأولى التي يتذكّرها في السنوات الأخيرة والتي شعر بها بالتهديد، فأيقظ هذا الإحساس كلّ الغرائز الحيوانية في داخله.

كيف عرفت تلك الفتاة الملعونة بشأن نابليون، فقد ذكر ذاك الحثالة المثير للشفقة الذي كان برفقتها شيئاً عن طيّار في القاعدة، ولكنّ راتوف عرف أنّ هذا لا يتعدّى كونه حيلة يائسة، فكان في وسعه استخلاص المعلومات منها

لو أتيح له الوقت الكافي، ولكن لا يهمّ، فسيتولّى بيتمن زمام التحقيق، وبعد ذلك ستختفي هي وصديقها إلى الأبد.

استرجع ما قرأه في إحدى وثائق الإفادة الإعلامية من الملفّ الموجود في الطائرة، وهي ورقة مكتوبة بخطّ اليد، تحمل عنوان مكتب مجلس الوزراء البريطاني في الحرب.

سيتمتّع ستالين في أعقاب اجتماع يالطا بسلطة مفرطة في أوروبا الشرقية، ولا شكّ في أنّه لن يتمكّن من الإبقاء على شروط المعاهدات. وبناءً على ذلك فقد وضع مجلس الحرب البريطاني خطّة لهجوم من جانب الحلفاء على حكومة ستالين في موسكو، وهذا من شأنه أن يؤدّي إلى القضاء على روسيا، وقد أطلق عليها اسم «العملية التي لا تخطر على بال». ستنتهي الحرب في المسرح الأوروبي من خلال معاهدة مع الألمان ينضمّ بموجبها ما يقارب مئة ألف جندي ألماني إلى الحلفاء في الهجوم على ستالين، وسيصار إلى نشرهم على الخطّ الأمامي للموجة الأولى من الغزو. ومن المستحسن شنّ الهجوم شرقاً من شمال ألمانيا بالقرب من دريسدن، ومن غير المستبعد شنّ هجوم ثانٍ من منطقة البلطيق، ويفترض أن يستجيب الروس من خلال غزو تركيا واليونان، بل وحتّى النرويج من الشمال، ومن المرجّح أيضاً أن يحاولوا تأمين احتياطيات النفط من العراق وإيران.

لم تكن هذه الفكرة جديدة، وقد نوقشت في الدوائر الأعمق حيث واجهت في البداية معارضة ساحقة. فنظر أشدّ معارضيها شراسة إلى المفاوضات مع ألمانيا باعتبارها مدخلاً إلى تحالف مع النازيين، الذين شرعوا في شنّ الحرب التي أحاقت الخراب بأوروبا، كما أكّدت الاكتشافات الحديثة التي تمّ التوصّل إليها في أوروبا الشرقية الشكوك في شأن الإبادة المنظّمة التي لحقت باليهود. وهناك حجّة أخرى ذات مصداقية ضدّ العملية التي لا تخطر على بال، وهي أنّ الروس غيّروا مسار الحرب أكثر من أيّ دولة أخرى، فساعدوا في تأمين

انتصار الحلفاء وتكبّدوا نتيجة ذلك خسائر فادحة.

وعلى الرغم من ذلك، فهناك من يعتقدون أنّهم قادرون على تقصير مدّة الحرب عدّة أشهر، وبالتالي تقليص الخسائر في الأرواح إلى أدنى حدّ ممكن، وهم يتطلّعون إلى المستقبل، ويخشون كيف سيبدو شكل العالم إذا لم يتمّ تطبيق العملية التي لا تخطر على بال، وهناك مخاوف جدّية بشأن ما قد يلي نهاية الحرب عندما تسمح معاهدة يالطا لستالين بالسيطرة على ما يقارب نصف أوروبا ودول البلطيق.

من الواضح بالفعل أنّه لا يمكن الوثوق به للحفاظ على شروط المعاهدة، ويشير هذا التفكير إلى أنّ سياسة التوسّع التي ينتهجها سوف تهدّد في السنوات المقبلة السلام الذي تحقّق حديثاً.

وقد أشار رئيس الوزراء في محادثات خاصّة إلى «الستار الحديدي»....

تذكّر راتوف شيئاً شاهده في يوميات الطيّار التي كانت كتاباته بالكاد مقروءة في الجزء الأخير، حيث لا يمكن استخلاص إلّا شذرات منها، وهي جمل غريبة لم يفهم منها راتوف سوى القليل، جمل غير مترابطة عن والديه، وشقيقه، والموت. فتذكّر جملة على وجه التحديد، أكاد أكون على يقين من أنّني رأيت غوديريان في الاجتماع. كان غوديريان، رئيس أركان هتلر، وقد عيّن في المرحلة الأخيرة من الحرب.

بدأ راتوف بالخروج من أحلام يقظته، عندما كان الطيّاران يحاولان جذب انتباهه عبر الراديو، وفي النهاية صاح أحدهما منادياً اسمه.

قال عندما سأله راتوف ماذا يجري: «وصلت رسالة من النهر الجليدي يا سيّدي، من شخص يدعى بيتمن».

«ما هي الرسالة؟».

«قال إنّها اختفت يا سيّدي».

«من؟».

مكتبة
t.me/t_pdf

«امرأة ما، لم يقل اسمها عبر الراديو، إنّه لا يثق بنا، وتقول الرسالة: لقد اختفت من المخيّم».

أمرهما أن يصلوه به في الحال، فضجّت سمّاعة الأذن بخشخشة وتموّج عبر الراديو في أثناء بحثهم عن المحطّة المناسبة، ثم سمع صوت بيتمن.

سمعه راتوف وهو يقول: «هذا الأمر عصيّ على الفهم، يا سيّدي، عصيّ على الفهم بشكل كلّي».

صـرخ راتـوف: «تعقّبهـا، لابدّ أنّها لم تبتعد عن المخيّم، وينبغي أن تظهر على شاشة الرادار».

«كلا، لم تظهر، لقد اختفت تلك السيّدة كما لو أنّها تبخرت في الهواء، لـم يشـر نظـام المراقبة إلى وجودها فـي أيّ مكان قريب من المخيّم، كما أنّنا قلبنا المكان رأساً على عقب، إلّا أنّنا لم نجدها في أيّ مكان، لقد تبخّرت في الهواء. كما أنّنا نعمل على تفكيك النظام، وبالتالي لن نتمكّن من اسـتخدامه بعد الآن».

سـرت رعشـة باردة من الغضب في جسـم راتوف، فلم يعد يطيق تحمّل المزيد من الأخطاء، فقد تكبّد الكثير من الجهد لشـقّ طريقه وتحقيق النجاح خـلال هـذه العمليـة، وها هو على وشـك الخروج بسـلام، إلّا أنّ هذه المرأة الجهنمية تعترض مرّة أخرى طريق نجاحه.

قـال بيتمـن: «هنـاك أمـر آخر يا سـيّدي، وجدنا رجلاً فـي الخيمة عوضاً عنها، زعم أنّه قائد فريق الإنقاذ، واسمه يوليوس، وقد هرب من حرّاسنا، ومن الواضح أنّه الشخص الذي قدّم لها يد العون، ماذا ترغب في أن نفعل به؟».

صرخ راتوف وهو يستشيط غضباً: «لماذا لم تعلمني بأمره سابقاً؟».

أجابه بيتمن: «لم يتوفّر متّسع من الوقت يا سيدّي».

نظر راتوف إلى الفراغ المظلم القابع خلف نافذة المروحية.

«إنّه يعرف مكان تواجدها، وعليك أن تستخلص هذه المعلومة منه».

«لا يوجد وقت لذلك، فنحن على استعداد تقريباً لمغادرة هذا المكان، وستنطلق المجموعة الأولى خلال دقائق».

استمع طيّارا المروحية إلى هذه المحادثة باهتمام.

أمره راتوف: «اصحبه برفقتك، اصحبه برفقتك واحرص ألّا يفرّ من قبضتك بحقّ الله، وسننظر في شأنه لاحقاً».

36

مطار كيفلافيك: الأحد، 31 كانون الثاني

أقلعت المروحيتان وكان الفارق بينهما عشر دقائق، لكنّ الطائرة الثانية أحرزت تقدّماً أكبر فضيّقت المسافة الفاصلة بينهما، وبحلول الوقت الذي وصلا خلاله إلى مطار كيفلافيك، توجّهت المروحيتان مباشرة إلى الطائرة سي 17 في نهاية المدرج رقم سبعة، حيث أُنزل نصف الطائرة الألمانية إلى منصّات خاصّة، ثم نُقل إلى طائرة النقل، ولن يكون هناك أيّ حمولة أخرى على متن تلك الرحلة، وقد استغرق تحميلها ما ينوف عن النصف ساعة في مساحة التخزين حيث وضّبت في المساحة الداخلية المجوّفة.

مشى راتوف بخطوات واسعة سريعة إلى نهاية المدرج نحو الطائرة سي 17، بعد أن علم أنّ كار بانتظاره على متنها، ولن يعبر أيّ راكب آخر المحيط الأطلسي برفقتهما، كما يجب أن يعود العاملون في قوّات دلتا إلى القاعدة خلال الخمس عشرة ساعة القادمة، وبرفقتهم معدّاتهم وعرباتهم، وستعود طائرة سي 17 مرّة أخرى لتقلّهم.

عندما وصل راتوف إلى الطائرة سي 17 كان الجزء الخلفي من الطائرة الألمانية قيد التحميل، فتابع رفعها على منحدر الطائرة إلى مساحة تقارب نصف حجم ملعب كرة القدم، وهي تومض بواسطة أشرطة إضاءة قوية،

وكان القسم الأمامي من الطائرة القديمة قد حُمّل على متن الطائرة بشكل مسبق، وقد بدا ضئيلاً في جوف تلك الآلة الضخمة، فتوقّف راتوف لمشاهدة المناورة، وهو يشمّ الروائح الكريهة التي تفوح من المعدن والزيت والوقود عالي الأوكتان.

قال صوت من خلفه: «آمل أن يكون كلّ شيء قد سار وفق الخطّة». فالتفت ليجد نفسه وجهاً لوجه مع كار، لقد تقدّم الجنرال بالعمر منذ آخر مرّة التقيا فيها، وذبل وجهه الشاحب، وأصبح زيّه العسكري أكثر اتّساعاً عليه رغم طوله المهيب، وبدت عيناه باردتين ومتعبتين خلف نظّارته، كما بدت كتفاه مرتخيتين.

أجابه راتوف: «الجزء الأكبر، يا سيّدي».

استفسر كار: «الجزء الأكبر؟».

قال راتوف وهو يهزّ رأسه باتّجاه الطائرة القديمة: «تلك الفتاة لا تُصدّق، استطاعت الفرار من المخيّم بعد أن أمسكنا بها، لكنّ ذلك غير ذي أهمّية في الوقت الراهن، فلن تتمكّن من فضح ما يجري الآن».

«هل اكتشفت أيّ شيء، على حدّ علمك؟».

فكّر راتوف، وفي نهاية المطاف، قال: «لقد تمكّنت من معرفة اسم نابليون، لكن لا أعتقد أنّها تدرك مدى أهمّيته».

«لكنّك تعرف مدى أهمّيته؟».

حدّق راتوف إليه بنظرات ثابتة: «أجل يا سيّدي».

«لقد قرأت الوثائق».

«لا يمكن تفادي الأمر، وكما أعتقد فقد توقّعت ذلك يا سيّدي».

فتجاهل كار كلامه.

«في أيّ مكان على وجه الأرض يمكنها أن تسمع الاسم المرتبط بالطائرة؟».

«ربمـا أخبرهـا أحد الأشـخاص من القاعدة بشـكوكه، فلم أملك الوقت الكافي لأستجوبها كما ينبغي، لكنّني فهمت أنّها قامت ورفيقها ستيف بزيارة الطيّار المتقاعد الذي زوّدهما ببعض الشائعات غير المكتملة، وعندما ذكرت نابليون كانت تلك محاولتها الأخيرة لكسب الوقت، ولا أعتقد أنّها تعرف ما يعنيه هذا الاسم في الوثائق».

«لقد حالفها الحظّ بالفرار على قيد الحياة، ولا يتاح ذلك للكثيرين».

«لقـد فعلـت عيـن الصواب عندما أوكلت إليّ مسـؤولية الإشـراف على العملية يا سيّدي».

«وما رأيك في عملية نابليون؟».

قال راتوف وهو يمسـك بالحقيبة: «لم أكوّن رأياً بهذا الخصوص، لكن لديّ المعلومات والأمل في أن نتمكّن من التوصّل إلى اتّفاق».

«اتّفاق؟».

«نعم. اتّفاق يا سيّدي».

«أخشـى أنّـه لا يوجـد مجـال لأيّ اتّفاق يا راتـوف، اعتقدت أنّك فهمت ذلك».

ظهر ثلاثة رجال فجأة من قلب الظلمة، وشكّلوا حلقةً حول راتوف، فلم يُبدِ أيّ ردّ فعل، ولاحظ وهو يشاهدهم، أنّ أفراد الطاقم الآخرين تواروا عن الأنظار، وأنّ هؤلاء هم الوحيدون الذين بقوا في الجوار، فتفاجأ من أمر واحد فقـط وهـو السـرعة التـي تحرّك خلالها كار، ومدّ الجنـرال يده لأخذ الحقيبة، فناوله إيّاها من دون مقاومة.

فتـح كار الحقيبـة، وأخـرج بعـض الأوراق منها وتفحّصهـا، فكانت كلّ صفحاتها فارغة، فنظر مجدّداً إلى الحقيبة، فلم يجد في داخلها أيّ شيء.

كـرّر راتـوف قائـلاً: «كما أسـلفت الذكر آمل أن نتمكّـن من التوصّل إلى اتّفاق».

أصدر كار أمراً: «فتّشـوه»، فأمسـك اثنان من الرجال براتوف، بينما فتّشـه الثالث من رأسه إلى أخمص قدميه، فلم يعثر على أيّ شيء.

قـال راتـوف: «لقـد هيّأت بوليصة تأميـن، ولا أعرف ما إذا كانت العملية المذكورة في الملفّات قد تمّ تنفيذها بالفعل، فلا أملك أدنى فكرة حول ذلك، ولكنّني أعرف بأمر العملية، وخمّنت أنّ هذه المعرفة تعدّ خطيرة، كما قطعت الشكّ باليقين للتوّ، فكلّ تلك الجلبة، من صور الأقمار الصناعية، والرحلات الاستكشـافية إلـى النهـر الجليـدي، فالشـائعات حـول الذهـب، والفيروس، والقنبلـة، والعلمـاء الألمـان، كلّهـا مصمّمـة لتضليـل الناس بعيـداً عن بعض الأوراق القديمة. لابدّ أنّك عرفت أنّني سأقرأها يا كار، فأدركتُ منذ اللحظة الأولـى التـي قرأتهـا فيها أنّنـي في خطر، لذا فقد اتّخـذت بعض الاحتياطات لتأمين نفسي ضدّ أيّ خطط قد هيّأتها لي».

سأله كار: «ماذا تريد؟».

قال راتوف ضاحكاً بسـخرية: «أن أخرج من هنا على قيد الحياة بالطبع وأن أكون غنياً».

«المال؟ تريد المال؟».

سـأل راتـوف وهـو ينظـر إلى أعيـن الرجال الذين يحيطـون به: «لماذا لا نجعـل أنفسـنا أكثـر راحـة ونحن نناقش هذا الأمر وحدنـا؟ لقد بحثت مطولاً عن طريقة للتقاعد، وأعتقد أنّني قد عثرت على واحدة».

أجرى كار المحاولة الأخيرة.

«مـاذا سـتفعل بهـذه الأوراق؟ كمـا قلتَ آنفاً، لـم تُنفّذ العملية، بل كانت مجـرّد فكـرة، وهـي فكـرة مجنونة، واحـدة من أصل الكثير مـن الأفكار التي وضعـت فـي الأيـام الأخيرة من الحرب، وهـي لا تمتّ بواقع اليوم بأيّ صلة على الإطلاق، لماذا قد يوليها أيّ شخص الاهتمام؟ في وسعنا أن ننكر هذه المسـألة برمّتها بسـهولة باعتبارها مزيجاً آثماً من الشـائعات ونظرية المؤامرة

الجنونية».

قال راتوف: «حدّدت الأوراق اسم الجزيرة، وتخيّل بثّاً مباشراً من هناك».

أجابه كار: «حتّى لو دفعنا لك، وتركناك تمضي بسلام، فما الضمانات التي تؤكّد أنّك ستترك الأمر عند هذا الحدّ، أو أنّك لم تخفِ نسخاً من الملفّات؟».

سأله راتوف: «ما الضمانات بأنّك لن تتعقّبني وتقوم بزيارتي في يوم من الأيّام؟ وكيف لي أن أصنع نسخاً؟ فلم نحضر أيّ آلات تصوير إلى النهر الجليدي، كما أنّني لا أحمل آلة تصوير».

بدا كار أكثر قلقاً، على الرغم من أنّه توقّع هذا الاحتمال، فأومأ إلى الرجال الثلاثة، بعد أن أخذ بعين الاعتبار النطاق الضيّق للبدائل، فلم يعد يملك الوقت الكافي للمزيد من الألاعيب، ولا أيّ نية لعقد صفقة، فضلاً عن ذلك لم يكن قادراً على تحمّل إخضاعه، ناهيك عن أنّ هذا النوع من الخيانة والخداع يستحق العقاب، ومع قرب انتهاء المهمّة، بدا سلوك راتوف -إن كان يمكن أن يقال عن أيّ شيء- مثيراً للشفقة.

قال له كار وقد نفد صبره: «أنت محقّ»، ثم خاطب الجنود قائلاً: «خذوه، واكتشفوا ما الذي فعله بالوثائق».

بدا راتوف للمرّة الأولى غير واثق من نفسه، وقد ارتسم على وجهه غير الجذاب شبح شيء ما قد يكون شبح الخوف.

قال بسرعة: «إن لم أجرِ اتّصالاً في وقت محدّد لأؤكّد أنّني آمن، فستنشر الوثائق بشكل تلقائي».

قال كار للرجال الثلاثة وقد ارتدّ على عَقِبيه: «ابدأوا بالعمل بسرعة إذاً»، من دون أن يصغي غلى احتجاجات راتوف المذعورة بسبب دويّ ضوضاء رفع المنحدر الخلفي للطائرة وإغلاق الباب.

37

طائرة سي 17، أجواء المحيط الأطلسي: الأحد، 31 كانون الثاني، الساعة 05:00 بتوقيت غرينيتش

أقلعت طائرة سي 17 عند الساعة الثالثة فجراً بالضبط، وغيّرت اتّجاهها بعد ساعة من الطيران نحو الغرب فوق المحيط الأطلسي، لتنعطف انعطافاً سلساً نحو الجنوب. كانت تحلّق على ارتفاع 35 ألف قدم، محرزةً تقدّماً ثابتاً في ظلّ ظروف طيران مثالية، وقد ملأ أزيز محرّكاتها العنبر الذي خلا إلّا من حطام الطائرة الألمانية.

اتّصلت حجرة القيادة بالعنبر عبر باب من الفولاذ الثقيل، وقد فُتح هذا الباب بعد ساعتين من الطيران وظهر منه ميلر، فتقدّم إلى الأمام، وأغلق الباب خلفه بحذر. كان في وسعه رؤية أرضية العنبر من مكان وقوفه، والتي تألّفت من عشرات الصفوف من البكرات الفولاذية الميكانيكية السميكة، والتي تُستخدم أحزمة لنقل المعدّات العسكرية والأسلحة. وعلى الرغم من أنّه كان يدرك أنّ كاميرات الدارة التلفازية الموجودة في العنبر وإن كانت مغلقة حالياً، فهي تراقب الحمولة من غرفة القيادة في أوقات متفرّقة، ولكنْ كان لا بدّ من المجازفة.

كانت الحرارة في الداخل متدنيّة إلى ما دون الصفر ببضع درجات، وقد

وفّرت أشـرطة الفلورسـنت الصغيرة إضاءة خافتة فحسـب، ولكنْ من دون أن توفّر الدفء، وقد نشرت أنفاسه ضباباً حجب الرؤية من حوله. جرَّ ميلر قدميه بحذر نحو الطائرة الألمانية، وبدأ يفكّ المشمّع من أحد أطرافه، فكان الطرف الذي توقّع أن يكون هيكل الطائرة تحته مفتوحاً، ففكَّ عرى المشمّع، لكنّه لم يستطع أن يسحب الأغطية الثقيلة عن الحطام، فلجأ إلى قطع البلاستيك إلى أن صنع فتحة كبيرة بما يكفي ليزحف عبرها، واكتشف وهو يتقدّم إلى الأمام مستخدماً مصباحاً قويّ الإضاءة أنّه موجود في الطرف الأمامي من الطائرة، ولـم يكـن يعـرف فـي أيّ جزء قـد أخفوا الجثث. كان السـقف اكثر انخفاضاً ممـا توقّعـه، كمـا كانـت المقصـورة ضيّقـة بشـكل مزعج، ومـا أن وصل إلى قمرة القيادة حتّى حرّك المصباح في أرجاء المكان، فتأمّل النوافذ المحطّمة، ولوحة التجهيزات القديمة بأزرار التحكّم والعدّادات المهشّمة، وعصا التحكّم والأذرع التي استخدمها الطيّار في الماضي للتحليق بالطائرة، فسـرح بأفكاره إلى الطيّار الشابّ الذي استخدم أدوات التحكّم هذه لآخر مرّة في حياته، وكما فعـل مئـات المـرّات من قبل تخيّل من جديد لحظة اصطدام الطائرة بالجليد، فتسمّر في مكانه فترة وجيزة، ثم استدار وعاد أدراجه.

توجّـه إلـى القسـم الآخر من الحطـام، وبدأ يفكّ العُـرى ويزيل الأغطية البلاسـتيكية بطريقة مماثلة، من دون أن يهتمّ إن اكتشـف أحدهم دخوله إلى العنبـر، فقـد دفعـه كونه شـخصاً غير مُحتسِـب للأمور ويميل إلـى التهوّر إلى اللامبالاة بالأمور، فشـعر بسـرور غريب لاكتشـافه هذا الجانب من شخصيّته. وها هو ذا الانتظار الذي عانى منه معظم أيّام حياته قد شـارف على الانتهاء، فلم يتمكّن من إقناع نفسه بالانتظار إلى أن يصل إلى وجهته، ففي نهاية المطاف لم يقدّم له كار أيّ ضمانة بأنّه سيفي بوعده، أو انّه سوف يتمكّن من الوفاء به.

في البداية اعترض كار على إرسـاله مباشـرة إلى بيت ميلر في الولايات المتّحـدة، ولكنّـه تمكّـن مـن التحايل على الأمر. لقد عرف ميلر كار منذ زمن

طويل، وقد اختاره خلفاً له، كونه رجلاً يتّسم بقدر كبير من البراعة والجرأة، ويفتقـر تمامـاً إلى العواطف الإنسـانية. وقد حـدّق كار إلى عينيه فترة وجيزة، وهما يقفان في حظيرة الطائرات الباردة قبل أن يقبل أن يركب الطائرة ويقوم بالرحلـة برفقتـه، علـى الرغـم مـن أنّه لا يُسـمح له بأن يرافقـه، حتّى ولو كان رئيساً سابقاً للمنظّمة، كما لا يسمح له بالتدخل بما يتعلّق بحطام الطائرة، أو بتقديـم طلبـات خاصّـة، وهو يعرف ذلك جيّداً، ولكنّه يدرك أيضاً، كما يدرك كار أنّ الظروف لم تكن طبيعية إلى حدّ ما، وأنّها تسمح بتجاوز البروتوكول خلال مرحلة ما.

نـال هديـر محـرّكات طائـرة سـي 17 الذي لا يكلّ مـن أعصاب ميلر في الوقت الذي نجح خلاله أخيراً في صنع فجوة في المشمّع الذي يغطّي النصف الخلفي من الطائرة، وبدأ يشـعر بألم في رأسـه، وهو يزحف إلى الداخل، ثمّ أنار المصباح من جديد، فانتشر ضياؤه داخل الذيل الخلفي، ورصد من فوره أطراف أكياس الجثث التي لا يمكن تمييزها وهي قابعة في الظلمة، وقد وجد العديـد منهـا، فبلـغ طـول كلّ كيس مترين ونصـف، أمّا عرضه فيوازي عرض كتفـي رجـل، وكانت مغلقة بسـحابات على امتـداد طولها، وقد وضعت على أرضيـة الطائـرة، ولـم تحمل أيّ علامات مميزة، فجثا على ركبتيه وبدأ يكافح لفتح سحاب الكيس الأقرب إليه.

شـاهد وجهاً أبيض مائلاً إلى الزرقة يعود إلى رجل في منتصف العمر، وهو يرتدي الزي الرسـمي الألماني. أمّا عيناه فمغمضتان، وشـفتاه سـوداوان ومتجمّدتان، وأنفه مستقيم وحادّ، وشعره كثيف وأشعث كالمكنسة، فأمل ميلر أنّ يحيـا هـذا الشـخص من جديد، ثم اعتراه شـعور بالخـوف والهلع لمجرّد التفكير في العثور على أخيه ورؤية وجهه الذي عرفه منذ سنوات عديدة نابضاً بالحياة، وهو يستلقي أمامه بلا حياة، وقد تجمدّت الدماء في عروقه، وتوقّفت نبضات قلبه، وتصلّب أمامه من دون حراك.

تردّد في فتح الحقيبة الثانية ولكنّه كان شخصاً غريباً آخر.

أخذت الشكوك تنتابه في الوقت الذي وصل فيه إلى الكيس الثالث، فربما لا تزال جثّة أخيه مفقودة بين المخلّفات الغارقة في النهر الجليدي، والتي من المؤكّد أنها ستظلّ غارقة في أعماقه إلى الأبد، فحاول تثبيت المصباح ليتمكّن من الكشف على ما يحتويه الكيس الثالث، وفي أثناء محاولته فتح السحاب وجده عالقاً، ولم يتمّ إغلاقه بالكامل، وقد تُركت فتحة كبيرة إلى حدّ ما، ولكنّها لا تكفي ليتمكّن من رؤية ما في داخله عبرها، ولكنّها تمكّنه من دفع يديه إلى الداخل وإمساك جوانب الحقيبة، وجذب السحاب بكلّ ما أوتي من قوّة، فتمكّن من سحبه إلى الأعلى، لكنّه علق عندما حاول سحبه إلى الأسفل مجدّداً، فجذبه بشدّة المرّة تلو الأخرى إلى أن ارتخى السحاب.

شاهد وجهاً يختلف عن الوجهين الأوّلين لدرجة أنّ قلبه قفز من مكانه، واشتعل فكره بالذكريات في ظلّ الضوء الخافت للمصباح، فاعتقد للحظة أنّه ينظر إلى أخيه كما فعل قبل نصف قرن من الزمان، ولكّن الذي ينظر إليه كانت شفتاه حمراوين، كما كان خدّاه مورّدين، وبشرته زهرية وباهتة، فوقع ميلر لوهلة في قبضة هذا الوهم المخيف، ثم خطر في باله أنّ أخاه قد يكون أطال شعره منذ لقائهما الأخير.

في الواقع لم يكن هذا الفم، ولا ذاك الأنف، ولا حتّى شكل الوجه مألوفاً لديه، كما لم يتذكّر هذه القسمات على الإطلاق. وفجأة تراجع ميلر، وكاد أن يختلّ توازنه، من هول المفاجأة، فقد فتحت الجثّة عينيها وهي تنظر إليه، فتمدّد على الأرضية المعدنية المتجمّدة في العنبر.

سألت كريستين غاضبة وهي تنهض من الكيس: «من أنت بحقّ الجحيم؟».

مكتبة
t.me/t_pdf

38

طائرة سي 17 أجواء المحيط الأطلسي: الأحد، 31 كانون الثاني، الساعة 05:15 بتوقيت غرينيتش

لقد واصلت نضالها المستمرّ مع السحّاب منذ أن تُركت وحيدة، ولكن من دون جدوى، فتشوّشت الأفكار في ذهنها بين الضجيج المثير للغثيان الناجم عن ارتطام عقب البندقية بوجه يوليوس، ثمّ تبعه ارتطام جسده الثقيل الذي هوى على الثلج، ثم دخل مزيد من الجنود الخيمة، وسرعان ما شعرت بأنّها تُنقل إلى الخارج.

سمعت راتوف وهو يخبر بيتمن بأنّ أكياس الجثث ستوضع في حطام الطائرة الألمانية، وتنقل بواسطة المروحية. فلم يكن هناك أيّ أحد يراقبهما في الخيمة لفترة وجيزة، وفي أثناء إقلاع المروحيتين، حاول يوليوس فصلها عن ستيف، إلّا أنه لم يملك القوّة الكافية، فصاح في أذنها إلّا أنها لم تتجاوب مع صياحه، فشعر كما لو أنّه غير موجود، فانحنى إلى الأسفل، وصفعها بشدّة على خدها، فأطلقت أخيراً صرخة خافتة، فانتزع جسد ستيف من قبضة يدها، ومدّده برفق على الثلج. فعادت كريستين إلى رشدها لتسعى بشكل محموم إلى البحث عن طريقة للفرار، فشاهدت بعض أكياس الجثث الفارغة في الزاوية قرب الجدار، فلم يفهم يوليوس غايتها عندما أشارت إلى الأكياس، واكتفى

بمحاولة جرّها خارج الخيمة مرّة أخرى، فاستمرّت بالمقاومة، ثمّ أشارت إلى نفسها ثم إلى كيس الجثث، ووضعت فمها بالقرب من أذنه وصرخت: «ساعدني في الدخول إلى أحد هذه الأكياس».

حدّق إليها مصعوقاً، ثم هزّ برأسه رافضاً، وصرخ قائلاً: «مستحيل».

تملّصت كريستين من يوليوس وأفلتت منه، وركضت بسرعة نحو الأكياس الموجودة بالقرب من الجدار، وبدأت بفتح أوّل واحد، فأدرك يوليوس أنّ الوقت بدأ ينفد، وقد تركّزت أفكاره على إنقاذها، فأسرع إلى مساعدتها في فتح سحاب الكيس والدخول إليه، وأغلقه من جديد، تاركاً فتحة صغيرة فحسب، ثمّ وضع الكيس عند الجدار بجانب الجثث الأخرى قبيل وصول الجنود.

كان كيس الجثث واسعاً للغاية، وقد امتلك مقابض في كلّ زاوية، فحمله أربعة جنود بسهولة، واستلقت على ظهرها وهي تحاول أن تبقى ساكنة، ويظلّ جسدها جامداً ومتصلّباً قدر الإمكان، بغضّ النظر عمّا يمكن أن يحصل لاحقاً، ودخل شعاع ضئيل من نور الشمس عبر فتحة السحاب الصغيرة التي تركها يوليوس، فلمحت السماء المرصّعة بالنجوم.

ألقي الكيس على أرضية الطائرة بقوّة، وسرعان ما اختفى الضوء الذي تسلّل من فتحة السحاب، ثم سمعت صوت المروحية مرّة أخرى، ولكنّها هذه المرّة كان فوق رأسها مباشرة، فحصل اهتزاز مفاجئ عندما تمّ رفع الحطام عن الجليد، ثم تأرجح في الهواء تحت المروحية التي انطلقت في مسارها نحو الغرب.

حاولت أن تفتح السحاب، فتمكّنت من إنزاله بضعة سنتيمترات قبل أن يعلق، وبعد ذلك لم تستطع أن تزحزحه قيد أنملة مهما حاولت، وعلى الرغم من توفّر الأوكسجين الكافي للتنفّس، إلّا أنها قَبعت في ظلمة حالكة لا يمكن التملّص منها.

بالـكاد شـعرت بالارتطـام عندما وضعـت المروحية الجـزء الخلفي من الطائرة برفق على منصّة النقل الخاصّة بالطائرة سـي 17 في مطار كيفلافيك، أو عندما أدخلت إلى عنبر طائرة الشحن الواسع، وحاولت أن تتخيّل ما الذي يقـوم بـه الجنـود، فلم تتمكّن سـوى مـن تخمين أنّها على متن طائرة توشـك أن تقلع، فانتابها الإحسـاس بالفراغ، وشـعرت بألم في معدتها اعتادت على الشـعور بـه عندمـا تسـافر جـوّاً. ثم سـمعت فرقعة فـي أذنيهـا، فنبّهها صوت هديرالمحـرّكات إلـى أنّهـا تورطـت فـي رحلة أطول بكثير ممّـا كانت تتوقّع. وهي لا تزال ترتدي السترة الثلجية السميكة والتي وفّرت لها حماية محدودة مـن البـرد الـذي أخذ يخترق كيس الجثث، ولكنّ ذلك كان بالطبع أفضل من لا شيء.

لا يزال السحاب اللعين عالقاً، وبدأت تعتقد أنّه لن يُقدَّر لها أبداً الخروج من الكيس، وفكّرت يائسة في أنّ استمرار الحال على هذا المنوال، سيقودها في النهاية إلى المشرحة لا محالة، وهي ملفوفة في كفنها وجاهزة للدفن.

كانت أصابعها ملطّخة بالدماء جراء المعركة التي خاضتها، وأخذ خوفها مـن أنّهـا سـتتجمّد حتّـى الموت من البرد يزداد باطّراد، إلى أن سـمعت فجأة صوت خشخشة يتناهى إلى سمعها من داخل مقصورة الطائرة الألمانية، يوجد شخص ما بالقرب منها، وشاهدت شعاعاً من الضوء ينساب عبر فجوة الكيس، فهل يعقل أنّه راتوف؟

سـمعت لهـاث شـخص مصـاب بالربو، وتأوّهـاً كما لو أنّ أحـداً يواجه صعوبةً في التعامل مع شـيء ما، ثم فجأة تحسّـس كيسـها، وبذل محاولات حثيثـة لفتـح السـحاب، فأغمضت كريسـتين عينيها عندمـا أفلحت محاولاته، وحبسـت أنفاسـها إلى أن شـعرت أن صدرها سـينفجر، وأخيراً فتحت عينيها فشـاهدت ميلـر وهـو ينحنـي نحوهـا، وينظر إليهـا نظرات قلـق وحيرة، وهو يتفحّص وجهها.

صرخ ميلر، قافزاً إلى الخلف، وعيناه مركّزتان على كريستين التي انتصبت واقفة بعد أن تحرّرت من كيس الجثث: «يا إلهي!»، عودة جثّة إلى قيد الحياة كفيلة بقتل إنسان.

سألته كريستين قبل أن يتاح له أن يجمع شتات أفكاره: «من أنت بحقّ الجحيم؟ أين أنا؟ وإلى أين تتّجه الطائرة؟».

سألها ميلر مصعوقاً: «من أنت؟ وما الذي تفعلينه هنا؟».

لقد خرجت من كيس الجثث ووقفت على قدميها، وهي تحدّق من الأعلى إلى الرجل العجوز الذي وقع على الأرضية.

قالت كريستين بنبرة اتّهام: «لقد قتل رجالك صديقي على النهر الجليدي، ومن غير المتوقّع أن يُكتب لأخي البقاء على قيد الحياة، وأريد أن أعرف ما الذي يجري بالضبط»، ثم أخذ صوتها يرتفع: «ما الذي يحصل بحقّ الله؟ ما أهمّية هذه الطائرة؟ وما الذي يجعلكم مستعدّين للقتل من أجلها؟».

كادت أن تركل الرجل العجوز من شدّة يأسها، فسحبت قدمها إلى الخلف وشدّت عضلة فخذها، لكنّها فكّرت في الأمر ملياً قبل أن تطلق العنان لها. استلقى ميلر على الأرض بلا حول ولا قوّة، ولم يجرؤ أن يحرّك أيّ عضلة من جسده، فحدّقت إليه كما لو أنّها في حالة من العتاهة، ومرّت برهة من الوقت قبل أن تستعيد زمام الأمور وتضبط أعصابها، فارتخت قسمات وجهها وتخلّصت من بعض التوتّر.

استعاد ميلر قوّته بعد أن زالت صدمته، وجلس على أحد صندوقي الذهب اللذين كانا على متن الطائرة، فلَمَحَت الصليب المعقوف على الصندوق.

توسّلت إلى ميلر، وقد أصابتها حالة من الاستياء، قائلة: «بالله عليك أخبرني، لماذا هذه الطائرة مهمّة جدّاً بالنسبة إليكم؟ ومن أنتم؟ وأين نحن؟».

أجابها ميلر بنبرة هادئة ليهدّئ من روعها: «نحن على متن طائرة نقل من طراز سي 17 تابعة للجيش الأميركي، ونحن في طريقنا إلى ديارنا عبر المحيط

الأطلسي، ولا داعي إلى أن تخافي منّي، بل حاولي أن تهدّئي من روعك».

«لا تطلب منّي أن أهدّئ من روعي، فقط أخبرني من تكون».

«اسمي ميلر».

كرّرت كريستين من بعده، وقد تنشّطت ذاكرتها: «ميلر؟ هل أنت الشخص الذي ذكره جون؟».

«جون؟».

«المزارع جون، الأخوان من المزرعة الواقعة في نهاية النهر الجليدي».

«أجل، طبعاً، فأنا ميلر، ولكن هل التقيت بجون؟».

ارتجف صوتها إلّا أنّها عضّت على شفتيها، وقد استحضرت ذاكرتها قسراً صورة ستيف وهو ممدّد على الجليد. وقالت: «أخبرنا بقصّتك، أنا وستيف، فأنت كنت في الرحلة الاستكشافية الأولى، ولديك أخ على متن الطائرة، أليس كذلك؟».

«كُنت بصدد البحث عنه عندما قُمتِ..»

«هل تبحث عن أخيك؟».

لم ينبس ميلر ببنت شفة.

لم يستطع أن يعرف من تكون هذه المتسلّلة الشعثاء، لكنّه أدرك، بالنظر إلى هيئتها، وحالتها العقلية المضطربة، أنّ عليه أن يكون واضحاً ومهذّباً في التعامل معها، وأن يبذل قصارى جهده لطمأنتها، فلم يملك أدنى فكرة حول هويّتها، أو المحنة التي واجهتها، وهروبها من القاتلين المأجورين، وبحثها عن الإجابات لديه، لكنّه تمكّن رويداً رويدا من استخلاص قصّتها.

كان هناك شيء ما مطمئن بشأن هذا الرجل العجوز المنهك، شيء ما يبعث على الثقة بكلامه، ما دفع كريستين إلى الاستجابة إليه، فقال إنّه يبحث عن أخيه، كما فعلت هي- هناك شيء مشترك بينهما- وشعرت بأنّه صادق في رغبته في الاستماع إلى قصّتها لمعرفة هويتها، وكيف انتهى بها المطاف

مختبئة في كيس جثث في حطام الطائرة الألمانية. استمع إليها بصبر وهي تسرد تسلسل أحداث بالكاد تتّسم بالمصداقية، وقد بلغت ذروة أحداث حكايتها إقدام راتوف على قتل ستيف أمام عينيها. تقع مسؤولية موت ستيف على عاتقها، فهو قد حياته بسببها- بسبب تهوّرها، وأنانيتها، ومسعاها العنيد- والآن استطاعت البدء باستيعاب هذه الحقيقة المروّعة، فروت حكايتها، وطأطأت رأسها، وغرقت في بحر من اليأس.

جلس ميلر وتمعّن في ملامحها، فصدّق ما تقوله، لقد مرّت بمحنةٍ لا لا يمكن تحمّلها، ولا سبب لديه يدفعه إلى الشك في أنّها تقول الحقيقة، فمن الجلي أنّ قدرتها على التحمّل قد شارفت على النفاد، ومع ذلك فقد بدت أكثر هدوءاً الآن فاتّخذت مقعداً لها مقابله على صندوق آخر، فهزّ رأسه إزاء عبثية حالتهما.

«هل عمل هذا المدعو ستيف هذا في القاعدة؟».

«أجل».

«لكنّهم أطلقوا النار عليه، أليس كذلك؟».

«قال راتوف إنّه سيترك لي شيئاً لأتذكّره من خلاله، ثم أطلق النار عليه، وقد أقدم على قتله ليعذّبني فحسب، فقد كان أمراً شخصياً بطريقة ما، ولم يكن لديه سبب لذلك، كما لم يبدُ منطقياً القيام به. أخبرني من فضلك، ما الذي يجري؟ أين هو راتوف؟ أحتاج إلى أجوبة.» سألت وهي تبحث مشوّشة الذهن في الحنايا المظلمة لركام الطائرة.

قال بعد أن صمت لفترة قصيرة: «لا يجب أن تقلقي بشأن راتوف بعد الآن، أمّا بشأن معرفة الأسرار، فأنت لن ترغبي في أن تعرفي... لن تكسبي شيئاً من خلال هذه المعرفة، أؤكّد لك بأنّك ستكونين أفضل حالاً من دونها».

«أنا أقرّر هذا الأمر، فلم أتكبّد كلّ هذه التضحيات حتّى استسلم الآن. هل تعرف حول ماذا يدور كلّ ذلك؟».

«في الواقع لا أعرف سوى بعض الأمور، فقد خسر أخي حياته بسبب عملية انطلقت في أثناء الحرب العالمية الثانية، وهي عملية سرّية، ومن المحتّم ألّا يعرف أحد بشأنها، فلا أنت ولا أيّ شخص آخر يحتاج إلى معرفة شيء عنها».

«كيف يمكن أن تكون على يقين من ذلك؟».

«صدّقيني، سأحرص على ألّا يصيبك أيّ مكروه، كما سأحرص على أن تعودي إلى موطنك آيسلندا، لكن من الأفضل لك وللجميع أيضاً، أن تتوقّفي عن البحث عن إجابات. حاولي أن تنسي ما مررت به، فأنا أعرف أنّني أطلب منك الكثير، لكن عليكِ أن تثقي بي».

«وماذا بشأن راتوف؟».

«يشكّل راتوف استثناءً لهذه القاعدة، فوجود أناس من طينته ضروري في بعض الأحيان، لكن لا يمكن على الإطلاق السيطرة عليه بالكامل».

فكّرت كريستين بكلمات ميلر، ولكن لا يمكنها أن تنسى كلّ ما تعرّضت له، ومن غير المعقول أن تتخلّى عن البحث عن أجوبة بعد أن وصلت إلى هذه المرحلة، كما أنّها مدينة لإلياس وستيف بمتابعة مساعيها واكتشاف الحقيقة كاملة من دون نقصان، ولن تستسلم أبداً، فلن يسمح لها ضميرها بذلك.

«عندما قلت إنّك تبحث عنه بعد أن فاجأتك، هل قصدت أخاك؟ هل هو في أحد هذه الأكياس؟».

أجابها ميلر كما لو أنّه يتكلّم مع نفسه: «لقد أرسلناه إلى ألمانيا، لكي يقود الطائرة اللعينة، لقد أرسلته بنفسي إلى برلين، وقد اقتضت الخطّة أن نلتقي في ريكيافيك، ونسافر معاً عبر المحيط الأطلسي إلى الأرجنتين، وكان من المفترض أن يحرّك هذا الذهب عجلة المفاوضات، وكانت الحكومة في بوينس آيرس على وشك الحصول على المزيد من هذا الذهب الذي يعود إلى اليهود، فكان بمثابة رشوة لها».

تفحّصته كريستين لبرهة، فلم ترَ في ملامحه ما يدعوها إلى الخوف، فهو مجرّد رجل عجوز يبحث عن إجابات مثلها تماماً، فواصلت التقصّي بعد دقيقة من الصمت.

سألته بحذر: «ما نابليون؟ أو من نابليون؟ وما عملية نابليون؟».

سألها ميلر من دون أن يتمكّن من كبح دهشته: «من أين سمعتِ بنابليون؟».

أجابته كريستين: «لقد ألقيت نظرة على بعض الوثائق التي كانت في حوزة راتوف عند النهر الجليدي، وقد ورد الاسم في إحداها، وافترضت أنّ مصدرها هو الطائرة، وأنّ ملكيتها تعود إلى الألمان».

قال ميلر: «لا علم لي بها»، لقد استخدم أسلوباً غامضاً وغير قابل للتفسير، فقد بدا بالنسبة إلى كريستين أنّه يحاول جاهداً تغيير الموضوع، كما لو أنّ مخاوفه الحقيقية بعيدة كلّ البعد عن أيّ مؤامرة ترتبط بهذه المعضلة المعقّدة التي تعود إلى أكثر من خمسين عاماً من الأكاذيب والخداع.

اقترحت كريستين، وهي تبذل جهداً كبيراً لضبط أعصابها: «دعنا نبحث عن أخيك»، فكانت تفضّل أن تنال من ميلر وهو في حالة نفسية تمكّنها من أن تهزّ مشاعره، لتجبره على أن يخبرها بما يعرفه حول الطائرة والألمان وعملية نابليون، ولكن يتوجّب عليها أوّلاً أن تتعامل معه بحرص، لتستخلص منه أجزاء الرواية القيّمة الواحد تلو الآخر. فقد أضحت الآن قريبة جدّاً من الوصول إلى الحقيقة، لذلك لا تستطيع أن تعرّض كلّ ما توصّلت إليه للضياع بسبب نفاد صبرها، فابتلعت المرارة وهي تفكّر في الثمن الذي تكبّدته حتّى الآن، على الرغم من أنّها تمتلك وقتاً قصيراً للغاية، فلا بدّ أنّ راتوف قريب جدّاً منها ويرافقه جنود آخرون، وهي محتجزة على متن طائرة في مكان ما فوق المحيط الأطلسي من دون أيّ فرصة للهروب. وهذا الرجل العجوز يحمل مفتاح حلّ اللغز، وها هو أمامها مباشرةً وقريب المنال، ولكن عليها أن تمهله بعض الوقت حتّى تظفر بثقته، رغم أنّها ليست على ثقة تامّة في ادّعائه

أنّه يستطيع حمايتها، ولكنّها ترى أنّه لا ينتمي إلى هذه المنظومة، وأنّ موقفه من هذه المكيدة سلبيّ وقد يكون مشكوكاً فيه، أو ربما غير مرغوب فيه، ما أشعل في قلبها الأمل.

أومأ ميلر إليها برأسه موافقاً، فانحنيا وبدآ يتفحّصان أكياس الجثث، إلى أن وجد أخاه في آخر كيس منها، بعد أن فتحت كريستين السحاب وكشفت عن وجه رجل يبدو في العشرينات من عمره، فتنحّت لميلر وسلّمته المصباح، فدنا من جثّة أخيه وأخذ يتفحّص وجهه.

همس ميلر: «وأخيراً».

تأمّلت كريستين الأخوين اللذين التقيا حديثاً بعد مرور نصف قرن، فبدا الأوّل ينبض بالحياة وهو يتنفّس بالقرب منها، أمّا الآخر فهو جثّة هامدة، وهو يستلقي في كيس من دون حراك، ثم تعجّبت من حالة الجثّة التي حفظها النهر الجليدي بعناية، إذ لم يظهر عليها أيّ خدوش أو جروح، فقد كان رئيفاً بها. كان وجهه شاحباً وخالياً تماماً من أيّ لون، كما بدا جلده مشدوداً مثل زجاج شفّاف رقيق، وقد اتّسمت قسمات وجهه الحادّة، بجبهة عريضة، وحاجبين مرسومين بعناية، وعظام وجنتين بارزة. وعلى الرغم من أنّ عينيه كانتا مغمضتين، فلم تجد طريقة أخرى للتعبير عن ذلك المشهد، إلّا بقول إنّه يبدو وكأنّه يغطّ في نوم عميق وقد اعتلى وجهه شعور بالسلام والسكينة، أو كما لو أنّه مصنوع من البورسلين، وقد ذكّرها هذا المشهد بكتاب تحتفظ به في مكتبتها يحتوي على صور أطفال موتى متجمّدين وباردين وهم يستلقون بسلام، فبدا شكلهم مثل الدمى الصينية ببشرتهم الشاحبة والنقيّة..

سقطت دمعة من عينيه على الطبقة الصلبة للخدّين، فنقّلت نظرها بينهما وهي تفكّر في أخيها.

قال ميلر: لم يتجاوز الثالثة والعشرين من عمره».

39

طائرة النقل سي 17، أجواء المحيط الأطلسي: الأحد، 31 كانون الثاني، الساعة 05:45 بتوقيت غرينيتش

لم تعد تشعر كريستين بالبرد بعد أن تزاحمت الأفكار في رأسها، كما أنّها لـم تعـد تشـعر بألم في خاصرتها حيـث طعنها راتوف، إذ يبدو أنّ إصابتها لم تكن بليغة، على الرغم من أنّ الجرح قد نزف بشكل كبير، فهو لم يكن سوى ثقب صغير، ولكنّه عميق، وقد خفّ النزيف تدريجياً إلى أن توقّف تماماً.

في البداية راقبت كريستين المشهد بصمت، بينما غرق ميلر في الذكريات، فقـد التحـق هـو وأخـوه بالجيـش في كانون الأوّل عـام 1941 في أعقاب بيرل هاربـر مباشـرة، ولكنّـه لا يذكـر مكان تمركزهما بالضبـط، وقد تمّ تعيين ميلر في مقرّ اسـتخبارات الجيش في واشـنطن، بينما كُلّف أخوه بقيادة الطائرات، فأرسل إلى جميع دول أوروبا، ومنها ريكيافيك وأماكن أخرى، فحلّق في أثناء فترة خدمته هناك فوق آيسـلندا وغرينلاند، ثم قام بعد ذلك بتنفيذ مهامّ كُلّف بها من قواعد في بريطانيا وإيطاليا.

ظلّا على تواصل بالقدر الذي سمحت به الظروف، فشهد شقيقه أحداثاً أكثر ممّا رآه طوال حياته، فاعترى ميلر قلق شديد عليه، ولم يلتقيا سوى مرّتين خلال الحرب، إحداهما كانت في لندن، والأخرى في باريس، حيث قدّم إليه

ميلر قرار تكليفه بالمهمّة. وكانا يتراسلان بشكل متواصل، ليُبقي كلّ منهما الآخر على معرفة دائمة بتحرّكاته، وقد تطلّعا بشوق إلى أن يلتمّ شملهما بعد الحرب.

اقتضى تنفيذ المهمّة وجود طيّار من قوات الحلفاء، شخص خبير بالطيران، ويمكنه أيضاً إجراء الاتّصالات اللازمة بين مراكز مراقبة حركة الطيران العائدة إلى الحلفاء، وقد تلخّصت المهمّة في السفر إلى آيسلندا ومنها عبر المحيط الأطلسي. وفي ذلك الوقت كان أخوه يستطيع تنفيذ المهمّة وهو معصوب العينين، لذا اقترح ميلر اسمه ليقوم بمهمّة الطيّار.

كانت الحرب في مرحلتها الأخيرة، فاعتقد أنّ تلك المهمّة تصبُّ في صميم مصلحة أخيه، كما يمكنهما أن يجتمعا في ريكيافيك ويحلّقا من هناك إلى أميركا الجنوبية للاستمتاع بقضاء إجازة قصيرة بعيداً عن الطائرات المعادية والدفاعات المضادّة لها. فالمهمّة واضحة ومباشرة وآمنة، وهكذا يمكن أن ينجو لبعض الوقت إلى أن تصل الحرب إلى نهايتها المحتومة. وكان ميلر يجهل تماماً مصدر الفكرة ولا من أقترح تنفيذها.

لقد علم عدد قليل من كبار الضبّاط في الجيش بالهدف النهائي، ولكنّهم لم يُقدّموا سوى النذر اليسير من المعلومات إلى المكلّفين بتنفيذ هذه المهمّة. وقد عمل ميلر على اتباع الأوامر فحسب، فأدار الجزء الخاصّ به من العملية بأكبر قدر ممكن من الكفاءة من دون أن يعرف التفاصيل، كما أنّه لم يعرف جدول أعمال المحادثات الدائرة بين ألمانيا والحلفاء أو هويات الذين حضروا الاجتماع في باريس. وقد تمّ الكشف عن كلّ تلك المعلومات لاحقاً. في البداية اقتضت الخطّة أنّ يقدّم الألمان طائرة إلى الحلفاء كانت في حوزتهم، وبعد ذلك تمّ التخلّي عن تلك الفكرة، واتّخذ قرار طلاء طائرة من طراز جو 52 لتبدو وكأنّها إحدى طائرات الحلفاء عوضاً عن ذلك.

وصل ميلر إلى آيسلندا برفقة عميلين آخرين من الاستخبارات قبل

يومين من الموعد المقرّر لإقلاع الطائرة التي سيقودها شقيقه وعلى متنها الوفد الألماني القادم من برلين، وقد شغل العملاء غرفاً في فندق بورغ، لأنّ ريكيافيك كانت مكتظّة بجنود أميركيين تجنّبوا رفقتهم، ليبقوا بعيدين عن الأضواء، ويتسنّى لهم تفحّص المرافق في الميناء الجوي الذي بناه البريطانيون داخل حدود المدينة في فانتسم يى ري. وقد تقرّر أن تحطّ الطائرة لمدّة ساعتين أو ثلاث ساعات في ريكيافيك لتتزوّد بالمؤن والوقود قبل مواصلة رحلتها غرباً، وقد أشارت التوقّعات الجوية إلى أنّ الطقس سيكون مؤاتياً على مدار اليومين القادمين، وبعد ذلك أصبحت التوقّعات أقلّ وضوحاً، إذ لم يكن متوقّعاً في ذلك الوقت من العام التأكّد من حالة الطقس بشكل دقيق.

طال أمد الاجتماع المنعقد في برلين، ولم يعرف ميلر السبب وراء ذلك، فقد تمّ تزويدهم بجدول أعمال صارم، ولا يمكن أن يحيدوا عن مساره تحت أيّ ظرف من الظروف، ولكنّ ذلك كان له انعكاسات خطيرة، إذ تشكّل ضغط جويّ شديد الانخفاض جنوب آيسلندا، في وقت متزامن مع إقلاع الطائرة التي يقودها أخوه وعلى متنها الوفد الألماني، فحلّقت بوتيرة ثابتة وهي متّجهة نحو الشمال الشرقي من البلاد، ثم بدأ مقياس الضغط الجوي ينخفض بوتيرة خطيرة، وقد تمّ توقّع تساقط الثلوج بغزارة وانخفاض مستوى الرؤية. وكان مركز التحكّم في الحركة الجوية في بريستويك في إسكتلندا آخر من تواصل مع طاقم الطائرة بعد أربع ساعات من مغادرتهم برلين، وقد كانت متّجهة إلى شمال الساحل الأسكتلندي، وقد ظهرت في مجالهم الجوي، بغضّ النظر عن تعطّل جهاز الراديو الخاصّ بها أم لا. ولم ترد بعد ذلك أيّة أنباء أخرى، إلى أن ظهر الأخوان من قرية هوفن ليبلّغا عن أنّهما شاهدا طائرةً تحلّق على مستوى منخفض للغاية، ولابدّ من أنّها قد تحطّمت على النهر الجليدي.

ما إن اتّضح أنّ الاتّصال بالطائرة قد فُقد نهائياً حتّى أُبلغ ميلر بالخبر، فشعر في الحال بأنّها قد تحطّمت، وانتظر في حظيرة على أرض المطار، آملاً

في أن يسمع أخباراً عن أخيه، ولكنّ انتظاره كان من دون جدوى. ومرّت أيّام قليلة، فهبّت عاصفة قوية، اجتاحت جنوب شرق البلاد فوق ريكيافيك، وقد حاصرت الثلوج الناس لأيّام طويلة داخل منازلهم.

سيطر على ميلر فكرتين، فإمّا أنّ الطائرة قد تحطّمت على سطح النهر الجليدي، أو أنّ أخاه عاد إلى إسكتلندا عندما تدهورت الأحوال الجوية، فتشبّث بأمل نجاة أخيه من تحطّم الطائرة في أثناء سقوطها على الجليد، وانتظر أن يظهر أخوه مترنّحاً في مكان ما بعيد عن المدينة.

لكنّ ذلك لم يحصل أبداً.

وعندما وصلت أنباء إلى قوّة الاحتلال في ريكيافيك عن مشاهدة طائرة بالقرب من فاتنويوكل، عُيّن ميلر رئيساً لبعثة الإنقاذ، فأمضى وقته بالكامل يبحث عن تلك الطائرة، وهو ينتقل بين فندق بورغ والميناء الجوي في فانتسم يى ري، ويفكّر في التوقّعات والسيناريوهات المحتملة، غير قادر على الذهاب إلى أيّ مكان أو القيام بأيّ عمل قبل العثور على الطائرة المفقودة. وعندما تقرّر أن يغادر ضبّاط الاستخبارات آيسلندا قريباً ويعودوا إلى واشنطن لم يتمكّن ميلر من تحمّل عدم معرفة مصير شقيقه إلى الأبد. وعندما ورد تقرير من هوفن، يشير إلى أنّه تمّ العثور على أخيه، وأنّه ربما لا يزال على قيد الحياة، شعر كما لو أنّه تلقّى صدمة كهربائية قاسية، ومع ذلك لا يمكن لأيّ أحد أن يقدّر ضآلة هذا الاحتمال أكثر من ميلر، وكلّ ما رغب فيه أن يتمكّن من نقل جثّته إلى الديار.

لم يكن ميلر يعرف الصعوبات التي تفرضها الأرض الجليدية التي وجد نفسه على سطحها، فكان من المستحيل التحليق في خضمّ العاصفة القويّة التي هبّت حينها، كما أنّه أصيب بالهلع حين اكتشف أنّ القيادة إلى مدينة هوفن عبر الطريق الممتدّ على طوّل الساحل الجنوبي مستحيلة بسبب الأنهار المتدفّقة من الغطاء الجليدي فوق السهول الجليدية الشاسعة المنتهية عند

البحـر، والتـي لا يمكـن عبورهـا. فكان الطريق الشـمالي هـو البديل الوحيد، رغم التحدّيات والمخاطر التي يمكن مواجهتها. وقد زوّده الجنرال كورتلاند باركر، قائد قوّات الاحتلال الأميركي في آيسلندا، بمئتي عنصر من نخبة رجاله للعثور على حطام الطائرة.

كان قد شارك بعضهم في تدريبات على نهر إيركسوكيكول الجليدي في وقت سـابق من ذلك الشـتاء، ولكنّ قِلّة منهم امتلكوا الخبرة اللازمة للبحث عن الطائرة بين الثلوج الكثيفة، فاتّبعوا المسارات الشتوية الوعرة عبر البلاد، وقـد حفـروا في بعـض الأحيان لإخراج قافلة المركبات من الثلوج المتراكمة التي وصل ارتفاعها حتّى رؤوس الرجال، وكانت الأيّام الضائعة على الطريق الشمالي صعبة بالنسبة إلى ميلر.

لكـنّ حظوظهم تحسّـنت بتحسّـن الطقـس، فأصبحت الظـروف ملائمة للتوجّـه جنوبـاً عبـر الخليـج الشـرقي، والوصـول أخيراً إلى هـورن في نهاية ذلك اليوم. فتوجّه ميلر مباشرة إلى سفح النهر الجليدي للعثورعلى الأخوين اللذين كانا آخر من شاهدا الطائرة، واللذين حرصا على تقديم يد العون إليه. فأخبراه بشـأن النهر الجليدي، وحذّراه من رفع سـقف آماله عالياً. تفاجأ ميلر بمدى سهولة الاقتراب من الغطاء الجليدي انطلاقاً من مزرعتهم، رغم تساقط الثلوج بكثافة خلال الأيّام القليلة الماضية. وأشار الأخوان إليه وإلى رجاله إلى الاتّجاه الذي اعتقدا أنّ الطائرة يمكن أن تكون قد انحرفت نحوه، ورافقاه إلى النهر الجليدي، بعد أن قدّما إليه الخيل، وسـاعداه بكلّ السـبل المتاحة لهما، إلى أن انتهى بهم الأمر إلى أن أصبحوا أصدقاء.

لقد شاهد ميلر ملامح اليأس والخيبة على ملامح وجهي الأخوين منذ المـرّة الأولـى التـي شـرح لهمـا فيها مهمّتـه، فقد أجرى الجنـود عملية بحث مضنية، فقسّموا النهر الجليدي بصورة منظّمة إلى أجزاء، ومشّطوا الجليد عبر السـير في خطوط طويلة، وغرسـوا أقطاباً رفيعة طولها ثلاثة أمتار في الثلج،

ولكنّ جهودهم كلّها ذهبت سدى، وكلّ ما استطاعوا العثور عليه هو عجلة مقدّمة الطائرة، بعد أن تمّ البحث في كلّ حنايا النهر الجليدي ومساراته.

مشى ميلر في اليوم الذي أصدر فيه أوامره بالتخلّي عن عملية البحث، متجاوزاً أبعد نقطة بلغها على الغطاء الجليدي، فكانت أبعد بكثير من حدود عمليات البحث السابقة، فمسح المناطق المحيطة بها لساعات قبل أن يعود إلى صحبه مهزوماً. تحسّن الطقس، وبدت العاصفة كما لو أنّها من الذكريات البعيدة، وأشرقت الشمس في كبد السماء الزرقاء الصافية، حيث لا يمكن أن تشاهد أيّ سحابة في هذا السكون المثالي. وبان النهر الجليدي مساحة بيضاء ناصعة على مدّ النظر، فلم يستطع أن يمنع نفسه من أن يؤخذ بسحر هذه العزلة المذهلة، وسوف يفكّر في هذه اللحظة المليئة بالوحدة والبرد والهدوء كلّما تذكّر آيسلندا.

لقد ماج خلف إعجابه بجمال المناظر المحيطة به شعورٌ مروعٌ بأنّ أخاه موجود في مكان ما تحت قدميه في أعماق الجليد، وبأنّه محاصر في هذه اللحظة داخل الطائرة، وهو يحتضر من البرد والجوع.

مكتبة
t.me/t_pdf

40

طائرة النقل سي 17، أجواء المحيط الأطلسي:
الأحد، 31 كانون الثاني، الساعة 06:00 بتوقيت غرينيتش

راقبت كريستين الأخوين، الذين التمّ شملهما بعد كلّ هذه السنوات، ولكنّ أحدهما لا يزال شابّاً، والآخر طغت على ملامحه علامات الشقاء وتقدّم العمرّ.

قالت في نهاية المطاف، وهي تحاول أن تشقّ طريقها، لتشجيع ميلر على مواصلة قصّته: «حسناً أنت تبحث عن شقيقك بمقدار بحثك عن نابليون»، وأمسى عليها الآن أن تحسب حساب كلّ كلمة تنطق بها لتدفعه إلى الاعتقاد أنّها تعرف أكثر ممّا يظنّ، فرفع ميلر نظره عن أخيه ليحدّق بوجه كريستين، فبدا أخيراً كما لو أنّه قد حسم أمره.

وقال بصوته الهادئ: «لم يكن نابليون على متن الطائرة».

لم تتمكّن كريستين من إخفاء الإثارة التي اعترتها.

فسألته: «أين كان إذاً؟».

أجابها ميلر وقد أعاد تركيز نظره على أخيه: «لا أعلم، ولا أعرف أين هو الآن، ولست واثقاً من أنّ أحداً سيعرف بعد الآن».

آثر الصمت واكتفت كريستين بانتظار ما سيقوله.

تابـع ميلـر كلامـه قائـلاً: «يجب أن تفهمي أنّ عـدداً قليلاً جدّاً من ضبّاط الجيش وحدهم يعلمون بعملية نابليون، ولم أكن أعرف تفاصيلها على وجه التحديد، ولا حتّى محتويات تلك الوثائق، وقد عرفت بعض المحتويات من الشـائعات المنتشـرة حولها، فلم أكن سـوى عبد مأمور، مكلّف بحلّ مشـكلة محدّدة، وكذلك كان أخي».

واختفى صوته مجدّداً.

«أعتقـد أنّ العمليـة برمّتهـا من تخطيط عدد من الجنرالات الذين اتّخذوا مـن أوروبـا مقـرّاً لهـم- أعني جنـرالات أميركييـن- ولا أدري من أين جاءت الفكـرة أو مـن اتّخـذ المبـادرة، ولكـن مهما كان هدف تلك المبـادرة فقد تمّ الدخـول فـي محادثـات مع الألمان، وفي ذلك الوقت بدا واضحاً أنّ الألمان يوشكون أن يخسروا الحرب، فجرت نقاشات حول إمكان تقسيم أوروبا إلى أراضٍ يحتلّهـا الحلفـاء وروسـيا. وحلّـت النهاية بحلول ذلـك الوقت، فتدفّق الـروس فـي أوروبا الشـرقية، وبدأ الناس بالتحـدّث بجدّية حول إن كان علينا أن نغـزو روسـيا لننهـي مـا فشـل الألمان فـي إنجازه، أو أنّ نعقـد اتّفاق هدنة مع الألمان، قبل التصدّي للجيش الأحمر، وكان الجنرال باتون هو الشخص الوحيـد الـذي طـرح الفكـرة علناً، ولـم يأخذها أحد على محمـل الجدّ، لأنّ الناس قد شعروا بالتعب، وأرادوا أن يحلّ السلام، فبدا ذلك منطقياً».

سـألته كريسـتين بصبر نافد: «ولكن ما المغزى من كلّ ذلك؟ هذا الأمر يعرفـه الجميـع، حتّى أنا سـمعت بذلك، وقد نُشـر مقـال في إحدى الصحف البريطانية يشـير إلى أنّ تشرشـل وضع الخطط لغزو روسـيا بمجرّد استسـلام ألمانيا».

أجابها ميلر: «سُمّيت بالعملية التي لا تخطر على بال».

«بالضبط، يا قوم، هذا ليس سرّاً يستدعي أن تكونوا على أهبة الاستعداد للتعذيب والقتل من أجله، إنّها مجرّد أنباء قديمة».

أجابها ميلر: «في الحقيقة، هذا الأمر يتعلّق بسؤال كبير للغاية، في ضوء التاريخ، هل كان تلافي تقسيم أوروبا، وقيام الحرب الباردة والتهديد النووي وحرب فيتنام ممكناً؟ لقد هزمنا اليابانيين، واليوم أصبحوا قوّة اقتصادية عظمى. تُرى هل كان سيحدث الشيء ذاته في روسيا؟».

فكّرت كريستين في أنه يُضيّع الوقت فحسب، ألا يستطيع أن يرى أنّنا لا نملك الوقت؟ يجب أن أحصل على إجابات في الحال.

جلس فيتاوتاس كار في مقصورة الطيران، واستنتج أنّ راتوف قد استسلم للألم بما أنّه لم يعد في وسعه أن يسمع صرخاته، وهي تعلو فوق ضجيج المحرّكات، فالجميع يستسلمون في النهاية حتّى الذين ينتمون إلى طينة راتوف. المسألة برمّتها مسألة وقت، فهو لم يعرف ما فعلوه به بالضبط، ولم يرغب في أن يعرف، فلا تهمّ الأساليب القذرة التي لجأوا إليها، بعد أن أخذ الوقت ينفد منهم، ولم يعد ممكناً إظهار الرحمة تجاهه، كما لم يكن من المجدي تحمّل الوقوع بين فكي كمّاشة العقاقير والتعذيب البدني، ولا أحد في وسعه فهم هذه الحقيقة أفضل من راتوف نفسه.

سيتقاعد كار عندما ينتهي كلّ هذا الأمر، فقد كانت هذه مهمّته الأخيرة، وشعر وكأنّ حياته بأكملها تنتظر أن يتمكّن من إغلاق هذا الفصل، وأن يرسم خطّاً تحت هذه الحاشية التي خلّفتها سنوات الحرب، وهي حاشية نسيها العالم ولم يعد يهتمّ بها أحد.

ظهر أحد رجال كار إلى جانبه، وهو يحدّق إلى الفراغ في الليل الدامس، وهمس إليه، قائلاً:

«لقد حصلنا عليها يا سيّدي».

سأله كار: «هل لا يزال على قيد الحياة؟».

أجابه الرجل: «بالكاد يا سيّدي».

«هل اتّخذت الترتيبات الكفيلة باسترداد المستندات؟».

«لن تكون هناك مشكلة يا سيّدي، إنّها في طريقها إلى قاعدة كيفلافيك، وسيتمّ اعتراض القافلة وتدمير الوثائق كما طلبت».

«صحيح».

«ماذا علينا أن نفعل براتوف يا سيّدي؟».

«لا حاجة لنا به بعد الآن، قم بما يلزم، ولا تخبرني بذلك».

«مفهوم، لا شيء آخر، سيّدي؟».

«هناك شيء آخر- الأكياس- هل فحصت أكياس الجثث بعد إقلاعنا؟».

«كلا يا سيّدي».

«ربما الأمر غير ضروري، فلابدّ أنّ درجة الحرارة هناك منخفضة بما يكفي لحفظ الجثث، وربما لن يهتمّ أحد بأمرها سوى ميلر».

صمت كار برهة، ثمّ سأله: «أين ميلر؟».

«لا أملك أدنى فكرة يا سيّدي، اعتقدت أنّه برفقتك».

«كان هنا منذ برهة، اعثر عليه، وأحضره إلى هنا».

«أمرك يا سيّدي، وبالمناسبة فقد تفحّصت الأكياس عندما تمّ تحميل نصفي الطائرة، وأحصيت عددها، وكانت سبعة».

غرق كار في الصمت، ونظر مجدّداً عبر نافذة قمرة القيادة محدّقاً إلى الظلمة القابعة خلفها.

استدار الرجل مبتعداً.

قال كار مصحّحاً كلامه: «هل قُلت سبعة؟ تعني ستّة».

«كلا يا سيّدي هناك سبعة أكياس».

«لم يكن هناك سوى ستّة جثث في النهر الجليدي، وكان ينبغي أن يتمّ العثور على سبعة أشخاص، ولكنّ أحدهم قد فُقد، لذا يجب أن يكون عدد الأكياس ستّة فقط».

«هناك سبعة أكياس يا سيّدي».

«لا تكن سخيفاً، لا يمكن أن تكون سبعة، يستحيل أن يكون ذلك ممكناً».

«لا أعلم يا سيّدي، لكنّني متأكّد من أنّني أحصيت سبعة أكياس».

قال ميلر مركّزاً ناظريه على وجه أخيه: «كانت الجولة الثانية من المحادثات مع النازيين، وكنّا نجرّب مسار الرحلة عبر الطائرة التي سيُنقل على متنها الذهب وبعض النازيين من لجنة التفاوض، فالغرض من هذين الصندوقين أن يكونا بمثابة عربون، وكان لا يزال عليهم الاتّفاق على الوجهة النهائية في الأرجنتين».

«من؟».

«أعني النازيين».

«هل كانوا يفرّون؟».

«طبعاً، فقد أراودوا الهروب جميعاً، السفلة الجبناء، القطيع بأكمله أراد الهروب».

قالت كريستين، لجعله أكثر استعداداً لمتابعة الحديث: «هرب كثيرون منهم إلى أميركا الجنوبية»، وبما أنّ الرجل المسنّ لم يشكّل أيّ مصدر تهديد بالنسبة إليها، فقد نسيت مؤقّتاً الخطر الذي يحيق بها، وترسّخت في ذهنها قناعة مفادها أنّ عليها اصطياد المعلومات بصبر، وأنّ أيّ شذرة تستخلصها قد تكون حاسمة، بعد أن وصلت إلى نهاية اللعبة. وقد علمت بأنّها تحتاج إلى جمع كلّ ما تستطيع الحصول عليه من معلومات إن أرادت تفادي الفخّ الذي يُطبق عليها، على الرغم من أنها بالكاد توقّعت حدوث مواجهة حاسمة.

أضافت قائلةً: «أُلقي القبض على أدولف أيخمان في الأرجنتين».

أجابها ميلر: «أعتقد أنّنا سمحنا لهم بالإمساك بأيخمان».

«ما الذي تعنيه؟».

«أرشدناهم إلى أيخمان».

«ما الذي فعلتموه؟».

«صحيح أنّ الموساد عديمو الرحمة، إلّا أنّهم لا يكلّون ولا يملّون أيضاً، مثل الكلاب البوليسية، فلا يمكنك أن تُخفي عنهم إلى ما لا نهاية. وعندما بدأ الإسـرائيليون بتقصّي الأخبار والبحث في تفاصيلها بدقّة، رتّبنا الأشـياء لتبدو كمـا لـو أنّ الخيـوط تقود إلـى أيخمان، فابتلعوا الطعـم ولكنّهم كانوا راضين بالنتائج، وما كانوا ليعثروا عليه من دون استخباراتنا».

راود كريسـتين إحسـاس بأنّهـا توشـك علـى الانهيـار، فخـارت قواهـا، وتشـوّش ذهنها، فعجزت عن تنظيم أفكارها، ولكنّها غرقت في الوقت نفسـه في التفكير في مدى اسـتعدادها تحمّل العواقب المترتّبة على بوح ميلر بهذه الأسرار، وبالكاد سجّلت الأصوات التي نطقت بكلمات متفرّقة، ولكنّ معنى ما قاله اخترق عقلها الذي بدأ يحلّل الغموض في كلامه، ولم يعلُ وجهها أيّ تعابير تظهر ما تشعر به، كما أنها لم تعبّر عن دهشتها في أثناء سرد ميلر تلك الأحداث الغريبة، فبدت بالنسبة إليه كما لو أنّها في غيبوبة مؤقّتة.

«لم يكن الألمان في وضع يسمح لهم بفرض شروط لوقف إطلاق النار، فقد هُزموا، وأضحت نهاية الحرب مسـألة وقت فحسـب، فأصابهم الخوف الشديد من وصول الجيش الأحمر إلى برلين لدرجة أنّ الكثيرين منهم كانوا على أهبة الاستعداد للانضمام إلينا في الأشهر الأخيرة، إن تمكّنوا من الوثوق بأنّنا سننقلب على الروس».

قالت كريستين كما لو أنّها تكلّم نفسها: «محاكمة أيخمان، إذاً من الذي سعى إلى محاكمته؟».

تابـع ميلـر حديثـه قائـلاً: «لعـب كونت سـويدي دور الوسـيط بيننا وبين النازييـن، وربمـا كانـت فكرته، وقد طرحها على مجموعة من الناس، أو ربما عمد النازيون أوّلاً إلى إثارة هذه المسألة، فقد أراد هيملر أن يعقد اتّفاقيّة مع الحلفـاء لمحاربـة الشـيوعيين، وقـد عوّل على تولّيه منصـب رئيس الحكومة الجديـدة، كمـا وضـع تشرشـل في الوقت نفسـه خطّة لمهاجمة روسـيا بدعم

مـن ألمانيـا، وأنـا أعتقـد أنّـه تمّ احتضان الفكرة بعد ذلك. فلم يكن في وسـع النازيين أن يفرضوا شـروطاً، ولكن في وسـعهم أن يطلبوا مطالب. ولا أظنّ أنّ هذه الخطّة ابتدعها جنرالات الولايات المتّحدة، ولكن بمجرّد أن أخذوها بعين الاعتبار لم تعد خطّة غير عقلانية، وعلى كلّ حال فقد كان هناك سابقة تاريخية، لقد كان هناك نابليون».

«ما علاقة نابليون بكلّ هذا؟ لماذا نابليون؟».

حاول ميلر ضبط نفسـه للخروج من دوّامة الذكريات والاعترافات التي انجـرف فيهـا، واسـتعادة قدرتـه علـى التحكّـم في الأمور، الأمـر الذي كانت تخشاه كريستين.

«لا أستطيع أن أخبرك بأيّ شيء آخر، لقد أخبرتك أكثر من اللازم».

«ولكنّك لم تخبرني بشيء».

«هذا لأنّني لا أعرف أيّ شيء على الإطلاق، فأنا لم أرَ المستندات قطّ».

«ما الذي تتحدّث عنه؟».

«لم أرَ المسـتندات الخاصّة بعملية نابليون على الإطلاق، لم أرَ المسـار النهائي الذي اتّخذته الخطّة».

«من الذي صاغها؟».

«لا أسـتطيع أن أخبـرك بالمزيـد، صدّقينـي، لن ترغبي في معرفة المزيد، ولا أحد قد يرغب في ذلك، كما لم يعد الأمر مهمّاً بعد أن أصبح كلّ شيء مدفوناً في طيّ النسيان».

«ماذا؟».

نظـر ميلـر إلـى أخيـه مـن دون أن ينطق بأيّ حرف، فشـاهدت كريسـتين الدموع تترقرق في عينيه، فهي لم تفهم ما الذي لمّح إليه، وأخذ صبرها ينفد بسـبب مراوغته، وها هو يجثم على حافة الندم، وقد عاهد نفسـه على كتمان أيّ معلومة أخرى عكف على حمايتها مدّة طويلة جدّاً، فسيطرت على غريزتها

التي دفعتها إلى استنطاقه للحصول على أيّ معلومة امتلكها.

قال ميلر بغتة: «اسألي نفسك ما الذي حلّ بنابليون؟».

«ما الذي حلّ به؟ لقد توفّي في المنفى في سانت هيلينا، والجميع يعرفون ذلك».

«حسناً، لقد فعلوا الشيء ذاته هنا».

حدّقت كريستين إلى الرجل، وقد حبست أنفاسها.

«لهذا السبب يطلقون عليها عملية نابليون».

«وماذا حلّ بنابليون؟».

«كان من المقرّر أن يُسمَح له بأخذ كلبه معه، إنّه كلب من فصيلة الرعي الألماني يسمّى بلوندي، من دون أيّ شيء آخر، واستمررتُ بالتساؤل حول هذا الأمر طوال حياتي، لكنّني لم أحصل على أيّ تأكيدات، ولا أدري إذا ما تمّ تقديم الاقتراح الذي يدعو إلى الإعفاء عن حياته، والذي يعدّ جزءاً من المفاوضات مع حكومة الحرب الألمانية، أو ما إذا تمّ تسليمه للحلفاء لتعبيد الطريق أمام المفاوضات، أم أنّ البريطانيين والأميركيين نافسوا الروس في الوصول إليه أوّلاً. وربما كان هناك سبب آخر أكثر غموضاً. فقد تجلّى أمل الألمان الأخير بدقّ إسفين بين الحلفاء، لتعميق هوّة الخلاف. وفي النهاية كانوا يدركون أنّ تشرشل ليس صديقاً للروس».

صمت ميلر لحظات.

ثمّ أردف قائلاً: «كان من المفترض أن ينقله أخي على متن الطائرة».

قالت كريستين وعيناها تنظران إلى الكيس: «أخوك؟».

«لم يعلم بالأمر، لم يعلم بهدف الرحلة الحقيقي، ما أعنيه أنّني عزمت على إخباره ما إن نلتقي، ولكنّني لم أحظَ بالفرصة المؤاتية لفعل ذلك أبداً».

قالت كريستين: «لكنّ هذا عبثي».

وافقها ميلر الرأي قائلاً: «نعم، إنّه عبثي، هذه هي الكلمة المناسبة لوصف

ذلك، هل لكِ أن تتخيّلي ما الذي كان ليحدث لو انتشرت أنباء حول مساعدة الأميركيين له على الفرار أو حول بقائه قيد الاحتجاز؟».

«لكنّ الروس أمسكوا به».

«كلا، لقد عثر الروس في مكان ما بالقرب من الحصن -وسط الفوضى وحطام برلين- على جثّة رجل محترقة من الممكن أن تعود إلى أيّ شخص، وقد ناسبهم الأمر، كما ناسبنا نحن أيضاً، إضافة إلى كلّ الآخرين الذين توصّلوا إلى افتراضات معيّنة، واستخلصوا استنتاجات محدّدة. وفي كلّ الأحوال أضاعوا الرفات لاحقاً، ما أدّى إلى استحالة إثبات هويته، وإفساح المجال للتقدّم في ما اعتبر دائماً نظريات مؤامرة مجنونة».

«إذاً أين هو الآن؟».

«لم أقرأ المستندات، وبالكاد أعرف أيّ شيء، ناهيك عن أنّها ليست سوى مجرّد خطّة».

«هل تقصد أنّهم لم يطبّقوها على الإطلاق؟».

«لا أملك أدنى فكرة، ولا أعرف إن أقدموا على تنفيذها أم لا، كما لا أعتقد أنّ أيّ شخص قد تولّى الإشراف على هذه المهمّة قد يشارك الناس فيها، إلّا على قاعدة المعرفة حسب الحاجة».

«لكنّك ذكرت إيخمان، قلت إنّ الأميركيين قد وجّهوا الإسرائيليّين إلى إيخمان عندما تعثّروا في مسعاهم».

قال ميلر: «أنا أستنتج فحسب».

أدركت كريستين أنّه يحاول متأخّراً التراجع عن أقواله، بعد أن ندم عمّا أدلى به، فأصبح حذراً الآن، ولم يرغب في توريط نفسه أكثر، كما بدا خجلاً من ضعفه بعض الشيء بطريقة طفولية، وعلى الرغم من فوات الأوان، إلّا أنّ عقيدة الكتمان التي لطالما امتثل لها لفترة طويلة من الزمن خاضت معركة عبثية مع هذا الميل الجديد إلى الاعتراف والشعور بالندم الذي اعتراه فجأة.

«أين هو نابليون؟».

«لا أعرف، وأنا أخبرك بالحقيقة».

«هل نُفي في جزيرة؟».

لكنّ ميلر وصل إلى النهاية، فأرخى كتفيه، وطأطأ رأسه، فبدا أصغر حجماً وأكثر هشاشة، وقد غلبته أخيراً أعباء الحزن والكتمان، فأصبح مجرّد شبه رجل.

«أيّ جزيرة؟».

عمّ الصمت.

«ما الذي تخشاه بعد مرور كلّ هذه السنوات؟ ألا ترى أنّ الأمر قد انتهى؟».

انطفأ ضوء المصباح الخافت قبل أن تتسنّى له فرصة الإجابة -إن كان ينوي القيام بذلك- وغرقا في ظلام دامس.

41

طائرة النقل سي 17، أجواء المحيط الأطلسي:
الأحد، 31 كانون الثاني، الساعة 06:15 بتوقيت غرينيتش

شعرا أنّ الطائرة تهبط تدريجياً من خلال سماع صوت قرقعة مفاجئ صمّ آذانهما، ومن المؤكّد أنّه من السابق لأوانه أن يبدأوا بالهبوط؟ انتظرا قليلاً، وأنصتا صامتين، وبعد برهة من الزمن، طغى صوت ضوضاء جديدة على صوت المحرّكات، ولكن لم يتعرّف أيّ منهما على مصدره.

زحفت كريستين بحذر عبر حطام الطائرة إلى الفجوة التي أحدثها ميلر في المشمع، ونبض قلبها بقوّة، مع كلّ خطوة تقدّمتها، ثمّ أخرجت رأسها لتشاهد المنحدر الفسيح الذي شكّله الباب الخلفي للطائرة وهو ينخفض ببطء. فكانت الليلة مقمرة في الخارج، ورأت من خلال وهج الضوء الأبيض المائل إلى الزرقة ظلال أشخاص يقفون بجوار المدخل، فانتابها الخوف من أن يتمّ قذفها في ذلك الفراغ المظلم قبل أن تدرك أنّ عنبر الشحن يخضع لضغط ثابت.

حشرت نفسها، وهي تمرّ عبر الفجوة، وتسلّلت إلى جوار هيكل الطائرة المحطّمة، فرأت ثلاثة رجال حاولت الإصغاء إلى حديثهم، ولكنّ محاولة استراق السمع لمعرفة ما يقولونه كان ميؤوساً منها، حيث عصفت رياح عاتية

بـاردة وبلـغ ضجيـج محرّكات الطائرة درجة يصمّ الآذان، وقد تعاظم اشـتداد سواد السماء في الليل المظلم. فضغطت بظهرها على دعامات هيكل الطائرة، وزحفـت علـى طول الجدار الأيسـر مختبئـة بين الظلال، ووقفت على أرضية العنبر، حيـث وقـف الرجال على بعد بضع خطوات منها فحسـب، فلاحظت عندما تمكّنت من رؤية وجوههم، أنّهم غير مألوفين بالنسبة إليها، ولم تستطع التأكّد من وجود بيتمن أو راتوف بينهم، وحرصت على أن تحافظ على مسافة آمنـة، وكانـت على وشـك العودة إلى ميلـر عندما رأت منصّة تنبثق من جوف الطائرة العميق المظلم، ولاحظت عندما اقتربت وبدت أكثر وضوحاً أنّ هناك شـخصاً ما يسـتلقي فوقها على ظهره، وذراعاه مرتخيتان وسـاقاه مضمومتان، كما لو أنّه مصلوب، وتركّزت عيناه على المدخل الذي أخذ يقترب منه ببطء ومن دون هوادة، إنّه راتوف.

لقد لاحظت كريستين أنّه عارٍ حتّى خصره، وجذعه ملطّخ بالدماء، وقد تقاطعت على وجهه الجراح، وبدأ يقترب من الفراغ بسرعة السلحفاة، فناضل لتحرير نفسه بكلّ ما أوتي من قوّة، وجاهد لفكّ القيود التي شدّت وثاقه، وقد صرخ بأعلى صوته، ولكنّ صرخات الرعب التي أطلقها لا جدوى منها بسبب ضجيـج المحـرّكات والتيار الهوائي، فحاول القفز وقد ضعفت وتيرة صراخه فتحوّل المشهد إلى مجرّد عرض غبي مبهر.

تجاهلـه الرجـال الثلاثـة تمامـاً، ولـم يولوه اهتماماً كأيّ غرض يُشـحن، وشاهدتهم كريستين يلجأون إلى نقطة أبعد داخل الطائرة، مع اكتمال انفتاح الباب الخلفي الذي يشبه التثاؤب، وحدّقت مطولاً، وهي تراقب راتوف وهو يقترب من طرف البكرات الميكانيكية متلذّذة بعذابه، بعد أن تغلغل الحقد في صدرها، وهي تشعر مرّة أخرى بآلام خاصرتها حيث طعنها سابقاً، وشاهدت إلياس وهو في قبضته مستجدياً الرحمة، كما شاهدت ستيف وهو يخرّ صريعاً بعد إطلاق رصاصة في وجهه.

نهضت من مكانها في أثناء ارتفاع المنصّة، ونسيت نفسها فخرجت من مخبئها، وهي تسير باتّجاه راتوف مقابل المنصّة، فلم تستطع أن تزيح عينيها عن الوحش الذي قتل ستيف بدم بارد، فانجذبت نحوه كما لو أنّه مغناطيس، فلفحت وجهها ريح تقشعرّ لها الأبدان، وهبّ هواء بارد، إلّا أنّها لم تتردّد وهي تشقّ طريقها نحو راتوف، بالنظر نحوه وهو يتلوّى ويناضل ليحرّر نفسه من وقيوده، وأمعنت النظر فيه بافتتان يشوبه إعجاب بالوحشية الخلّاقة، وبالضرر الذي ألحقوه به، فقد تلطّخت أصابعه بالدماء عند الأطراف التي نزعت منها الأظافر، وبُتر إبهاماه، وكُسر أنفه، وخُلعت أضراسه في فكّيه العلوي والسفلي، وتمَ سلخ جلد صدره. فلم تشعر بأيّ شكل من أشكال بالشفقة عليه، واندفعت البكرات بلا هوادة نحو الأمام.

كان راتوف يحدّق إلى الفراغ الذي يندفع نحوه مهولاً عندما بلغته كريستين، أبعد عينيه عن الباب مكرهاً عندما شعر بوجودها، فتجهّم وجهه، ولم يصدّق ما رآه، يمكن رؤية اليأس والارتباك في عينيه، فارتعد وجفل وقد انتاب جسده نوبة من الألم، ثمّ بدا وكأنّه يضحك، قبل أن تصيبه حالة من الارتعاش، ونوبة سعال حادّة يرافقها همس في أذنها عندما انحنت نحوه والدماء تتدفّق من شفتيه: «لا تقفي في وجه كار، اتّعظي بي، ألا أبدو خير مثال؟ لا تقفي في وجهه».

لم تنبس كريستين ببنت شفة، وراقبته وقد بدأت المنصّة بالانزلاق.

«يجب أن... كريستين، أليس هذا هو اسمك؟ يجب أن أقول، أنتِ...».

لم تسمع كريستين كيف أنهى الجملة، فقد أمسى الضجيج صاخباً الآن، واندفع راتوف في الوقت نفسه إلى محاولة يائسة أخرى لنيل حرّيته.

قال لها بصوت يشبه النعيب: «ساعديني! حرّري قيدي بحقّ الله».

حدّقت إليه وهي تقترب منه قليلاً ثم توقّفت، فلم تعد تكنُّ له مشاعر الغضب أو الكراهية، ولم تشعر بأيّ شيء تجاهه. لقد استنزفت كلّ المشاعر،

واستمرت المنصّة بتقدّمها المطّرد، كما لو أنّها نعش يمرّ عبر ستارة، شاهدتها وهي تميل، فتتوقّف ومن ثم تسقط ليختفي راتوف في الفراغ الأسود، وظلّت كريستين واقفة، عندما بدأ الباب الخلفي ينغلق مرّة أخرى، كما لو أنّها مسمّرة في مكانها، فقد خارت قوّتها، وأوشكت على الانهيار، بعد أن أثقلت كاهلَها وطأةُ الليالي التي أمضتها من دون نوم، والفظائعُ التي شهدتها. لم تعد تأبه لأيّ شيء بعد الآن، راودتها لبرهة من الزمن فكرة الاختفاء ببساطة، والقفز في هذا الفراغ الأبدي المظلم طالما أنّ الفرصة لا تزال سانحة. فمن السهولة بمكان أن تدفع بنفسها إلى الهلاك، واضعة حدّاً لمحنتها، ولكلّ هذا الألم والإرهاق والشعور بالذنب لموت ستيف، لتسكت الأصوات اللائمة في رأسها، والتي لا تنفكّ تخبرها مراراً وتكراراً بأنّها الملومة لموته.

ثم ولّى هذا الشعور.

عمّ سكون وهدوء عظيمان مرّة أخرى داخل العنبر بمجرّد إغلاق الباب الخلفي، فتساءلت عن مقدارما يجب أن تخبر به ميلر حول المشهد الذي تابعته، والتفتت لتجد نفسها وجهاً لوجه مع رجل مسنّ طويل مهيب يرتدي زي جنرال أميركي. وقد قف خلف الرجل ثلاثة رجال آخرين، وهم الرجال الثلاثة الذين شاهدتهم للتوّ، وهم يقودون راتوف خارج الباب الخلفي، فوقف ميلر أيضاً إلى جانب الرجل الطويل الذي مدّ يده نحوها.

قال كار: «أفترض أنّك كريستين».

مكتبة
t.me/t_pdf

42

طائرة النقل سي 17، أجواء المحيط الأطلسي:
الأحد، 31 كانون الثاني، الساعة 06:30 بتوقيت غرينيتش

شغل كار مقعداً برفقة كريستين وميلر في كابينة الرحلات الضيّقة المكتظّة بالنسبة إلى طائرة سي 17. لا تعلم كريستين ما الذي حلَّ بالرجال الآخرين، ولا عدد الرجال الموجودين على متن الطائرة، ولم يتمّ التعريف بأيّ شخص، فلا أحد يملك اسماً، فشعرت بأنّها داخل عالم من الظلال خالٍ من الأسماء.

قُدّم إليها فنجان من القهوة، فلم تستطع أن تتذكّر المرّة الأخيرة التي تناولت خلالها الطعام، ربما في مزرعة جون وربما لا، ولم تملك أدنى فكرة عن تاريخ اليوم الذي تصارع فيه من أجل الحقيقة، أو منذ متى وهي مستيقظة، وكلّ ما عرفته أنّها على متن طائرة في مكان ما فوق المحيط الأطلسي، وأنّ ستيف لم يعد على قيد الحياة.

قال كار: «حاول الكولونيل ميلر إقناعي بأنّك لا تعرفين شيئاً حول المحتويات الحسّاسة لهذه الطائرة الألمانية التي بذلنا جهداً جبّاراً لاستردادها، كما قال إنّه لا يوجد عدد كافٍ من الآيسلنديين في العالم».

سألت كريستين: «من أنت؟».

شعرت بأنّها محطّمة ومكتئبة أكثر من قدرتها على استيعاب هذا الرجل،

فهو لا يتعدّى كونه مجرّد إضافة أخرى إلى سلسلة الشخصيات الغامضة التي صادفتها على مدار الساعات الثماني والأربعينِ الماضية.

«هذا غير ذي أهمّية».

فكّرت كريستين في كلام راتوف: لا تقفي في وجه كار على الإطلاق، واتّقدت خلف أجفانها صورة راتوف وهو موثق بإحكام على المنصّة.

سألته: «هل أنت كار؟».

«انتهت المهمّة، وهذا كلّ ما يهمّنا، فنحن بحاجة إلى التخلّص من بعض الخيوط السائبة و..».

ظهر رجل عند الباب، وولج المقصورة، ثم انحنى وهمس بضع كلمات في أذن كار، فهزّ كار رأسه إيجاباً، وغادر مرّة أخرى.

همهمت كريستين بصوت منخفض: «أيّها القذر».

قال لها كار: «أستميحك عذراً؟».

«أنت أميركي لعين قذر».

تفحّصتها عيناه الرماديتان ببرود من خلف النظّارة الطبية، فلم تستطع قراءة أيّ شيء في عينيه سواء أكانت متعة أو إهانة.

قال لها: «أتفهّم آلامك».

أجابته ضاحكة: «تتفهّم؟ كيف لك أن تتفهّم أيّ شيء؟

تمكّنت كريستين من التقاط مشاعر الانزعاج على وجه ميلر مع تصاعد سخطها، فحاول أن يحذّرها إلّا أن كار أسكته.

تابعت كريستين قائلة: «إنّكم قتلة، لقد انتهكتم كلّ القوانين والمعايير الأخلاقية، إنّكم تثيرون اشمئزازي، لذا لا تدّعِ أنّك تتفهّم آلامي».

انتظر كار حتّى فرغت من حديثها، وقال بهدوء: «من الجدير بالذكر أنّني مستاء مّما حلَّ بأخيك وصديقه، فلم يكن يُفترض أن يحصل ذلك».

اندفعت كريستين أسرع بكثير ممّا توقّع كار، ولكنّها وصلت إليه خلال

ثوانٍ، فنهضت عن كرسيّها بلمح البصر وصفعته على وجهه بقوّة لدرجة أنّ رأسه ترنّح إلى الخلف، فصرخ ميلر في وجهها - لم تملك أدنى فكرة عمّا قاله- ظهر خلفها رجلان وأجبراها على الجلوس على كرسيّها، فرك كار خدّه الذي ارتسمت عليه أصابع كريستين الخمس بلون أحمر.

قال بهدوء: «أفترض أنّك رأيت ما الذي حلّ براتوف».

«هل يفترض أن يرضيني ذلك؟ أن أرى أنّه قد ألقي بهذا السادي خارج الطائرة؟».

«لقد بالغ في تقدير قيمته وقد تمّت معاقبته، ولم أرَكِ تحاولين مساعدته».

«أيّها القذر».

قال ميلر محذّراً إيّاها: «توقّفي يا كريستين، هذا يكفي».

قال كار: «سوف نراكِ وأنت تعودين، سوف نرسلك إلى ديارك في آيسلندا، وسوف يتعيّن علينا بالطبع، أن ننتظر حتّى يغادر جميع موظّفينا برفقة معدّاتهم، ولكن بعد ذلك ستتحرّرين منّا وسنتحرّر منك، ويمكنك أن تقولي ما يعجبك، ففي وسعك التحدّث إلى السلطات والصحافة وإلى عائلتك وأصدقائك، ولكنّني أشكّ في أن يصدّقك أيّ إنسان. لقد بدأنا بالفعل في نشر المعلومات المضلّلة حول الغرض من المهمّة. وفي نهاية المطاف، لن يعلم أحد بأيّ شيء، وهذا أفضل للجميع. وبالمناسبة، هناك رجل في طريقه إلى كيفلافيك مع القوّات المسلّحة اسمه يوليوس، إنّه أحد أصدقائك على ما أعتقد، قائد فريق الإنقاذ على النهر الجليدي، وهو آمن تماماً وسيترك خارج بوّابات القاعدة، وسيكون قادراً على تأكيد قصّتك، وكذلك الحال مع أخيك -اسمه إلياس، أليس كذلك؟- بالمناسبة، إنّه في أمان على حدّ علمي، وتمّ نقله إلى مستشفى ريكيافيك».

قالت كريستين لاهثةً: «هل تعني أنّه على قيد... الحياة».

أجابها كار: «أجل، على حدّ علمي».

«هل تقوم بخداعي؟».

«لا بكلّ تأكيد».

غمرها الارتياح، فلا يهمّ إن وصلتها هذه المعلومات عبر شخص غريب، ولـو أنّـه الرجـل الذي يتحمّل المسـؤولية الرئيسـية عمّا حدث لها، وبحسـب مـا خمّنـت، فهـي لم تسـتطع تقبّل احتمالات وفاة إليـاس على الرغم من كلّ الجهـود التـي بذلتهـا، لكن الآن، تمحور تفكيرهـا فجأة بعد أن تمّ تأكيد نجاة أخيها من الموت، حول سـتيف الذي خسـر حياته من بين الجميع، ما جعلها ذلك تدفع ثمناً باهظاً لن تقدر على تسـديده أبداً، فكزّت على أسـنانها تعبيراً عن الاستياء والإحباط.

«فـي وسـعنا دائماً أن نرسـل أناسـاً فـي أعقابكم أنتم الثلاثـة، ويقع على عاتقك توضيح هذا الأمر للآخرين، إنّني أحثكم على أن تأخذوا كلامي على محمـل الجـدّ يـا كريسـتين. تفضّلي وأخبري من تشـائين، ولكن إذا ما اختفى يوليوس فجأة ذات يوم، فسوف تعرفين السبب».

شرعت كريستين في الحديث قائلة: «كلّ هذا بسبب..».

قاطعها ميلر: «طائرة قديمة، كلّ هذا بسبب طائرة قديمة».

«كلّ مـا أردت معرفتـه هـو مـا الـذي يحصـل؟ ومـا الـذي يجـري؟ وما الحقيقة؟».

أجابهـا كار: «كريسـتين، كريسـتين، أنـت تطرحيـن الكثيـر من الأسـئلة، فالحقائـق والأكاذيـب مـا هـي إلّا وسـائل لبلوغ الغايات، لا فـرق بينها، وفي وسعك القول إنّنا بمثابة مؤرّخين، نحاول تصحيح بعض الأخطاء التي وقعت خـلال قـرن يقتـرب الآن مـن نهايته، وهذا لا يمتّ إلـى الحقيقة بصلة، وعلى أيّ حـال، مـا حـدث فـي الماضـي لا يتّصـل بالواقع الآن. نحـن نعيد اختراع التاريخ لتحقيق غاياتنا الخاصّة. فقد زار رائد الفضاء نيل أرمسترونغ آيسلندا في يوم من الأيّام، ونحن نعرف ذلك، ولكن من يستطيع أن يجزم على وجه

اليقين هبوطه على سطح القمر؟ من يعرف ذلك؟ لقد رأينا الصور، ولكن ما هي الأدلّة التي تؤكّد أنّ هذه الصور لم تُلتقط في حظيرة طيران تابعة للقوّات الجوية الأميركية؟ أليس هذا صحيحاً؟ ومن أطلق النار على كينيدي؟ ولماذا حاربنا في فيتنام؟ هل قتل ستالين أربعين مليون شخص بالفعل؟ من يعرف الحقيقة؟».

توقّف كار، قبل أن يتابع: «لا يوجد شيء يدعى حقيقة يا كريستين، ولو وُجد على الإطلاق، فلا أحد يعرف الأجوبة، كما لا يوجد سوى قلّة ممّن يهتمّون بطرح الأسئلة».

كان ذلك آخر ما سمعته كريستين.

شعرت بقرصة في عنقها، فلم تلحظ أيّ شخص يقف وراءها، ولم ترَ أيّ إبرة قطّ، وفجأة بدأت تشعر بالخدر يسري في عروقها، فانتابها شعور بالهدوء التامّ، وتغلغل الضعف والوهن في جسدها، قبل أن يتحوّل كلّ شيء أمام نظرها إلى اللون الأسود.

43

توماسارهاغي، ريكيافيك

من كان راتوف؟ اسم يتردّد في ذهنها مراراً وتكراراً.

استلقت على الأريكة في غرفة المعيشة في منزلها في توماسارهاغي، فشعرت بأنّها غير قادرة على الحركة، كما لو أنّها تعرّضت للضرب المبرّح، وأخذت تستيقظ تدريجياً من هوّة اللاوعي، فانتابها قلق غامض بسبب اعتقادها أنّ المتجر ربما قد أغلق أبوابه، إلّا أنّ النوم كان قد أحكم قبضته عليها، ولابدّ أنّها تأخّرت في الاستيقاظ. فقد اعتادت احتساء قهوتها مع الحليب الساخن، ولكنّها نسيت شراء أيّ منهما عندما رجعت إلى المنزل بعد انتهاء دوام عملها، ولا يزال هذا الاسم يتردّد في فكرها كما لو أنّه شيء يطفو على سطح مجرى مائي ينساب من دون أن يتمكّن أحد من إيقافه، أرعبها ذلك على نحو كبير، وحاولت أن تفكّر بتمعّن إلّا أنّها لا تملك القوّة لفعل ذلك، وكلّ ما رغبت فيه هو العودة إلى النوم، فقد استيقظت في وقت متأخّر للغاية في ذلك الصباح.

لكن توجّب عليها شراء بعض الحليب، وعليها ألّا تنسى ذلك، وهذا أوّل ما تذكّرته، إلى جانب الاسم راتوف.

فتحت عينيها ببطء، فشعرت بثقل أجفانها وكأنّها كالرصاص، وقد عمّت الظلمة الحالكة أرجاء الشقّة، فرغبت في الاستلقاء فحسب، وترك جسدها

المرهق أن يتخلّص من كلّ التعب الذي اعتراه، وخطر في ذهنها مجموعة من الأفكار غير المترابطة، لكنّها لم تحاول على الإطلاق أن تنظّمها، أو تضعها في سياق محدّد، فقد كانت مرتاحة للغاية، ولم ترغب في إفساد هذه الراحة، فلم ينتابها هذا الإحساس بالراحة منذ زمن بعيد، يا إلهي كم هي متعبة!

فكّرت للمرة الأولى منذ وقت طويل في والديها وحبيبها السابق المحامي ستيف، فشعرت برغبة ملحّة في التحدّث إليه وفي رؤيته، كما شعرت بالأسف لهجره بهذه الطريقة، وبأنّه يتوجّب عليها إعادة الأمور إلى مجاريها بينهما في يوم من الأيّام، ثم انجرفت أفكارها نحو ذلك الرجل المجنون رونولفر وزملائها في العمل، وتساءلت بلا مبالاة إن حان الوقت للبحث عن وظيفة أخرى، فربما من الأفضل ممارسة مهنة المحاماة بالتعاون مع أحد أصدقائها، وعليها أن تناقش الفكرة معه، فهي لم تستمتع بالعمل في الوزارة، وها هي تفقد اهتمامها بها أكثر بعد أن بدأ هؤلاء الناس بتهديدها، وأخذت الأفكار تحوم مضطربة في ذهنها من دون أن تتمكّن من التركيز على أيٍّ منها، وتطوف من جديد فكرة تكاد تنهش لا وعيها.

بقيت مستلقةً على الأريكة نصف ساعة قبل أن تحاول التحرّك من مكانها، فلم تشعر بالألم الذي انتابها في خاصرتها إلّا في هذه اللحظة، فأطلقت صرخة مدوّية بعد أن شقّ الألم طريقه إلى جسدها، فأسندت ظهرها إلى الخلف بانتظار زوال التشنّج والألم، ثمّ لاحظت اتّساخ ملابس العمل الملقاة جانباً، إلّا أنها لم تتوقّف عن التساؤل عن سبب ارتدائها الثياب المخصّصة للخروج من المنزل، فأرخت السحاب، وخلعت كنزتها لتكتشف ضمادة أسفل أضلعها، فحدّقت بذهول إليها، ثم أرخت الكنزة برفق فوق جسدها مرّة أخرى، وتساءلت متى ألحقت الأذى بنفسها؟ فهي لم تتذكّر زيارتها المستشفى لتضميد الجرح، ولم تعرف ما الذي تسبّب به، ولكن من الواضح أنّها قصدتها لتضميد جرحها.

حاولت الجلوس مرّة أخرى، فنجحت في مسعاها هذه المرّة، على الرغم من الألم المبرّح الذي شعرت به، فهي لا تملك أدنى فكرة كم الوقت الآن، لكنّها افترضت أنّ جميع المتاجر قد أغلقت أبوابها مع حلول المساء، وقد بدت الشقّة كما عهدتها عندما ألقت نظرة في أرجائها، على الأقلّ في الجزء الذي تمكّنت من رؤيته، ومع ذلك فهي على يقين من أنّها تركت ضوء المطبخ مشتعلاً عندما استلقت، ولكن كيف تعرّضت لهذه الإصابة؟ ولا بدّ أنّها بالغة بالنظر إلى حجم الضمادة الكبير للغاية، ناهيك عن أنّ خاصرتها اصطبغت باللون الأزرق الداكن.

عرجت في مشيتها في أثناء توجهها إلى المطبخ بعد أن تمكّنت من الوقوف بصعوبة، فأشعلت الأضواء، وتوجّهت نحو الثلّاجة، وأخرجت عبوة كولا، فهي كادت أن تموت من الظمأ، وشربت محتواها في أثناء وقوفها إلى جوار الثلّاجة، ثمّ توجّهت نحو المغسلة بعد أن أنهت شرب العبوة بكاملها، وسمحت للمياه الباردة بالتدفّق لبرهة قبل أن تشرب بنهم مباشرة من الصنبور. لقد كانت الشقّة حارّة للغاية، فتوجّهت نحو نافذة المطبخ الكبيرة وفتحتها، واستنشقت الهواء الشتوي البارد.

وجدت حقيبتها في مكانها، وقد كانت الأوراق التي أحضرتها إلى المنزل من العمل على طاولة المطبخ من دون أن تمسّها يد، فنظرت إلى الساعة التي تجاوزت السابعة، وأدركت أنّها نامت لفترة طويلة للغاية- ساعة كاملة- وقد تأخّرت عن التوجّه إلى المتجر، فكالت الشتائم بصوت غير مسموع، وترنّحت بعد أن خارت قواها، فانهارت على الكرسيّ محدّقةً إلى الفراغ، لقد حدث أمر رهيب، وقد استترت كلّ تفاصيله خلف غمامة من الضباب الذي لا يمكن اختراقه داخل عقلها.

راتوف؟

أجفلت كريستين عندما بدأ الهاتف بالرنين، فبدّد الضجيج المفاجئ

السكون، وحدّقت نحوه ببلاهة كما لو أنّها لا تعلم ما الذي ينبغي أن تفعله، واستمرّ بالرنين مراراً وتكراراً، فلم يكن ردّ فعلها الأوّل الإجابة على المكالمة، ولكن ماذا لو أن المتّصل هو رونولفر؟ ثم تذكّرت أنّ إلياس سيتّصل من النهر الجليدي، ولكن ألم يتّصل حتّى الآن؟ هل هناك خطب أصاب إلياس أيضاً؟

نهضت على مهل، وتوجّهت ببطء نحو الهاتف ورفعت السمّاعة، فصدر صوت أجنبي تكلّم الإنكليزية، ومن شبه المؤكّد أنَّ المتكلّم أميركي، فهل يعقل أنّ يكون ستيف؟ ولكن يدلّ صوت هذا الرجل على أنّه أكبر سنّاً.

قال الصوت عبر الهاتف قبل أن ينهي المكالمة: «لا تقفي في وجه كار».

لم تُغلق السمّاعة بقوّة، بل أعادتها إلى مكانها برفق، كما لو أنّ المتّصل ليس على عجلة من أمره.

بعد أن قالت: «مرحباً»، إلّا أنّها لم تسمع سوى صوت طنين الهاتف، فأعادت السمّاعة إلى مكانها، وعقلها يردّد العبارة: لا تقفي في وجه كار، إنّه كلام لا معنى له، ولابدّ أنّ المتّصل أخطأ الرقم.

لقد شعرت بالخمول، كما لو أنّها مصابة بشيء ما، لعلّه الزكام، فهو يتفشّى في مثل هذا الوقت من العام، وعادت إلى غرفة الجلوس، وهي تردّد في رأسها الجملة التي سمعتها عبر الهاتف بشكل متواصل.

لا تقفي في وجه كار. لا تقفي في وجه كار. لا تقفي في وجه كار.

ماذا تعني؟ وقفت في وسط غرفة الجلوس، وحيدة في الظلمة، مرتدية ملابس قذرة، والجملة عالقة في رأسها، ثم تذكّرت شيئاً غريباً إلى حدّ ما- حادثة عبثية- شيء لا يتعدّى كونه حلماً بكلّ تأكيد، فأمعنت النظر في البهو وهي تمسك بخاصرتها، ووقفت ساكنة قبل أن تتّجه نحو الباب، لقد بدا حيّاً وحقيقياً، كما لو أنّها عاشت الأحداث بالفعل، وقفت متردّدة عند الباب، قبل أن تفتحه وتنظر بحذر إلى ردهة المدخل المظلمة، ثم أنارت الضوء وتفحّصت بابها.

وقع نظرها على ثقب أسود صغيرة، ناجم عن إطلاق رصاصة عليه من دون أدنى شكّ، فرفعت أصبعها ولمسته بلطف، وانهمرت الدموع من عينيها، لقد عرفت الحقيقة كلّها دفعة واحدة، ولم يكن ذلك حلماً، وهذا اليوم ليس اليوم الذي اعتقدت أنّها استيقظت خلاله، فقد مرّ زمن طويل على مروره، وقد فات الأوان، وانتهى كلّ شيء.

تذكّرت راتوف، كما تذكّرت ستيف، وفهمت ما قاله ذلك الصوت عبر الهاتف.

لا تقفي في وجه كار.

أغلقت كريستين الباب، من دون أن تتعرّف إلى الشكل الذي لمحته في المرآة المعلّقة في البهو، وهي في طريق عودتها إلى غرفة الجلوس، فقد عكست المرآة امرأة غريبة بوجه نحيف للغاية، وهالات سوداء حول عينيها، وشعر متّسخ ومتلبّد، وقد لطّخت الدماء أذنها، ويبدو أنّه حديث وناجم عن إعادة نكء جرح قديم لم يلتئم، وكانت ترتدي بذلة الثلج السميكة التي لا تزال ملطّخة بدم ستيف، فلم تتعرّف إلى تلك المرأة، كما لم تعرف من أين جاءت، فحدّقت إليها، وهزّت برأسها غير قادرة على استيعاب ما جرى معها من أحداث.

ستيف، لقد تذكّرت ستيف.

ثم شاهدت انعكاس المرآة المفجوعة، وهي تتداعى غارقة في البكاء.

44

توماسارهاغي، ريكيافيك

خلال نصف الساعة الأولى التي رافقت استعادتها حواسّها، اجتاحتها عاصفة عنيفة من الذكريات المتدفّقة، وقد فهمت الغرض من المكالمة الهاتفية بشكل جيّد، فتذكّرت كلمات راتوف على متن الطائرة، وكلّ ما قاله ميلر، كما تذكّرت أكياس الجثث وستيف وجون المزارع العجوز الذي عاش على سفح النهر الجليدي، واسترجعت ذكرى إطلاق النار خارج المطعم، ومطاردتها في كافّة أرجاء القاعدة الأميركية، واتّصال شهود يهوة بها من النهر الجليدي، يا إلهي! لقد تذكّرت إلياس!

هناك مستشفيان رئيسيان في منطقة ريكيافيك، وهما المستشفى الوطني ومستشفى المدينة، فاتّصلت بالمستشفى الوطني وهي الأكبر حجماً، حوّلت إلى مكتب الاستعلامات حيث سألت عن أخيها، وبعد فترة انتظار قصيرة أُبلغت بأنّه لا يوجد من بين النزلاء من يحمل هذا الاسم، ثم اتّصلت بعد ذلك بمستشفى المدينة، وزوّدت عاملة الهاتف باسم أخيها، وانتظرت حابسة أنفاسها في أثناء تحقّق الفتاة من قائمة أسماء المرضى.

فأتاها التأكيد في نهاية المطاف: «نعم، إنّه موجود في المستشفى».

تبيّن أنّه في العناية المشدّدة، ولكنّه لم يعد على قائمة الحالات الحرجة،

وأنّه سيعود قريباً إلى جناح خاصّ، وأنّ في وسعها زيارته متى تشاء.

وعقّبت الممرّضة قائلة: «ومع ذلك فمن غير المعتاد أن يأتي الزوّار في وقت مبكر».

أجابتها كريستين: «في وقت مبكر؟».

مكتبة
t.me/t_pdf

«نعم، في الصباح الباكر».

«عذراً، في أيّ يوم نحن؟».

«إنّه الثلاثاء يا سيّدتي».

أنهت كريستين المكالمة، وتذكّرت أنّ شاهدي يهوة حاولا قتلها يوم الجمعة، أي قبل أربعة أيّام فقط، وهي عاشت عمراً بأكمله مختصراً بأربعة أيّام، فارتدت معطفها، وهرعت إلى خارج الشقّة، ثم عادت أدراجها بعد أن غيّرت رأيها، وطلبت سيّارة أجرة لتقلّها من أمام منزلها.

قالت ما إن جلست على المقعد الخلفي: «إلى مستشفى المدينة».

أخذت المدينة تضجّ بالحركة والحياة، فقد بدأ الناس بالاستيقاظ ورعاية أطفالهم، والتوجّه إلى العمل، وتهادت ندف كبيرة من الثلج بكسل على الأرض، فشعرت وكأنها منفصلة بشكل غريب عن واقعها، وكأنّها منفصلة عن ذاتها وتشاهد نفسها من بعيد، كما لو أنّ هذا العالم ليس عالمها، وأنّ حياتها الاعتيادية مستمرّة بسلام في عالم آخر.

انتابها إحساس قوي وهي تدفع أجرة السيّارة أنّ عليها تجنّب استخدام بطاقتها الائتمانية، لماذا؟ لا تعرف على وجه الدقّة.

سلّمتها الممرضة التي صحبتها لرؤية إلياس كمامة وجعلتها ترتدي رداءً ورقياً وتنتعل أغطية حذاء بلاستيكية زرقاء اللون، وسارتا في ممرّ طويل تشعّ فيه الأنوار، ودخلتا غرفة مظلمة حيث رقد رجل بلا حراك يتّصل بمجموعة كبيرة من الأنابيب تتّصل بدورها بمجموعة من الآلات التي تصدر أصوات طنين بشكل منتظم. وقد حجب وجهه قناع الأكسجين، إلّا أنّ كريستين قد

عرفت أنّه إلياس، فوقفت إلى جواره تتأمّله، وأخيراً كحّلت عينيها برؤيته، ولم تستطع أن تكبح جماح دموعها. لم يظهر سوى رأسه من فوق الأغطية، فلاحظت وجود ضمادة فوق إحدى عينيه.

قالت بصوت ضعيف: «إلياس».

كرّرت بصوت أعلى بقليل: «إلياس».

ولكنّه لم يستجب لها.

تاقت إلى ضمّه بذراعيها، ولكن الأنابيب قد حالت بينها وبينه، فسالت دموعها على خدّيها، وارتعش جسدها وارتجف مثل أوراق الخريف، فلا يزال إلياس على قيد الحياة، وسينجو، وسيتماثل للشفاء ولن يمضي وقت طويل قبل عودته إلى المنزل. وتذكّرت أنّها واجهت ذات الموقف عندما صدمته سيّارة منذ سنوات طويلة، ولكنّها لم تعد تشعر بالذنب بعد الآن، ولم يعد هذا الشعور يقلق راحتها على الأغلب، بعد أن أدركت أنّها لا تستطيع تحمل مسؤولية الحفاظ على حياة إلياس أو أيّ شخص آخر، فتقرير مصير البشر، والحياة والموت خارج إطار قدرتها.

سألها صوت مُرهق: «هل أنت كريستين؟».

أجفلها سماع الصوت، فالتفتت نصف التفاتة، ورأت شخصاً غريباً يقف خلفها من دون أن تلاحظ اقترابه منها، وكان يراقبها بهدوء. كان طويل القامة، ذا وجهٍ نحيل وجسد نحيف، وشعر سميك أسود اللون تمّ تسريحه فوق جبهته العريضة مباشرة، وقد لُفّت ضمادة حول رأسه.

كرّر الرجل كلامه ببطء: «هل أنت كريستين؟».

سألته: «من أنت؟».

أجابها الرجل وهو يلمس الضمادة: «من غير المتوقّع أن تتمكّني من التعرّف إليّ مع هذه العمامة، لكنّنا التقينا مرّة واحدة من قبل، اسمي يوليوس».

قالت بصوت خافت كما لو أنّها تتحدّث إلى نفسها: «يوليوس، يا إلهي!

هل أنت يوليوس؟».

توجّهت نحوه، ووضعت ذراعيها حوله واحتضنته بقوّة، فتشبّثت به كما لو أنّه الشخص الذي يشكّل دعامة أساسية في حياتها، فأمسك بكتفيها محاولاً أرخاءهما والتخفيف من شدّة توتّرها.

قال لها: «لقد أطلقوا سراحي بالأمس، وتوجّهت مباشرة إلى المستشفى، وسوف ينجو إلياس، فقد أخبروني بأنّهم تمكّنوا من إنقاذ عينه».

«عينه؟».

«أصيبت إحدى عينيه بأضرار جسيمة إلّا أنّهم تمكّنوا من إنقاذها».

نظرت كريستين إلى إلياس، وهو يتنفّس بهدوء، بينما الآلات ينبعث منها أصوات طنين منتظمة مطمئنة.

سألته: «ما الذي حلّ بك؟».

أجابها: «الأهمّ من ذلك ما الذي حلّ بكِ أنتِ؟».

«لا أعرف، ما أعنيه أنّني لا أعرف كيف فعلوا ذلك، أعتقد أنّهم خدّروني، فقد لاحظت وجود علامة على عنقي، ثم نقلوني إلى المنزل، واستيقظت منذ ساعة تقريباً لأجد نفسي في شقّتي، وأخذت تراودني ومضات ذكريات بدت الآن أكثر وضوحاً، لكنّني أعتقد أنّ هناك الكثير من الأشياء التي لم أتذكّرها بعد، وماذا عنك؟».

«حسنا، لقد أسروني وأجبروني على مرافقتهم في أثناء مغادرتهم النهر الجليدي، ولم ينفكّ الرجل الذي كسر جمجمتي عن سؤالي حول مكان وجودك، فلم يستطع أن يفهم كيف اختفيتِ، ولكنّني تظاهرت بعدم معرفة أيّ شيء عنك، وعندما غادرنا النهر الجليدي كانت هناك شاحنات تنتظر نقل جميع المعدّات، فركبت إحداها برفقته، ولا أدري كم استغرقت الرحلة، ولكنّه لم يبعد عينيه عنّي أبداً، وقد أطلق تهديداته بشكل متواصل، حتّى إنّه هدّدني بطعني بسكّين».

«لابدّ أنّ هذا بيتمن».

«أنتِ أعلم، فلا أدري ما كان اسمه، ولكن قد حصل أمر غريب، عندما توقّفت الشاحنة فجأة، واندفع عدد من الجنود إلى الداخل، واعتقلوه بحسب ما تراءى لي، وجّروه خارج الشاحنة، ثمّ فتّشوه، وصادروا بعض الأوراق التي حملها في حوزته، ولم أرَه مرّة أخرى بعد ذلك».

دارت عجلات ذاكرتها المشوّشة ببطء، ثمّ علّقت قائلة: «صادروا بعض الأوراق؟».

«نعم. كان يحملها في جيبه».

«وما حلّ بالأوراق؟».

«أضرم أحدهم النار وأحرقها أمام عينيه من دون أن يُلقي نظرة على محتوياتها، وقد بعثرت الريح الرماد، وبعدها أطلقوا سراحي».

«أين أطلقوا سراحك؟».

«خارج بوّابات القاعدة الأميركية، وقد شاهدتُ القافلة وهي تختفي داخلها، وكان يعمّ الظلام عندما غادرنا النهر الجليدي حتّى وصلنا إلى كيفلافيك، لذا ليس لديّ أدنى فكرة عن المدّة التي استغرقتها الرحلة، وما إن وصلت إلى المدينة حتّى اتّصلت بفريقي الذي لا يزال على النهر الجليدي، فقد منعنا الأميركيون من الانضمام إليك، وأطلقوا علينا النار».

ثمّ سلّمها يوليوس صحيفة، وأشار إلى العنوان الرئيسي:

فريق إنقاذ يتعرّض لهجوم من قبل الجيش

رافق المقال صورة عربة الفريق التي اخترقها الرصاص، وناولها صحيفة أخرى:

إطلاق نار على فريق إنقاذ ريكيافيك

تابع قائلاً: «لقد اتّصلنا بوسائل الإعلام لحظة إطلاق سراحنا، فأصدر الأميركيون اعتذاراً بهذا الخصوص، وانشغل الناطقون باسم الجيش على

شاشة التلفاز ومحطّات الإذاعة بسرد القصص كالببغاوات عن تدريبات الشتاء التقليدية التي تشارك فيها قوّات حلف شمال الأطلسي الهولندية والبلجيكية بالتعاون مع الجيش الأميركي، وعن عدم وجود أيّ نية مسبقة لاعتقالنا، كما عبّروا عن أسف عميق لأنّ بعض الجنود بالغوا في تصرّفهم عبر تهديد فريق الإنقاذ، وأطلاق النار عليه، وقدّموا الوعود بإجراء تحقيق وتقديم التعويضات المناسبة للمتضرّرين، وقد أنكروا معرفتهم بمصير إلياس ورفيقه، ونفوا نفياً قاطعا علاقتهم بذلك الحادث، كما نفوا معرفتهم أيّ معلومات عنك».

«وماذا قال اليانكيز بشأن الطائرة؟».

«لا علم لهم بأيّ طائرة ألمانية على نهر جليدي، وقد أفادت الأنباء أنّ الجنود كانوا يبحثون عن معدّات تعقّب أقمار صناعية فقدت منذ عدّة سنوات، وهي على متن طائرة كانت تعبر فوق النهر الجليدي، ومن ناحية أخرى صرّحت الأنباء أنّ الجنود كانوا يتدرّبون على مهمّة إنقاذ تتضمّن حوادث تحطّم طائرات مدبّرة، مستخدمين أجزاءً من طائرة قديمة، كما ذكرت صحيفة المساء أنّ الغاية من نشر الجنود البحث عن احتياطي ذهب مفقود، فهل ترين ما نحن في صدد مواجهته؟ حسناً، لم يفوّتوا أيّ فرصة لتبرير وجودهم».

تنفّست كريستين بعمق، وفكّرت في ما قاله يوليوس: «وماذا بشأن ستيف؟».

بدا يوليوس مرتبكاً للمرّة الأولى منذ وصوله، فقد خذلته قوّته.

«قالوا إنّه مفقود يا كريستين، لقد زعموا أنّهم يحاولون تعقّبه، وأنّهم يتوقّعون أن يستغرق الأمر بعض الوقت».

«فهمت».

بحث يوليوس عن أيّ تعابير في ملامح وجهها إلّا أنّه كان خالياً من أيّ شعور.

سألته: «كيف تعاملت الحكومة الآيسلندية مع الأمر؟».

«قالو إنهّم منحوهم إذن القيام بهذه التدريبات».

«لم يدلوا بأيّ رأي يتعلّق بالطائرة أو باختفاء ستيف؟».

«لقد أخبرتهم بأمر الطائرة ومقتل ستيف، وأنّكما في عداد المفقودين، وربما تكونان محتجزان من قبل الأميركيين، وقد ورد كلّ ذلك في مقالات متعدّدة، ولكنّ الجيش لم يتطرّق إلى تلك المواضيع، فقد رأى أنّ تلك الأخبار مجرّد مزاعم لا أساس لها من الصحّة، ولكنّك ظهرت الآن، وسيتماثل إلياس قريباً للشفاء، وسيصبح عددنا ثلاثة، ولابدّ أن يصدّقنا الناس، وسيضطرّون إلى فعل ذلك، ألا توافقينني الرأي؟ ألن يخيفهم اتّحادنا نحن الثلاثة معاً؟».

نقلت كريستين نظرها من يوليوس إلى إلياس ثمّ ثبّتته عليه، وقالت بصوت خافت:

«لقد هددوني يا يوليوس، وأنا خائفة، فقد نلت كفايتي، لقد هدّدوا بالتعرض لإلياس، ولك أيضاً، وأريد أن أضع حدّاً لكلّ ذلك، فقد نلت ما يكفي من الألم والعذاب».

كانت مسألة التعبير عن المشاعر التي انتابتها حول المحنة التي مرّت بها والأثر الذي خلّفته في داخلها خارج إطار قدرتها على التعبير، فشعرت وكأنّها وحيدة في هذا العالم، من دون وجود أحد تلجأ إليه، وربما تخبر يوليوس بكلّ ما حصل ما أن تحظى ببعض الراحة وتستعيد عافيتها، أمّا الآن فكل ما ترغب فيه هو أن يتركها الجميع بسلام لتشعر بالأمان.

قال معترضاً: «لكن لا يمكننا الاستسلام الآن، فنحن مدينون للآخرين بكشف السرّ أمام الجميع. ولكن ماذا كان على متن الطائرة التي تحطّمت على النهر الجليدي؟».

«لقد رأيتُ كيف عاملوا الرجل الذي ألحق الضرر بإلياس، لقد قتلوه بطريقة وحشيّة، وأعتقد أنّهم تعمّدوا أن أرى ذلك المشهد، من أجل أن أتجنّب نشر المعلومات المتعلّقة بحطام الطائرة، فقد بدا الأمر كما لو أنّ محكمتهم

العسكرية قد أصدرت بحقّه حكم الإعدام من دون محاكمته، فوجدوه مذنباً ونفّذوا الحكم أمامي، حتّى أتّعظ وأكتم السرّ للحفاظ على حياتي وحياة من يحيطون بي، وإذا استمررت في متابعة هذا الأمر فهم يعرفون أين سيعثرون عليّ، وهذه هي الرسالة التي وصلتني منهم».

عجز يوليوس عن الردّ على كلامها.

قالت كريستين وقد توصّلت إلى قرار مفاجئ: «هيا بنا، دعنا نتوجه إلى غرفة الانتظار ونتابع حديثنا هناك».

تركا إلياس، وسارا في الممرّ إلى غرفة الانتظار، فكانت تحتوي على ثلاثة مقاعد وطاولة وبعض المجلّات القديمة الموضوعة على أحد الرفوف. وروت كريستين له كلّ ما حدث معها منذ أن افترقا، وقد كرّرت على مسمعه ما قاله ميلر حول عملية نابليون، والتهديدات التي أطلقها الرجل الذي بدا وكأنّه الشخص الذي يملك السلطة، ويتحكّم بزمام الأمور، فكانت شبه متيقنة من أنه كار، ولم تستطع أن تتذكّر أيّ شيء على الإطلاق حول الفترة الفاصلة بين التحدّث إليه على متن طائرة النقل، والاستيقاظ في غرفة جلوسها ذلك الصباح.

واجه يوليوس صعوبة في تقبّل تداعيات العملية: «هذا مذهل، ولا يصدّق! من يمكن أن يتوصّل إلى طرح مثل هذه الفكرة بحق الله؟ هل تصدّقين ذلك؟ أعني بشأن نابليون، هل تصدّقين أنّهم نقلوه من برلين إلى إحدى الجزر؟».

«أعتقد أنّهم تصرّفوا على النحو الذي يتوقّعه المرء منهم، فقد أرادوا منع تسرّب الخبر، والقضاء على أيّ رغبة في معرفة مصيرها واكتشاف السرّ الذي تحمله، هذا إن كانت تحمل معلومات سرّية بالفعل، فكان هدفهم التأكّد من إخراجها من الجليد والحرص على ألّا يكتشف أحد سرّها، بغضّ النظر إن وضعت العملية التي تمّ التخطيط لها بدقّة قيد التنفيذ أم بقيت على الورق فقط، لذا أرسلوا جنوداً إلى النهر الجليدي لاسترداد الطائرة وكلّ ما تحتويه،

متوخّين عدم جذب الانتباه الإعلامي قدر الإمكان، ويمكنك أن تتخّيل ما قد يحدث إذا تبيّن أنّ ذلك صحيح».

«وإذا نقلنا نظرية المؤامرة خاصّتنا إلى الصحافة...»

«سنصبح سخرية الجميع لا أكثر، يوليوس».

لم ينطق أيّ منهما بأيّ حرف، بل جلسا في المحيط اللطيف في ردهة المستشفى المزيّنة بالأزهار الاصطناعية التي تبعث الراحة في النفس، وهما يمعنان التفكير في مصيريهما والمستقبل الغامض الذي ينتظرهما.

45

ريكيافيك: شهر آب

مرّت الأيّام فالأسابيع والشهور، وخبت جذوة الغضب الإعلامي الناجم عن إطلاق الجيش الأميركي النار على فريق إنقاذ آيسلندا، وقد أمضت كريستين معظم الوقت في المستشفى برفقة إلياس الذي سرعان ما استعاد وعيه، وتمكّن من إخبارها بلقائه براتوف، وتعافى بوتيرة بطيئة لكنّ حالته كانت مستقرّة، وعندما عاد والدهما من الخارج علم بحالة إلياس، ولكنّه لم يكن مهتمّاً بالاستماع إلى التفاصيل الدقيقة.

قال: «كلّ هذا العبث الدموي بسبب عربات الثلج، ألم يحن الأوان بعد لكي تنضجا».

وبعد أربعة أيّام، غادر البلاد للقيام برحلة جديدة.

نقلت كريستين إلى إلياس الأخبار التي تخصّ صديقه جوان، والأمر الذي فاجأها أنّ والديه كانا راضيين بالتفسير الذي قدّمته السلطات لهما حول سقوط الرجلين في أحد الأخاديد، فتناقش كلّ من إلياس وكريستين حول قرار اطلاعهما على الحقيقة، فقرّرا في النهاية أنّ يقوما بذلك. طلبا من والديّ جوان القدوم إلى المستشفى ما إن استعاد إلياس قوّته، وأطلعاهما على ظروف وفاة ولدهما، ومصير قاتله في نهاية المطاف، فقرّرا عدم ذكر أيّ شيء يتعلّق

بالطائرة الألمانية، وعلى الرغم من أنّ إلياس قد شـهد الحادث، وقد أشـارت كريسـتين إلى أنّه من الواضح أنّ الجيش الأميركي لن يعترف بأيّ ممارسـات عنيفـة قـد ارتكبها بحق مواطنين آيسـلنديين، فمـا بالك بجرائم القتل، كما لن يتقدّم أيّ شهود لتأييد هذه الوقائع.

علـى الرغـم مـن ذلك فـإنّ والدي يوهـان صمّما على اكتشـاف الحقيقة، فاسـتدعي كلّ مـن إليـاس وكريسـتين ويوليـوس بصفتهـم شـهوداً، ولكـن كما توقّعت كريستين لم تسفر الادّعاءات التي قدّماها إلى مكتب المدّعي العام، وما تلاهـا مـن تحقيـق عـن أيّ نتائج إيجابية، فلم تعتبر قضيتهم قوية بما فيه الكفاية لمحاكمة المسـؤولين عن ذلك الحادث. وقد أعرب المتحدّثون باسـم الجيش عـن تعجّبهـم مـن الادّعـاءات التـي تزعم أنهـم يأوون قاتلاً فـي صفوفهم، كما تنصّلوا من مسـؤولية إيواء أفراد من قوّة دلتا، أو امتلاكهم طائرة من طراز سـي 17 في البلاد. وطال أمد الإجراءات القانونية، وزجّت وسائل الإعلام بنفسها في نوبة جديدة من نوبات السعار، ولكنّها فشلت في نهاية المطاف في بلوغ هدفها.

لـم يتـمّ حـلّ قضيـة مقتـل رونولفور حتّى الآن، وقد اسـتدعت الشـرطة كريسـتين مـرّة تلـو الأخـرى للتحقيق في هذه القضية وتمّ إجراء بحث شـامل لجمع الأدلّة، ولكنّها أصرّت بعناد على براءتها، وخلصت الشرطة بعد تحقيق طويـل الأمـد، إلـى أنّـه لا أدلّـة كافية لمقاضاتها، واتّخذ قـرار عدم إدانتها بناء على توصية المحقّقين اللذين تولّيا القضية، وكان أحدهما رجلاً متعاطفاً مع قضيّتها، سبق أن تحدّثت إليه كريستين عبر الهاتف في أثناء وجودها في مزرعة جون، وقد وصلت التحقيقات في القضية إلى طريق مسدود يفصل بين الشرطة الآيسلندية وقوّات الدفاع في كيفلافيك.

وبعد وقت طويل أعلن عن العثور على ستيف على مسافة غير بعيدة من قاعة سـينما أندروز في القاعدة، وأنّ مسـلحاً مجهول الهوية أطلق النار على رأسه، ونُقلت جثّته إلى الولايات المتّحدة ليدفن في مسقط رأسه.

ولم تتحدّث كريستين عن سرّ الطائرة خلال كلّ الإجراءات القانونية التي شاركت فيها طيلة الأعوام السابقة، ولكنّها قرأت في أوقات فراغها تاريخ ألمانيا النازية وسقوط الرايخ الثالث. ومن الأحداث التي أثارت دهشتها، اكتشافها أنّ العديد من النظريات المختلفة طفت إلى السطح على مرّ السنوات، ومن بينهما ما يتّصل بمصير أدولف هتلر، فعرفت أنّه أوصى بإحراق أشلاء جثّته في حصن برلين عندما استولى السوفيات على المدينة، وبعد الحرب شكّك الكثيرون في أن يكون ذلك هو المصير الذي لقيه حقّاً، كما علمت بأنّ تقرير الطبيب الشرعي الذي نشره السوفيات بعد وفاته في الثلاثين من نيسان عام 1945، خلص إلى أنّ الجثة قد تعود إلى هتلر، ثم زعموا بعد انتهاء الحرب مباشرة أنّهم قارنوا جمجمته بسجلّات أسنانه فتأكّدوا من أنّها تعود إليه. ورغم ذلك فقد أعلن ستالين في أثناء اجتماع القمّة في بوتسدام في تموز من عام 1945 أنّ الروس يجهلون مصيره، وقد حصل ذلك قبل وقت طويل من انتشار الشائعات التي تدور حول احتجازه أسيراً في القطاع الذي احتلّه البريطانيون في برلين، ولم يتمّ العثور على جثّته، حتّى إن ستالين لمّح إلى أنّه ربما يختبئ في إسبانيا أو أميركا الجنوبية، وقد أدّى ذلك إلى ظهور مجموعة من التخمينات الجامحة حول إقامته في دير أسباني أو في مزرعة أميركية جنوبية. وقد صادفت كريستين نظرية أخرى مفادها أنّ البريطانيين وضعوه على متن غواصّة وأخذوه إلى جزيرة نائية، والواقع أنّ ستالين شكّ في نهاية الحرب في انخراط البريطانيين في محادثات سرّية مع الألمان.

كما قرأت اقتباساً نُقل عن هتلر يقول فيه إنّه في النهاية لن يملك سوى صديقين، وهما إيفا برون وكلبه بلوندي.

جلست في المطبخ لتناول عشاء بسيط في إحدى أمسيات الصيف، بعد مرور ستّة أشهر تقريباً على الأحداث المؤلمة، وسرحت بأفكارها، كما يحصل في كثير من الأحيان، إلى النهر الجليدي وما حدث على سطحه،

وتذكّرت حينها قصاصة الورق التي عثرت عليها في جيب سترتها، ففي ذلك الوقت قد عمدت إلى إفراغ الملابس الملطّخة بالدماء قبل أن ترميها، وخبّأت كلّ ما وجدته في درج المطبخ لتبقى محفوظة بأمان من دون أن تمسّها أيّ يد. نهضت وتوجّهت نحو المكان الذي وضعتها فيه، وفتحت الدُرج، وفتّشت بين الأغراض المتراكمة إلى أن عثرت على قصاصة الورق المنشودة، وفتحتها وبدأت تقرأ الكلمات مجدّداً، **عملية نابليون**. كانت جزءاً من الوثيقة التي عثر عليها جون مع جثّة الضابط الألماني، ووضعتها تحت ضوء ساطع، محاولة فكّ شيفرة بقية أجزاء النصّ المكتوب.

لم تتمكّن سوى من قراءة كلمات غريبة، إلّا أنّها قد كُتبت جنباً إلى جنب وبعد محاولات حثيثة استطاعت استخراج بعض الكلمات غير المفهومة، ودوّنت ملاحظاتها حولها، بعد أن نسخت كلّ ما أمكنها نسخه، ولجأت إلى صديق في وزارة الخارجية عمل دبلوماسياً في ألمانيا، فطلبت منه أن يترجم النصّ إلى الآيسلندية، وأن يملأ الفراغات بأفضل ما يمكن إذا وجد إلى ذلك سبيلاً، من دون إخباره بحقيقة الموضوع، أو بالمكان الذي حصلت فيه على النصّ أو من أيّ جزءقد اقتُطع، وراقبته من خلف كتفيه، وهو يبذل قصارى جهده لترجمته وتوقّع المعنى من خلال السياق، رغم أنّه لم يستطع أن يقدّم أيّ اقتراح حول النصّ الذي انتمت إليه:

... وُضع على شاطئ جزيرة نائية خارج أقصى نقطة في جنوب الأرجنتين، هناك أرخبيل صغير غير مأهول يمكن أن يوفّر موقعاً مناسباً، وعلى الرغم من أنّ هذه الجزر كانت مأهولة في القرون السابقة، إلّا أنّها هُجرت منذ أمد بعيد بسبب مناخها القاسي وتضاريسها القاحلة، وتُعرف الجزيرة التي وضعناها نصب أعيننا باسم «بورن» باللغة المحلّية، الخيار الأخير. أمّا الموقعان الآخران المقترحان **لعملية نابليون**...

هذا كلّ ما ورد فيها.

مكتبة
t.me/t_pdf

أعـادت كريسـتين الملاحظـات معهـا إلى البيت بعـد ترجمة النصّ، ولم تخبـر أحـداً باكتشـافها هـذا، ولا حتّى إلياس أو يوليـوس، وحاولت أن تطرد الفضول من ذهنها، إلّا أنّها لم تنجح في ذلك، فقد بدأت تعتاد على الوضع الجديـد عندمـا صادفت الوثيقة، واسـتحوذت عليها مـن جديد ذكريات النهر الجليدي وستيف وقصّة ميلر. وعلى كلّ حال فقد وجدت أنّها لم تكن تفكّر بحكمة في كلّ ما ينبغي لها أن تفعله بعد أن فكّرت مليّاً وحسمت أمرها، لذا وضعت قصاصة الورق في الدرج ثمّ أقفلته.

استيقظت في الساعات الأولى من الصباح، كما اعتادت أن تفعل في كلّ صبـاح منـذ هروبها من النهر الجليدي، وشـعرت بالبـرد والفراغ يحاصرانها، وكأنّ شيئاً قد مات في داخلها.

لـم تسمع شيئاً من كار أو من أتباعه منذ محادثتهما على متن الطائرة في العام الأخير من الألفية المنصرمة، ولكن قد غمرتها قناعة راسـخة بأنّ هناك من يراقبها، أو أنّ شخصاً ما يحضر إلى شقّتها ففتّش بين ملفّاتها في المكتب، وبأنّهـا لـم تكـن وحدهـا. ولم تملك أدنـى فكرة عن هوية كار أو ميلر، أو عن التنظيـم الـذي ينتميـان إليه، ولم تبذل أيّ محاولة لمعرفة ذلك. وفي الحقيقة، قد حرصت على تجنّب القيام بأيّ تصرّف يرتبط بالطائرة والنهر الجليدي.

لقد سيطر عليها ارتياب شديد، وأصبحت مقتنعة بوجود صلة بين إنارتها للضوء في شـقّتها صبيحة اليوم الذي اسـتيقظت فيه على الأريكة، والاتّصال الهاتفـي الـذي تلقّتـه ليحذّرهـا مـن عـدم مواجهة كار. ولا بدّ أنّ شـخصاً ما، أو أكثر من شـخص واحد، قد راقبوا نوافذها وعرفوا متى اسـتيقظتن وأنارت المصبـاح. كمـا راودها إحسـاس في بعض الأحيـان بوجود أحد يراقبها وهي تدخل إلى شقّتها، ممّا جعلها مضطربة بشكل تامّ، على الرغم من أنّها لم تتلقَ مكالمة هاتفية أخرى.

لقـد تبنّـت أسـلوب حيـاة جديد، فلـم تغادر المدينة أبداً، ولم تسـافر في

رحلات إلى الخارج، واتّصفت كلّ العلاقات التي خاضتها بكونها قصيرة الأمد، ولم تسمح لها بأن تدوم على الإطلاق، كما لم تنجب أطفالاً. حتّى إنها لم تسرّ إلى أيّ أحد من دائرة أصدقائها المقرّبين بما حدث فعلاً على النهر الجليدي. توفّي والدها بعد انقضاء فترة وجيزة على الألفية، وقضى نحبه من دون أن يملك أدنى فكرة عمّا مرّ به ابنه وابنته من مصاعب ومخاطر كادت تودي بحياتهما. فقد نفّذت ما خطّطت له، وغادرت الوزارة لتمارس عملاً حرّاً، وعاشت في جوّ هادئ عازلة نفسها عن محيطها، رغم أنها وإلياس ظلّا قريبين من بعضهما، كما استمرّ يوليوس بزيارتها بشكل دوري، وكانا يمضين ساعات في النقاش حول ما حدث على سطح النهر الجليدي، ولكنّ الأمر لم يتعدّ أكثر من التحدّث عنه.

ولم يمرّ يوم واحد إلّا واسترجعت خلاله ذكريات المخيّم وحطام الطائرة والصليب المعقوف والجثث في الخيمة وراتوف والأسرار التي اكتشفتها، ولا تستطيع البوح بها. ومرّت السنوات، لكنّها لم تتمكّن من نسيان الجزيرة المسمّاة بورن، والتي تقع في الطرف الجنوبي من الأرجنتين، مهما بذلت من جهد. فحاولت أن تحجب الذكرى، وأن تقنع نفسها بأنّ المسألة قد انتهت، وأنّ لا علاقة لها بها، إلّا أنّها قد أنشبت مخالبها في كلّ حواسّها، لا بل قد تحوّلت في الواقع إلى هوس اشتدّ مع مرور الزمن، كما لو أنّ عليها وضعّ حدّ للمسالة غير المنتهية بطريقة ما.

وقد دفعها إلى القيام بتلك الخطوة موت ستيف الذي يعود إلى تلك المعرفة التي ما كان عليهما الوصول إليها، وقد فكّرت في ذلك كلّ يوم، ثم استرجعت ذكرى موته مراراً وتكراراً، في أثناء يقظتها أو في أحلامها، فقد ترك موته فراغاً كبيراً في حياتها وجرحاً عميقاً لن يلتئم أبداً، وهي لم تستطع أن تجد حلّاً بأيّ شكل من الأشكال يجنّبها القيام بتلك الخطوة الخطيرة، فليس بيدها من حيلة، وسيكون موت ستيف بلا طائل إذا بقيت القضية طيّ

الكتمان، فتيقّنت بأنّها لا تستطيع الاستمرار وشبح الماضي يلاحقها.

تعرّفت كريستين إلى ربّان سفينة خلال فترة طلاقه، فتقرّب منها ليتمكّن من تجاوز تلك المرحلة، وقد جعلها تفكّر للمرّة الأولى في احتمال خوض تلك المغامرة بشكل جدّي، بعد أن نشأت بينهما صداقة تعمّقت مع مرور الزمن. وقد عمل بصفته قبطاناً لسفينة تجارية، وقد أسرَّ ذات مرة إلى كريستين أنّه ساعد امرأة آيسلندية شابّة على الفرار من زوجها برفقة طفليها عبر تهريبها من البرتغال إلى آيسلندا، وعلى الرغم من أنّ اختيار كريستين وسيلة أسهل لمغادرة البلاد عبر السفر جوّاً إلى الأرجنتين عن طريق إسبانيا أو إيطاليا، ولكنّها لم تجرؤ على المخاطرة بكشف ما خطّطت للقيام به عبر كاميرات المراقبة، وقوائم الركّاب، ومكتب مراقبة جوازات السفر.

لم تقدم على أيّ فعل متسرّع حتّى بعد أن اتّخذت القرار، فحاولت دائماً استخدام النقود بحذر شديد، وعدم استخدام بطاقات الائتمان أو بطاقات الحسومات لعمليات الشراء على الإطلاق لتجنّب الأماكن التي تحتوي كاميرات المراقبة.

كما امتنعت عن التجوّل في بعض الشوارع في وسط المدينة حيث وضعت كاميرات مراقبة، بالإضافة إلى عدم استخدام الإنترنت في منزلها، لتجنّب الكشف عن كلّ ما يحيط بحياتها الاجتماعية التي تخضع للمراقبة.

لقد أعدّت للأمر كما لو أنّها تجهّز للقيام برحلة طويلة، ففي النهاية الجزيرة موجودة على أرض الواقع، وقد حدّدت موقعها بمساعدة الجمعية الجغرافية الملكية البريطانية، وقد زارت موقعها عبر شبكة الإنترنت في المكتبة الوطنية. وتركّزت المعلومات المرتبطة بالجزيرة حول الناحية الجغرافية بشكل رئيسي، ولكن رغم ذلك فقد تضمّنت أيضاً وصفاً موجزاً لتاريخها وإحداثيات موقعها الدقيق، وفكّرت بالسفر إلى أميركا الجنوبية عبر أوروبا، أو السفر إلى هناك عبر مجموعة متنوّعة من الوسائل الأخرى، ولكن ولا أيّ وسيلة منها

يمكن أن توفّر لها السرّية التي تسعى إليها عبر السفر خلسة.

فقرّرت الاستعانة بصديقها القبطان بعد أن أخبرها بأنّه سيبحر قريباً إلى المكسيك لتسليم سفينة صيد آيسلندية إلى مالكها الجديد. في البداية، رفض طلبها لأنّها لم تشرح سبب رغبتها في أن تهرب على متن سفينته، وتتسلّل خلسة إلى شاطئ في المكسيك، ولم يتعلّق الأمر بعدم اعتياد القبطان على نقل الركّاب ــ فلطالما تعرّف إلى أشخاص يخشون الطيران ويفضّلون الإبحار على متن السفن التجارية ــ إلّا أنّه لم يرد أن تربطه صلة بأيّ عمل غير قانوني.

لم تعرف السبب الذي دفعه إلى تغيير رأيه، لكنّه أتى ذات يوم ليخبرها بأنّه سيساعدها إن كان هذا ما تريده، وقال له إنّه يقوم بذلك كونها طلبت ذلك منه بصفته صديقها، ولا يمكنه أن يردّها خائبة.

تردّدت حتّى اللحظة الأخيرة في خوض هذه المجازفة، ولكن في النهاية، علّلت نفسها بأمل الوصول إلى غايتها، ولا سيّما أنّها تشارف على بلوغ الأربعين، وإن لم تقم بهذه الرحلة الآن فلن تقوم بها أبداً، والشخص الوحيد الذي أخبرته بسفرها كان شقيقها إلياس، لأنّها لم ترغب في توريط يوليوس، كما فعلت مع ستيف. كان في وسعها أن تتعامل مع أخيها بسهولة، أمّا يوليوس فيصعب إقناعه بعدم مرافقتها.

أبحرت السفينة في الصباح الباكر، ووقفت على سطحها، وهي تراقب انحسار اليابسة وهي تغوص خلف الأفق، كان ذلك في فصل الصيف، فلفحت الشمس التي أشرقت منذ بضع ساعات وجهها، وقد اتّسمت الرحلة بالهدوء، وعندما رست السفينة في بلدة صغيرة على الساحل الشرقي للمكسيك تمكّنت من الوصول إلى الشاطئ من دون المرور بمكتب الهجرة، بعد أن أمضت وقتها مستمتعة بمحادثات طويلة مع القبطان خلال تلك الرحلة، ثم افترقا وهما على وفاق تامّ.

اختارت سيّارة مناسبة لرحلتها، ودفعت ثمنها نقداً، ثم انطلقت جنوباً

عبر المكسيك مثل أيّ سائح آخر، فأقامت في فنادق عديدة، وزارت مواقع تاريخية مختلفة، وتنزّهت في الحدائق العامة مستمتعة بالمناظر الطبيعية، وتذوّقت المأكولات المحلّية، فأثار إعجابها حسن الضيافة في تلك البلاد. لقد شعرت خلال الرحلة بالاسترخاء بعد أن سمحت لنفسها بأن تشعر به بعد مرور وقت طويل من التوتّر، وكان من المبهج معاودة السفر من جديد.

وصلت إلى بوينس آيرس بعد ذلك بعدّة أيّام. وكان قد حلّ المساء في الوقت الذي وصلت خلاله إلى العاصمة، فعثرت على غرفة في فندق أسعاره مقبولة، واشترت خريطة طريق مفصّلة، ووضعت عليها علامة على طول الخطّ الممتدّ جنوباً، وكانت على ثقة بأنّ أحداً لا يتعقّبها، وبأنّها ستتمكّن من الوصول إلى الأرجنتين من دون أن يتمّ ملاحظتها.

غادرت بوينس آيرس بعد يومين، بعد أن باعت السيّارة، فاجتازت الجزء الأوّل من الرحلة عبر الطائرة، لتحطّ في فترة ما بعد الظهر من ذلك اليوم في كومودورو ريفادافيا وسط باتاجونيا، واشترت هناك تذكرة حافلة، وتوقّعت أنّ الرحلة إلى جنوب البلاد ستستغرق ثلاثة أيّام أخرى، فامتدّ القسم الأكبر من الطريق على طول الساحل، ومكثت الليلة الأولى في كاليتا أوليفيا. وفي اليوم التالي سافرت عبر التجمّعات الزراعية في فيتزروي وجارميللو، وتوجّهت من هناك نحو الجنوب عبر ريو شيكو، واستخدمت العبّارة لتقطع مضيق ماجلان إلى مدينة سان سيباستيان في بويرتو هاربرتون، وهي مدينة يبلغ عدد سكّانها حوالي 15 ألف نسمة وتقع شمال الحدود التشيلية مباشرة.

وصلت قُبيل المساء، وأقامت في غرفة في فندق صغير، وفي اليوم التالي، توجّهت إلى الميناء فعثرت على بحّار يتكلّم بعض الإنكليزية، وكان في الخمسينات من عمره، ملتحياً وبلا أسنان، وقد ذكّرها بصيادي آيسلندا، ممّا أشعرها بالراحة والسعادة، فسألته عن موقع الجزيرة، فأومأ برأسه إليها، ورفع ذراعه على شكل قوس إلى مسافة بعيدة كما استنتجت منه، فساومته

على المبلغ لقاء إيصالها إلى الجزيرة، واتّفقا على الاجتماع في وقت مبكر من صباح اليوم التالي.

أمضت اليوم وهي تتجوّل في أرجاء المدينة، مستكشفة المتاجر والأسواق فيها، ولاحظت وجود سيّاح آخرين، لذا توخّت الاختلاط بهم، والتقت بعدد لا يحصى من السيّاح في أثناء رحلتها، رغم أنّ الرحلة التي تقوم بها لم تكن في الموسم المفضّل للقيام بالرحلات، فكانت تلتقي بمعظمهم وهم يتفحصون الملابس قبل شرائها، أو يتسكّعون في المقاهي، بغضّ النظر عن حالة الركود السائدة.

انتظرها الصياد عند الميناء في الصباح التالي، وكان اليوم هادئاً للغاية، وقد أبحرا في قاربه الصغير، فداعب هواء دافئ بشرتها، وكانت قد دفعت نصف المبلغ مقدماً، بعد أن اتّفقا على حصوله على باقي المبلغ عند عودتهما. وحاولت أن تستفسر عن تاريخ تلك الجزيرة، ولكنّه بدا غير مهتمّ على الإطلاق، فأوجز الحديث بقوله إنّه لا يعرف شيئاً عن بورن، وإنّه لا يوجد ما يمكن معرفته.

شقّا عباب البحر بسلاسة، فكانت الرحلة التي استمرّت خمس ساعات مريحة، فمرّا بالصخور والجزر والأرخبيل، وفي النهاية نكزها، وأشار إلى الأمام، فشاهدت الجزيرة وهي تبزغ من خلف البحر، وتحيط بها بعض الشعاب الصخرية الصغيرة. وقد ذكّرتها تلك الجزيرة بالجزيرة الآيسلندية الوعرة درانغي، وإن لم تكن على مستوى الارتفاع نفسه، كما بلغت ثلاثة أضعاف حجمها على الأقلّ، وهي عبارة عن صخرة غير صالحة للسكن، وتنمو فيها بعض النباتات، ولكن من دون وجود أيّ أثر للطيور أو للكائنات الحيّة الأخرى على الإطلاق. وقد غلّف الجزيرة الصمت المطبق، دار حولها الصيّاد حتّى عثر على مكان يمكن لكريستين أن تتسلّق المنحدرات عبره، بينما فضّل البقاء في القارب في انتظار عودتها.

لـم تواجـه أيّ صعوبـة فـي التسـلّق، فقد امتـدّ طريق مفـروش بالحصى من الشـاطئ إلى المنحدرات حيث وجدت هناك انحناء يسـهل التسـلّق عبره إلى القمّة، كما شـاهدت عند وصولها إلى الهضبة، بعض الأطلال في وسـط الجزيرة، فاتّجهت نحوها، ولاحظت مع اقترابها وجود جدران خشبية متهدّمة، وعتبة باب، جالت بينها فلاحظت شـيئاً ذكّرها بموقد قديم في المطبخ، فقد كانت الجزيرة مسكونة بالفعل منذ قرون سابقة.

مشت بين الأطلال، باحثةً بعناية عن أيّ دليل يدعم شكوكها، ولكن من دون جدوى، فلم تجد هناك أيّ شيء ببساطة. وتفاجأت بأنّ هذا لم يولّد لديها أدنى إحساس بالإحباط، بغضّ النظر عن الرحلة الطويلة التي قطعت خلالها نصـف العالـم تقريباً. سـارت بعد ذلك على طـول الجزيرة إلى حافة الهاوية، وحدّقت إلى الأمواج التي تكسّرت على المنحدرات، بينما داعب نسيم البحر وجهها، وللمرّة الأولى منذ سنوات، شعرت بأنّ العبء قد انزاح عن كاهلها.

استدارت وعادت أدراجها متعقّبة خطواتها عبر الأطلال، فتعثّرت بحجر مدفون بين العشب الطويل بعد اجتياز مسافة قصيرة، وهي في طريق عودتها إلـى القـارب الـذي ينتظرهـا، فنظـرت إلى الأسـفل وهي على وشـك أن تهمّ بمتابعـة طريقهـا- لابـدّ أنّ الصياد يرغب في الرحيل- عندما لاحظت شـكلها الغريـب، فهـي لـم تبـدُ كصخرة عاديـة، بل كانت حادّة، ويبلـغ طولها حوالي نصف متر، ومربّعة الشكل في الأسفل ودائريّة في الأعلى، فنظرت إلى الأسفل والحيرة ترتسـم على وجهها، قبل أن تجثو وتحاول قلبها، فنجحت بعد بذل بعض الجهد في رفعها، فبان طرفها على الرغم من ثقل وزنها، ثم تركتها تسقط من جديد ليظهر الجانب الآخر.

حدّقـت إليهـا، وفركـت التـراب المتراكم عليها بأصابعها، وقرأت نقشـاً بدائياً محفوراً عليها:

بلوندي.

مكتبة
t.me/t_pdf

ولد أرنالدور أندريداسون في ريكيافيك في 8 يناير 1961، وهو ابن الكاتب إندري ج. أورستينسون. حصل على شهادة في التاريخ من جامعة أيسلندا (Háskóli Íslands) في عام 1996. عمل كصحفي في صحيفة Morgunblaðið من 1981 إلى 1982، ثم ككاتب مستقل. من 1986 إلى 2001، كان ناقدًا لفيلم Morgunblaðið.

صدر كتابه الأول، أبناء الغبار (Synir duftsins) في عام 1997، وهو الأول في سلسلة المحقق إرلندور. لم تتم ترجمة أول روايتين في السلسلة إلى اللغة الإنجليزية. وشملت هذه السلسلة 14 رواية. يعتبر أرنالدور من أكثر الكتاب شهرة في أيسلندا في السنوات الأخيرة يتصدّر قوائم الكتب الأكثر مبيعًا مرارًا وتكرارًا. في عام 2006، تم تحويل روايته إرليندور Mýrin إلى فيلم، والمعروف دوليا باسم Jar City، من قبل المخرج الآيسلندي Baltasar Kormákur.

تم نشر كتب أرنالدور في 26 دولة وترجمت إلى 40 لغة على الأقل.

مكتبة
telegram @t_pdf

تلقت كريستين اتصالاً من شقيقها الذي كان مع صديقه برفقة فريق الإنقاذ على النهر الجليدي. أخبرها عن رؤية جنود أميركيين وانقطع الاتصال... بعدها زار شخصان منزلها، قتلا ضيفها غير المرحّب به، وفشلا في قتلها. فجأة تغيرت حياتها، وأصبحت مُطاردة من دون أن تعرف السبب. ولم تعرف الجهة التي تطاردها، ولم تعرف أيجدر بها الاتصال بالشرطة أم الفرار منها؟.

بعد أن حصلت على مساعدة من حبيبها السابق، وهو أميركي يعمل في القاعدة الأميركية في آيسلندا، بدأت تتكشف لهما حقائق مذهلة. أولاً تبين أن هناك قوات خاصة أميركية على الأراضي الآيسلندية لا تعلم الحكومة بشأنها، ثم تبيّن أن هذه القوات تقوم بمهمة في غاية السرية. ولكن ما طبيعة هذه المهمة؟، ولماذا تحاط بهذه السرية؟، وهل هي متعلقة بسلاح فيروسي موجود في آيسلندا؟ أم بقنبلة هيدروجينية بدائية الصنع تعود إلى أيام الحرب العالمية الثانية؟، وما علاقة الأمر بطائرة يسعى الجيش الأميركي لاسترجاعها؟، هل تحتوي الطائرة على ذهب يعود للنازيين أم هي مرتبطة بأمور أخطر وأكثر أهمية؟، ولكن الأهم من كل هذا ما الذي ترمز إليه عملية نابوليون؟ وما الهدف منها؟

صدر أيضاً للمؤلف:

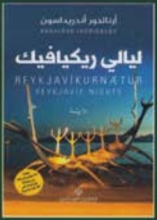

ثقافة THAQAFA
للنشر والتوزيع ذ.م.م.
Publishing & Distribution L.L.C.

جميع كتبنا متوفرة على الإنترنت
في مكتبة نيل وفرات.كوم
www.nwf.com

ISBN: 978-9948-25-792-9